مجلة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الرباط

العدد السادس والعشرون

2006

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلـــــــة : مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط
العـــــــدد : السادس والعشرون 2006
منشـــــورات : كلية الآداب بالرباط
مطبعـــــة : النجاح الجديدة - الدار البيضاء
الحقـــــوق : © محفوظة للكلية بمقتضى الفصل 49، ظهير 1970/7/29
ردمـــــك : ISBN 0851 - 1160
الإيداع القانوني : 1977/1
الطبعة الأولى : 2006/1427

فهرس المحتويات

بحوث أساسية

– فكرة التقدم العلمي، لدى بديع الزمان الأسطرلابي والسموأل المغربي
بناصر البعزاتي 9

– مكونات المعرفة الاجتماعية وأبعادها
خلود السباعي 33

– آثار الفينيقيين والقرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين الواقع والوهم
حليمة غازي بن ميس 69

– "ووصلنا على بركة الله إلى ايكْيليز" حول تحديد موقع ايكيليز هرغة، حصن المهدي بن تومرت
جان بييرفان ستايفل وعبد الله فلي 91

– مقاومة الشريف محمد أمزيان لمشروع الاستغلال الاقتصادي الإسباني بالريف الشرقي
رشيد يشوتي 125

– المغاربة والبحر، نموذج آيت باعمران
الحسين جهادي 145

– كيف كانت سلا تختار رياس قوارب الحوت بنهرابي رقراق في بداية القرن 20؟
عز المغرب معنينو 157

– المنطلقات العقيدية والفكرية في شعر المعري : المكونات والتجليات
علي الشوملي – خالد الهزايمة 167

– مناخ الأندلس في العصر الأموي، خصائصه من خلال النصوص
محمد حقي 203

دراسات وعروض ببليوغرافية

– قضايا المياه في المدينة الأوربية خلال العصر الوسيط من خلال آخر أبحاث J.P. Leguay
محمدحناوي 219

– بعض مخطوطات بلاد السودان في المغرب
حسن الصادقي 251

– رجال من كلية الآداب بالرباط في ذمة الله 265

بحوث أساسية

فكرة التقدم العلمي لدى بديع الزمان الأسطرلابي والسموأل المغربي

بناصر البعزاتي
كلية الآداب /الرباط

تقديم

عندما يحصل نموّ في المعارف يلمس المتعلّمون نتائجَ التراكم المعرفي وأشكاله، من خلال تبدّل في المحادثة اليومية؛ ويسجّل المفكرون أنّ تصورات جديدة قد تكوّنت وتجاوزت تلك التي سادت في فترات سابقة.

وسنقدّم في هذا المقال القصير نصّيْن من كتابيْن لعالِميْن عاشا خلال القرن الثاني عشر/السادس الهجري، هما: بديع الزمان أبو القاسم هبة الله بن الحسين البغدادي الأسطرلابي المتوفى عام 1139/534 وأبو نصر السموأل بن يحيى بن عباس المغربي، المتوفى حوالي 1180/576، يتحدّثان عن الاغتناء الذي حصل في المعارف العلمية خلال القرون الثلاثة قبل هذه الفترة، ويبيّنان سبل انتقال الأفكار والمشاكل التي قد تعترض تنقّلها.

قدّم الدارسُ المؤرّخ فرانتس روزنتال فكرة مختصرة عن هذين النصيْن في مقال صدر بمجلة أُزيرِسْ عام 1950. لكن لم ينشر منهما إلا ترجمة لبعض الفقرات القصيرة التي تتحدث عن التقدّم العلمي[1]. وفي علمي أن النصيْن لم يُنشرا بعد، وهما مخطوطان في خزانة بدليان بأكسفورد: نص الأسطرلابي تحت رقم 663، صفحات 163-189؛ ونص السموأل تحت رقم Hunt. 539 (Uri 964) ولكتاب السموأل نسخة مخطوطة أخرى في ليدن، وهي الأقدم، تحت رقم Or. 98.

Franz Rosenthal, 'Al-Asturlābī and as-Samaw'al on Scientific Progress', *OSIRIS*, vol.9 (1) 1950, pp. 555-564.

1. تقديم حول الأسطرلابي وكتابه

عاصر بديع الزمان الأسطرلابي علماء أفذاذاً مثل عمر الخيام، البارع في علم الجبر، وأبا الفتح الخازني، البارع في الميكانيكا وصاحب كتاب **ميزان الحكمة** المؤلَف عام 1121/515؛ ويمثلون فترة عرفت خصوبة علمية مهمّة. الأسطرلابي طبيب وعالم وفيلسوف ومتكلم؛ شارك في التواصل العلمي، لكنه لم يقدّم أفكاراً جديدة مهمّة. وكان له ميل إلى ممارسة مهذّبة للتنجيم. اهتمّ بعلوم زمانه، خصوصاً علم الفلك؛ ويلاحظ أن أجيالاً تساهم في نموّ المعارف، وأن اللاحق يكتشف ثغرات في إنجازات السابق، فيطوّر الصائب منها، ويصحّح الخاطئ، ويبيّن الغامض من الأسئلة.

والأسطرلابي صاحب **كتاب العمل بالكرة**؛ وهو حول استعمال الأسطرلاب في رصد مطالع الكواكب وضبط مواقعها وانتقالاتها. وما يهمنا منه هو المقدّمة التي يتحدث فيها عن تطور الأفكار العلمية عند المتأخرين، أي عند العلماء من الأجيال السابقة عليه؛ وهي التي سننشر هنا[2].

قدّم الأسطرلابي فكرة عن ضوء الأجرام، في الباب الثالث، المعنون "في معرفة الارتفاع استنباطي دأ"، كما يلي: «معلوم أنّ كل جسم كُريّ إذا قابَلَ جِرْماً نيّراً، فإنّ الكُريّ يُضيء مِنه نِصفَه؛ وإذا كان في ذلك قولٌ، وهو أنّ الجسم النيّرَ إذا كان أعظمَ مِن الجسم الكريّ، فإنّ الإضاءة تَكون على أكثر من النِصف الكريّ؛ وإن كان الجِرم النيّر أصغرَ كانت الإضاءةُ على أقلّ من النِصف الكريّ؛ وإذا كانا متساويْن كان نِصفُه فقط مَضيئ دأ». ولكن، لِكَوْن هذه الكرة ليس لها إلى جِرم الشمس نِسبةٌ لا يُلتفت إلى هذا، فمعلومٌ أنّا متى قابلْنا بهذه الكرة الشمسَ، فإنّ نصفَها الذي يلي الشمس يكون مضيئاً أبداً. فلنتوهّمْ أنّا نصَبنا هذه الكرة مع طلوع الشمس مِن الأفق، فمعلوم أنّ نصفها يكون مضيئاً، ويكون الفصلُ المشترك بين الإضاءة والظُلمة قائماً على سطح الأفق قياماً لا ميْل فيه، ويكون ماراً بسِمْت الرأس. فكلّما ارتفعت الشمسُ مِقدارَ ما حالَ[3] ذلك عن سمت الرأس بمقدار ما

(2) أشكر الأستاذ داڤد كنگ (David A. King)، أستاذ تاريخ علم الفلك في العصر الوسيط، خصوصا علم الفلك الإسلامي، بجامعة فرنكفورت بألمانيا، الذي أمدّني بنسخة مصوّرة من مخطوط الأسطرلابي المذكور.

(3) يجوز أن نقرأها "مَالَ"، لكن "حَالَ" هنا قريبة المعنى من "مَالَ" كثيراً.

ارتفعت الشمس؛ فإذا أردْنا أخْذ الارتفاع نصَبْنا الكرة في الشمس وأدَرْنا المِرْفعَ حتّى يُظلّل النصفَ دائرةً نفسَه؛ فإذا أظلل نفسه أخذْنا شخصاً وألصقْناه مع سطح الكرة في النصف المقابل للجهة التي فيها الشمسُ، وحرّكنا ذلك الشخص مع وجه نصف الحلقة، ونبتدئ مِن أسفل النصف، فإنّا سنرى الظل على ذلك؛ ولا نَزالُ نرفعه ونحنُ نُجريه على سطح الكرة مع وجه النصف إلى أنْ نرى الظل قد انقطع موضع انقطاعه عند كمّ من العدد النصف، نعُدّ، فما كان فهو الارتفاع؛ فافهم ذلك»[4].

وكتب في الباب السادس المعنون "في معرفة ما دارَ من أجزاء معدَّل النهار منذ طلعت الشمس وإلى وقت القياس"، ما يلي: «إذا أردنا ذلك، جعلنا أجزاء الشمس على الأفق، ثم علَمنا مع وجه الأفق على دائرة معدَّل النهار علامةً، ثم جعلنا حينئذ مع وجه الأفق على دائرة معدل النهار علامةً أخرى، وعددْنا ما بين العلامتين، فما كان فهو ما دارَ مِن الفلك»[5].

وكتب في الباب الرابع عشر المعنون "في معرفة غاية طول النهار في أيّ بلد شئنا"، ما يلي: «إذا أردت ذلك فانصب الكرة على ذلك العرض، ثم ضع رأس السرطان على أفق المَشرق، وحأ علَم على دائرة معدل النهار مع وجه الأفق علامةً، ثم أدِر الكرةَ حتّى تجعل رأسَ السرطان على أفق المغرب؛ وحأ علَم على دائرة معدل النهار وعلى أفق المشرق علامةً أخرى، وعُدَّ ما بين العلامتين، فما كان فاقسمْه على خمسة عشر، فما خرج فهو ساعاتٌ، وما بقي فجزء من خمسة عشر»[6].

وكتب في الباب الثامن عشر المعنون "في معرفة قوس نهار أي كوكب شئنا"، ما يلي: «إذا أردنا ذلك، وضعْنا ذلك الكوكب على أفق المشرق، ثم علَمنا على دائرة معدل النهار نقطةً، ثم أدَرْنا الكرة حتى نجعل الكوكب على أفق المغرب، ونعلِم على دائرة معدل النهار على أفق المشرق علامة أخرى، ونعدّ ما بين العلامتين، فما كان فهو قوس نهار ذلك الكوكب؛ وهذا يختلف بحسب اختلاف العُروض. فإذا

(4) الأسطرلابي، **كتاب العمل بالكرة**، ص ص. 173–174.
(5) الأسطرلابي، **كتاب العمل بالكرة**، ص ص. 174–175.
(6) الأسطرلابي، **كتاب العمل بالكرة**، ص. 179.

أردتَ ذلك في بلدٍ مفروضٍ، فتحتاج أنْ تنصَب الكرة على ذلك العرض، وتفعلَ ما ذكرْنا»[7].

وكتب في الباب الرابع والعشرين المعنون "في معرفة أيّها من الكواكب الثابتة تطلع معاً وتتوسّط معاً وتغرب معاً في كل واحد من الأقاليم"، ما يلي: «أمّا في خط الاستواء، فيصحّ أن تكون جماعة من الكواكب التي تطلع معاً، فهي التي تتوسّط السماءَ معاً وتغرب معاً؛ وإذا نصبتَ الكرة على خط الاستواء، وأدرتَ الكرة حتى تصير على حلقة نصف النهار، صارت معهما؛ وكذلك إذا وُضعت على أفق المغرب وافتْهُ معاً؛ فأمّا في غير خط الاستواء، فلا يمكن أن تكون الكواكب التي تطلع معاً تتوسّط السماءَ وتغرب معاً. فإذا أردت أن تعرف ذلك في عرض آخر، فانصَب الكرة على ذلك العرض، وأقِم النصفَ حلقة مقامَ دائرة نصف النهار، كما تقدّمَ، وانظر ما على وجه الأفق من الكواكب في جهة المشرق، فهي الكواكب التي تطلع معاً في ذلك العرض، وما على وجه الأفق من جهة المغرب فهي التي تغرب معاً في ذلك العرض»[8].

2. مقدّمة كتاب الأسطرلابي

{ص. 164} بسم الله الرحمن الرحيم

ربّ أعنْ برحمتك

الحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيّه سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله الطاهرين وأصحابه المنتخَبين.

لمّا كان علم هيئة الأفلاك وتراكيبها وحركاتِ الكواكب وترتيبها من أشرف المعلومات وأصدق المصنوعات، وكان القدماء قد أكثروا فيه التصانيفَ، ووضعوا له الآلات التي تحكي صوَرُها صوَرَ الأفلاك، والآلات التي وقفوا بها على هيئاتها؛ وكان مِن أشرف ما استنبطوه وأفيَد ما عنوْا به الكرةُ التي تحكي بصورتها صورةَ فلك البروج بجميع كواكبه وسائر صوره، وهي الآلة التي وقفوا بها على اختلاف الليل والنهار في سائر الآفاق عياناً، وعلموا كيف يكون الليل والنهار متساويين أبداً

(7) الأسطرلابي، **كتاب العمل بالكرة**، ص. 180.
(8) الأسطرلابي، **كتاب العمل بالكرة**، ص. 182.

في مواضع[9] من الأرض، وهي المواضع التي على خط الاستواء، وكيف تزايُد النهار والليل في مواضع من الأرض إلى أن يبلغ كلُ واحدٍ منهما أربعاً وعشرين ساعة ؛ وكيف يتفاوتُ الأمرُ في ذلك إلى أن تكون الشمس في مواضع من الأرض تطلع بعضَ شهور السّنة دائماً وتغرب بعضَ شهورها دائماً، وفيما بين هذين تطلع وتغرب تمام السنة ؛ وكيف يتزايد ذلك إلى أن تكون الشمس في مواضع من الأرض ستّة أشهر طالعةً وستّةً غاربة. ثم عرفوا بهذه الآلة كيف يختلف طلوعُ البروج على سكّان الأرض بعضها منتصِباً وبعضها مائلاً، حتى يبلغ الأمرُ في ذلك إلى[10] أن يطلع بعضُ البروج معكوساً، فيطلع الثورُ قبل الحمَل والحمل قبل الحوت. ثم عرفوا بهذه الآلة كيف يختلف طلوعُ الكواكب وغروبُها على سكان الأرض، وكيف يُرى بعضُها في بعض الآفاق طالعاً أبداً في سائر الليل، وكيف تكون كواكبُ غاربةً أبدا، وكيف يطلع بعضها في بعض ليالي السنة ويحتجب في باقيها وكيف تُرى جميعُها طالعةً وغاربةً في مواضع من الأرض، وكيف يُرى بعضُها طالعا في ناحية المغرب في أوائل الليل ثم يغرب طالعا في المشرق في أواخره ؛ إلى معانٍ أُخَر يطول شرحها، سنذكرها عند العمل بهذه الآلة.

ثم إن بطلميوس[11]، لِعلمه بشرف هذه الآلة وعِظم منافعها، قد أفرد لها ذِكراً في كتاب **المجسطي** في أوّل القول السابع منه ؛ وذكَر كيف تعمَل، ورصَد لأجلها جميعَ الكواكب الثابتة الداخلة في الأقدار الستّة، وركّب لها جداول ذكَر فيها أطوالَها وعُروضَها ومواضعَها من أعضاء الصور، ونسَب كلَ واحد منها إلى المِقدار الداخل فيه ؛ كلُ ذلك تكلّفه لأجل عمل هذه الآلة، ورسم الصور والكواكب عليها، ليتبيّن بها ذلك الاختلافُ وتلك الخواصّ المقدّم ذكرها ليعظُم الجدوى بها. ثم تلاه المتأخرون فأكثروا العناية بها دون غيرها، وإن كان غيرُها من الآلات إنما

(9) في النص "موضع".

(10) في النص "الا".

(11) هو كـلاوديُسْ بطلميوس (Κλαυδιος Πτολεμαϊος) الذي عاش حوالي 90 -170 بعد الميلاد. الإسم الأصلي لكتاب **المجسطي** هو كتـاب المـؤلَف الرياضي (μαθηματυκτη συνταξις) أو المؤلَـف الكبير (μεγαλη συνταξις) أو المـؤلَف الرياضي الكبير. لكن لا يحتوي **المجسطي** كل الأرصاد وكل التصورات التي كانت تصبّ في دعم فرضيات كسمولُجية منافسة لتصوّره، بل انتقى ما يماشي التنسيق المفروض، خصوصا ما بناه الفلكي إيِّرْخُس (Ιπαρχος) خلال القرن الثاني قبل الميلاد.

عني بها لأجلها ؛ حتى بلغ الأميرَ عضد الدولة، فأمر أبا الحسين الصوفي[12] أن <ي> حقق له مواضع الكواكب الثابتة، فعمل له كتاب الصور المشهور الذي لم يُعمل مثلُه؛ ورسم فيه الصور الثمانية {ص. 165} والأربعين على وضعيْن، أحدهما على ما يُرى في السماء والآخر على ما يُرى في الكرة. ثم أمره بعد ذلك أن يصنّف له كتاباً في العمل بالكرة ؛ فعمل له كتاباً استوفى فيه جميع أعمالها، وبلغ بعضد الدولة صدقُ اللهج بهذا الكتاب أنْ كاتَب أبا الفضل بن العميد أمَره في أن يصنّف لهذا الكتاب خُطبة وصدرا، فكتب إليه ابنُ العميد جوابا هو موجود في جملة رسائله.ثم لمّا كان المتقدمون إنّما تَفاضَلوا بما تأتّى لهم من استنباط الأصول[13] وإصابة المعاني[14]، فإن المتأخرين[15] يتفاضلون بتكثير الفروع[16] وتقريب البعيد[17]

(12) هو أبو الحسين عبد الرحمن بن عمر بن محمد المعروف بالصوفي البرّاز الرازي، توفي عام 376 هـ / 986 م. ألّف كتاب **صور الكواكب الثمانية والأربعين** (نشر بحيدر آباد،1954) وكتاب العمل بالأسطرلاب، ورسالة في **العمل بالأسطرلاب** (نشرتهما ايسيسكو،1995).

(13) لا شك أن القدماء، خصوصا المنخرطين في التقاليد الفكرية الإغريقية، قد وضعوا أسس النظر العلمي، لِما توفر من مناخ ثقافي يتميّز بالتعدد المذهبي؛ فكان التعدد وراء تطور الجدل الفلسفي الذي برزت العلوم في أحضانه قائمة على أصول صلبة. ومن العلوم التي بلغت شأوا ملحوظا لدى القدماء الإغريق: الحساب والهندسة والفلك والموسيقى والمنطق والطب، وبعدها بزمن يسير علما البصريات والميكانيكا بدرجة أقل قليلاً.

(14) لم تكن المعارف العلمية لدى الإغريق عند نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد مشتتةً، بل انتظمت في أنساق متماسكة بدرجة مهمة من الوثاقة والمتانة. غير أن الاتساق لا يعني بالضرورة انغلاق المعارف في حدود معينة؛ إذ ظلت مسائلُ من قبيل التفاصيل معلقة، وموضوعَ اختلاف الرؤى، ويتناقش حولها. لكنّ الاحتكام إلى الأدلة والوقائع جعل الجدل النظري العلمي مثمرا، لا مجرّد تبادل لآراء ساذجة. فتبلورت تعليقات على تصورات افلاطُن وأرسطو واقليدس وآخرين في الميادين الفكرية المختلفة من أجل إغنائها وتصويب جوانب منها.

(15) يقصد بالمتأخرين أولائك العلماء الذين برعوا في العلوم المختلفة منذ فترة حكم هارون الرشيد، أمثال محمد بن موسى الخوارزمي والكندي والماهاني وثابت بن قرة والبتاني والصوفي والسجزي والخُجندي والبُزجاني والقوهي وابن يونس والكرجي وابن سينا وابن الهيثم وابن عراق والبيروني وغيرهم كثير، الذين أغنوا العلوم كلها.

(16) فعلا تطورت في سياق الثقافة الإسلامية كلُ العلوم المقتبَسة من عند القدماء، فبرزت علوم بينيّة وتيمات فرعية جديدة لم تكن لتتبلور في سياق السقف المفروض في الفكر العلمي الإغريقي، لكنها امتداد لتلك التعليقات التي نشطت قبل الإسلام بزمن؛ ثم استرسل التجديد منذ أوائل القرن التاسع للميلاد/أواخر الثاني للهجرة. فتكوّن علم الجبر وحساب المثلثات، وحصلت تحولات مهمّة في علوم الرياضيات والبصريات وغيرها، منذ هذا الوقت إلى ما بعد صاحب النصّ.

(17) يقصد أن المتأخرين أعادوا سبك بعض الاستدلالات التي كانت مطوّلة اضطراراً، فقدّموها في قالب استدلالي بيّن ومباشر ومركّز. وإعادة السبك ليست مجرد توضيح، بل قد تتجاوز ذلك إلى تصويب وتهذيب وتأليف، يؤدي إلى تركيب جديد.

وضمّ المنتشر[18] وشرح المنغلق[19]. وإن كان المتقدمون إنما ظفروا بذلك بسبْقهم بالزمان لا باختصاصهم بجُود القرائح والأذهان. وكمْ قد فاتَهُم من أشياء قد ابتدعها المتأخرون و لم يُسبَقوا إليها ؛ فكم ترك الأول للآخر <!> فما أحسن ما قال الشيخ الإمام أبو محمد الحريري، وهي التي سماها المراغية[20] في تفضيل المتقدمين على المتأخرين : «وهل للقدماء، إذا أنعَم النظرَ مَن حضر، غيرُ المعاني المطروقة الموارد، المعقولة الشوارد، المأثورة عنهم لتقدم[21] الموالد لا لتقدّم الصادر على الوارد» ؟

و لم أزل، منذ علِقتُ بطرف مِن هذا العلم، وعاينتُ عملَ هذه الآلات في زمان قلّ فيه الطالبُ لهذا العلم، وزهداً أراغب في هذا الفن، أجد في أكثر هذه الآلات الموضوعة نقوصاً خرجتْ بها عن حدّ الكمال وأدخلَتْها في حدّ الإحراج ؛ وحتى كأن تلك الأشياء ذاتية لها لا عرضية ؛ فكأنها مستهجنة وراء أدنى سترٍ وألطف خفية. و لم يتفطن لها أحدٌ من القدماء والمحدَثين. فمنها هذه الآلة الشريفة، مع عِظم وكثرة منافعها، قد أعوزها مُكنةٌ لطيفة أعدمَتْها فوائدَ جمّة، منها استخراج الطالع الذي لعلّه هو المقصود من الآلات ؛ حتى أن الكتب المصنّفة فيها قد جاءت كلُها ناقصة، لعدم هذا المعنى فيها. ولأجل ذلك لم يأت أحد من المصنّفين في العمل بالكرة في هذا الباب بما يثلج الصدر في عمل الطالع ؛ ولمّا حاموا حول ذلك، ما يقف بهم على حقيقة العمل، توصلوا في تقريب ذلك بحيلٍ بعيدة عن الحق ؛ واستعملوا أشياءَ خارجةً عن الكرة، لا يمكن، إذا ركّبت عليها، أن يكون وضعُها عندها كوضع الدوائر الفلكية التي هي نظائر لها، ثم قد يعوز العمل العلم بأكثرها.

---

(18) يقصد أن المتأخرين جمعوا ما كان متداولا بشكل مبعثر من شروح وتعليقات خلال فترة غير قصيرة، فهذّبوه وعدّلوه ونظّموه في بناء متماسك نسبيا. بل أعادوا البناء الاستدلالي لكمّ مهمّ من المعارف، وكشفوا عن ثغرات في التفاصيل لدى المتقدمين.

(19) يقصد أن المتأخرين كشفوا عن مسلمات ظلت مضمرة تفتح الباب للإبهام، وأتوا بإيضاحات لأسئلة ظلت مطروحة بطريقة غير ناجعة، مثل علمي الجبر والمثلثات والبحث في مسألة المتوازيات في الهندسة واللانهائي الرياضي والأشعة البصرية...

(20) نسبة إلى مدينة مراغة الإيرانية. والمؤلف الحريري عاصر الأسطرلابي، وكان مقرّبا لدى أنو شروان القاشاني، وزير المسترشد بالله. نشر عيسى سابا **المقامات**، بيروت، 1958. وقول الحريري وارد في صفحتي 49-50.

(21) في النص المحقق لمقامة الحريري: "لِتقادم".

وذلك أن علي بن عيسى الأسطرلابي[22]، وهو الذي أشار إلى ما سنذكره، وسبق إليه، وتلاه أبو الحسين الصوفي، أن يتّخذ لِعمل الطالِعَ ربعَ دائرة، إذا أطبق بقعرها على تقبيب الكرة كان مهندما[23] عليها. فإذا عُلم الارتفاع وأرِيدَ عملُ الطالع، عُمل من هذا الربع على مثل الارتفاع، ثم جعل الربع منطبقا على الكرة، بحيث يكون طرفه، وهو مبدأ العدد، على وجه أفق الكرة ؛ وذلك أن هذا الربع يجب أن يكون مقسوماً بتسعين قِسما، ثم تُدار الكرةُ يُمنة ويُسرة، حتى توافي درجةُ الشمس العلامةَ التي في الربع، والربعُ {ص. 166} عمود على سطح الأفق مارٌّ بسمت الرأس، فيكون حينئذ الربعُ قائماً مقامَ الدائرة السِمتية التي منها قوس الارتفاع. ومعلوم أن الدائرة السمتية يُحتاج أن يكون سطحُها قائماً على سطح الأفق، وتكون مارّةً بسمت الرأس ؛ وسمتُ الرأس فمعدوم في الكرات المتخذة، لأنّ حلقة نصفِ النهار المركّبةَ عليها نصفُ سُمكها مما يلي المشرق، ونصفهُ مما يلي المغرب، وسمت الرأس فيه نصف ذلك السمك عند بُعد تسعين درجة من أقسام حلقة نصف النهار. ثم نصبُ ذلك الربع عموداً على سطح الأفق باستعمال رأي العين فيه متعذر ؛ فمن أجل ذلك يبطل التحقيق في هذا الباب. ثم إن الدوائر السمتية قد تتضايق عند سمت الرأس، حتى أن نصف نجاية د؟> حلقة نصف النهار يبطل أكثر الدوائر السمتية أو جلّها. فإذا كان الارتفاع فيما بين الثمانين والتسعين، لم يمكن تركيب الارتفاع درجة الشمس على مثل الارتفاع على علامة الارتفاع، لأن الربع يحتاج حينئذ أن ندخل سُمكه في سمك نصف دائرة نصف النهار ؛ ومن عانى العمل بالكرة أو من يعانيها بهذه الآلة تعذّر ذلك عليه. ثم إذا صح وضع درجة الشمس على مثل الارتفاع من الربع المتخذ كان ما على وجه حلقة الأفق من أجزاء فلك البروج هو الطالع ؛ هذا على الطريقة القريبة من الصواب التي عمل بها هذان الفاضلان، أعني علي بن عيسى وأبو الحسين الصوفي.

---

(22) ليس علي بن عيسى معروفا مثل غيره؛ وهناك مفكرون آخرون يحملون هذا الاسم. عاش خلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة؛ وألف كتاب **العمل بالأصطرلاب**. كتب عنه الصوفي ما يلي : "ووجدنا في كرة عظيمة الشأن من عمل علي بن عيسى (الحرّاني)، قد رسم الكوكب الخامس الذي على جناح العذراء الأيسر في الوجه في ناحية الشمال عن الكوكب الرابع الذي على الوجه؛ وذلك خطأ، لأن عرض هذا الكوكب الذي على الجناح هو في ناحية الشمال عشر دقائق، والذي على الوجه عرضه في الشمال خمس درجات ونصف" (كتاب **صور الكواكب الثمانية والأربعين**، حيدر اباد: دائرة المعارف العثمانية،،1954 ص. 5).

(23) في النص : "منهدما".

فأما غيرهما، فإني رأيت كتابا لقُسطا بن لوقا[24] **في العمل بالكرة** قد صنّفه لأبي الصقر اسمعيل بن بلبل وزير المعتضد بالله الذي قتله قتلة عجيبة ؛ وذلك أنه أمر بلبل يعاد اسفيذاجا <؟> ويحط رأسه فيه إلى قعره.

ولأبي الحسن علي بن جُريج الرومي فيه من المدائح ومن الأهاجي عجائب.

{شعر... ص. 166–167}

وإن كان هذا الفصل مما ليس نحن بسبيله، ولكنْ لِنَفاق الفضائل على مخدومي أعزّ الله نصره، ذكرتُه كما حضر.

عُدنا إلى ذكر كتاب قسطا بن لوقا **في العمل بالكرة**. هذا كتاب قد سار في أيدي الناس، وله نُسخ كثيرة، وفيه أبواب عدة، لا تنطبق على علم الهيئة وتُنافي البرهان. واتّفق لي في زمان الصبا منه نسخة، وطالعتُها فوجدت فيها غلطاً كثيراً وبلد الأغلاط الفاحشة ؛ فعلقتُ على حواشيه عند تلك الأبواب. أقول إن هذا ينافي الحقيقة، وذلك أنني وجدتُه قد أقام درجةَ ممرِّ الكوكب مقامَ درجة طوله، وبُعدَه عن معدل النهار مقامَ عُرضه ؛ وأقام القِسيّ المارّة بنقطتي فلك البروج مقامَ القسيّ المارّة بنقطتي[25] معدّل النهار ؛ وبالضد أيضا أشياء أخر هي مثبتة هناك.

وكنتُ أعجب ممّن تقدَّمَنا من الفضلاء، الذين وقع هذا الكتاب إليهم، وأقول هل غضّوا على ذلك جهلاً منهم، وإن كان كُفراً هذا الاعتقادُ فيهم، أو مسامحةً لمصنّفه، وإن كان ممّا لا تجوز المسامحةُ في مثله، لِما فيه من التفاوت. وكان صَديقُنا وأستاذُنا الحاجبُ أبو محمد عبد الله بن سعيد الإربلي الحاسب[26]، ابن أخت جاسوس الفلك رحمه الله، قد وقع إليه هذا الكتاب بنسخة مليحة بخط كوفي، وكان قليلَ المعرفة بعلم البرهان والهيئة، وكان عنده كرات عدة، وكان يعمل بهذا الكتاب، ولا يخفى عليه أن درجة الممر غير درجة الطول، وقوس البُعد غير قوس العرض، إذا عمل ذلك حساباً ؛ فإذا رأى ما يخرج بالكرة مُبايناً لِما يعطيه الحسابُ نسبَ ذلك إلى

(24) قسطا بن لوقا البعلبكي عالم مطلع اطلاعاً جيّداً على التراث العلمي الإغريقي، وهو بالذات من أصل إغريقي؛ ألّف رسائل قصيرة في علوم كثيرة؛ ومترجم قريب من حلقة الكندي، توفي عام 912/300.

(25) في النص "نقطتي" في كلا الموقعين.

(26) أستاذ الأسطرلابي؛ عرف عنه إعجابُه بالتراث العلمي القديم؛ لكنّه لم يجدّد في علم ما؛ إنّما ساهم في تقدّم المعرفة من خلال التدريس والمناقشة.

غلطه، و لمْ يتجاسر أن يُسنِد إلى المصنِّف جهلاً بعلل ذلك، وحسن ظن بمصنّف قديم.

فلمّا رأى ما علّقتُه على حواشي الكِتاب، قال : «والله يا ولدي، لقد كنتُ أجدُ ذلك حسابا، وإنني لا أشكّ في ما[27] تقوله، إلاّ أنّ الردّ على القدماء قبيح». وكان {ص. 168} يفضّل القدماءَ لأجل أنهم قدماء، من غير الوقوف على صحة صوابهم أو خطإهم ؛ وبقي ذلك في نفسه يحبّ أن يجد عليه شاهداً آخر. كما أصاب أبو عمرو بن العلاء حين قرأ في سورة البقرة دون سائر القرّاء «إلا من أغرف غرفه بيده» بفتح الغين. وكان الحجّاج بن يوسف نفاه لما قال له «هل سمعتني ألحن في القرآن» <؟>، فقال «نعم»، قال «أين» ؛ قال «في سورة برآه <التوبة>» ؛ قال «أين منها» ؛ قال «قرأتَ ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله﴾ بضمّ الباء». فقال «طلّ عليّ خبرُ ؟كان؟ فرفعت» ؛ ونفاه إلى الكوفة ؛ فأقام بها إلى أن مات الحجّاج، فرأى أعرابيا على نصوه مسرعا، فقال له «يا أخا العرب، ما وراءك» <؟>، فقال له «مات الحجّاج»، وأنشد

ربما تجزع النفوس من الأمر لها فرجه كحلّ العقال

فسرّ بموت الحجاج وأنشأ البيت، وأخذ «فَرجه» على وزن «غَرفه» شاهدا.

واتفق للحاجب أبي محمد عبد الله، رحمه الله، وصولُ الشيخ الإمام حجة الحق عمر الخيامي[28]، رحمه الله، إلى بغداد، ولقيه العبدُ والجماعة، وسمع منه أوحدُ الزمان أبو البركات[29] وجماعةٌ من الحاضرين في حق العبد بغير محضر منه أنني ما كنت ألقى ببغداد شيوخاً في هذه الطبقة من العلم، فكيف شبّاناً ! فعرَضَ الحاجب أبو محمد ذلك الكتاب عليه، فقال «إن قال فلانٌ "صواب" فصواب، وإن قال "خطأ" فخطأ». فأخذ ذلك شاهدا، فطاب به قلبُه. وهذا فصل لا يليق بهذا الكتاب.

---

(27) في النص : " فيما".

(28) هو أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام أو الخيامي النيسابوري (440–526/ 1048–1131). له مساهمات في الجبر والهندسة. وهو فيلسوف وصاحب الرباعيات.

(29) هو أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البلدي البغدادي، المتوفى عام 547 هـ/ 1152 م. عرف بكتابه المعتبر في الحكمة الذي يتطرق لمسائل في المنطق والفلسفة.

ولكني أعرف نَفاق هذه الأعلاق على مخدومي أعزّ الله خيره. فأمّا ما ذكرَه في عمل الطالع فشيءٌ وهْميٌّ معلوم بالقوة لا بالفعل. وذلك أنّه أَمر أن يركَّب على جزء الشمس شخصٌ يُلصق بشمع، ويكون عموداً على سطح الكرة، ثم يُدار بالكرة تارة والكرسي تارة، إلى أَن يظلِل ذلك الشخصُ نفسهَ ؛ فإذا ظلل نفسه ممّا وافى من فلك البروج الأفقَ فهو الطالع. ومعلوم أن هذا العمل يلزم أن يكون سطحُ[30] الكرة في سطح الأفق ؛ ومِن أين يمكن صحة ذلك إلا بحِيلٍ قد عُملت وشواقيلَ تكون معلّقة في مربّع الكرة محددات الرؤوس، قد حصل تحت رؤوسها نُقط بوزن أفق الكرة ؛ فمتى حصلت رؤوس الشواقيل على تلك النقطة كان سطح الكرة في سطح الأفق، ثم نصبُ الشخص عموداً على سطح الكرة متعذرا. ولما [أن] وقع إلي بعد هذا كتابُ الآلة الشاملة التي ابتدعها أبو محمد حامد بن الخضر الخُجَندي[31] رحمه الله، ولم يكن أحدٌ في زماننا رآها، وكان أهل زماننا مشتاقين إلى مشاهدتها ؛ فحللتُ الكتاب، ووقفتُ على مقصود الرَجل فيه، وعملتُ هذه الآلة {ص. 169} على ما أشار صاحبُها، ووجدتُه قد عملها ناقصةً غاية النقصان، بعد أن سمّاها "شاملة"، وعنى بذلك أنها تشتمل على نوعي الآلات الكرية والمسطحة ؛ وذلك أنه عملها لعرضٍ واحدٍ فقط، ولم يمكنه أن يعملها لغيره ؛ وصرّح بذلك في الكتاب، حتى كلّف نفسه عمل مقالة خامسة في هذا الكتاب في استعمالها في عُروض أخَر يتعذر عليه – وهو صانعها ومبدعها – أن يعمل منها باباً واحدا، لأنه ألْزمَ العاملَ بها أن يرسم فيها بدل جميع خطوطها وسائر قسمها بمداد. ومعلوم أن ذلك متعذر على أكثر الناس أن يرسموا في آلة خطوطاً تقوم مقام المقنطرات والسموت والساعات وغيرها ؛ ثم إنها لا تثبُت، وتندرِس ؛ وكيف يمكن رسم ذلك في كل عرضٍ <!؟> ؛ وقال : «إنّ هذا متعذر على أكثر الناس، ولكن قد ذكرتُ أنه ممكن على هذا الوصف. فمن أراد ذلك، فليتخذْ لهذه الآلة عدةً من أنصاف الكرات، ويرسم في كل واحدة منها خطوطاً تختص بذلك العرض، ويجعل مرفعها مجوّفاً وتكون هذه مخبئة فيه وتكون بمنزلة صفائح الأسطرلاب». ومن عانى هذه الآلة وشاهَدها علِم ما في ذلك من الكُلفة بعمل واحد منها، فكيف بجماعة. والعلم

(30) كتبت كلمة "أفق" بين "سطح" و"الكرة" فوق السطر. بحيث تقرأ : سطح أفق الكرة.

(31) عرف الخجندي بالرياضيات وعلم الفلك، وتوفي عام1000/391. ساهم في تطبيق علم المثلثات في دراسة وتَر دوائر الأفلاك.

السامي محيطٌ بالآلة التي عملها العبدُ للأمير علاءِ الدولة، التي يُعمل بها في جميع العُروض من درجة إلى تسعين، بتلك الخطوط بعينها من غير رسم شيء آخر أو إسقاط شيء أو استضافة شيء. ثم صار يحب دأن> يشاهِد بها تلك الخواص التي توجد بالكرة من اختلاف وضع فلك البروج في سائر العروض واختلاف الليل والنهار وتفاوتهما في البلدان بأوضَح وأشهَر وأدرَك الحس ممّا يشاهد بالكرة. فكان العبدُ أحقَّ من أتى بحُمودٍ لهذه الآلة، بما تمّم نقصَها به ؛ وقد عمل مثلَها للخزانة الشريفة ؛ وكل ذلك بمشهد من علماء وقتنا وإقرارِهم بذلك ؛ إذ ما يقوم عليه البرهانُ الهندسي غيرُ مدفوع.

وقد كان حمل الحكيم الأجلّ معتمد الدولة بن التلميذ[32] للشيخ الإمام حجة الحق عمر الخيامي نسخة كتاب الخُجَنْدي في الآلة الشاملة، وحضر العبدُ عندَه، فقال له : «إن زماني يقصر عن حلّ هذا الكتاب وإني مشتاق إلى مشاهدة هذه الآلة». وكان العبد قد عمل منها اثنتين، وكانتا عند من لا يرى إخراجهما من عنده ليشاهد إحداهما. وكان على جناح السفر، فعمل له العبدُ شكلَها من رصاص حتى شاهدَها، ثم عرض عليه ما قد وقع له من عملها لجميع العروض، فأمر له باستحقاقها دون الخجندي. ولمّا كان المقصود ذِكرُ الكرة، عُدنا إلى ذِكر ما عملتُ فيها ممّا تمّمتُ به بعضها وسهّلتُ عمل الطالع على الحقيقة بهذا. وقد كان يعوزها أيضا علمُ السمت، فصار بذلك ممكنا. وذلك أني عمدتُ إلى الحلقة التي هي أفق الكرة، وهي وجه المرفع، ففرزتُ ثلث عرضها البرّاني بمقدار نصف سُمك الحلقة ؛ فلمّا فرزته على هذا حررتُ الإفريز، {ص. 170} وجعلتُ جنبه مكهّفاً إلى داخل، وعملت حلقةً بقدر الإفريز، وجعلتُ منها شظايا ثانية تدخل في ذلك التكهيف بحيث علقتُ تلك الحلقة مكانَها، وصارت ثابتة فيه لا تزول عنه ؛ إلا أنها يمكن إدارتُها إلى نواحي الأفق. ثم رسمتُ على ثلثي الحلقة الأعداد الثلاثمائة والستين التي يُعرف بها سعة المشارق والمغارب والسموت وغير ذلك. ثم كتبت أسماء الجهات الأربع، المشرق والمغرب والشمال والجنوب، ومشارق الصيف والشتاء ومغاربهما، كما جرت العادة ؛ ثم عملت نصف حلقة وجعلتها مهندمةً على سطح الكرة ؛ ثم ركّبت طرفَها على الحلقة التي جعلتُها في الإفريز، وجعلتُ سُمكها كلَها

(32) صديق للأسطرلابي، مشارك في عدة علوم، خصوصا في الطب والفلك.

إلى أحد النصفين، بحيث يكون وجهها مارّاً بقطر الأفق. وقسمت هذا النصف بمائة وثمانين درجة، وكتبت العدد عليها مِن أسفلها إلى وسطها من الجانبين تسعين تسعين ؛ ثم عملت ربع حلقة وركّبتها على حلقة الإفريز أيضاً على منتصف النصف الذي جعلت سمك نصف الحلقة إليه، وطرفه الآخر ركّبته إلى نصف الحلقة ليحفظ عمود سطح الأفق أبدا. ثم عملت ربع دائرة أخرى وجعلتُه أيضاً مهندماً على تقبيب الكرة، وقسمت باطنه المقعر بتسعين قسما، وثقبت على كل قسم ثقباً نافذاً إلى ظاهره. ثم ركبت هذا الربع في داخل المرفع، أحد طرفه على نقطة الجنوب والآخر في العارضة التي تُعمل أبداً تحت الكرة لتحملها ؛ ويكون نصفها – أعني الكرة – غائصاً في المرفع. وجعلت قطب الكرة الجنوبي ثقبا نافذا إلى الكرة وحده؛ وجعلت هذا الثقب تسَعُه الثقبان التي في ربع الدائرة المذكورة ؛ ثم حططت الكرة في المرفع وركّبت الحلقة في الإفريز تركيبا محْكما بحيث يَلزم موضعَه ويمكن إدارتُه إلى نواحي الأفق، كما ذكرنا ؛ وبقيت الكرة محصورة بين النصف دائرة وبين الربع المثقب وبين حلقة الأفق، بحيث يمكن إدارتُها إلى أي الجهات شئنا. ثم أخذت ميلا بغلظ تلك الثقوب التي في الربع مهندماً في كل واحد منها، وفي الثقب الذي في قطب الكرة. فإذا أردنا نصبَ الكرة على عَرض ما عدَدْنا من تلك الأثقاب من وجه الأفق إلى أسفل بقدر عَرض البلد ؛ ثم أدخلْنا المِزوَد فيهما جميعا، فتكون الكرة قد انتصبت على ذلك العرض، لأنّا إذا خططنا القطب الجنوبي بمقدار عرض البلد فقد رفعنا الشمالي بقدره. وقد ذكرنا أن الدائرة المركبة في إفريز الأفق يمكن أن تدور إلى نواحي الأفق، فهي تُدير معها النصفَ حلقةٍ التي ركّبناها عليها، وجعلنا الربع الآخر يحفظها ليكون سطحها عموداً على سطح الأفق أبدا. فمعلوم أن نصف الحلقة إذا كان أبداً عمودا، وأمكن أن يدار إلى نواحي الأفق، فإنه قائم مقام {ص.171} جميع الدوائر السمتية ؛ وإنّا متى حصّلنا الارتفاع ثم عدَدْنا من نصف الحلقة من أحد طرفيه بمقدار الارتفاع، ثم أدرْنا الكرة والنصف حتى يوافي جزءُ الشمس علامةَ الارتفاع في جهته، فإن ما وافى من فلك البروج وجهَ الأفق فهو الطالع، لأنّا قد نصبنا الكرة حينئذ كنصبة الفلك. وإن القوس من الأفق التي من مطلع الحمل أو مغرباً إلى طرف نصف الدائرة هي [ال]قوس السمت في ذلك الوقت، بعد أن وجدنا بهذه الكرة درجة الطالع على غاية التحقيق ؛ وذلك ظاهر عند مَن عَلم علم الهيئة.

ولما أن صح هذا المعنى ووضح، جمعتُ نفسي في عمل هذه الكرة، الذي أضفت إليها هذا المعنى، وكانت لطيفة المقدار بكون قطرها ثلثي شبر، وضمنتها جميع الصور الثمانية والأربعين بجميع الكواكب المرصودة ؛ وكتبت على كل واحد منها ما سمّاه به علماءُ الهند واليونان والروم والعرب وأسماء المنازل وغير ذلك، بعد أن صحّحت مواضع هذه الكواكب من جداول **المجسطي** بخط ثابت بن قرة[33]؛ واعتمدت في ذلك على مذهب أبي الحسين الصوفي بعد معرفتي لهذه الكواكب واحدا واحدا ؛ ثم اعتمدت فيها من حسن الهندام ما يمنع الماءَ أن يتسرب فيما بينها وبين أطواقها. وفضيلتها بأن وسمتها باسم مولانا وليّ النعم شرف الدين أمين الدولة سديد الحضرة أبي نصر نوشروان بن خالد بن محمد أعز الله أنصاره ؛ إذ هو معدن المعالي والمفاخر ومنبع المحامد والمآثر والجود الفائض والعدل الشامل، ومشجع أهل العلم وأصحاب الحكمة وإنزالهم أعلى المنازل والتوفير عليهم فوق الاستحقاق ورفعهم من الحضيض إلى عنان السماء. فالله يحرس مهجته الشريفة ورتبته الرفيعة بمنّه وكرمه. وأنا أجد من نشأ في ظل جوده ونال بمجلسه العالي، زاده الله رفعة وعلا من التقريب والإرفاق من غير استيجاب واستحقاق ما فقت به على أترابي وأشكالي ؛ وقربت بمرتبته إلى غايتي وكمالي ؛ وحقيقٌ بمن تسربل هذه النعمة أن يتجرد بخدمة مولاه ووليّ نعمه ويبذل أقصى وسعه وغاية مجهوده في القيام بلوازم الشكر ؛ وإن كان المولى مستغنيا عنها، ولكن أخذاً بالأفضل وتمسّكاً بالأليق؛ ولو أمكن التقريب إلى عالي مجلسه بالروح والبدن لكان مستصغراً في جنب الحق الواجب. لكن الخدمة العلمية أجلّ من غيرها ؛ فحملتُ هذه الآلة مُكمّلا لفضيلتها بإيداعها خزانة حكمته الشريفة ومشرفاً لها بسمتها بألقابه مُضيفا إليها هذه الرسالة في العمل بها ذاكراً فيها من الأبواب ما أستنفذ فيه الوسع ليكون قبلة لطالبي هذا العلم ؛ وبالله نستعين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(33) هو ثابت بن قرّة الصابئ الحرّاني، ولد عام 836/221 وتوفي عام 901/288 . عالم ممتاز مجدد، ألّف في الرياضيات وعلم الفلك والطب والفلسفة والميكانيكا؛ وترجم عدة أعمال من اليونانية إلى العربية، بينما لغته الأصلية هي السريانية.

3. تقديم عن السموأل المغربي وكتابه

عاش السموأل صباه في فاس، ثم رحل إلى المشرق، وعاش الجزء الأخير من حياته في إيران، بالقرب من مراغة. تكوّن في أحضان ثقافة يهودية، وأسلم في كهولته حوالي1163/558.

ألّف السموأل المغربي كتابه **في كشف عَوارِ المُنجّمين وغلطِهم في أكثر الأعمال والأحكام**[34] عام 1166/561، بعد كتاب **الباهر في الجبر** وكتاب **المفيد في الهيئة**. ويبدو من هذه الفقرات المقدّمة أنه صاحب نظر عقلي دقيق في باب خصائص العلميّة، تمييزاً عن التناول الفلسفي للمسائل المعرفية وعن حيل أحكام النجوم.

توجد من الكتاب نسختان : مخطوط ليدن، نسخ عام 1283/682، ومخطوط اكسفورد، نسخ عام 1580/988[35]. يركّز السموأل في كتابه هذا، إضافة إلى المادّة العلمية في صميم العلم الفلكي، على انتقاد التحجّر الفكري، وبيان أن كل العلوم في تزيّد بدون نهاية، أي في تراكم كمّيّ وكيفيّ لا يتوقّف؛ وهذا تبرير كاف لإمكان النقد العلمي لأي معرفة، قصد بلوغ الأمتن منها. وفي نفس الوقت يدعو إلى عدم التسرّع في إبداء الطعون على العلماء السابقين، لأن ما يبدو خطأ قد يكون من عمل الناقلين، أو أن يكون المؤلف قد مات قبل إتمام مراجعة تأليفه، أو مجرّد سهو. ثم ينتقد المنجّمين الذين يستغلون المعرفة الفلكية من أجل ادعاء معرفة المستقبل والتنبؤ بالأحداث.

لاحظ السموأل استغلال بعض الراغبين في الاتّجار قصد ابتزاز الناس لبعض المعارف الفلكية، وكيفية تحريف المعلومات والجداول في التنجيم، وعدم التمييز بين زيج قائم على الرصد وجدول منتحَل؛ فيقول منتقدا المنجّمين: «يحتاج المستدل على الكائنات بهذه الصناعة إلى أن يتأملها ويمزج من دلالاتها ما يقتضي به على أحوال[36] كل مَن رام تقْدِمة المعرفة بأحواله. وإذا كان استقصاء ذلك ممّا لا يكاد يتهيأ

---

(34) مخطوط اكسفورد يحمل عنوان **كتاب المبادئ والغايات في وضع جميع الآلات** للمنصوري.

(35) أشكر الأستاذ لن فن برومّلن (Glen van Brummelen) أستاذ الرياضيات وباحث في تاريخ الرياضيات في جامعة بنكَتن بولاية فرمنت، الولايات المتحدة، الذي أمدّني بصورتين لمخطوطي الكتابين للسموأل.

(36) في مخ اكسفورد صورة قريبة من "أصول".

للمنجّم، فالذي يدّعيه من صحة الاستدلال مُحال على مذهبه وبموجب أصوله. فإنْ توهمنا أنه قد استقصى النظر في وجوه الاستدلال، على كثرتها، بقي عليه إصابة حقيقة الأحكام التي يدل عليها كلُ واحد من تلك الوجوه التي عددناها. فإنْ توهمناه مصيباً في سائر أحكامه فأنّى له الإصابةُ في مزج تلك الأمارات والدلالات ومعرفة مقدار ما يسقط من قويّها بضعيفها، والاطلاعُ على مقادير القوى الباقية إذا تساقطت الدلالات المتقابلة وأقدار القوى المجتمعة من الدلالاتِ المتعاضدة ؛ فإن الاستمرار على إصابة المزاج المقارن للحق يحتاج إلى أحد أمرين : أحدهما محال، وهو الإحاطة بمعرفة سائر القوى النجومية الكلية والجزئية ؛ والثاني ممكن، وهو اطلاع الأفراد من الناس على بعض الغيوب بحسب حظهم من قوة الكهانة النفسية ؛ فربما عرف بتلك القوة حقيقة الامتزاج اتّفاقا، فيستدل به على ما هو كائن ؛ وربما جهل المزاج والحُكمَ جميعاً أو أحدَهما، و لم تحظ تقدمة المعرفة لِما كانت القوة الكهانية التي لذلك المنجّم من طالعه ؛ وهذه الحالة بعينها فربما وجدت ممّن[37] لا يعلم شيئا من هذه الصناعة ؛ إذا كان له من طالعه نصيبٌ من قوّة الكهانة، فإنّ جهله بهذا العلم لا يعوقه عن تقدمة المعرفة بالكائنات، فإنّ النفس المطلعة على الغيوب تستدل على ما تعلمه منها بما[38] لا يظهر لسواها منه دلالة على مثله، لأن أصل الاطلاع عليه يخصها دون ما جعلته أمارة للاستدلال. وإذا كانت هذه غاية صناعة الأحكاميين مِن أهل هذه الصناعة، فلا فضيلة لأحدهم على مَن عُهد منه ما ذكرناه من الاصابة من جهال الناس وأغمارهم، وسبيلهم أن يقفوا بصناعتهم عند حدّها، وذلك ما أردنا أن نذكر »[39].

ويقول عن مسألة تأثير النجوم في الأحداث، وهي مسألة عويصة، لأن علم الفلك والتنجيم كانا ممتزجين أحياناً: «النجوم إما مؤثّرة أو دالّة على الآثار ؛ وتأثيرها ودلالتها إما في الكليّ والجزئيّ مِن أمور هذا العالَم السفلي، وإما في الكلي دون الجزئي وإما في الجزئي دون الكلي.

فأما تأثيرها في الجزئي دون الكلي فقد كفانا مؤونة مناظرتهم عليه، إذ لم يكن ذلك مذهباً لأحدهم ؛ فبقي القسمان الآخران.

---

(37) في مخ اكسفورد: "فيمن".

(38) في مخ ليدن: "ما".

(39) مخ ليدن: 99ظ–100,؛ مخ اكسفورد: 97ظ–98و.

فإن كانت مؤثرة في الكلي دون الجزئي أو دالة عليه، فلا سبيل لأربابها إلى معرفة الجزئي بما هم منجّمين، لأن الجزئيات تكون اضطراراً إما اتفاقية وإما أن يتولاها غيرُ النجوم ؛ وعلى الحالين يلزم أن يكون المنجّم جاهلا بالجزئيات عاجزاً عن تحصيلها ؛ وما مِن أمرٍ يحاول المنجّم معرفتَه إلا وهو جزئيٌّ بالإضافة إلى غيره وكليٌّ بالإضافة إلى آخر. وإن لم يجعل لهذه حدوداً وأطرافاً يفصل بها الكلي الذي تتولاه النجوم أو تدلّ عليه، من الجزئي الذي لا يتعلق بها، استحال تمييز الحق من الباطل في القضايا النجومية وعسُر تمييز ما يجب الاستدلالُ عليه ممّا لا سبيل إلى عمله. فإذا أتوْا بحدٍ وفصلٍ صحيح بين الكلي الذي يمكن إدراكُه في كل أمر، وبين الجزئي الذي لا حديث للمنجم فيه، حصل لهم من الانتفاع بهذه الصناعة توطئة الأمر لوقوع الجزئيات، كما ضربوا المثل أنّ مَن تقدّم <ت> له معرفةٌ بهواء بلاده يُعِدّ لها من الكسوة والمهمّات ما يدفع عنه إذ <ا> ية البرد ؛ إلا أنهم يحتاجون إلى الإقرار بعجز هذه الصناعة نفسها عن الدلالة على الجزئيات كإخراج الخبايا والمضمَرات وتجلية السارق وتجلية الملوك الذين تدلّ القِرانَاتُ على خروجهم وظهورهم ؛ وذلك ممّا يفارقون به أئمّة صناعتهم [...]»[40].

وعن معرفة مقدار ما يظهر من السماء للناظر حسب علوّ المكان الذي يقف فيه، يقول السموأل: «وللمحتجّ عن أهل هذه الصناعة أن يحدّ الأفق بأنه دائرة عظيمة قطبها سمت الرأس، ولا يحدّها بأنها الفاصلة بين الظاهر والخفي، ليسقط عنه هذا الاعتراض. ونذكر أنّ الكواكب وسائرَ ما يظهر للحس من أجزاء الفلك لا يعدّ فوقَ الأرض إلا إذا جاز محاذاة الخط الأفقي الذي يكون الراصد عموداً عليه، وإلا فهو تحت الأرض وإن كان ظاهرا. وللمحتجّ أيضا أنه إذا كان ما يظهر في ذيل السماء يعدّ طالعا أو غاربا، فالمَسْتور من السماء أيضا بجبَلٍ ناءٍ لا يعدّ طالعاً ؛ بل ما ظهر للأبصار فهو معدود فوق الأرض. فإذا توجّه الرَاصدُ من موضعه نحو ذلك الجبل لزم أنّ المسْتورَ عنه غيرُ معْدودٍ طالعاً ولا غاربا. لكنّه كلّما توجّه نحو الجبل الساتر عظُمَ مقدارُ المستور عنه من السماء، حتّى يصير عند أصل ذلك الساتر فيستر عنه من السماء درجاتٍ كثيرة ؛ وربّما انستر عنه بُرجٌ أو أكثر ؛ وهذا من أعظم الشناعات، لأنه يلزم منه أنّ الجبل أو الحائط إذا سَترَا عمّن كان عندهما بُرْجاً أو

(40) مخ ليدن: 94و ؛ مخ اكسفورد: 88ظ–89و.

بُروجاً ممّا قد ارتفع عن الأفق، كانا معدودَيْن تحت الأرض، وهما على الحقيقة فوقها ؛ وهذا محالٌ شَنيع. وهذه الشناعة لازمة لمن يجعل الأفقَ فاصلاً بين الظاهر من السماء والخفي. فأما من يرى أن الأفق دائرة عظيمة وأن طلوع الجزء أو الكوكب هو ممرّه بهذه الدائرة العظيمة لا الظهور والبروز للأبصار، فيلزمه أنْ لا يعتقد الشمس طالعة إذا رآها مِن[41] على رأس جبل أو مَسكن عالٍ ؛ كما أنه لا يعتقدها غاربة إذا سترها الجبل. ويلزمه أن يخالف عامّة الناس في مَبدإِ النهار والليل ومُنتهاهما، وأن يخالف أصول المنجّمين جميعَها، ويستأنف غيرها، لأن الراصدين جميعا بنوْا أعمالهم على أنّ كل كوكب ظهر لهم فهو في حال ابتداء ظهوره أو ابتداء خفائه على محيط دائرة عظيمة ؛ والأمر بخلاف ذلك، ولا سيما أن أصحاب الرصد اختاروا لأرصادهم الأبنية العالية والمواضع المشْرفة طلباً لانكشاف الآفاق لهم[42] من الجبال الساترة. ولم يخطر ببالهم أن شُرُفهم من المواضع العالية سبب[ا] لزيادة ما يظهر من السماء على النصف، لأنّ أوّل من انتبه لذلك المهندسُ[43] أبو علي بن الهيثم[44]، وعصرُه متأخّر عن أعصار سائر أصحاب الأرصاد القديمة والحديثة. وأمّا الذين تقدّموا زمانَه فكانوا يرون أنه ينبغي أن يكون الظاهر من السماء أبداً أقلّ من نصفها، لأن الأفق المماسّ لسطح الأرض فوق الأفق المارّ بمركزها [...][45].

وذلك أنّهم توهّموا أنه ليس لارتفاع قامة الناظر ولا لارتفاع الأبنية والجبال التي على الأرض قدْراً يجوز أن يؤثر في المناظر السمائية، إذ لا قدْر لهذه الارتفاعات بالإضافة إلى ثخانة كرة الأرض ؛ كما أنه لا تأثير لها في إذهاب صورة الكرة عن الأرض، لأنها كالخشونة بالإضافة إلى الكرة. وخفي عنهم أن هذا الاختلاف إنما يحدث من الزوايا التي يحيط بها شعاعُ البصر والعمود الخارج من

(41) في مخ اكسفورد، لا توجد "من".
(42) في مخ اكسفورد، لا توجد "لهم".
(43) في مخ اكسفورد: "الهندسي".
(44) هو الحسن بن الحسن بن الهيثم البصري (354–432/ 965–1040 أو،1041) صاحب التجديد في علوم الرياضيات بفروعها، وأحدث تحوّلا في البصريات، مفاهيم ومناهج وتصورات؛ وله كتابان ورسائل عديدة في مسائل فلكية دقيقة. ومن مؤلفاته **مقالة في أنّ ما يُرى مِن السماء هو أكثر من نصفها**.
(45) واضح أن السموأل يعتبر التناول الهندسي للوقائع، وهو صميم العلم، مغايراً للإدراك الحسي المباشر. فالرؤية الحسية للأجرام السماوية ومقدار ما يظهر من السماء للعيان، يتوقفان على علوّ، أو انخفاض، الموقع الذي يقف فيه الناظر؛ في حين أن التناول الهندسي يفترض علواً موحّدا بحسب النمذجة الهندسية. ولهذا يتحفظ من رؤية عامّة الناس.

نقطة البصر، وليس حدوثه من قبل كمّية الارتفاع عن سطح الأرض، وأن الزوايا الصغيرة قد تُوترها من السماء قِسيٌّ كبيرة ذات قدْر. وكان الذين شعروا بهذا الاختلاف الذي يلزم من ارتفاع الناظر عن سطح الأرض ظنّوا أن الذي يتحصّل منه عن الزيادة في مقدار ما يظهر من السماء يكون مُعادلا لنقصان الظاهر منها عن نصفها إذا كان البصر على سطحها، لأنهم لم يتعرضوا لاستخراج كمية الزيادة فيحصّلوا مقدارها»[46].

وينتقد السموأل الفلاسفةَ الذين يتبنّون الكسمولُجيا الموروثة عن الفلسفة القديمة، لأن هذا التصور للكون عبارة عن تقديرات كيفية؛ بينما، في نظره، كل معرفة علمية بأحوال السماء يجب أن تقوم على الرصد المسترسل والبرهان الهندسي؛ فيقول: «إنّ قوما من الفلاسفة زعموا أن الكواكب كلها من طبيعة واحدة. ولسنا نحتاج في مناقضتهم إلى الاحتجاج باختلاف آثارها في العالم السفلي، لأن أعجب من ذلك اختلاف مقادير أجرامها : فمنها الكبير ومنها الصغير، واختلافِ ألوانها : فمنها الأبيض ومنها الأحمر ومنها الأخضر ومنها الأصفر، واختصاصِ كل واحد منها بمكان ليس لغيره من الكواكب من العلوّ والخفض والعرض والانحراف والبعد عن قطب العالَم ومركزه، والحركة في فلكه. فإن كانت هذه الكواكب منسوبة إلى الطبائع الأربع، أو حدث فيها شيءٌ من الكيفيات الأربع، وكان اختلافُ حظّها من هذه الكيفيات سبباً لِما ذكرناه من اختلاف أحوالها، استحال ذلك، لأن المرّيخ منسوب إلى الحرارة، وفوقه زحل المنسوب إلى البرودة»[47].

4. مقدّمة كتاب السموأل

كتاب الصدر الإمام الأكمل، والحبر الهمام الأفضل، مؤيد الدين أبي نصر السّموءل بن يحيى بن العباس المغربي **في كشف عَوارِ المُنجّمِين وغلطِهم في أكثر الأعمال والأحكام** ؛ رحمه الله تعالى

{ص. 1ظ}»

(46) مخ ليدن: 75و–76و؛ مخ اكسفورد: 70ظ–71ظ.
(47) مخ ليدن: 90ظ–91و؛ مخ اكسفورد: 85و–85ظ.

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّ يسّر ولا تعسّر[48]

قال الأمير العالِم الأوحد، الصدر الكبير المخترع، مؤيد الدين شمس الإسلام، أوحد العصر، فريد الدهر، تاج الأئمة، أثير الدولة، مجد العراق، ذو السعادات والمناقب، أكفى الرؤساء وسيدهم، صفي الملوك والسلاطين، فلك الحكماء، أبو نصر السموءل بن يحيى بن عباس المغربي، أدام الله أيامه.

بعد حمد الله والصلاة على رسوله محمد وآله،

إذا صُرفت هِممُ المُلوك عن فنٍّ قلّ طالِبُه وفَترت الهِممُ عنْه – لأنّ الناس على دين ملوكهم[49]، كما قال سيد البشر، صلى الله عليه وسلم – فيقِلّ التشاغلُ به ويُهجر حتى يُفقَد القيّمُ به. فإذا عزّ وُجودُ الناقل لِحقائق ذلك العلم، ادّعاهُ الجُهّالُ به والأغمارُ الفارغون منه، ولم يقَع التمييزُ بينهم وبين مَن يندُرُ وجودُه مِن المحقّقين فيه، القيّمين به[50]. وما أعظم حظَّ هذه الصناعة مِن الاندِراس والشذوذ مِن بيْن الناس.

وقد أُلِّف مِن انتسابِ الأغمار إليها وادعاءِ الجهّال معرفتَها وإقدامِهم على الحُكْم بما لا تُسوِّغه الصناعةُ ما أذْهبَ روْنقَ هذا العلم عند الخواص، ووَسَم أربابَه بالشيْن عند العوام، حتى أَنِفَ مِن الانتماء إلى هذه الصناعة واستقبحَ الانتسابَ إليها مَن كان قيّماً بعلومها ؛ وكلٌّ منهمْ معذورٌ في شأنه. أمّا الملوك فحُجَجهم[51] ظاهرةٌ في تكذيب أربابها، لِما قد استمر على أسماعهم مِن مُحالاتِ مَن يعدُّونه مِن أهلها ؛ وأمّا أئمة الصناعة والمحققون فمعذورون، إذا استعابوا التزيّي بجلبابٍ قد صار معروفاً بالجهال ؛ وربما صادفتْ أقوالُهم خواطرَ قد أضجرها معاناةُ أولائك المدّعين {ليدن: 2و} ومُحالاتُهم ؛ هذا إذا لم يكلّفوا الجري مع الأغمار في شأوٍ ومضمار.

(48) في مخ اكسفورد: "وبه ثقتي" عوض "ربّ يسّر ولا تعسّر".
(49) في مخ اكسفورد: "مليكهم؛".
(50) مخ اكسفورد: "فيه".
(51) في كلا المخطوطين: ؛فحججتهم".

ولّما توالى على الناس استماعُ دعاوى الفارغين، {اكسفورد: 2و} و لم يلمَّ بأسماعهم غيرُه، توهّم أكثرُهم أنّ الأوائل قد استخرجوا جميعَ ما يمكن معرفتُه مِن العلوم، وأنّه لا يُمكن أحداً أن يَعلمَ ما لم يَعلمْهُ المتقدّمون ؛ وأنّ ما لم يَعلموه غيرُ معلوم، وما لم يَفهموه غيرُ مفهوم. فلذلك تمجُّ أسماعُ كثيرٍ منْهم ما يسمعونه مِن أنّا قد استدركنا على جماعة مِن حُذّاق المتقدمين أو خالفْنا ما تراه جماعةُ المتأخّرين، وتنفُر منه طِباعُهم، ويلوُون منه شفاهَهم ؛ وما ذلك إلا إمّا لأنّ ما يمكن إدراكُه من العلوم العقلية مُتَناهٍ عِندهم وأنّ العقول لا تُركّب من ذلك غيرَه، وذلك غيرُ ما هو شأنُ العلوم العقلية ؛ وإمّا لأنهم يعتقدون في الأوائل مِن العِصمة أو من الذكاء ما ليس لِمَن يأتي بعدَهم مثلُه ؛ فأما العصمة فليست لبشر غير الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وأمّا العلوم، فإنهم إن لم يَحملِهم فرطُ التعصّبِ والإعجابِ بالأَغرابِ على أنْ يجعلوها وحيا، فالأمرُ يضطرُّهم إلى الإقرار بتزيُّدِها في الظهور والإيضاح في كلّ عصرٍ ؛ وبذلك تشهَدُ السِّيرُ وأخبارُ أصحاب التعاليم[52].

فإن اقليدس جمع أشكالاً هندسيةً كانت متداوَلةً في زمانه، ونظّمها كتاباً جامعاً لأصول الهندسة مع تكميله إياه بما زادَه فيه من الأشكال المفيدة[53]. فإما أن يقولوا إنه لم يكن قبل زمان اقليدس مهندسٌ ولا ذكيٌّ ألمعيٌ[54] أصلا، وهذا خِلاف ما شهدتْ به الأخبارُ ؛ وإما أن يلتزموا أن اقليدس أعْرفُ بالهندسة من جماعة الفضلاء الذين تقدّموا أوانَه، ولا يَلزم مِن ذلك أنْ لا يأتي بعد اقليدس مَن تَكون أيضاً هذه نِسبتُه إلى اقليدس ؛ كأَرشميدس[55]، فإنه أتى في كتاب **الكرة** {ليدن: 2ظ}

(52) عادة ما يقصد بعلوم التعاليم علوم الحساب والهندسة والفلك والتآليف أو الموسيقى ؛ لكن تضاف إليها أحيانا علوم الجبر والمناظر والمكانيكا.

(53) يمكن كتابة إقليدس أو أُقليدس(Ευκλειδης). ويقال إن الرياضي الإسكندري عاش في مدينة الإسكندرية ما بين 330 و 270 قبل الميلاد بالتقريب. لكن هناك من يقول إن اقليدس اسم لجماعة من العلماء... وكيف ما كان الأمر فإن كتاب **الأصول** الذي يحتوي جلَ ما كان معروفا في الرياضيات حتى ذلك الوقت مؤلف يغلب عليه الطابعُ الجماعي بحكم ميزته التركيبية.

(54) في كلا المخطوطين: "مهندساً ولا ذكياً ألمعياً".

(55) يمكن كتابة أرشميدس أو أرخميدس (Αρχψηδης). عاش هذا العالِم السيراكُسي ما بين 287 و212 قبل الميلاد في بلدته سيراكس جنوب إيطاليا، لكنه كان على صلة بعلماء الإسكندرية وغيرهم. وهو رياضي ممتاز ومهندس في مجالات عدة، كالمرايا والأدوات الميكانكية...؛ وكان يستعين بالتجريب للبرهنة على مسائله الهندسية؛ فكان ذلك دمجاً عضويا بين البرهنة الرياضية والتجريب، سيراً على خطى أُودُكسُس وتلاميذه؛ وقد عاصر اودكْسُس افلاطُن وعاصر تلميذه أرسطو؛ ولعبوا كلهم دوراً عظيماً في تحول العلمية في المعارف.

والأسطوانة بما استحقّ به هذه المنزلة. ثم إنه أقرّ في كتاب **المأخوذات** بالعجز عن قسمة الزاوية بثلاثة أقسام. ثم كان مِن اَبُلونْيوس[56] واستخراجه لخواصّ القُطوع والمخروطات ما حاز به الفخرَ على الجميع. وبقي الأمرُ موقفاً في مساحة القَطْع المكافئ، حتى بيّنه إبراهيمُ بن سِنان ولَد ثابت {اكسفورد: 2ظ} بن قرّة[57]؛ وفي قسمة الزاوية بثلاثة أقسام، حتى بيّنه أبو جعفر الخازن الصاغاني[58]؛ وفي عمل المسبَّع في الدائرة حتى بيّنه ويجن[59] بن رستن الكوهي[60]؛ وفي قسمة المجهولات على عدّة مقادير مجهولات ؛ وفي علم جذور المجهولات التي يقع فيها مستثنَيات ؛ وفي تعليل قضايا فيثاغورس[61] العددية، حتى بيّنتُ أنا جميعَ ذلك مبرهَناً في الكتاب الباهر[62].

وقد بقي الآن قسمةُ الزاوية بخمسة أقسام، وعملُ شكل أحد <ي> عشر قاعدة، وعملُ ذي ثلاث <ة> عشر قاعدة وذي سبعة عشر قاعدةً في الدائرة، والمقترنات الثلاثية مع المكعبات[63]، والمقترنات الرباعية جميعِها فصاعدا، وغير ذلك ممّا هو إلى الآن غير معلوم ؛ والبراهين قائمة على وجوده وعلى أنّه غير ممتنع ؛ ويدلّ امتناعُه علينا وعلى سائر مَن تقدّمَنا أنه لا يُكتفى في استخراجه بهذه العلوم والمقدّمات التي في أيدينا، وعلى أنّه يُحتاج إلى مقدّمات أُخر لَمْ تَظهر لنا ؛ ولا يمتنع

---

(56) اَبولُونْيُس (Απολλονις). هو الرياضي البارع، من بلدة برغا؛ ولد حوالي 262 وتوفي حوالي 190 قبل الميلاد؛ أي أنه أصغر من إرخميدس بحوالي ربع قرن؛ عاصر الفلكي الجغرافي إراطُسْتِنِس (Ερατοσθηνης) القوريني (حوالي 276-194 قبل م.) (من شمال ليبيا) أيضاً.

(57) ابراهيم بن سِنان (296–335/ 908–946) هو حفيد ثابت بن قرة؛ وهو حلقة في سلسلة من أجيال من العلماء في ميادين عديدة. له عدّة رسائل في العلوم الرياضية؛ أكثرها في الهندسة والفلك.

(58) هو أبو جعفر محمد بن الحسن الخراساني، المتوفى بين 350 و 360 (961 و 971)؛ ذو مساهمات علمية في الرياضيات وعلم الفلك وصناعة الأسطرلاب.

(59) في مخ اكسفورد: "اوجن".

(60) هو أبو سهل القوهي، توفي بُعيد 391/1001. مساهماته في الرياضيات وعلم الفلك قليلة، ولكنّها دقيقة للغاية، أشهرها **رسالة في استخراج ضلع المسبّع المتساوي الأضلاع**.

(61) فيثاغوراس (Πυθαγορς) الساموسي (حوالي 569-475 قبل م.) لَعب دورا مهماً في ترسيخ العلوم المقتبسة من بابل ومصر في البيئة الثقافية الإغريقية، وفي بلورة تقليد فكري غني تكوّنت في أحضانه علوم الرياضيات: الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. وبلدته سامُس (Σαμος) أنتجت العديد من الفلاسفة– العلماء على مدى قرون عديدة.

(62) في مخ اكسفورد: "حتّى بيّنتُ أنّ جميعَ ذلك مبرهنٌ عليه في الكتاب **الباهر**". والقراءة التي ثبتناها هي الأصوب، لأن كتاب **الباهر** في الجبر للسموأل فعلا.

(63) في مخ ليدن: "الكعاب".

أنْ يأتي بَعدَنا مَن يفتح اللهُ عليه ذلك ؛ فإمّا أنْ يَستخرج ذلك من مقدّمات أُخر يستنبِطها، وإمّا أنْ يَهتدي إلى استنباط ذلك مِن هذه المقدّمات التي لم يَنكشف لأحدٍ كيف يَستخرجه مِنها. فلا خِلاف بيْن أحدٍ مِن أهل الحكمة والأخبار الصحيحة أنّ العلوم بأسرها إنّما ظهرتْ على طريق التزيّد والتفريع، وذلك غيرُ واقفٍ عند نهايةٍ غيرِ محتملةٍ للتجاوز.

ورُبَّ خواطرَ خطرت لجماعةٍ {ليدن: 3و} مِن المتقدمين من فِقَر العلوم ونفائسِها لمْ يُدوّنوها، لأنّ سقراط وأصحابَه كانوا لا يَروْن تدوينَ العلوم[64]، وهو الذي قال: "لا تجعلوا الحكمة في جلود الميتة". وربّ تصانيف كثيرة لمْ تظهر إلى أحد ممّن سمِعْنا خبرَه ؛ كما قد ذكر افلاطُن في كتابه الموسوم **بالنواميس** عِظَم مُصيبته في احتراق خزانته المشتملة على ألوف كثيرة من كتب الحكمة والعلوم النفيسة ؛ وزعم أنه احترق منها عدةٌ كثيرة من تصانيفه ومخترعاته، ممّا قد شذّ عنه من غير أصل به عنده، وممّا قد تعب {اكسفورد: 3و} في جمْعه مِن كلام القدماء الذين قبْله.

فما مِن خاطرٍ يخطُر بِبال أحدٍ إلا وليس يَمتنع أنْ يكون قد خطرَ بِبال غيرِه.

وممّا يتعيّن على العاقل اعتقادُه أنّه ليس يَلزم مِن الاستدراك على المتقدّمين أنْ يكون المستدرِك أعلمَ مِن المتقدّمين بجميع علومهم وفنونهم ؛ بل إنّما يَلزمه التقدمُ عليهم في العلم بذلك الشيء دُون غيره.

وما أكثر أسباب تطرّق الأغاليط إلى تصانيف الفضلاء ؛ إذْ مِنه ما يُحتمل أن يكون من الورّاق والكاتب، إذا صَحّف أو أسقَط عند نقلَه ؛ فإنْ تَتابَع عليه نقلُ جماعة من الورّاقين، وصحّف كلُ واحد مِنهم أو أسقَط شيئاً ممّا قد صحّفه الأوّلُ أو أفسدَه، تفاحَشَ الخطأُ الظاهرُ في الكتاب. وأشدُّ مِن ذلك النقَلَةُ الذين نَقلوا العلوم مِن لسانٍ إلى لسان، فإنّهم ربّما فهِموا مِن بعض الفصول التي[65] يحاولون

---

(64) مبدأ سقراط (Σωκρατης)، (حوالي 469-399 قبل م.) هو أن تنتشر المعرفة من أجل تحفيز العقل على التفكير، لا من أجل أن تقيّد في أنساق قد تُستغلّ من طرف السلطة أو جهات أخرى. هذا بخلاف افلاطُن (Πλατων)، (حوالي 427-347 قبل م.) الذي انتقى من الآراء والتصورات ما يتماشى مع التاليف الذي أوجده، ورمى بالتي لا تناسبه. والخلاف بين الفيلسوفين بدرجة ما، لا بإطلاق.

(65) كلا المخطوطين: "الذين".

نقْلَها غيرَ ما أشار إليه الواضع. وربّما أشكل عليهم عدةُ مواضع فيصْرِفونها على ما يصِحّ في أفهامهم، ويرجع الدرْكُ على الواضِع، وهو على الحقيقة بريء مِنه.

ولربّ كتابٍ مات واضِعُه قبْل تصحيحه ؛ ولربّ مصنّف يُنبئُ في كتابه بغير مذهبه ويذكر {ليدن: 3ظ} غيرَ رأيه لغرض بعَثهُ على ذلك، ولا يبالي بأرزاء الطاعنين. وربّما بعثه غرضُه على[66] الإلمام بذِكر شيء، ولا يَتّسع وقتُ تصنيفه لاستقصاء النظر فيه لأنّه كان على عجل مِن تأليفه. والمنْصف[67] يعلم أن المصنِّف الذي يُوقف مِن كلامه على نفس العلماء، لو ساعَده فراغُ البال، ووَجد مِن قلبه وزمانه الخُلُوَّ الذي يَجده المتطلبُ للعَثرات، الباحثُ عن الخطيئات، لربّما لم يخْفَ عنه[68] موضعُ ذلك الاستدراك. فما مِن حق عاقِلٍ التسرّعُ باللائمة على مصنّفٍ إلاّ أنْ يتحقق مِن أخبارِه في وضع تصنيفه أنّه مات عن تصحيحه وعن طول تفكّر فيه وخلوّ من داعٍ[69] اضطرّهُ إلى ذِكر ما أُخِذ عليه.

والباعث على إنشاء هذا الكتاب إيثارُ تدْوين الخواطر التي وقع {اكسفورد: 3ظ} لي فيها استدراكٌ على أهل هذه الصناعة، وإفادتُهم بما صحّحْتُه منها، وإيضاحُ عجزهم عمّا يرومونه من المستحيلات، وإبطالُ ما يدّعونه من تحقيق الأعمال، وإظهارُ بُعدها عن مناهج الصواب، ليقفوا بصناعتهم عند حدّها.

فعلى الناظر بعين الانتقاد أن يَلتزم لَنا مِن الإنصاف ما الْتزمْناه لِغيرنا، وأن يَحمل ما أضفناه إلى فصول هذا الكتاب مِن كلام غيْرنا، على أنّا أوردْناه تكميلاً لغرض الكتاب وفنّه. ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ والتوكل عليه ؛ وهو الموفق لِما هو أزكى لديه.

(66) في مخ اكسفورد: "فربما بعثه غرضه إلى".
(67) في مخ اكسفورد: "المصنف".
(68) في مخ اكسفورد: "المصنف".
(69) في مخ ليدن: "وداع".

مكونات المعرفة الاجتماعية وأبعادها

خلود السباعي
كلية الآداب – المحمدية

مقدمة :

ينطلق علم النفس الاجتماعي من أن الإنسان يتقاسمه بعدان، أحدهما يحيل على ما هو فردي سيكولوجي، والثاني على ما هو اجتماعي وثقافي. ولعل ذلك ما يفسر تناوله للظاهرة الإنسانية من خلال التركيز على التفاعل الحاصل بين هذين البعدين ، دون سعيه نحو فرز الجانب السيكولوجي عن الاجتماعي، أواهتمامه بإبراز نسبتهما في كل ظاهرة معينة. ومرد ذلك إلى تعامل هذا الحقل المعرفي مع الإنسان ككائن علائقي، كل سلوكاته وإدراكاته واتجاهاته هي نتاج تفاعله مع محيطه. ويمكننا أن نلمس هذا التداخل المعقد للجانب السيكولوجي بالاجتماعي ضمن سائر التعاريف التي منحت لعلم النفس الاجتماعي.

ولقد أدى هذا الارتباط الوثيق لعلم النفس الاجتماعي بالتفاعل ، إلى الإهتمام بدراسة "المعرفة السيكواجتماعية"، باعتبارها المنجم المخزن لكل المعلومات والمؤطر لها. وقد يتساءل البعض عن سبب تسمية هذا النوع من المعرفة الإنسانية "بالمعرفة السيكواجتماعية"، مادام الفرد هو الذي يختار اتجاهاته وآرائه التي تشكل في نهاية المطاف "معرفته" المميزة له كشخص. فأين يكمن إذن الجانب السيكواجتماعي لهذه المعرفة ؟ وكيف يمكن البرهنة على وجوده ؟

للإجابة عن هذه التساؤلات يمكننا القول بأن كل معرفة مهما اكتسبت طابعا فرديا أوحميميا شخصيا، فإن ذلك لا ينفي تضمنها لبعض الخصوصيات التي نجدها مقتسمة بين الأفراد والجماعات بفعل سيرورة التنشئة وأنماط التفاعل السيكواجتماعي. مما يفسر لنا نسبيا، أسباب عدم تكوين الجماعات لنفس "المعرفة"

حول نفس الاشياء، ولا نفس "المعرفة" في نفس الظروف. فطريقة عيشنا كجماعة، هي التي تفرز أنواع التواصل وتحدد أشكال التفاعل فيما بيننا، فتجعلنا نتقاسم جزء هاما من رصيدنا المعرفي مع أعضاء الجماعات التي ننتمي إليها. فإذا كانت إدراكاتنا محكومة بالوسط الإيكولوجي حيث نعيش، فإن معتقداتنا، إديولوجياتنا، اتجاهاتنا ومواقفنا من الصواب والخطأ ومن الواجب والمستحب، الخ. تبقى كلها متأثرة ومحكومة بالوسط الاجتماعي الذي ننتمي إليه.

لذلك يبقى من الصعب الحديث عن المعرفة السيكواجتماعية، دون ربطها بسيرورات التفاعل نتيجة تأثيرنا على الآخر وتأثير الآخر فينا. إذ بفضل هذه التأثيرات نتمكن من تكييف سلوكنا وما ينتظره منا الآخرون، كما نتمكن من التمييز بين الصواب والخطأ، المقبول والمحظور،الخ. فبفضل هذه السيرورات المتراكمة لأشكال التأثير الاجتماعي نكتسب معارفنا، لكي نتأقلم ونحقق الاندماج. مما يفضي إلى القول بأن كل معارفنا تحصل ضمن جدلية قبول الجماعة أورفضها.

ثم بفعل هذه السيرورات التأثيرية المتراكمة، يصبح الأفراد متشابهون دون أن يدركوا معالم هذا التشابه أو ينتبهوا له. هذا التشابه الذي يتمأسس فينا، نظرا لما نتوفر عليه كبشر من رغبة دفينة في نيل إعجاب الآخر، وذلك إلى درجة يتحول معها "الأنا" فينا، إلى "أنا" مشبع بالآخر. وبسبب هذه الرغبة في نيل اهتمام الآخر وإعجابه، نوسع من مجال تجاربنا ونغير من سلوكاتنا وتعابيرنا،الخ. مما يحيلنا على أهمية التواصل (بكل أبعاده المادية أوالرمزية)، الذي يشكل أحد المحاور المهيكلة لهذه المعرفة السيكواجتماعية. ومن هنا الفكرة القائلة، بأنه إذا كانت التوائم البيولوجية محدودة العدد، فإن التوائم السوسيولوجية لا حصر لها[1].

وفي ظل هذه الرغبة في نيل إعجاب الآخروالتشابه معه، يسعى أغلب الأفراد إلى تبني معرفة الجماعة وتقبلها. مما يصبح معه الأفراد على حد تعبير آش Asch يتصرفون عقلانيا بكيفية غير عقلانية؛ Les hommes se comportent

(1) Serge. Moscovici, «*Influences conscientes et influences inconscientes*», Psychologie sociale des relations à autrui, Nathan, Paris, 2000, p.142.

rationnellement de manière irrationnelle. لقد تبين له من خلال مجموعة من التجارب، بأن أغلب الأشخاص يمنحون الأولوية في إدراكهم للواقع وتقييمه، لمواقف الآخرين وأحكامهم. كما نجدهم يهتمون بأن تكون آراؤهم متوافقة مع آراء الجماعة، أكثر من اهتمامهم بملاحظة الواقع العيني، حتى ولو تم ذلك على حساب إدراكهم الموضوعي لهذا الواقع. مما أدى به إلى التمييز ما بين الانحياز لأفكار الجماعة والاقتناع بها، فأغلب الأشخاص ينحازون لأحكام الجماعة وتقييماتها بكيفية واعية وبناء على تفكير استراتيجي ممنهج، لكنهم يتقبلونها لأسباب ذاتية وعاطفية[2].

وبناء على ما سبق يمكننا حصر أبرز خصائص "المعرفة السيكواجتماعية" في :

1 / عدم توقفها على الخصائص المادية أو الموضوعية للأشياء، لكونها بمثابة إعادة بناء فكرية لما هو واقعي، انطلاقا من تمثلات الأفراد، اتجاهاتهم، خبراتهم السابقة، ومصالحهم الآنية والمستقبلية.

2 / طابعها النسبي، لارتباطها بالفاعلين الاجتماعيين وبأنساقهم الثقافية. ولعل ذلك ما دفع ببعض الباحثين إلى تسميتها "بالمعرفة الاجتماعية المقتسمة"، تأكيدا منهم على طابعها الجماعي المشترك[3].

ويكفي الوقوف عند هاتين الخاصيتين لكي نلمس الطابع المعقد لهذه المعرفة، بسبب احتوائها لكل أنواع النشاط الذي يقوم به النسق السيكولوجي للأفراد، سواء تعلق الأمر بانتاج المعطيات لتكوين وتطوير ما هو معرفي، أم باختيار الأخبار وتحويلها أو تنظيمها، أم بالحيثيات الثقافية المؤثرة في تكوين هذه الأخبار وانتقائها.

فإذا كنا نستقي هذه المعرفة من الأفراد، فإن ذلك لا يعني توقفها على النشاط الفردي للشخص أو المثيرات المحيطة به، لارتباطها بمجموعة من الآليات التفاعلية التي تزود الفرد بمجموعة من الأطر والمرجعيات التي على أساسها يدرك الواقع ويمنحه معاني معينة. لذلك فإن الإشكال هنا، لا يكمن في التساؤل حول ما إذا

---

(2) Serge. Moscovici, *Ibid*, p.143.

(3) J.Philippe. Leyens et J.P. Godol, «*cognicion social*», *Introduccion a la psychologia social*, Edicion Ariel psychologia,Barcelona, 1991, p.103.

كانت هذه "المعرفة" المبلورة من طرف الأفراد أو الجماعات تحمل طابعا سيكواجتماعيا أم لا، بقدرما يكمن في تحديد مضامينها وإبراز سائر الميكانيزمات المعتمدة فيها. هذه الميكانيزمات التي يتوخى علم النفس الاجتماعي تناولها بشكل علمي، من خلال تعريفها، التمييز بينها، تعيين وظائفها، ثم كيفية تكاملها ضمن نسق معرفي يسعى إلى أن يكون متوازنا. ومن بين أبرز مكونات هذه المعرفة السيكواجتماعية، التمثلات، الإدراكات، التصنيفات، والإسنادات، والتي يمكن اعتبارها بمثابة ميكانيزمات نلمس من خلالها مدى تأثرنا بالسيرورات الاجتماعية المتمثلة في الحضور الفعلي أو المتخيل للآخرين، المعلومات والآراء التي نسمعها أو نتلقاها عنهم، كما تعكس مختلف السيرورات المعرفية التي تجسدها مشاعرنا، إدراكاتنا، ذكرياتنا، حوافزنا الخ. وسعيا منا نحو توضيح هذا الطابع المعقد والمتداخل لمكونات المعرفة السيكواجتماعية، سوف نحاول الوقوف على بعض منها بنوع من التفصيل.

1 / التمثل السيكواجتماعي : la représentation psychosociale

يعود الفضل إلى علم النفس الاجتماعي في بلورة هذا المفهوم وإبراز أهميته، إذ بتطور هذا التخصص تطورت مختلف الدراسات التي اهتمت بالبحث في أشكال المعرفة السيكواجتماعية، وما تتضمنه من سيرورات رمزية مؤثرة على تصرفات الأفراد وردود أفعالهم. الشيء الذي نبه إلى أهمية دور "التمثلات" كميكانيزمات معرفية تجمع ما هو نفسي بما هو اجتماعي، مما يمنحها إمكانية التأثير على كل من المثير والاستجابة داخل مختلف التفاعلات بين الأفراد.

ولقد سبق لدوركايم أن تحدث عن "التمثلات"، باعتبارها نوعا من التصورات الجماعية Les représentations collectives، محاولا دراستها كموضوع مستقل بذاته لما لها من خصوصية تجعلها متميزة عن التمثلات الفردية. فهي ليست في نظره مجرد تمثلات فردية وقد أضيفت إلى بعضها البعض، بقدرما هي تمثلات جماعية نلمس من خلالها أسبقية ما هو جماعي على ما هو فردي. ثم دعى بعد ذلك إلى ضرورة إسناد دراسة التمثلات إلى السيكولوجيين، لكي يوضحوا الأسباب التي تجعل هذه التمثلات الجماعية مختلفة عن التمثلات الفردية أو

الشخصية رغم كونها من إنتاج الأفراد. إلا أن هذا النداء الدوركايمي مكث لسنوات طويلة دون أن يجد أذنا صاغية.

كما أدى تطور الأبحاث في مجال الأنثروبولوجيا، إلى التأكيد على ضرورة الاهتمام بدراسة "التمثلات"، لما لها من دور فعال في فهم الطقوس والعادات والتقاليد، وغيرها من الأنساق التصورية للمجتمعات البدائية. إلا أن كل هذه الملاحظات لم تدفع بالدراسات السيكولوجية إلى الاهتمام بالتمثلات، وذلك بسبب مكوثها لمدة طويلة تحت سيطرة المدرسة السلوكية. مما أدى إلى حصر أغلب الأبحاث السيكولوجية عند حدود علاقة المثير بالاستجابة، دون أدنى اهتمام بالحوافز أو المحركات الداخلية للسلوك، لكونها غير قابلة للملاحظة الخارجية.

فبالرغم من تداول هذا المفهوم، فإن تحديده الدقيق لن يتم إلا بعد ظهور وتطور علم النفس الاجتماعي مع ج. ميد G.Mead. هذا الأخيرالذي رفض التصور الوطسوني السلوكي، منبها إلى أهمية حجم التأثيرات الاجتماعية على سلوكات الأفراد، وخصوصا منها تأثيرات التمثلات[4]. الشيء الذي ساهم في فتح أبواب جديدة أمام المعرفة الإنسانية بشكل عام، والمعرفة السيكواجتماعية بشكل خاص. إذ لم تعد هذه الأخيرة مجرد انعكاس للواقع وعرضه في الفكر الإنساني، بقدرما أصبحت بمثابة إعادة إنشاء فكرية له طبقا لنوعية الأطر المرجعية التي يتم الانطلاق منها وفي مقدمتها التمثلات. وبناء على ذلك أصبحت "التمثلات" تشكل قاعدة كل نشاط رمزي، يمكن أن يؤثر على مختلف الأنساق المعرفية للأفراد وعلى تصرفاتهم.

ومن أبرز الباحثين الذين اهتموا بمفهوم التمثل داخل الحقل السيكواجتماعي موسكوفيسي Moscovici الذي انطلق من تعريف دوركايم، مع تعويضه لكلمة جماعي Collective التي استعملها دوركايم بكلمة إجتماعي Sociale، معتبرا التمثل بمثابة الوجه المعاصر لما كان يطلق عليه سابقا "بالحس المشترك". ويقول موسكوفيسي Moscovici معرفا التمثل : "إن التمثلات الاجتماعية هي أنساق معرفية لها منطقها ولغتها الخاصين بها... ونحن هنا لا نرى" آراء حول " أو" صور ل" أو"اتجاهات نحو"، وإنما نحن أمام "نظريات" أو "علوم" موجهة لأجل معرفة

(4) Claudine Herzlich, «La représentation sociale», In *Psychologie sociale*, sous la diréction de S. Moscovici, Tome 1, Paris, 1972, P.304.

الواقع وتنظيمه. فالتمثلات الاجتماعية هي في الأصل نسق من القيم والممارسات التي تحتوي على وظيفتين، تتجسد أولاهما في إنشاء نظام يمنح الأفراد إمكانية توجيههم داخل وسطهم الاجتماعي وسيطرتهم عليه، وثانيهما في تمكينهم من تحقيق التواصل فيما بينهم، من خلال اقتراح شفرة لأجل تسميتهم لعالمهم وتصنيفه بشكل موحد، مبلورا عبر ذلك تاريخهم الاجتماعي والشخصي"[5].

نستنتج من خلال هذا التعريف، بأن التمثلات في نظر موسكوفيسي Moscovici هي بمثابة أنساق من الاعتقادات المقتسمة بين أعضاء الجماعات الاجتماعية حول ذواتهم وحول الآخرين. ومن أبرز مهامها إضفاء نوع من الانسجام والاستقرار على الحياة الاجتماعية، عبر توجيهها لإدراكات الأفراد وسلوكاتهم. ويضيف موسكوفيسي Moscovici في مجال آخر موضحا وظائف التمثلات مبرزا طابعها الإنشائي : "إننا نطلق لفظ التمثلات على كل سيرورة أو تبلور للنشاط الذهني، يكون الهدف من ورائه (سواء تعلق الأمر بالفرد أم بالجماعة) إعادة بناء الواقع، من خلال تفسير أحداثه وملابساته بكيفية خاصة ومتميزة"[6].

أما هوستن Héwstone فيعرف التمثلات على أنها أنساق مشكلة من بنيات معرفية معقدة، يمكن تشبيهها بقناطر تربط الواقع الفردي بالاجتماعي، لتوسطها سيرورة عملية إنشاء الواقع الاجتماعي لدى الأفراد.

فسواء تعلق الامر بالتعريف الأول أم الثاني، فإن كلاهما يسير في اتجاه اعتبار التمثل هو العمل بكيفية جماعية وطبقا لمعطيات ثقافية متميزة على تنظيم المعلومات المبلورة حول الواقع. وتبدأ هذه العملية بتوجيه المدركات من خلال الاعتماد على بعض الرموز والشفرات التي تمثل بداخل كل ثقافة ما يصطلح عليه "بالقاعدة"، لكي تحولها إلى ظواهر اجتماعية ترسخ من خلالها سيرورة المنطق الاجتماعي. هذا الأخير، الذي يعمل على تجديد تصوراته بالاعتماد على تفاعلات الأفراد، وتداخل بنياتهم النفسية والاجتماعية.

(5) Milles Hewstone et J.M. Jaspars, «Relations inter groupes et processus d'attribution», *L'attribution*, sous la direction de J.C.Deschamps, Delacheaux et Niéstlé, 1990, Paris, p.223.

(6) J.C.Arbic, *Les représentations sociales*, P.U.F, 2°Edition, 1991, P.188.

وتجدر الإشارة إلى أن ارتباط التمثلات بهذه البنيات العلائقية التفاعلية، خاصية تجعلها بعيدة ومختلفة عن أية بنيات إديولوجية، لما لهذه الأخيرة من طابع إلزامي، غالبا ما يكون مفروضا على الأشخاص. وذلك على عكس التمثلات التي نجدها تحمل طابعا شخصيا اختياريا، ناتجا عن مجموعة من الإدراكات الاجتماعية التي تتولى تنظيم الأشياء طبقا لتصنيفات رمزية (مثلا العادات والقواعد الاجتماعية الخ.) ذات وضع معرفي خاص، تتولى دفع الأفراد إلى تأطير سلوكهم طبقا لما تم التعارف عليه. مما نخلص معه إلى القول بأن الحديث عن التمثلات يجعلنا أمام مقاربة خاصة لا تبدي عناية كبيرة للسلوكات الملاحظة أو العينية، بقدرما تركز على الأبعاد الرمزية المتمحورة حول "الدلالة" أو "المعنى". فالباحث في هذا المجال لا يهتم بالواقع الموضوعي كما يبدو له هو كباحث، بقدرما ينصب اهتمامه على أنساق التفكير المسبقة بالتصميمات والتأويلات والإسنادات التي أضفاها الشخص أو الجماعة على الواقع وأصبح يتعامل معه على أساسها .

• محتويات التمثلات :

في نطاق تحليل البنيات المعرفية، تشكل التمثلات مثالا نموذجيا للصعوبات التي يمكن أن تعترض الباحث الراغب في إبراز وتحديد العوامل المكونة لهذه البنيات. لأن الأمر يتعلق بمجموعة من الآراء والاعتقادات والمعلومات والإسنادات، مما يطرح إمكانية تناول مفهوم التمثل من أبعاد متعددة. ولقد أدى هذا التعدد على مستوى المضامين المعرفية، إلى اختلاف الباحثين حول تعريف التمثلات وتصنيف مضامينها. وسوف نقف في هذا المجال على تصنيف قدمه فيشر Fischer وذلك لوضوحه مقارنة بالتصنيفات الأخرى.

يقسم فيشر Fisher محتويات التمثل إلى ثلاثة عناصر كالتالي :

1 / غالبا ما يكون محتوى التمثل ذا طابع معرفي، يتضمن مجموعة من المعلومات المبلورة حول موضوع معين. وهذه المعلومات يمكن أن تكون متباينة ومتنافرة، كما يمكن أن تكون منمطة جاهزة، كما يمكن أن تكون غنية ومحملة بعدد كبير من المعطيات الجديدة.

2 / لمحتوى التمثل بعدا دلاليا واضحا، يحدد انطلاقا من العلاقة صورة / معنى، مما يفسر التناسب المستمر بين هذين القطبين. فالمعاني غالبا ما تمر من خلال الصور،

والصور هي التي تتولى انشاء الدلالات، والدلالات تتجسد في التمثلات لكي تمنح لتلك الصور طابعا تفسيريا يبقى من الصعب هيكلته أو تعيين وجوده في استقلال عن طابعه التصويري.

3 / للتمثل محتوى رمزي لا ينفصل عن الخاصية السابقة، لأن الرمز هو في حد ذاته عاملا للتمثل. فالشيء الماثل في تصوراتنا هو في الغالب الأعم، رمز يدل على شيء غائب عن إدراكنا. ويعود هذا المحتوى الرمزي للتمثل إلى البنية الخيالية للأفراد، التي تشكل في نفس الوقت طريقة خاصة في التعبير عن الواقع، بكل ما يتضمنه هذا التعبير من رغبات وتوقعات تعكس "إسقاطات" الأفراد كما أشار أصحاب التحليل النفسي.

• وظائف التمثلات:

يمكن القول بأن هذه المحتويات السابقة الذكر سوف تؤهل التمثلات للقيام بوظائف معينة، نابعة من كونها سيرورات أو أنشطة سيكواجتماعية. ومن ضمن أبرز تلك الوظائف، قيامها بمهمة نطلق عليها "التصفية المعرفية". ومعناها تولي التمثلات مهمة دمج كل الأحداث الجديدية والغير المتوقعة، ضمن النسق المعرفي السابق للفرد حتى يتمكن من استيعاب الجديد وتأطيره نظريا، محافظا على نسبة عالية من الانسجام والتناسق النفسي والمعرفي. وبهذه الكيفية تصبح التمثلات بمثابة بنيات معرفية دفاعية، تعمل من أجل الحفاظ على التوازن العاطفي والاجتماعي والمعرفي للفرد. وكأنها ميكانيزمات معدلة يتم عبرها المرور من التصور النظري المجرد إلى التصور الواقعي الملموس. ويمكننا الوقوف على هذا الميكانيزم الوظيفي القاعدي للتمثلات، من خلال ما يؤديه من مهام يمكن تلخيصها في ما يلي :

- إن التمثل باعتباره سيرورة معرفية، سيتولى تحريف الواقع وتحويله من طابعه المادي الملموس لكي يمنحه طابعا فكريا مجردا. ونشير بأن هذه العملية مهما بدت بسيطة فإنها لن تكون محايدة،لكونها ليست مجرد عملية نقل لصورة طبق الأصل.

ـ التمثل باعتباره سيرورة علائقية، سوف يتم طبقا للوضعية التي يوجد عليها الشخص أو الجماعة.

ـ التمثل باعتباره تصور إنساني، سوف يهدف إلى إعادة إنشاء الواقع طبقا للمعلومات السابقة، لكون الفرد (كما سبقت الإشارة) يستدمج الجديد عبر تأطيره ضمن النماذج الثقافية والإديولوجية المهيمنة.

ـ التمثل هو تحريف للواقع، بمعنى نشاط سيكولوجي مقصود، يهدف الفرد من خلاله إلى جعل واقعه الذي لا يكف عن التغيير، واقعا طبيعيا مألوفا قائما على قواعد ثابتة حتى يسهل عليه فهمه والتعامل معه.

ولقد حصر وليام دواز W. Doise وظائف التمثلات في النقط التالية :

ـ الوظيفة الانتقائية : وهي التي تسمح للفرد بالتمييز بين الخصائص الإيجابية والسلبية ضمن الظواهر السيكواجتماعية. ولقد لاحظ بأن الخصائص الإيجابية غالبا ما تسند لجماعات الانتماء، في حين يتم اسناد الخصائص السلبية للجماعات المنافسة أو المغايرة أو المشكلة للأقليات الخ.

ـ الوظيفة التبريرية : وهي التي تلجأ فيها التمثلات إلى انتقاء النماذج المنمطة لأجل عقلنة وتبرير مختلف المواقف ذات الحمولات السيكولوجية، والدلالات العاطفية والثقافية الواضحة، والبعيدة عن كل صبغة منطقية أو موضوعية. (مثلا عند الرغبة في إبعاد بعض الجماعات أو الحفاظ على نوع من المسافة الاجتماعية إزاءها).

ـ الوظيفة الحافزية : وهي التي تحفز الأفراد وتدفعهم إلى اختيار نوع معين من العلاقات وتكثيفها أو التقليص منها (سواء تعلق الأمر بعلاقات آنية أو مستقبلية) طبقا لما عايشوه من تجارب وخبرات[7].

من خلال هذه الوظائف نلمس تأكيد و. دواز W. Doise على مدى ارتباط التمثلات بالتفاعل. فهي تشكل أحد أبرز الميكانيزمات الموجهة له من جهة،

(7) Geneviève Vinsonneau, «Psychologie sociale et conflit inter- ethnique», *Migrants Formation*, N°80, 1990, p.18.

والناتجة عنه من جهة ثانية، وذلك لاستحالة نشأتها أوتبلورها خارج عملية التفاعل. فإذا كان محتوى التمثلات يتغير طبقا لنوعية التفاعلات القائمة بين الأفراد والجماعات، فإن ذلك لا ينفي تأثيرها على كيفية تكون تلك التفاعلات وتطورها. مما يدل على وجود علاقة ديناميكية واضحة بين الطرفين، بحيث أنها تتحدد من خلال التفاعل، كما أنها تؤثر بدورها عليه.

ولقد سارت أعمال تاجفيل Tajfel نفس الاتجاه، مبرزة علاقة التمثل بعملية الإسناد وبلورة الاتجاهات المتصلبة. فإذا كانت النماذج المنمطة تلعب دورا حيويا في انشاء النسق السببي، فإن التمثلات هي التي تتولى وبشكل مسبق مهمة لم العتاد المعرفي الذي سوف تستند إليه تلك التصميمات المؤطرة التي تدعى بالنماذج المنمطة. مما يفيد بأن التمثلات هي التي تحدد كيفية إدخال المعلومات ومعالجتها، وبناء على ذلك فإنها هي التي تتولى تأطير الإدراك ضمن مجموعة من التصنيفات التي تم إعدادها مسبقا.

ويمكننا توضيح هذا التداخل بين كل هذه الميكانيزمات المعرفية، من خلال المثال التالي : لنتصور حدوث لقاء ما بين أمريكي وعربي لا يعرف كل منهما الآخر، فإن أول انطباع سوف يتكون لدى كل منهما نحو الآخر هو الانطباع المرتبط بالتمثل المجسد "للنموذج المنمط" المتداول عن الأمريكي والعربي داخل ثقافة كل منهما بشكل عام. وبنفس الكيفية نلاحظ لو تم لقاء ما بين فرنسي وألمانيان مثلا، فإن التمثل المسبق الحاصل في ذهن الفرنسي، سوف يجعله يدرك الألمانيان متشابهان، دون أن يسمح له ذلك بإدراك الفوارق الموجودة بينهما كشخصين متمايزين.

نستشف من هذا المثال مدى تأطير سيرورة التمثل لطريقتنا في الإدراك. فبالرغم من كون التمثل هو عبارة عن "معطى إدراكي"، إلا أن ذلك لا يمنعه من نسج نظرة اختزالية غرضها تقديم صورة معينة سوف تعمل لامحالة على تحريف الواقع وتشويه حقيقته العينية. وذلك مع الحرص على تأطير كل تلك المعطيات الإدراكية في صورة تحظى لدى صاحبها بنسبة عالية من البداهة والوضوح، كي يسهل تعامله مع واقعه. وذلك لتولي التمثلات مهمة إزالة الشوائب التي قد تعوق معرفة الواقع أو فهمه وبالتالي التكيف معه.

ونستحضر في هذا المجال نظرية هيدر Hèider حول "التوازن المعرفي"، حيث تشكل الوحدة الإدراكية والمعرفية في نظره معطيات حيوية، لما تمنحه من إحساس بالتوازن السيكولوجي والانسجام الداخلي لدى الأفراد. ولعل بحث الإنسان فردا أو جماعة عن الانسجام الداخلي، هو السر الكامن وراء ما يعتور إدراكاتنا من تحريفات.

وخلاصة يمكننا القول بأن للتمثلات وظائف وأبعاد متعددة، وضحها مسكوفيسي Moscivisi من خلال تركيزه على محتوياتها، وتنبيه و. دواز W.Doise إلى أهميتها الوظيفية، وإبراز كل من هيوسطون وجاسبارز Jaspars et Héwston لعلاقتها بتكوين الهوية لدى الجماعات المتباينة، ثم تأكيد تاجفيل Tajfel على مساهمتها في تأطير كل من الإسناد وبلورة الاتجاهات المتصلبة. وتبقى التمثلات بالنسبة لكل هؤلاء رغم ما يوجد بينهم من اختلافات، بمثابة ميكانيزمات متضمنة لحمولة من التصنيفات المعرفية والتقييمات الخفية المبلورة حول الذات وحول الآخر، والمؤدية إلى تكوين هوية سيكواجتماعية معينة.

• الإدراك السيكواجتماعي : La perception psychosociale

يمثل الإدراك أحد أبرز المواضيع التي استقطبت اهتمام الباحثين داخل حقل السيكوسوسيولوجيا، لارتباطه الحيوي بمجمل السيرورات المكونة للمعرفة الاجتماعية. وتأتي مدرسة الجشطالت على رأس قائمة المهتمين بهذا الموضوع، لتوليها تحديد معنى الإدراك، أنواعه، شروطه، ثم مجمل الظروف والملابسات المؤثرة عليه. كما أبرزت قيمته في مجالات سيكولوجية ومعرفية متعددة.

إلا أنه وبالرغم مما أولته مدرسة الجشطالت لموضوع الإدراك من اهتمام، فإن دراسته كسيرورة معرفية مستقلة، لم تتم إلا مع ظهور علم النفس الاجتماعي. هذا الأخير، الذي تولى توضيح هذا المفهوم في ظل الميكانيزمات المعرفية، التي من خلالها نتمكن من معرفة الواقع الاجتماعي وتصنيفه. فماذا نقصد بالإدراك السيكواجتماعي ؟ ما هوالفرق بينه وبين سائر أشكال الإدراك الأخرى ؟ ثم إلى أي حد يختلف إدراك الأشياء عن الإدراك الذي يتم في نطاق التفاعل الاجتماعي ؟

تبدأ خصوصية "الإدراك" داخل حقل علم النفس الاجتماعي، من خلال تأكيد كل الدارسين على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار للمحددات الاجتماعية والثقافية في

كل دراسة أو بحث بصدد عملية الإدراك. وذلك ما نجده عند كل من كريش وكريشفيلد Krech/krutchfield اللذين أطلقا على الإدراك New Look. ثم بعدهما نجد كولدمان Coodman وبرومير Brumer اللذين اعتبرا الإدراك بمثابة فاعلية تتضمن تأثيرات القيم والقواعد الاجتماعية.

وبناء على هذا الربط للإدراك بما هو اجتماعي، صار من الضروري التمييز بين ما هو اجتماعي وما هو غير ذلك. الشيء الذي أفضى بالباحثين إلى الاتفاق على ضرورة حصر الإدراك السيكواجتماعي في "إدراك الأشخاص"، على اعتبار أن هناك فرق شاسع ما بين إدراك الأشياء وإدراك الأشخاص. ويتولى الباحثون في هذا المجال توضيح خصوصية إدراك الاشخاص كالتالي : إننا غالبا ما ندرك الآخرين من خلال تأثيرهم علينا أو من خلال تأثيرنا عليهم. بمعنى أن إدراكاتنا غالبا ما تتم على شكل "أنساق" أو بنيات منظمة لمجموعة من التمثلات التي توجه إدراكنا، فتجعلنا منذ الوهلة الأولى ندرك هؤلاء على أنهم متشابهين معنا أو مختلفين عنا. وبالتالي قريبين منا أو بعيدين عنا، أصدقاء أو أعداء الخ.

كما يتميز هذا النوع من الإدراك الاجتماعي بكونه ممتد في الزمن، الشيء الذي يمكن شرحه كالآتي: لنتصور أننا دخلنا حجرة تضم عددا من الأفراد، فالتكن قاعة انتظار مثلا. هنا سوف نلاحظ بأن إدراكنا للمحتويات المادية التي تتوفر عليها الحجرة، سوف يتم حالما نجول ببصرنا في الحجرة مرة أو مرتين على الأكثر، وذلك على عكس إدراكنا للأشخاص القابعين فيها. فالأمر في هذه الحالة يقتضي التوفر على معطيات، رموز، إسنادات، تمثلات، تاويلات الخ. فإذا نحن وقفنا عند حدود ما نشاهده في الخارج، فإننا نحس في قرارة أنفسنا بأن معرفتنا جد ناقصة، مما يولد بداخلنا الرغبة في إغنائها من خلال تفسيرنا لحركاتهم، تأويلنا لما يقولونه الخ. وذلك ما نعنيه بقولنا : "إن إدراك الأشخاص هو إدراك ممتد في الزمان"[8] .

هذا فضلا عن كون نظرتنا للآخرين تجعلنا منذ الوهلة الأولى نكون بصددهم انطباعا عاما لايفتأ عن التغير، طبقا لتنوع وغنى خطاباتهم وتصرفاتهم، مما يجعلنا

(8) Fritz. Heider, «perception d'autrui», Psychologie sociale, André Levy, DUNOD, Tome1, Paris, 1987, P.121.

ندرك أهمية عامل الزمن.هذا الأخير الذي يمثل أحد الخصائص المحددة للإدراك السيكواجتماعي، والمميزة له عن غيره من أشكال الإدراك التي ترتبط بأشياء العالم الخارجي. ومن أبرز الباحثين الذين تولوا دراسة الإدراك السيكواجتماعي من هذا المنظور، فريز / آش / هيدر Heider/Asch/Fritz، الذين عمدوا إلى إبراز خصوصيته السيكواجتماعية انطلاقا من تأثرهم بمدرسة الجشطالت الأمريكية. وتتجسد هذه الخصوصية حسب رأيهم في كون الشخصية لا تتلقى المعلومات من العالم الخارجي فحسب، وإنما تتولى هي أيضا القيام بعمليات إضافية أبرزها ترجمة تلك المعلومات وإعادة بنائها طبقا لوسطها الاجتماعي والثقافي.

فلقد تبين بأن الأشخاص لايسجلون داخل عملياتهم الإدراكية سوى العلامات المتناسبة مع وسطهم الاجتماعي. بمعنى أن إدراكاتهم وكذا قدرتهم على اكتساب المعلومات، تبقى جد محدودة وبسيطة إذا ما تمت مقارنتها بالتعقيدات الموجودة بداخل كل ظاهرة خاضعة للإدراك[9]. فإذا كانت المحددات الواقعية أو العينية تمثل "الدرج" الأول والأساسي في التعرف على الواقع، فإن العوامل الذاتية بما تتضمنه من آفاق ومرامي فردية، تبقى صاحبة الكلمة النافذة في تعيين خصائص هذا الواقع وتعريفه، وذلك بسبب قدرتها على تحريف تلك المحددات وتغيير دلالتها، مما يبرز مدى ضرورة الإلمام بالعوامل السيكواجتماعية، وبدورها الفعال في التأثير على كل عملية إدراكية[10]. الشيء الذي تصبح معه الإدراكات بمثابة نوع من الحوافز المحركة للسلوك، مادام تمثلنا للعالم الخارجي وإدراكنا له نابع من رغبة داخلية نسعى من خلالها في غالبية الأحيان إلى إدخال السعادة وإرضاء المشاعر وتحقيق الأهداف، الشيء الذي ينبهنا إلى مدى ارتباط الإدراك بالتمثل، إذ وراء كل عملية إدراكية توجد تمثلات معينة تقوم بتوجيه تلك الإدراكات، محفزة الأفراد لكي يدركوا الأشياء بطريقة دون أخرى.

وبناء على ذلك أصبح من الضروري الأخذ بعين الاعتبار للجوانب الثقافية والاجتماعية في دراسة سيرورة الإدراك ضمن مختلف التخصصات. إذ لم يعد

(9) G.P. Leyens, et J.P. Godol, «*Cognicion social*», *Introduccion a la psychologia social*, Ediciones Piramide, Madrid, 1999, p.101.

(10) Geneviève. Vinsonneau, «Psychologie sociale et conflit inter-ethnique», *Op.Cit*, p.18.

البحث منصبا على الإدراك باعتباره سيرورة موضوعية، بقدرما أصبح عبارة عن دراسة لنوعية المعتقدات التي ترتكز عليها عملية الإدراك لأجل فهمها وتوضيح مضامينها والتأثير عليها قدر الإمكان لأجل إبعادها عن كل أشكال التحيز أو التعصب بين الأفراد أو الجماعات. على اعتبار أن كل إدراك سيكواجتماعي هو في نهاية المطاف، طريقة معرفية خاصة في تشكيل الواقع وتحديده، طبقا لتمثلات وإنشاءات عقلية تقييمة ذات مرجعية اجتماعية وثقافية واضحة. ويقول الاستاذ مصطفى حدية في هذا المجال : "إن كل ما ينتمي إلى مجالنا الشخصي هو جزء من القوى المتواجدة بداخلنا، فقد نستطيع جهلها أو تجاهلها ـ وأغلب الناس يجهلون مشاعرهم التي يكونونها والتي تحركهم ـ ولكن مع ذلك فإن هذه القوى لا تكف عن أن تظل فعالة ومؤثرة"[11].

انطلاقا مما سبق، يمكننا القول بأن مجمل أنواع النشاط السيكولوجي الذي يقوم به الفرد من أجل انتاجه للمعرفة، يتوقف على الطريقة التي يبلور بها تمثله لهذا الواقع وبالتالي إدراكه له. فالأمر كما نلاحظ يتعلق بتظافر مجموعة من السيرورات التي تتكامل فيما بينها، لكي تؤدي في نهاية المطاف إلى نشوء معرفة تمكن الفرد من تحديد مختلف الأشياء المحيطة به وإعطائها معنى معينا. وبذلك نكون أمام حلقة مفرغة طرفاها الإدراك وحصول المعرفة. لأن ولوج المعلومات إلى أذهاننا وطريقة تكويننا لمعارفنا، أمور لا تتم إلا من خلال مجموعة من الإدراكات. وتلك الإدراكات لا يسعها لكي تقدم لنا معلومات، سوى تأطير نفسها ضمن مجموعة من التمثلات التي "تشوه" إدراكاتنا وتجعلها خاضعة لعملية انتقائية صارمة. هنا يصبح الإدراك محددا لمعارفنا ومحددا بها، على اعتبار أن كل ما نراه أو ندركه هو في غالبية الأحيان بمثابة "انتقاء" ضمن عدد لانهائي من المدركات الممكنة.

ولقد تعاملت الدراسات الأولية للإدراك في بداية الأمر مع هذه العمليات الانتقائية، على أنها "محددات الإدراك". إلا أن الأبحاث التي قام بها كل من آش Asch و هيدر Heider فيما بعد، قد بينت بأن اهتمامات الأفراد ورغباتهم

(11) مصطفى حدية، "مفهوم إدراك الآخر ومسألة الدور في علم النفس الاجتماعي"، المناظرة، السنة 3، العدد 3، 1990، ص. 57.

وقيمهم، هي التي تلعب الدور الرئيسي في توجيه الإدراك[12]. ولعل ذلك ما يفسر سبب انعكاف الإدراك لدى الأشخاص على أشياء دون أخرى، وذلك تبعا لحوافزهم، رغباتهم، ومصالحهم الخ. ولقد أجريت مجموعة من التجارب التي أثبتت بأن خضوع الأفراد لنفس المحددات الأولية للإدراك أوالانتباه، لاتؤدي إلى حصولهم على إدراكات متشابهة. الشيء الذي دفع بالباحثين إلى طرح السؤال التالي : على ماذا يستند الأفراد في اختزالاتهم الإدراكية؟[13].

فكان الجواب منحصرا في ضرورة الرجوع إلى تأثيرات الثقافة والمحفزات الداخلية للأفراد. فلا مناص من الأخذ بعين الاعتبار للحضور القسري "للنسق القيمي" الذي يقوم بدور حساس جدا في التأثير على عتبة الإدراك. هذا الحضور الذي يتولى مهمة توجيه عتبة الإدراك، فإما أن يحصرها في المثيرات المقبولة، وإما أن يحصرها في المثيرات الغير مقبولة، وذلك ما يعرف بالحساسية الانتقائية. La sensibilité sélective وتجدر الإشارة هنا إلى أن لجوء "النسق القيمي" إلى مثل هذه الآليات الانتقائية، هو بمثابة سيرورة معرفية لبلورة ميكانيزمات دفاعية موجهة للإدراك حتى يحافظ الشخص على توازنه السيكواجتماعي. ولعل ذلك ما دعى بأطيناف Attneave إلى التأكيد على أهمية "الترميز"، باعتباره أحد أبرز الوظائف التي لا تخلو منها كل عملية إدراكية[14] فكل المعلومات المستقبلة في نظره يتم إدراكها بكيفية أكثر "اقتصادية" مقارنة بما يمكن أن تمدنا به الحواس. وبناء على ذلك فإن أغلب معلوماتنا إن لم نقل كلها، تصبح "مرمزة" طبقا لهذا المعيار أو ذاك، والذي تحدده المقارنة بالآخر أو الاستناد إلى بعض المعتقدات أو غيرها من أنواع الحوافز التي لا يمكن حصرها، لاختلافها وتنوعها باختلاف وتنوع الثقافات والمجتمعات والجماعات والأفراد.

وتجدر الإشارة إلى أنه بصرف النظر عن محددات الإدراك أو طبيعة المثير، يبقى "النسق القيمي" هو المحدد الأساسي لكل إدراك سيكواجتماعي. فالفرد لا يدرك ما

---

(12) Serge. Moscovici, «Influences conscientes et inconscientes», *Psychologie sociale des relations à autrui*, Nathan, Paris, 2000, p.143.

(13) L.Postman, J. Bruner, E.Macginnis, «Valeurs personnelles en tant que facteurs sélectifs dans la perception», In Psychologie sociale, *Op. Cit*, P.135.

(14) Fritz. Heider, «La perception d'autrui», *Op. Cit*, p.123.

يمكن إدراكه، بقدرما يدرك ما يميل إلى إدراكه لتناسبه مع نسقه القيمي. الشيء الذي وصفه الباحثون بـ La résonance à la valeur وبناء على ذلك يمكن القول بأن القيم المتبنات، هي التي تمنح الفرد إمكانية إنشاء تصنيفات قارة تمكنه من ترميز واقعه حتى تسهل عليه معرفته. مما يفسر تشبث الأفراد بهذه القيم وارتباطهم بها ورغبتهم في الحفاظ عليها، لكونهم يحافظون بذلك على انسجامهم السيكولوجي وتناغمهم الداخلي. ولعل ذلك ما يفسر غضنا للطرف في غالبية الأحيان عن أخطاء من نحبهم وتعاملنا معها بنوع من التسامح. فمهما بدت تلك الأخطاء واضحة تجدنا نبحث لها عن مبررات، لأجل أن نحافظ على التناغم بين إدراكاتنا الخارجية ومواقفنا الداخلية. فحبنا لشخص ما مثلا، غالبا ما يدفعنا إلى إدراكه بكيفية معينة، كما يجعلنا نؤول تصرفاته وسلوكاته طبقا لما نشعر به داخليا نحوه من حب والعكس صحيح.

ولقد سبق لمدرسة الجشطالت أن أشارت إلى هذا الطابع البنيوي للإدراك، معتبرة الشخص المدرك إنسان مؤول لكل الاحساسات التي يتلقاها، رابطا لبعضها البعض مسندا إليها تفسيرات معينة. مما دعى إلى الاهتمام بما سماه ك. لوين K. Lewein "بالإطار المرجعي" لسيرورة الإدراك، مؤكدا على مدى أهمية تأثيرات المعلومات المتلقات سابقا في تفسير وتؤويل المعلومات الجديدة. وخصوصا المرتبط منها بعملية التنشئة الاجتماعية وعلى رأسها الاتجاهات المتصلبة. هذه الأخيرة التي تعتبر من ضمن أهم الميكانيزمات السيكواجتماعية المؤطرة للواقع ضمن قوالب جاهزة، مانحة الفرد إمكانية التعرف على واقعه بأقل تكلفة سيكولوجية ممكنة. ولعل ذلك ما يبرر طابعها العاطفي المتسرع، والذي غالبا ما تصبح معه بمثابة عرقلة حقيقية أمام الإدراكات الموضوعية للمعلومات المتوفرة.

ولقد بينت تجربة كل من برومر Brumer وكودمان Goodman، أهمية الدور التوجيهي أو المرجعي للقيم الثقافية داخل النسق التصنيفي بصفة عامة والإدراكي بصفة خاصة. إذ نجد مثلا بداخل ثقافة تعطى فيها الأولوية للعوامل المادية والاقتصادية، بأن الأطفال الفقراء يدركون حجم القطع النقدية بشكل أكبر مقارنة بالأطفال الأغنياء. مما دعى الباحثان إلى ربط الفوارق الموجودة بين الأطفال على صعيد الإدراك، بأصولهم الاجتماعية والكيفية التي تقيم بها النقوذ في ثقافتهم.

وسوف نقدم فيما يلي تفاصيل هذه التجربة للوقوف على مدى أهمية "الإطار المرجعي" في تحديد عمليات الإدراك.

فلقد قام كل من برومر Brumer وكودمان Goodman ، بعرض قطع نقدية على الأطفال يزيد حجمها بازدياد قيمتها، ثم قدما لكل طفل جهاز خاص ينظر من خلاله إلى القطع النقدية، عليه أن يعمل على توسيع أو تضييق فتحته المضائة بشكل يتناسب وحجم تلك القطع النقدية في نظره. فكانت النتيجة كالتالي : لقد بالغ الأطفال عموما في إدراكهم لحجم القطع النقدية. إلا أن مبالغة أطفال الأغنياء كانت تتراوح ما بين 10 ٪ إلى 25 ٪، في حين وصلت المبالغة لدى أطفال الفقراء إلى نسب تتراوح ما بين 25 ٪ إلى 50٪. ولقد أعاد الباحثان نفس التجربة مرتين :

1 ـ في المرة الأولى تم حذف الجهاز مع مطالبة الأطفال بتحديد حجم القطع النقدية باعتمادهم على الذاكرة فحسب، مع ترتيب القطع بدء من الأصغر حجما نحو الأكبر ثم العكس.

2 ـ في المرة الثانية تم استبدال القطع النقدية بدوائر من الورق المقوى، تم قصها بشكل معادل لحجم القطع النقدية المختلفة.

ولقد تبين على أنه في جميع الحالات، كانت النتائج جد متقاربة، حيث كان الأطفال الفقراء يبالغون في إدراكهم لأحجام القطع النقدية بنسب تفوق نسب أطفال الأغنياء. مما يبرز حسب الباحثين مدى ارتباط الإدراك بالأنساق الثقافية والاجتماعية للأشخاص المدركين.

ونود الإشارة هنا أيضا إلى التجربة المشهورة لدونكان[15] Duncan سنة 1976، والتي كان الغرض منها إبراز مدى تأثير سيرورة التنشئة الاجتماعية، بما تتضمنه من اتجاهات متصلبة على النشاط الإدراكي للأشخاص. فقام بإجراء تجربته ضمن المجتمع الأمريكي، في مناطق تعرف تمييزا واضحا ما بين البيض والزنوج. وفي نطاق هذا السياق الثقافي الذي يحتقر فيه الأمريكان البيض الزنوج ويهمشونهم، انطلق هذا الباحث في تجربته من التساؤلات التالية : كيف يدرك الأشخاص التصرف الاجتماعي ؟ وكيف يفسرونه ؟.

(15) Louise F. Pendry, C. Macrae, et Miles Hewstone, «réflexion sur autrui : une approche sociocognitive», Psychologie sociale des relations à autrui, *Op.Cit*, p.185.

للإجابة قام دونكان Duncan بتقديم صورة تعكس وجود شخصين يدفع الواحد منهما الآخر، أحدهما من الجنس الأبيض والآخر من الجنس الأسود. إلا أنه مرة يكون الشخص الذي يقوم بعملية دفع الآخر في الصورة من الجنس الأبيض، ومرة أخرى يكون من الجنس الأسود. ثم قام بتقديم هذه الصور لأفراد عينته المكونة من عدد من الطلبة الجامعيين من الجنس الأبيض في الولايات المتحدة الأمريكية، طارحا عليهم السؤال التالي : هل تعبر الصورة عن وجود تصرف عنيف، أم أن الأمر هو مجرد مزاح بين شخصين ؟ فكانت النتائج على الشكل التالي:

1 / لما يكون الشخص الذي يقوم بعملية "الدفع" على الصورة من الجنس الأسود، فإن 70 ٪ من المستجوبين قد أدركوا السلوك وفسروه على أنه عنفا.

2 / لما يكون الشخص الذي يقوم بعملية "الدفع" على الصورة من الجنس الأبيض، فإن 13 من المستجوبين فحسب، هم الذين أدركوا ذلك السلوك على أنه عنف.

من خلال هذه التجربة أبرز دونكان Duncan تأثير التنشئة الاجتماعية على الإدراكات الفردية. حيث نلمس كيف تصبح نفس الظاهرة مصدر تأويلات مختلفة، نتيجة استدماج الأفراد للنماذج المنمطة والأحكام المسبقة السائدة. إذ تغرس التنشئة الاجتماعية في الفرد قيما ومشاعر ونوايا تؤثر على طريقة إدراكه للأشياء، كما تؤثر أيضا على تصرفاته وردود أفعاله. فأغلب أنماط التفاعل وأشكال السلوك والتصرف التي ننهجها في حياتنا اليومية إن لم نقل كلها، لا تخرج عن كونها ترجمات عينية لسائر الميكانيزمات المعرفية التي تتوارى وراء كيفية إدراكنا للأشياء وتقييمنا لها. ولعل ذلك ما يفسر تقاسمنا لأغلب معلوماتنا مع الجماعات التي ننتمي إليها، مادامت أغلب إدراكاتنا تسير وتؤول على ضوء المعلومات السابقة المترسخة فينا.

ويعود الفضل هنا إلى كل من كورت لوين K.Lewin وهيدر Heider اللذين أكدا على ضرورة الاهتمام بالأنساق السوسيومعرفية لكل نشاط إدراكي، وتجاوزهما للمنظور الكلاسيكي الذي كان يكتفي باعتبار الإدراك نشاطا فرديا هدفه التنظيم

الفوري للحقل الإدراكي وفق بنية معينة. إذ بفضل أعمال هؤلاء أصبح الإدراك السيكواجتماعي، بمثابة نشاط يقوم على سيرورة من التصنيفات الاجتماعية التي تلعب دورا أوليا في تكوين وتطوير ما هو معرفي، كما تؤثر أيضا على عملية تأويله وتنظيمه. ولعل ذلك ما يفسر اختلاف الثقافات وتباينها في تعاملها مع نفس الظواهر الإنسانية.

• الإسناد السيكواجتماعي : L'attribution psychosociale

يعود الفضل في توجيه الانتباه لأهمية الإسناد إلى هيدر Heider [16] هذا الأخير، الذي أولى عناية خاصة للعوامل السيكواجتماعية، مؤكدا أن الشخص المدرك ليس كائنا سلبيا ينحصر نشاطه في مجرد "رد الفعل" كما كانت تعتقد مدرسة الجشطالت، وإنما هو كائن فاعل يدرك العالم الخارجي من خلال تنظيم مسبق يتوخى من خلاله الحفاظ على توازنه المعرفي. وبذلك وضع هيدر Heider الدعائم الأولية لمفهوم جديد داخل علم النفس الاجتماعي، ألا وهو الإسناد. حيث أصبح الحديث عن سيرورة الإسناد مدخلا مهما لفهم الإدراك في مجال علم النفس الاجتماعي، على اعتبار أن كل إدراك للآخر هو في حد ذاته إسنادا لمجموعة من الاتجاهات ذات الحمولة التوجيهية والقيمية والثقافية بمعناها الواسع.

وتقوم نظرية الإسناد على افتراض امتلاك الأفراد لسيكولوجية عفوية، تمنحهم إمكانية بلورة نظرة متماسكة عن محيطهم من خلال تكييفهم لكل المعلومات الجديدة وفقا لتوجهاتهم ، اهدافهم، وقيمهم السابقة. وذلك من أجل إنشاء أحكام معينة يتولون من خلالها تفسير تصرفاتهم وتصرفات غيرهم (الإسناد الذاتي والغيري Auto et hétero attribution). ومرد ذلك إلى ميل الإنسان وشغفه بالبحث عن بنية ثابتة تساعده على تنظيم عالمه وتصنيفه، كي يسهل عليه فهمه وبالتالي التعامل معه. مما يبرز مدى تكامل وظيفة الإسناد مع غيرها من السيرورات المعرفية السابقة، والمتمثلة في كل من الإدراك والتمثل حسب هيدرHeider.

ثم جاء بعده كيلي Kelley، الذي دفع بهذا التصور إلى أبعد مدى معتبرا الإسناد سيرورة معرفية تسمح بإدراك خصائص المحيط في عموميتها. وهنا ابتكر كيلي

(16) J.C. Deschamps et J.L. Beauvois, «Attributions intergroupes», Stéréotypes, discrimination et relations inter groupes, *Op. Cit*, p.98.

Kelley، مفهوم "التصميم السببي" Le schéma causal، الذي يفيد اعتماد الفرد على تجارب وخبرات سابقة في تفسيره للأحداث الغريبة عنه أو الجديدة بالنسبة إليه. وتعتبر هذه العمليات التفسيرية القائمة على المعلومات السابقة، بمثابة أجرئة واضحة لسيرورة الإسناد في نظره. وتتجسد هذه السيرورة منذ الفترة التي يكون فيها الفرد بصدد البحث عن الأسباب التي على أساسها سوف يفسر تصرفاته أوتصرفات غيره كي يمنحها تقييمات معينة. وفي هذه الحالة غالبا ما يعمد الرجوع لمعلوماته السابقة، كعودته مثلا لمعنى متداول أو لحركة أو كلمة أو عبارة مأثورة أومعطيات معينة الخ.، لكي يتمكن من إدراج المعلومات والخبرات الجديدة وتأطيرها ضمن نسقه المعرفي حتى يتمكن من انتقاء ردود أفعاله[17].

وللإسناد حسب كيلي Kelley، علاقة وطيدة بالإدراك ، مما اعتبرت معه نظرية الإسناد بمثابة دراسة للأسباب المؤدية إلى تكون المعرفة السيكواجتماعية . وذلك نظرا لمرور كل أنواع التفسير المسندة لسلوك الآخرين عبر عتبة الإدراك ومن خلالها . الشيء الذي دفع بكيلي Kelley إلى الحديث عن "الوظيفة الإقتصادية" كأحد أبرز مهام سيرورة الإسناد، حيث يمثل الرجوع إلى المعطيات السابقة أحد أهم الميكانيزمات التي تمكن الفرد من تفسير الواقع دون ما حاجة إلى مجهودات سيكولوجية جبارة. وذلك بفضل تبنيه لتصميمات سببية جاهزة وطرق قصيرة للعقلنة ، يسعى إلى ملائمتها مع كل ما يعترضه من أحداث جديدة. وذلك بصرف النظر عن مدى توافق هذه "العقلنات" السابقة أو ملائمتها بصفة دائمة لما يستجد على واقعه من أحداث. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أنه بالرغم من انتشار هذا النوع من المعرفة الاجتماعية وشيوعها ، فإننا لا نجد لها في غالبية الأحيان إن لم نقل جلها، طابعا علميا أو موضوعيا يسمح بتعميمها، فبالأحرى التشبث بها كمعيار ومرجعية في تكوين المعارف الجديدة أو الآنية.

فإذا كان كيلي Kelley هو صاحب الفضل في التنبيه إلى أهمية سيرورة الإسناد، فإن أعماله لم تخل من انتقادات وجهها كل من تورنير Turner وتاجفيل Tajfel،

(17) Morgalit Cohen Emerique, «Connaissance d'autrui et processus d'attribution en situation interculturelle», La recherche interculturelle, Tome 1, Acte du 2° colloque de A.R.I.C, Edition L'armatan, 1989, Paris, p. 27.

بسبب حصره للإسناد ضمن تفسيرات وتأويلات سببية تعود إلى الفرد كفرد دون ربطها بتاثيرات جماعات الانتماء. هذا فضلا عن إهماله عند تفسيره للإسناد عاملا في غاية الأهمية ألا وهو العلاقات الاجتماعية. لكون الفاعل الاجتماعي لا يتعرف على عالمه من خلال العلاقات ما بين الذوات فحسب ، وإنما أيضا بالاعتماد على "قاعدة التبادل" والتفاعل بين مختلف الرؤى والتصنيفات الاجتماعية. ولا يغيب عن ذهننا دور الجماعات الأولية في تكوين هويتنا، وتزويدنا بمختلف التمثلات التي تمكننا من إدراك واقعنا الاجتماعي وتعرفنا عليه.

وبناء على ذلك، لم يعد من الممكن لأية دراسة للإسناد بعد ذلك ، أن تهمل دور الجماعات وتأثيرها في سيرورة فهمنا لكل ما هو اجتماعي. ولهذا السبب تم رفض أغلب الدراسات السابقة التي تعاملت مع الإسناد وكأنه نشاط يقوم به الفرد في غياب كل سياق اجتماعي. إذ من خلال هذا الربط للإسناد بالعلاقات الاجتماعية وعبره، نتمكن من فهم أشكال التحيز الذي غالبا ما تعتري تفسيرنا لتصرفات بعض الأفراد أو الجماعات. وبناء على ذلك أصبحت السيكوسوسيولوجيا وفقا لهذه النظريات الحديثة تهتم بالاسناد كظاهرة اجتماعية، مادامت كل إسنادات الأفراد تؤطر وفقا لتمثلات وتصورات وإدراكات اجتماعية ثقافية. فاتسع نتيجة لذلك مجال البحث في سيرورة الإسناد وأصبح متضمنا للنشاط الذهني برمته . ولقد بينت بعض الدراسات أن الشخص الملاحظ لسلوك معين، غالبا ما ينزع إلى تفسير ما يشاهده من خلال ربطه بالجماعات التي ينتمي إليها صاحب ذلك السلوك. مما يؤكد البعد السوسيوثقافي لعمليات الإسناد باعتبارها سيرورة لإعادة انتاج الدوافع بالاعتماد على "نظريات ثقافية كامنة" يتم اكتسابها من جماعات الانتماء.

فحتى وإن تعلق الأمر بتفاعلات شخصية محصورة بين الأفراد، فإننا غالبا ما نجدهم ينظرون إلى بعضهم البعض من خلال الانتماءات ولو على المستوى الرمزي. ويعود السبب في ذلك إلى كون أغلب تلك الفوارق والتصنيفات المدركة، ليست نتاجا لاختلافات حقيقية في الخصائص أوالمميزات الفردية، بقدر ما هي نتاج لاختلافات اجتماعية وثقافية. ولقد سبقت الإشارة في سياق حديثنا عن الإدراك إلى ميل الإنسان الشبه الفطري نحو "الاقتصاد"، المتمثل في عودته إلى مجموعة من الأطر المعرفية الجاهزة والتمثلات المتوارثة كلما اعترضته وقائع أو أحداث جديدة . ولا

يتحول الباحث حسب كيلي Kelley إلى "عالم عفوي" أو "باحث تلقائي"، إلا في حالة افتقاده لهذه الأطر المرجعية أو إحساسه بعدم نجاعتها. في مثل هذه الظروف فحسب، يحاول التعامل مع الواقع بقدر أكبر من الموضوعية[18].

وفي نفس السياق قام كل من ودواز Doise وموسكوفيسي Moscovici بتجربة كان يطلب فيها من المفحوصين التعبير عن آرائهم بشكل فردي، ثم بعد ذلك التعبير عنها في إطار جماعي. فبينت النتائج مدى تأثر الأفراد بالجماعة، مما يرجح في نظر الباحثين احتمالية تأثر إسنادات الفرد بالمواقف والتمثلات الجماعية . وكلما تعلق الأمر بجماعات الانتماء، كلما احتد هذا الميل واتخذ أشكالا معقدة لتشبعه بالانفعال وطغيان العاطفة في مقابل الإدراك الموضوعي أو المعقلن.

فمن خلال هذه الدراسات أصبح للإسناد داخل علم النفس الاجتماعي معنى خاص ، فهو بمثابة نشاط ذهني وسيرورة سيكواجتماعية، تهدف إلى المعرفة من خلال إعادة بناء الواقع طبقا للأطر المرجعية والثقافية للشخص المدرك. فلو وضعنا شخصين من ثقافتين مختلفتين أمام نفس الظاهرة (ولتكن سلوكا معينا، أو حدثا ما) ثم طلبنا من كل منهما أن يقدم لنا موقفه وتقييمه لهذا السلوك ، فإن أول ما سوف نلاحظه هو اختلاف التأويلات علما بأن الأمر يتعلق بنفس الظاهرة . هذا فضلا عن كون كل منهما سوف يميل إلى تبني التأويل الأكثر تطابقا مع ثقافته وانتمائه، أكثر من ميله نحو عرض الظاهرة أو وصفها بشكل موضوعي. وتعود الأسباب في ذلك حسب الباحثين إلى :

- لجوء الإنسان الفوري إلى الأطر المرجعية الجاهزة .

- ارتباط سيرورة الإسناد بالتمثلات الثقافية، مما يؤدي حتما إلى اختلاف التأويلات.

- اختلاف الأطر المرجعية، فما هو أساسي بداخل ثقافة ما قد يكون ثانويا في أخرى، مما يساهم في خلق إسنادات انتقائية متباينة.

(18) G. Vinsonneau, «Psychologie sociale et conflit interethnique», *Op. Cit*, p. 181.

وفي إطار هذا الربط للإسناد بالاختلافات الثقافية، أصبح من اللازم الأخذ بعين الاعتبار للتمثلات الثقافية الكامنة وراء مختلف الأنساق التفسيرية[19]. خاصة بعد تأكيد الباحثين في مجال علم النفس الاجتماعي على مدى مساهمة هذه الأنساق التفسيرية في شيوع ظاهرة التمركز حول العرق L'ethnocentrisme، وتنبيههم لخطورة أبعادها وانعكاساتها على العلاقات بين الأفراد والجماعات . فلقد تبين من خلال مجموعة من الأبحاث والدراسات المقارنة بين الثقافات ، بأن للأشخاص في أغلب الأحيان ميل إلى تفسير تصرفات الآخرين اعتمادا على أطر مرجعية ذاتية ، يتم تحويلها بشكل واضح أو ضمني إلى قواعد قطعية تحدد ما ينبغي فعله أو قوله. مما يعكس ميل في الإنسان في كثير من الأحيان نحو التمركز الجماعي أو الإثني أو غيرهما من أشكال الانغلاق ، التي لا تخلو في غالبية الأحيان من الرغبة في إقصاء الآخر المغاير ورفضه. علما بأن كل تشبث أعمى بنوع معين من الرموز دون غيرها ، لن يمكن أن يؤدي سوى إلى تجاهل الأطر الرمزية المغايرة وعدم الاعتراف بها. وتمثل هذه الممارسات ومثيلاتها منطلق أكثر الخلافات شراسة بين الجماعات المتباينة.

وتبدأ مثل هذه الخلافات حسب روس Ross من خلال ما أطلق عليه الخطأ الأخير للإسناد L'ultime erreur de l'attribution [20]. فبالرغم من ورود مفهوم "الخطأ/ erreur" هنا حسب روس Ross، فإن الأمر لا يتعلق "بالخطإ" بقدرما يتعلق "بالتحريف"، وذلك لسببين أساسين :

1- لكونه عبارة عن "خطإ" نسقط فيه جميعنا

2- لكونه "خطأ" نقع فيه بصفة متكررة[21] .

وقد تعود الأسباب في ذلك حسب روس Ross إلى ميلنا في غالبية الأحيان عند تفسيرنا لسلوك الآخر نحو نسيان أو إهمال المتغيرات المتعلقة بالمحيط، والتركيز أكثر على المتغيرات الشخصية والعكس صحيح. بمعنى أنه لما نكون نحن (سواء تعلق

(19) G. Vinsonneau, *Culture et comportement*, Armand Colin, 2000, p.11.

(20) J.L Beauvois, et N. Dubois, «Croyances internes et croyances externes», Psychologie sociale des relations à autrui, *Op. Cit*, p.168.

(21) Anastasio Ovejero. Bernal, *Las relaciones humanas*, Editorial Biblioteca Nueva, Madrid,1998, p. 48.

الأمر بالفرد أو الجماعة) في موضع الفعل أو التصرف، فإن "المجال" أو الظروف المحيطة هي التي تستحوذ على اهتمامنا، وذلك على عكس ما يحدث لما نكون نحن في موضع الملاحظة أو المشاهدة ، فإن تصرفات الآخر وسماته الشخصية (والتي قد تتضمن انتماءاته العرقية وغيرها) هي التي تستحوذ على اهتمامنا.

ومن أهم المعطيات الدالة على ميل الأشخاص إلى الوقوع في هذا النوع من "الأخطاء" أو التحريفات في الإسناد، سعيهم في غالبية الأحيان نحو تفسير تصرفات أفراد الجماعات المعادية أو المغايرة بشكل سلبي من أجل الحفاظ على التمثلات السابقة وتعميقها. ولعل تجربة دونكان Duncan التي سبقت الإشارة إليها، أبرز مثال نلمس من خلاله مدى تأثير الانتماء الاجتماعي على كل من الإدراك والإسناد أيضا. فيكفي أن يكون الشخص منتميا للجنس الأسود، كي تسند إليه سائر الصفات السلبية وفي مقدمتها العنف والعدوان من لدن المفحوصين المنتمين إلى الجنس الأبيض، دون أدنى اهتمام أو انتباه "للمحيط" أي للظروف المحيطة به كشخص. على عكس الاسنادات التي كانت توجه لما يتعلق الأمر بالشخص المنتمي للجنس الأبيض، والتي كانت تربط تصرفه منذ الوهلة الأولى بالظروف المحيطة . فترى في سلوكه "دفاعا عن النفس" أو غيرها من التبريرات التي تميل في أغلب الأحيان إلى تبرئته من اللجوء إلى العنف.

ولقد أعاد هيوسطون Hewstone نفس التجربة مقسما سيرورة الإسناد إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية ، منبها إلى وجود ميل قوي نحو اسناد التصرفات الغير مرغوبة اجتماعيا والصادرة عن أفراد الجماعات المغايرة إلى عوامل ترتبط بهم كأشخاص، أي إلى أسباب متعلقة بهم أكثر من إسنادها إلى عوامل خارجية أو ظرفية قد تتعلق بالحدث ذاته أو بالظروف والأوضاع المحيطة . مما نستنتج من خلاله بأن محددات الإسناد قلما تكون مستقاة من السلوك الملاحظ ، بقدرما نجدها ترتبط بالأنساق القيمية والمعتقدات السابقة .

وفي نفس السياق قام كل من كاجي وتايلر Taylor/Jaggi سنة 1974 بتجربة في جنوب الهند، حول ثلاثين عاملا تتراوح أعمارهم ما بين 25 و 40 سنة، ينتمي بعضهم للديانة الهندوسية والبعض الآخر للديانة الإسلامية. ولقد كانت هذه

التجربة تقتضي تقديم اثنى عشرة وضع مختلف يكون الشخص فيها منتميا إلى الديانة الهندوسية ومرة أخرى للديانة الإسلامية . ولقد كانت الأوضاع تعرض كالتالي : مثلا تعرض وضعية بائع أمام ميزان يتصرف بطريقتين متعارضين أخلاقيا:

- في الحالة الأولى نجد البائع يزيد في الميزان لصالح الزبون.

- في الحالة الثانية نجد البائع يغش في الميزان على حساب الزبون .

ثم تعرض هذه الأوضاع على أفراد كلتا الجماعتين على مرحلتين :

أ / في المرحلة الأولى يكون البائع من نفس الجماعة (بائع هندوسي، وتقدم التجربة للجماعة الهندوسية).

ب / في المرحلة الثانية يحدث العكس، بحيث يكون البائع منتميا للجماعة المغايرة (بائع مسلم، وتقدم التجربة للجماعة الهندوسية).

وفي كل مرة كان يطلب فيها من المفحوصين تفسير تصرفات البائع، وذلك بغرض الوقوف على الأسباب التي تجعل الأفراد يميلون إلى "الاسنادات الداخلية"، (أي تلك التي تسند فيها الأسباب للخصائص الشخصية للفرد) أو إلى "الإسنادات الخارجية"، (أي تلك التي تسند فيها الأسباب إلى الظروف والملابسات الخارجية) . فمثلا لما يسرق البائع من الميزان، يفسر على أن الأمر قد تم سهوا أو بدون قصد أو نية مبيتة، هنا نكون قد استعملنا "الإسناد الخارجي". أما لما نفسر بأن السرقة تمت بقصد ونية فهو سارق، لكون الجماعة التي ينتمي إليها معروفة بالغش والسرقة، هنا نكون قد استعملنا "الإسناد الداخلي".

ولقد أكدت النتائج المحصل عليها في هذه التجربة، الفرضية القائلة بوجود علاقة تناسبية ما بين التمركز حول الذات l'egocentrisme والتمركز حول العرق l'ethnocentrisme بحيث كانت النتائج على الشكل التالي :

1 / لما يتصرف البائع الهندوسي (وهو من نفس الجماعة) بشكل مرغوب اجتماعيا ، غالبا ما كانت الاسنادات تعزى إلى العوامل الداخلية (كريم، طيب، ...). ولما كان يتصرف بشكل مرفوض اجتماعيا، غالبا ما كان الإسناد يعزى لأسباب خارجية (نسيان، سهو، ...) .

2 / لما يتصرف البائع المسلم (وهو من الجماعة المغايرة) بشكل محبذ اجتماعيا، فغالبا ما يعمد الإسناد إلى أسباب خارجية (مجرد صدفة ، استثناء ، ...). ولما يتصرف بطريقة غير مقبولة اجتماعيا، فغالبا ما كان الإسناد يعزى إلى عوامل داخلية وخصائص متعلقة بطبعه كمسلم (المسلمون هم جماعة اللصوص، مخادعون ، ...) .

وتجدر الإشارة إلى أن النتائج المحصل عليها لدى الهندوس، هي نفس النتائج المحصل عليها لدى المسلمين أيضا. ففي كلتا المجموعتين نلمس التحيز لجماعة الانتماء، من خلال ربط الإسنادات السلبية بالعوامل الخارجية لما يتعلق الأمر بجماعة الانتماء، وبالعوامل الداخلية لما يتعلق الأمر بالجماعات المغايرة. الشيء الذي نبه الباحثين إلى معطى أساسي ضمن سيرورة الإسناد ، ألا وهو ضرورة الأخذ بعين الاعتبار لنوعية العلاقات (سواء الآنية أو التاريخية) القائمة بين الجماعات .

وخلاصة يمكننا حصر سيرورة الإسناد في النقط التالية :

- غالبا ما تعزى الإسنادات الإيجابية لجماعات الانتماء .

- يحتد التطرف في الإسناد لدى الاشخاص الحاملين للاتجاهات المتصلبة .

- الاسنادات الإيجابية نحو جماعات الانتماء ، قد تختلف من وضعية إلى أخرى بحسب نوعية العلاقات القائمة بين الأفراد داخل الجماعة ، وكذا تاريخ هذه العلاقات .

فيكفي الوعي أو الإحساس بالانتماء إلى هوية معينة ، لكي يتم إدراك الواقع وتصنيف أحداثه لدى الأفراد من خلال تمثلات تخدم مصالحهم وتحافظ على توازنهم المادي والمعنوي. وفي سياق هذا التداخل للإسناد بالمصالح الذاتية للأشخاص، يستحضر ديسشمب Deschamps أحد الميكانزمات المكونة للمعرفة السيكواجتماعية ألا وهو التصنيف ، مؤكدا على ضرورة ربط الإسناد بالتصنيف داخل هذا الحقل المعرفي، لأن كل تصنيف في نظره هو بمثابة إنشاء لفرضيات معينة حول الواقع ، تمثل فيها الإسنادات المحددات الرئيسية لأخذ القرار . فما معنى التصنيف السيكواجتماعي ؟

• **التصنيف السيكواجتماعي** : La catégorisation psychosociale

يفيد التصنيف لغة جمع عدد من الأشياء ذات الخصائص المشتركة والعمل على تنظيمها. ولقد لاحظ العلماء بأن للإنسان ميل قوي نحو التصنيف، فهو وسيلته لتحديد هوية الأشياء المحيطة به وتنظيمها ، كي تسهل عليه معرفتها وبالتالي تكييف سلوكه معها. فلقد تبين أنه حتى لما يتعلق الأمر بالأشياء التي لم يسبق لنا رؤيتها، فإننا نسعى إلى معرفتها عن طريق تصنيفها من خلال مقارنتها أو تشبيهها بالأشياء التي نعرفها . فلنفترض بأننا أمام طائر جديد لم يسبق لنا رؤيته، فإن أول ما نقوم به لأجل التعرف عليه هو تصنيفه ضمن فصيلة الطيور، لتوفره على أجنحة، قدرته على الطيران الخ. وفي هذا السياق يقول موسكوفيسي Moscovici معرفا التصنيف مبرزا أهميته : "إن عملية التصنيف توضح لنا كيف يتحول الغامض أو المجهول ، في وقت معين إلى شيء مألوف ومعتاد"(22).

فإذا كان التصنيف لغة يفيد تنظيم الأشياء وتقسيمها إلى مجموعات قصد معرفتها، وإذا كان للإنسان ميل فطري نحو تصنيف واقعه وترتيبه ، فماذا نقصد بالتصنيف السيكواجتماعي ؟ ما هي خصوصياته ؟ هل يتم تصنيف الأفراد اعتمادا على نفس المعايير التي نصنف بها سائر إدراكاتنا للأشياء المادية أم هناك فرق ؟ ثم لماذا تختلف التصنيفات باختلاف الأفراد والجماعات والثقافات أيضا ؟

يقصد بالتصنيف داخل علم النفس الاجتماعي ، سيرورة من العمليات التي تختزل فيها الفوارق بين الأشياء من قبل نظرة إدراكية معينة. ويعرف آش Asch التصنيف السيكواجتماعي قائلا : " إنه عملية طبيعية يهدف الفرد من ورائها تنظيم إدراكاته ودمجها ضمن مجموعة منسجمة، تمنحه في النهاية معنا معينا "(23). أما تاجفيل Tajfel فيعرفه على أنه : "نسق سوسيومعرفي، يعمل على توجيه الفرد وتعريفه بالوضعية التي يوجد عليها داخل المجتمع"(24).

---

(22) J.PH.Leyens, et J.P.Godol, Op.Cit, p. 108.

(23) G.N. Fischer, *La dynamique du social, Violence , pouvoir et changement*, Dunod, Paris, 1992. p. 98.

(24) Perez - Perez Juan Antono, «*Percepcion y categorizacion del contexto social*», Creencias, Actitudes y valores, Alhambra, Madrid,1989, p. 111.

من خلال هذين التعريفين، يمكننا القول بأن التصنيف هو سيرورة سيكواجتماعية نلمسها عند اتصال الجماعات الاجتماعية المتباينة، تقوم على معدات معرفية يستعملها الأفراد في تجزيئهم وتصنيفهم لوسطهم الاجتماعي . كما يستمدون منها التوجيهات التي تلعب دور المؤشرات في تعرفهم على ذواتهم وموضعتها.

ويسير برونير Bruner في نفس السياق مؤكدا على العلاقة الوطيدة بين كل من التصنيف والإدراك داخل الحقل السيكواجتماعي ، فيقول : "إن الإدراك ليس سوى مرحلة تابعة لسيرورة ذهنية، وظيفتها إنشاء مجموعة من الأنساق النوعية التي على أساسها سوف تنظم وتؤطر كل المثيرات"[25]. ويرجع ذلك في نظره إلى التسلح المسبق للأفراد عند إدراكهم للأشياء، بمجموعة الفرضيات المتعلقة بما يجب عليهم إدراكه داخل هذا الواقع المعقد . بحيث يصبح كل إدراك للأشياء، هو بمثابة تصنيف معين لها.

مما يفضي إلى القول بأن التصنيف يشكل عملية قاعدية داخل النشاط الإدراكي، إذ بمقتضاه يتم اتخاذ القرارات بخصوص ما ينبغي التركيز عليه ضمن كل عملية إدراكية. إلا أننا لو تفحصنا هذه القرارات، فسوف نجدها تتم وفقا لمؤشرات اجتماعية ميزية وتوقعات محفزة، إضافة إلى مقتضيات الوضعية التي يوجد عليها الفرد. ومن شأن هذه الخصائص أن تطلعنا على خصوصية التصنيف السيكواجتماعي، الذي يتجاوز الميل الطبيعي للفرد كفرد نحو تصنيف الاشياء المحيطة به ، لكي يتحول إلى سيرورة اجتماعية لا يمكن فصلها عن القيم والمعتقدات وغيرها من التمثلات المرتبطة بالتنشئة الاجتماعية.

ولقد أكدت أعمال بيرجر Bérger وجود علاقة ديناميكية بين النسق الشخصي ، والتصورات الناتجة عن الواقع الاجتماعي[26]. فعن طريق هذا التداخل تستدمج التمثلات الجماعية من لدن الفرد، وتصبح بعد ذلك جزئا من اتجاهاته وآرائه. فيظن الشخص بأنه يعبر عن آراء شخصية، في حين أن الأمر لا يعدو أن يكون متعلقا بتمثلات مقتسمة مع الآخرين إن لم تكن مستمدة منهم.

(25) Geneviève. Vinsonneau, «Psychologie sociale et conflit interethnique», *Op. Cit*, p. 121.
(26) Geneviève. Vinsonneau, Ibid, p. 316.

وقد يصل هذا التداخل لما هو شخصي بما هو اجتماعي، إلى درجة يصبح فيها تصنيف الأفراد للأشياء على أنها متشابهة أو مختلفة، غير منحصر في محددات الإدراك كالانتباه أو المعرفة أو غيرها ، بقدرما نجده يرتبط بمعتقدات الأفراد وقيمهم والحوافز التي تحركهم. مما يجعلنا نقف على خصوصية إضافية للتصنيف السيكواجتماعي، والتي تتمثل في تجاوزه لحدود هيكلة الإدراك لكي يشمل عملية التفاعل ذاتها. مما يجعل منه سيرورة ذهنية لإعادة بناء الواقع على ضوء مجموعة من التمثلات والإسنادات والإدراكات. ولقد أجريت في هذا السياق مجموعة من الدراسات التي أثبتت صعوبة إن لم نقل استحالة الحديث عن وجود تصنيفات موضوعية داخل الحقل السيكواجتماعي .

فاغلب تصنيفاتنا الاجتماعية إن لم نقل كلها ، لا تبنى على معارف موضوعية وإنما هي في غالبية الأحيان عبارة عن إعادة بناء وتصنيف ذاتي للأحداث طبقا لقيم الأفراد ومصالحهم . ويؤكد تاجفيل Tajfel في هذا المجال على أهمية الدور الذي تتولاه القيم باعتبارها أطرا مرجعية تجعل الفرد مثلا، أكثر ميلا إلى تقييم جماعته وتصنيفها بشكل أكثر إيجابية مقارنة بالجماعات المغايرة . هذا مع ميله إلى إضفاء طابع التجانس والتعميم على أفرادها من خلال تصنيفهم وتنميطهم . مما يصبح معه التصنيف أحد السيرورات المعرفية المهيكلة للاتجاهات المتصلبة والمساهمة في نشرها وذيوعها[27].

ولقد قام Godol في هذا المجال بمجموعة من التجارب[28]، التي كان يتوخى من خلالها الوقوف على الكيفية التي يدرك بها الأشخاص تشابههم أو اختلافهم مع الآخرين. فاستنتج بأن الأفراد غالبا ما يجعلون من أنفسهم "مرجعا" بالنسبة للآخرين، كما لاحظ أيضا بأن طريقتهم في التعبير عن ذلك غالبا ما تتم بالاعتماد على الصيغ التالية :

- في حالة وجود التشابه غالبا ما يتم التعبير على الشكل التالي : "الآخرون هم الذين يشبهوننا".

- في حالة وجود الاختلاف ، فيصبح التعبير على الشكل التالي : "نحن اللائي نختلف عنهم".

---

(27) V. Aebecher et D. Oberle, *Op. Cit*, p. 86.

(28) J.P.H. Leyens, et J.P. Godol, *Op. Cit*, p. 105.

بمعنى أن المرجعية في تصنيف الآخرين ، غالبا ما تتم من خلال العودة إلى الذات أو إلى جماعات الإنتماء باعتبارها المقياس المعترف به. ومن بين الدراسات التي قام بها Godol في هذا السياق[29]، تجربة كان يطلب فيها من الأفراد وصف أنفسهم ووصف الآخرين . ولقد تمت التجربة على مرحلتين :

1 / في المرحلة الأولى كان يطلب من الأفراد البدأ بوصف أنفسهم، ثم ينتقلوا بعد ذلك إلى وصف الآخرين .

2 / في المرحلة الثانية، كان يطلب من الأفراد البدأ بوصف الآخرين أولا، ثم الانتقال إلى وصف أنفسهم بعد ذلك.

فكانت النتائج على الشكل التالي :

1 / في الحالة الأولى، غالبا ما كان الأفراد يستعملون في وصفهم للآخرين نفس الأوصاف التي سبق وأن استعملوها لوصف أنفسهم .

2 / في الحالة الثانية، غالبا ما كانوا يستعملون في وصفهم للآخرين، نعوتا تختلف عن تلك التي اعتمدوها في وصفهم لأنفسهم.

ولقد بينت هذه التجارب، بأن إدراك الأفراد لمعالم الاختلاف أو التشابه مع الآخرين، غالبا ما يتم من خلال تصنيف الذات أو جماعة الانتماء كنموذج معياري أو مرجعي يقاس على أساسه الآخر. وتمثل اللغة أصدق تعبير عن ذلك، كأن نسمع مثلا : "إن الآخر هو الذي يشبهنا، ولسنا نحن الذين نشبهه" . وتمثل هذه العبارات ومثيلاتها مؤشرا نلمس من خلاله مدى التداخل المعقد لكل من الإدراك والتصنيف، كسيرورات معرفية يسعى من خلالها الأفراد لتحديد مكانتهم داخل واقعهم الاجتماعي.

وفي هذا السياق بينت بعض التجارب الأخرى[30]، أنه يكفي في بعض الأحيان أن يتم تقسيم الأفراد إلى جماعات، (حتى وإن تعلق الأمر بتقسيمات اعتباطية) حتى يمثل هذا التقسيم في حد ذاته مبررا كافيا لخلق الإحساس بالإختلاف بينهم .

---

(29) Geneviève ; Vinsonneau, «Psychologie sociale expérimentale», Pluralisme et école, *Op. Cit*, p.139.

(30) Francisco Gil, Rodrigez, «*Relaciones intergrupales*», *Introduccion a la psicologia de los groupos*, Ediciones Piràmide, 1999, p.368.

وبناء على ذلك قام تاجفيل Tajfel بتعيين وظائف التصنيف السيكواجتماعي من خلال حصرها في وظيفتين اثنتين هما :

ـ الوظيفة الأولى : وتتمثل في منحها الفرد بعض المؤشرات التي يقوم من خلالها بهيكلة أحداث محيطه الاجتماعي. ولهذه الوظيفة في رأيه طابع معرفي، يتجسد في تمكينها الفرد من تنظيم واقعه وموضعة ذاته ضمن ما يحتويه من أشياء وأحداث. مما تصبح معه كل المعاني أو المعلومات المحصل عليها نتاج تصنيفات سيكواجتماعية معينة. (لو افترضنا مثلا بأن شخصا أعجب بشخص ثان، ثم عرف بعد ذلك بأنه يحمل إديولوجية معينة مخالفة له أو لجماعته، في مثل هذه الحالة يصير من المتوقع جدا أن يعيد النظر في تصنيفه الأول طبقا لمعلوماته الجديدة، كما يصير من المحتمل أيضا أن يقوم بمراجعة حكمه عليه بناء على انتمائه ذاك).

ـ الوظيفة الثانية : وتتمثل في إبراز مدى مساهمة التصنيف في تكوين الهوية السيكواجتماعية للفرد. على اعتبار أن الهوية هي جزء لا يتجزئ من سيرورة المعرفة بالانتماء الذاتي، وما يرمز إليه من أبعاد عاطفية وقيمية تخص هذا الانتماء. فإذا كان الفرد يميل إلى بلورة هوية إيجابية، فإنه سوف يميل في ذات الوقت إلى تفضيل جماعات الانتماء (لكونها تمثل الجماعات التي يقيمها هو بشكل إيجابي) لارتباط صورة الذات بالمقارنة مع الآخر .

عبر هاتين الوظيفتين نلمس مدى ارتباط التصنيف بالأهمية التي يوليها الأفراد للمعطيات المصنفة وما يمنحوها من اعتبارات أو تقديرات. لذلك يصير من المنتظر أن تتباين أشكال التصنيف بين الجماعات والثقافات، لارتباط كل جماعة بمرجعيات قائمة على أنواع معينة من الميز القيمي الذي يشكل قاعدة كل تصنيف سيكواجتماعي . فلا وجود لتصنيف عشوائي أو اعتباطي، لأن المعيار الرئيسي لتعيين هذه الفئة الاجتماعية أو تلك، أمور ترتكز على اختلافات تقديرية تبرز أهمية دور القيم الاجتماعية داخل النسق التصنيفي. إلا أن أهمية الانساق القيمية لا تلغي توقف سيرورة التصنيف على مجموعة من المعطيات الأخرى وفي مقدمتها مختلف المصالح المادية أيضا. ولعل ما تتضمنه معظم الاتجاهات المتصلبة من اشكال التصنيف، خير دليل على تداخل ما هو مصلحي بما هو اجتماعي، طبقي،

سيكولوجي الخ. وذلك بغرض الدفاع عن المصالح المادية من جهة، وتبرير القيم الجماعية من جهة ثانية، مما يطلعنا على أخطر أبعاد سيرورات التصنيف، والتي تتمثل في كونها تساعد على بلورة بنيات ذهنية ذات طابع عاطفي وتوجه براجماتي .

وكخلاصة يمكننا حصر مميزات التصنيف السيكواجتماعي في الخصائص التالية:

- التصنيف يساعد على اختزال المجال وتبسيطه .

- التصنيف يعمل على تأكيد وتعميق عناصر التشابه أو الإختلاف بين الجماعات.

- التصنيف يسهل عملية التفاعل عن طريق توجيهه لمعلوماتنا .

- التصنيف هو العمود الفقري لكل الاتجاهات المتصلبة .

- التصنيف غالبا ما يدفع إلى التحيز لجماعات الانتماء .

ولقد قال موسكوفيسي Moscovici موضحا خصوصية التصنيف السيكواجتماعي : "التصنيف هو بمعنى معين، تحويل المعرفة إلى حس عام"[31]. إذ بالرغم مما يحدثه التصنيف من تحريفات في إدراكاتنا ومعلوماتنا، إلا أنه يمثل قاعدة سيكومعرفية حيوية داخل كل حياة اجتماعية، وذلك باعتباره تنظيما معرفيا يساعد على تبسيط الواقع وجعله قابلا للفهم من لدن الإنسان.

وختاما ننهي حديثنا في هذا المجال بالتنبيه إلى خصوصية المقاربة السيكواجتماعية للمعرفة الاجتماعية ، هذه الأخيرة التي مثلت إلى عهد قريب ما كان يسمى "بالحس المشترك" أو "الحس العام" أو "المعرفة العفوية" ، فلم تكن تحظى باهتمام الباحثين أو تثير انتباههم . ويرجع الفضل إلى علم النفس الاجتماعي، في إبراز أهمية هذه "المعرفة" من خلال سعيه المستمر نحو تحليلها، فهمها وتسليط الأضواء على ما يعتريها من تحريفات... ذات انعكاسات خطيرة على مختلف العلاقات الاجتماعية الفردية منها أو الجماعية . ومن بين أهم النتائج المتوصل إليها بصدد هذه "المعرفة" ما يلي :

(31) J.P.H. Leyens, et J.P. Godol, *Op. Cit*, p. 105

أ / عدم توقفها عند المعطيات الحقيقية للواقع ، وذلك باعتبارها إنشاء أو تمثل معين للواقع .

ب / تشبعها بما هو ثقافي اجتماعي ، على اعتبار أن كل معرفة للواقع هي بمثابة تأويل يستند على نسق قيمي معين .

ج / اعتبارها بأن كل تصرفات الأفراد وأنماط التفاعل السائدة بينهم ،هي نتاج نظرتهم لواقعهم وكيفية إدراكهم له .

د / تشكلها عبر تداخل مجموعة من السيرورات المعرفية الأولية .

ومن هنا أهمية دراسة علم النفس الاجتماعي لمختلف السيرورات المكونة لهذه المعرفة ، والتي تتميز بتداخل مختلف بنياتها ضمن علاقات معقدة يصعب في نطاقها تسطير الحدود بين ما نطلق عليه تصنيفا أو إسنادا أو إدراكا أو تمثلا. وذلك لكونها تشكل في مجملها سيرورة من الإنشاءات الاجتماعية للواقع ، التي تعكس تعبيرات ثقافية مختلفة تطلعنا على مدى أهمية كل من القواعد والقيم بداخل كل نسق سيكومعرفي معين .

وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم مما يمكن أن توحيه هذه المكونات من طابع نظري مجرد، إلا أنها لا تنفصل عن المعيش اليومي للأفراد لارتباطها بمختلف الحوافز والمصالح والعلاقات، بما تتضمنه من أبعاد عاطفية وتحالفات جماعية ... تتولى مهمة توجيه وتأطير مختلف سلوكات الأفراد وتصرفاتهم . فإذا كنا نحن كأفراد نعتقد بأن سلوكاتنا وآرائنا ومشاعرنا نحو جماعات الانتماء أو الجماعات المغايرة ، هي نتاج لمواقفنا الشخصية أواختياراتنا الفردية، فإن التناول العلمي لهذه "المعرفة" يضحض ذلك . فكل ما نحمله من معارف هو نتاج تفاعل معقد ما بين سيرورات اجتماعية وأخرى معرفية.

حيث تتمثل السيرورات الاجتماعية في كيفية تأثر أفكارنا ومشاعرنا بالجماعات المحيطة بنا (جماعات الانتماء، العلاقات الشخصية، التنشئة الاجتماعية، الخ) . هذه الجماعات التي نستحضرها في أذهاننا كلما تعلق الأمر بإبداء رأي أو اتخاذ موقف الخ. حيث تجدنا مهتمين بل ومهمومين بما عساه أن يكون رأي الآخرين فينا أومواقفهم منا . بينما تتمثل السيرورات المعرفية في كيفية

توجيه جهازنا المعرفي لمختلف تمثلاتنا للواقع وإدراكنا له ، بفضل ما يشتمل عليه من قيم وقواعد وذكريات ومعطيات معرفية متعددة.

ثم من خلال هذا التفاعل المعقد لكل من السيرورات الاجتماعية والمعرفية، تتبلور المعرفة السيكواجتماعية، وهي كما يدل على ذلك اسمها مجال لتفاعل المعرفي بالاجتماعي وبالسيكولوجي. كما أنها مجال لبلورة مجموعة من المعطيات العلمية النظرية والتطبيقية، التي تهدف إلى توضيح أسباب اختلاف تصرفات الأفراد والجماعات ، مع سعيها نحو فهم أسباب هذا الاختلاف و تنبيهنا إلى أهميته. فإذا نحن تمكنا من فهم مضامين هذه المعرفة الاجتماعية بما تتضمنه من حمولات سيكواجتماعية ، كلما اقتربنا من فهم الأسباب الكامنة وراء سعي الأفراد لاختيار بعض السلوكات دون أخرى . ومن شأن هذا الفهم أن يساعدنا على حل كثير من المشاكل الاجتماعية ، التي غالبا ما تعود مصادرها إلى ما يطبع تفاعلاتنا من غموض يعوق في غالبية الأحيان إمكانية تواصلنا، وبالتالي إمكانية خلق أجواء لتعايش سلمي متوازن يحقق فيه كلا الطرفين ذاته بعيدا عن كل أشكال العنف أو التسلط.

Bibliographie :

- Abric.Jean Claude, *Les représentations sociales*, P.U.F, 2°Edition, 1991, P.188

- Beauvois. J.L, et N. Dubois, «Croyances internes et croyances externes», *Psychologie sociale des relations à autrui*, Nathan, Paris, 2000.

- Bernal. Anastasio Ovejero, Las relaciones humanas, Editorial Biblioteca Nueva, Madrid, 1998.

- Deschamps. J.C, et J.L.Beauvois, «Attributions intergroupes», *Stéréotypes, discrimination et relations inter groupes*, Mardaga,Liège, 1994.

- Emerique. Morgalit Cohen, «Connaissance d'autrui et processus d'attribution en situation interculturelle», *La recherche interculturelle*, Tome 1, Acte du 2° colloque de A.R.I.C, Edition L'armatan, 1989, Paris.

- Herzlich. Claudine, «La représentation sociale», In *Psychologie sociale*, sous la diréction de S. Moscivici, Tome 1, Paris, 1972.

- Hewstone. Milles et J.M.Jaspars, «Relations inter groupes et processus d'attribution», *L'attribution*, sous la direction de J.C.Deschamps, Delacheaux et Niéstlé, 1990, Paris.

- Heider. Fritz, «perception d'autrui», *Psychologie sociale*, André Levy, DUNOD, Tome1, Paris, 1987.

- Leyens. J. Philippe. et J.P. Godol, «cognicion social», *Introduccion a la psychologia social*, Edicion Ariel psychologia, Barcelona, 1991.

- Fischer. G. Nicolas, La dynamique du social, Violence, pouvoir et changement, Dunod, paris, 1992.

- Moscovici. Serge, «Influences conscientes et inconscientes», *Psychologie sociale des relations à autrui*, Nathan, Paris, 2000.

- Pendry. Louise, C. Macrae, et Miles Hewstone, «réflexion sur autrui : une approche sociocognitive», *Psychologie sociale des relations à autrui*, Nathan, Paris, 2000

- Perez - Perez Juan Antono, «Percepcion y categorizacion del contexto social», *Creencias, Actitudes y valores*. Alhambra, Madrid, 1989.

- Postman. L, et J. Bruner, et E. Macginnis, «Valeurs personnelles en tant que facteurs sélectifs dans la perception», In *Psychologie sociale*, André Levy, DUNOD, Tome1, Paris, 1987.

- Rodrigez. Francisco Gil, «Relaciones intergrupales», *Introduccion a la psicologia de los groupos*, Ediciones Piràmide, 1999.
- Vinsonneau. Geneviève, «Psychologie sociale et conflit inter- ethnique», *Migrants* ? Formation, N°80, 1990.
- Vinsonneau. G, *Culture et comportement*, Armand Colin, 2000.
- Vinsonneau. G, «Psychologie sociale experimentale», *Pluralisme et école*, I.Q.R.C,1988.

آثار الفينقيين والقرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب.

حليمة غازي بن ميس
كلية الآداب – الرباط

لقد صار من المسلمات عند جل الباحثين، إن لم نقل عند كلهم، أن الليكسيتيين «Lixitai» اللذين تحدث معهم حانون ومرافقوه[1] أثناء رحلته المحاذية للشواطئ المحيطية الإفريقية، هم سكان ليكسوس الواقعة شمال العرائش الحالية..بمعنى آخر أن رحلة حانون كان مقصدها المغرب بل والقسم الشمالي منه. وقد نتج عن هذا الفهم أن ظلت جميع الأبحاث الأركيولوجية المنجزة على أرض المغرب الحالي مقيدة بهذا التأويل. وصار كل من حفرمن الباحثين مربّعا وتعمّق فيه إلا و بدا له أن في قعره المظلم، والذي لا يملك بعد وسائل علمية لفك لغزه، سوقا قرطاجية أو فينيقية. وصار بعضهم لا يحفر ويدرس وبعدها يستنتج وإنما يستنتج قبل أن يدرس ويتأكد. فكونه مهيأ نفسيا وعقليا وثقافيا للاعتقاد بأن الفينقيين أو القرطاجيين هم الكلّ على هذه الأرض، جعله دوما يُجْهد الحفريات لتتطابق والتأويلات. فصار هدف التنقيب ليس هو البحث عن الحقيقة أو الواقع التاريخي بكل مفاجآته، وإنما البحث عن الفينقيين والقرطاجيين في المغرب. وتراه يفرح ويسعد لاستطاعته، رغم أنف المنهج العلمي، مطابقة (بين قوسين) نتائج حفرياته و تأويلات المصادر الأدبية؛ لأن ذلك سيضفي، في نظره، شيئا من المصداقية على عمله و يجعل منه السبّاق في العثور على الفينقيين والقرطاجيين. وهكذا، يقوم هذا النوع من المنقبين بإسناد

(1) أنظر النص الكامل للرحلة في Desanges, *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique*, Rome, 1978, p.392-393.

نقطة أو عدة نقط حضارية جديدة لأجنبي وبالتالي تجريد سكان الأرض الأصليين (وإذا كان مغربيا تجريد نفسه من حيث لا يدري)[2] من السبق إلى الحضارة[3]. – أما إن لم يعثر على أي شيء يوحي، وأقول يوحي وليس يؤكد، بوجود هذين القوميْن، تراه تنتابه الخيبة و يعدنا أن العثور على آثار هؤلاء قادم لا محالة في حفريات مقبلة. فهذا بونسيك[4] يعدنا بأن المعامل المملّحة والمصبّرة للسمك ولصنع النقيع والتي ترجعها كل الدلائل للقرن الأول ق.م. سيأتي يوم نجد أن القرن الخامس هو منطلقها وذلك ليتماشى مع قصة حانون والتأسيس القرطاجي لهذه الصناعة بمملكة المغرب القديم. وهذا طراديل[5] في حفرياته بليكسوس لا يجد أثرا للفينيقيين و القرطاجيين ويبقى كله أمل أن يجد أحد يوما أثرا يؤكد أنها كانت من تأسيس الفينقيين. وهكذا نبقى نعيش على الأمل، ويعتقد القارئ أنه سيأتي اليوم لا محالة. وهكذا، ومع تكرارها تصبح الآمال و الافتراضات حقائق موثوقا بها.

وبدل العمل بفكرة أن كل بوادر مظاهر الحضارة محلية حتى يثبت العكس كما تفعل جميع الشعوب[6] في كل الأقطار، نجد الباحثين بصفة عامة وباحثينا، مع

---

(2) والغريب في الأمر أن بعض المغاربة يساهمون بفعالية في تجريد بلادهم من حضارات كبرى. ففي الوقت الذي يسمي الأوروبيون حضارة كبرى بالحضارة المورية Mauresque، أي المغربية، تجدهم، هم، يطلقون ,عليها اسم أندلسية فيغيبون بالمناسبة كل ما قام به المغاربة و الذين لولاهم لما تم فتح هذا البلد ولولا النفزاويين أخوال عبد الرحمان الداخل و المرابطين و الموحدين و المرينيين لما غنّى بها زرياب و أطرب. وللتذكير فالمشارقة عامة و الشاميون خاصة و المنسوب لهم فضل وجود هذه الحضارة لم يقوموا يوما بقرعة سيف لحماية الأرض التي تبلورت فوقها.

(3) وليعلم القارئ الكريم أن كل المدن القديمة، وبدون استثناء، والموجودة على أرض المغرب الحالي والتي يطلق عليها العديد نعْت الرومية، لم تكن يوما من تأسيس رومي. فوجودها بقرون قبل مجيء روما ثابت بالنصوص و الحفريات

(4) M. Ponsich et M. Tarradell, *Garum et industries antiques de salaison dans la Méditerranée occidentale* éd. PUF, Paris, 1965, p.9-77, *passim*.

(5) M Tarradell, dans BAM, II, 1957 , p.201 et Id., *Marruecos punico*, Tetuan, 1960, *passim*.

(6) بل و هناك من الدول، و من بينها فرنسا ومصر، و من أجل غرس الإحساس بالفخر و الثقة بالنفس في أبنائها، من يذهب إلى درجة كتمان، و في أحسن الأحوال يمرّ مرور الكرام، على الأصل الأجنبي لشخصيات ساهموا في حضارت بلدانهم. فالمتمعن في تاريخ "أم الدنيا" يكتشف أن هذا البلد لم يحكم نفسه بنفسه وبصفة مسترسلة من القرن الرابع قبل الميلاد حتى ثورة يوليوز 1952. فقد مرّت أرض "الكنانة" من الحكم المقدوني الذي أدخل نظام التعامل بالنقود بها وآخر ملوكه اليونانية كيليوباترا إلى السيطرة الرومية فالبيزنطية ثم الحكم الأموي من دمشق فالحكم العباسي من بغداد، فحكم الطولونيين ثم=

الأسف، بصفة خاصة، يعملون بالعكس: فكل مظاهر الحضارة أجنبية حتى يثبت العكس، إلا الرديء منها، حينها يخرج ذلك المحلي الشبح لتحمّل مسؤولية خشونة صنعها. وكأننا أمام شعب عقيم ودون الشعوب. أهله صمّ، بكم، مقطوعو الأيدي. ولتأكيد ذلك سوف نكتفي بثلاثة أمثلة للتدليل على ما نقوله. الأول هو ما تم التسرع في كتابته حول الحضارة المُويْلحية[7] حيث سميت إيبرو- موروسية، أي أنها من أصل إيبيري قبل أن تنقل إلى الموريين[8] مغاربة العصر القديم. وقد أثبتت الدلائل في ما بعد أنها محلية أمازيغية محضة. والمثال الثاني هو ما تم التسابق إلى نشره حول خزف لقواس حيث تمت تسميته بالإيبيري- البونيقي (كذا)[9] وهو في الواقع خزف محلي مغربي لا أثر لأفران صنعه لا في إيبيريا و لا في قرطاجة. و مع ذلك تم الإصرار على الاحتفاظ بهذين الاسمين رغم عدم دقتهما بل و رغم الغلط و التغليط اللذان

=الإخشيديين فالأمازيغيين الكتاميين و المعروفين بالفاطميين فأيوبي الكردي صلاح الدين، فالمملوكيين، فالعثمانيين، ففرنسيي نابوليون بونابارت ،فأسرة محمد علي الألباني الأصل والإنجليز. وفي المقابل نجد المغرب مملكته عريقة بملوكه الذين سكوا نقودا أصيلة منذ القرن الثاني قبل الميلاد و بشعبة الذي كان آخر من خضع لروما و أول من استقل عنها و المستعصي على الوندال و البيزنطيين و أول من استقل عن التبعية للشرق، وبلد الإمبراطوريات المرابطية والموحدية والمرينية والسعدية والعلوية والذي استعصى على الأتراك الذين امتدت سيطرتهم من الخليج حتى الجزائر في إفرقيا وحتى فيينا في أوربا.

(7) جرت العادة على تسمية الحضارة باسم الموقع الذي تمّ العثور فيه على أثرها لأول مرة. والموقع هنا هو واد المْويلح بالجزائر.

(8) كان اسم النوميديين يطلق كذلك على سكان المغرب القديم مثلهم مثل كل سكان إفريقيا الصغرى. وتسميتهم بالموريين راجعة إلى الموقع الغربي لبلادهم وهو الذي جعل اليونانيين يسمونهم بهذا الاسم الآتي من الكلمة اليونانية "موروي" أي الظلام. ولا يخفى على أحد أن المغاربة يسكنون بجوار بحر عرف في القديم و الوسيط ببحر الظلمات، (la mer des ténèbres) و الظلمات في الأمازيغية هي "تِلّس" "Tillas" ومفردها تالّسْت. و بالتالي فلا يستبعد أن تكون كلمة أتْلسْ (Atlas) والتي أطلقها القدماء على جبال بلاد المغرب القديم و سكانه ، مركبة من "أيت" Aït و" تِلّس"، أي أهل الظلمات. ومع الإدغام أصبحت أيت" و "تِلّس" = أيْتْلس وبعد سقوط الياء الساكنة، صارت "أتْلس" . أما تفخيم التاء طاء فناسخو الكلمة إلى العربية هم من استحلى ذلك. وهكذا ومنذ العصور الغابرة، كان المغرب يعد غربيا وكل التسميات تنعته بذلك. ونستغرب أن يكون المغاربة من بين من لا يعدّونه كذلك، في حين يضفون الصفة نفسها على دول أوروبية تقع جغرافيا شرقه، كفرنسا و إيطاليا و ألمانيا مثلا.

(9) كلمة "البونيقي" و التي تمّ تشكيلها بإضافة النعت العربي إلى النعت الفرنسي punique، بحيث أصبحنا أمام نعت منعّت أو ما أسميه بالتنعيت المركب، غير صائبة. والصحيح، هو كلمة "بوني" بل و"بوْني" والتي تتركب من اسم القوم Pœnus-Pœni و علامة النسبة أو الصفة في العربية وهي ياء تأتي بعد كسر آخر الكلمة؛ وإلا وجب قول إطاليقي لتقابل Italique وأسبانيقي لتعرّب Hispanique وهذا كما سبق أن أوضحناه في محاضراتنا لطلبة السلك الثالث و لبعض زملائنا في لقاءات علمية أو منفردة ، منذ1992.

يحملانه في كنههما[10]. والمثال الثالث هو التقسيم الكرونولوجي الذي يعمل به هؤلاء الباحثون والذي يغيبون فيه تغييبا تاما العنصر المحلي، حيث يمرون من المغرب في عهد الفينقيين إلى المغرب في عهد القرطاجيين فالمغرب في العهد الروماني (كذا) [11]، مغرب ما بعد الرومان أوموريطانيا في عهد الوندال وموريطانيا في عهد البيزنطيين أو مغرب ما قبل الإسلام . و هكذا إلى درجة أن القارئ لهذه الأعمال يخرج، ومن حيث لا يدري، بفكرة أن المغرب كان أرضا خلاء من سكانه الأمازيغ وأن من عمّره وقاده هم الأجانب[12] ومن ضمنهم بطبيعة الحال الفينقيون والقرطاجيون. بمعنى آخر، لم تكن أرض المغرب موطنا، لسكانه الأصليين، وهم الذين عمروه و بكثافة منقطعة النظير منذ مليوني سنة على الأقل وطوروا فوق أرضه حضارات ما قبل تاريخية رائعة، وإنما لحفنة من التجار، أبحروا على متن قوارب من مدينتي صيدا وصور. وتصبح الدهشة أكبر عند اطلاع الفرد على عصور ما قبل التاريخ في منطقتنا وتسلسل السلالات بها وتعدد مواقع حضاراتها التي ليست

(10) أصبح الشائع الآن هو "فخار لقواس" و ليس "الفخار الموري"، ربما لكون كلمة "لقواس" لا توحي بشيء يذكّر بمغربية الموقع و لا بموْزغته. ذلك ما حصل بالنسبة للمرابطين و الموحدين بحيث قد يخرج الفرد بعد دراسة إمبراطورياتهم دون أن يعي أنهم أمازيغيون.

(11) أنظر أسفله

(12) لقد تمّ كذلك تضخيم حضور العنصر الرومي بمملكة المغرب القديم وهذا شيء مخالف للواقع. ففي ما يتعلق بالجيش المرابط بأراضي المغرب القديم فكله من قوميات غير القومية الرومية. ذلك أن روما، وهذا ستنقله بالحرف عنها فرنسا التي عرفت كيف تستفيد من التاريخ، كانت تغزو قوميات وتقمع ثوراتها وتحكم قبضتها عليها بجيش من قوميات أخرى. فكما فعلت فرنسا بالأمس عندما أرسلت المغاربة إلى الهند الصينية و جاءت بالسينغاليين إلى المغرب، كانت روما في الماضي ترسل المغاربة إلى فلسطين ومناطق بحوض الدانوب و تأتي بالسوريين والغاليين و الإيبيريين إلى المغرب. وهكذا استطاعت مدينة رومولوس السيطرة على العالم القديم مقتصدة دماء أبنائها. أما فيما يتعلق بخلق مستعمرات بمفهومها الرومي، أي إنزال غرباء في موقع ما بإقليم من أقاليم الإمبراطورية، فالكل يعلم أنه، باستثناء بعض الولايات كأفريقا Africa (تونس الحالية) مثلا، أن المنزّلين من إثنيات مختلفة، روميون بالجنسية فقط بعد قضائهم خمسة وعشرين سنة في الجندية. وباستثناء بعض الأفراد من الملاك الكبار والأطر العليا للإدارة وللجيش بالأقاليم والذين يعدّ من بينهم هم أنفسهم عدد كبير من المترومنين، يمكن القول بأن المتواجدين بجل الأقاليم وخاصة إقليم المغرب القديم و الحاملين للجنسية وللتسمية الرومية المعبرة عن ذلك ليسوا روميي الأصل. ولو كان كل من حمل الاسم الرومي بإقليم من الأقاليم من أصل رومي أو إيطالي وبالنظر لعدد الأقاليم الخاضعة آنذاك لروما والواقعة على أرض ممتدة من إيران شرقا حتى إنجلترّا و المغرب غربا، لخلت روما بل وشبه جزيرة إيطاليا، التي لم يكن يقاس شعبها بعدد شعب الجمهورية الصينية، من سكانها الأصليين. وبالتالي يجب، ومن باب الواقع التاريخي، أن ينظر إلى الوجود الرومي بجل الأقاليم عامة وبأرض المغرب خاصة باعتباره وجودا إداريا أكثر منه بشريا.

سوى ترجمة لكثافة سكانها منذ أزمنة غابرة وكذلك عند دراسته للمصادر الأدبية التي تؤكد على خصوبة السكان الأمازيغ و سلامة صحتهم و طول عمرهم وكثرة عددهم ومقارنة ذلك مع أبحاث جل المعاصرين، فيُتخيّل له وكأن هذا القوم العظيم قد تبخر فجأة. وغاب عن ذهن هؤلاء أنه لإنشاء مؤسسات أو وكالات تجارية، وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة Comptoir، لا بد من توفر شرطين أساسيين: أولهما أن تكون المنطقة المختارة لهذا الإنشاء آهلة بالسكان المحليين. ولا يمكن أبدا أن تكون أرضا خلاء، و إلا فمع من سيتم التبادل؟ وبالتالي يجب أن يضع الباحثون نصب أعينهم أنه كلما تم التفكير في موقع فينيقي أو قرطاجي ،أينما كان، يجب أن يصحبه التفكير في أن تجمعا سكنيا محليا لا يرادفه فقط، بل و يسبقه في القدم . أما ثانيهما فهو أن يعم السلام و الأمان و التفاهم بين الطرفين..بمعنى آخر أن تسود العلاقات الطيبة بين البائع و المشتري أي بين المحلي و الأجنبي. و هذا لا يمكنه أن يحصل إلا في إطار توازن، و ليس تساو، ديموغرافي بين العنصرين الوافد والمحلي، تكون الأكثرية فيه، من حيث العدد، للمحليين بحيث لا يشعرون بغربة و هم على أرضهم. و القصة التي تحكي أن الفينقيين الأوائل لما حلوا بأفريقا Africa قاموا بكراء قطعة من الأرض توضح بشكل جلي وجود محليين منظمين مجتمعيا تمت معهم عملية تعاقدية لا يسمح بموجبها تملك الأرض من طرف الأجنبي. أما القصة التي ساقها هيرودوت و المعروفة عند المؤرخين بالتجارة الخرساء والتي تقول: "وحسب القرطاجيين أيضا، يوجد وراء أعمدة هرقل، بساحل ليبيا، مكان آهل بالسكان. و عندما يصلون إليه يفرغون سلعهم و ينشرونها على الرمال ثم يرجعون إلى سفنهم حيث يطلقون إشارة دخانية للإعلان عن وجودهم بالمنطقة. عند رؤية هذا الدخان يتجه المحليون نحو الشاطئ ويضعون فوق الرمال كمية من ذهب كمقابل لتلك البضائع وينسحبون. وحينها ينزل القرطاجيون من مراكبهم ويقارنون كمية الذهب بقيمة البضاعة فيأخذونها إذا رأوا أنها تساوي قيمة بضاعتهم و ينصرفون. أما إذا لم يقتنعوا بذلك فيتركون الذهب ويرجعون لمراكبهم من جديد. و تتكرر العملية إلى أن يرضى التجار"[13]، فهذه القصة تدل على أن المكان آهل بسكانه و أن القرطاجيين

(13) Hérodote, *Histoire*, IV, 196.

لا يقابلون المحليين وجها لوجه مما يدل على أنه مرغوب في بضائعهم وليس مرغوب فيهم ولا مرحبا بهم كأشخاص.والعملية في مجملها تدل على عدم مغامرة الفينقيين من أجل الاستقرار باليابس. وقد يؤكد ذلك وجود ركامات من الخزف يرجع أقدمها إلى القرن السابع فوق جزيرة، ربما مكرية، قبالة الصويرة وليس على اليابس. و هذه إشارة أخرى إلى الاحتراس الذي تحلى به هؤلاء الغرباء على الأقل في فترة ما قبل رحلة حانون. أما بعد الرحلة فالفقرة الأولى من النص تؤكد أن نية حانون هي إنشاء مدن سكانها ليبو- فينقيين.بمعنى آخر مولّدين أي أبناء وحفدة زوجين أحدهما ليبووي[14] والثاني فينقي. وهذا في حد ذاته يفرض القول بأن الأرض التي نزل بها هؤلاء الوافدون ليست أرضا خلاء.

ومن جهة أخرى فقد تم اعتبار مجيء الفينقيين مرحلة لبداية الفترة التاريخية لشمال إفريقيا عامة و المغرب بصفة خاصة . بل و اعتبر بعضهم رحلة حانون بمثابة عقد ازدياد فترة التاريخ المكتوب للمغرب. فنسي هؤلاء و أولائك أن دخول المغرب في العصر التاريخي لم ينتظر لا مجيء حانون ولا القرطاجيين ولا حتى الفينقيين من قبلهم. وذلك لسبب بسيط هو أن سكان المغرب الأصليين اخترعوا الكتابة التي كان من المفروض أن تجعلهم يدخلون الفترة التاريخية منذ العصر البرونزي، على الأقل، أي منذ بداية الألفية الثانية، أي قبل أن تطأ أقدام الفينقيين أراضي الشواطئ الغربية للمتوسط. إلا أن رموزها لم تفك بعد. وبدل الاعتراف بالعجز عن معرفة مضمونها، وبالتالي عن اختراق خبايا تاريخ المنطقة، ترى الباحثين، ولتجنيب أنفسهم عناء اللوم الواقع على عاتقهم كمختصين، يعملون بمبدأ "كم حاجة قضيناها بتركها". ولتغطية عجزهم تجدهم يلجأون لحل بسيط وتبسيطي في نفس الوقت، وهو الاعتماد على الجاهز، أي ما كتب حول زيارة الفينقيين أو رحلة حانون، لاسيما وأن نتائج ذلك ليست أكثر من كونها تختزل تاريخ منطقة متخلفة اليوم

(14) "الليبو" هو النطق السليم للكلمة وليس "الليبي" الذي تمّ أخذه عن القراءة الفرنسية والتي تقرأ حرف «Y» «I» بينما هو في واقع الكتابتين اليونانية واللاتنية يقرأ «U» لأن «Y» و«U» رسمان مختلفان لحرف واحد الأول مكبّر Majuscule والثاني مصغّر Minuscule. وبالتالي فالشكلين Libu وLiby شيء واحد وإلا وجب نطق اسم بلد سوريا (Suria=Syria)، سيريا وقبرص (Kupros=Kypros) شيبْرة حتى نتماشى، لا مع النطق الأصلي الذي ورثناه عن مصادر الأوائل، وإنما مع النطق الفرنسي Syrie و Chypre مكتفين، فقط، بإضافة صفة المؤنث العربي إليها.

والتي، في نظرهم، لا يمكنها إلا أن تكون كذلك بالأمس. كما لو لم تفك الكتابة الهيروغليفية بعد ونقول :لم تدخل مصر التاريخ إلا مع اليونانيين.

إلا أن المتمعن في نص رحلة حانون و بدون أية فكرة مسبقة يمكنه أن يطرح عدة تساؤلات منها :

1) هل من الممكن أن تنال رحلة حانون ومرافقيه كل هذا الاهتمام والشهرة، وتؤثر على ذاكرة البشرية، وينقش النص الواصف لمراحلها من طرف القرطاجيين، ويعلق على جدران معبد الإلاه (بعل) كرونوس بمدينتهم[15]، ويهتم به اليونانيون ويترجموه إلى لغتهم، لو كانت غاية صاحب الرحلة، التي انطلقت من كاديرا أو قادس الإسبانية[16]، هي الوصول إلى المغرب فعلا، بل القسم الشمالي منه؟ وهل يمكن اعتبار الإبحار عبر بضعة أميال، من كاديرا إلى ليكسوس الشمال، بل إلى شمالها (هناك مواقع تم تأسيسها قبل الوصول إلى موطن اللكسيتيين)، رحلة «Périple» في نظر الفينقيين أوالقرطاجيين القدماء، الذين نعرف أنهم جالوا المتوسط طولا وعرضا و قطعوا مئات بل آلاف الأميال البحرية و لم يقيموا لذلك قائمة؟

2) جاء في نص الرحلة أن حانون قد أبحر بستين سفينة[17] على متنها معدات وحوالي 30.000 [18] من النساء والرجال[19] لخلق مدن سكانها ليبو- فينقيون. السؤال هنا هو: هل كان المغرب، في بداية القرن الخامس قبل الميلاد، و هو التاريخ الذي تمّ اقتراحه من طرف جل الباحثين، أرضا خلاء أو مكونا من شعب غير آبه أو معتوه بل ودون مستوى الحيوان[20] يتم إنزال 30.000 نفر على شواطئه ويرى أراضية تُقتطع ومجالات رزقه يُسيطر عليها من طرف الأجانب ولا يحرك ساكنا؟ لقد أفادتنا المصادر القديمة أن المقاومة الأمازيغية عامة ومقاومة سكان

(15) أنظر تقديم نص الرحلة.

(16) CF. Pline L'Ancien, Histoire naturelle, II, 169.

(17) أنظر نص الرحلة، الفقرة الأولى.

(18) هذا عدد مبالغ فيه في نظرنا. وقد يكون العدد هو 3.000 نفر أو أقل، بمعدل خمسين شخصا في كل سفينة محملة بالمؤونة و يقودها خمسون جذافا.

(19) أنظر نص الرحلة، الفقرة الأولى.

(20) المعروف عن الحيوان هو أنه يحرس محيطه و يدافع عنه.

مملكة المغرب القديم خاصة ضد الروميين[21] كانت من أشرس المقاومات وأعنفها[22]، بحيث كانت مملكة المغرب آخر أرض احتلتها روما و أول أرض اضطرت لمغادرتها خائبة مهزومة. وهذا بوسانياس[23] يحدثنا عن الإمبراطور أنطونينوس التقي (86-161 بعد الميلاد) والشعب الموري أي الأمازيغي المغربي:

"Cet Empereur[24] n'engagea jamais de son propre mouvement les Romains dans aucune guerre; mais l'empire fut attaqué par les Maures, peuplade la plus considérable des Libyens indépendants. Ces Maures, nomades comme les Scythes, sont bien plus difficiles à vaincre qu'eux, voyageant à cheval eux et leurs femmes, et non sur des chariots. Antonin les ayant chassés de tout le pays soumis aux Romains, les repoussa aux extrémités de la Libye, vers le mont Atlas et vers les peuples des environs".

وإذا ظهر للباحثين أن سكان المغرب الأقدمين، مثلهم مثل جميع الشعوب، يدافعون عن أرضهم ويهاجمون من يقتصّ من مجال رزقهم، فلابد أن تحدث اصطدامات بينهم وبين الفينقيين، بل البونيين المحتمل إنزالهم بهذه الأعداد. وفي هذه الحالة لابد لقرطاجة، وعلى غرار ما كانت تقوم به في جهات أخرى، من أن تتدخل لحماية "جاليتها". لكن الغريب في الأمر هو أن قرطاجة لم يسجل لها التاريخ ولو مرة واحدة تدخلا عسكريا على أرض المغرب. فلا يمكن أن يستنتج من هذا سوى أن هذا الوجود لم يحصل إلا في مخيلة بعض الباحثين.

3) فإذا كانت هذه الأرض أرضا فينيقية ـ قرطاجية، كما توحي بذلك "الأبحاث" وكانت المدن المغربية من تأسيسهم فلماذا لم تسمّ هذه الأخيرة بلغتهم؟ فباستثناء اسم روسادير والتي تتركب من "روس" الفينقية و"أدير" الأمازيغية، لا

(21) مصطلح "الروميين" لنعت سكان روما ومن يدور في فلكهم هو الأصح وليس مصطلح "الرومانيين" الشائع التداول بين الباحثين العربفونيين. لأن كلمة Romanus وجمعها Romani هي نفسها صفة مركبة من إسم Roma المدينة وnus أداة النسبة ويقابلها في العربية لفظ الرومي وجمعها روميون وإلا وجب القول إطالياني Italianus وليس إطالي والكالياني Gallianus بدل الكالي أو الغالي والإفريقاني Africanus بدل الإفريقي. ونعت سكان القسم الشرقي من إمبراطورية روما، أي البيزنطيين، رغم كونهم في الواقع يونانيين، بالروم أو الروميين في القرآن الكريم و من طرف العرب القدماء لدليل على وجاهة ما قدمناه.

(22) Cf. à titre d'exemple : M. Rachet, Rome et les Berbères, un problème militaire d'Aguste à Dioclétien, éd. Latomus, Bruxelles, 1970 et M. Benabou, La résistance africaine à la romanisation, éd. Maspéro, Paris, 1976.

(23) Pausanias, Description de la Grèce, VIII, 43.

(24) الأمر يتعلق بالإمبراطور أنطونينوس التقي.

وجود على أرض المغرب لطوبونيميا ولأسماء مدن فينيقية. وحتى في ما يتعلق بكلمة "روس" الموجودة في اسم "روس أدير"، هل وجودها في تركيبة الاسم دليل قاطع على تأسيسها الفينقي ؟ لأنه إذا كان الأمر كذلك فيجب اعتبار كل المدن المركبة من "أكرا" (Acra) من تأسيس يوناني. والسؤال هو: ألا يمكن اعتبار كلمة "روس" الداخلة في تركيبة بعض أسماء المواقع الشمال إفريقية المتوسطية نتيجة المساحلة فقط وليس التأسيس؟ ومتى كانت تسمية أجنبية لمدينة دليلا قاطعا على أجنبية تأسيسها؟ وهل التسمية Casablanca، أنفا الأمازيغية، الدار البيضاء بالعربية، إسبانية التأسيس أو النمو؟ إن التسمية الأجنبية والاسم الغريب على أرض ما لا يعني بالضرورة التأسيس. فلابد من جمع دلائل عدة والسهر على تقاطعها. هذا هو المنهج الوحيد، في نظرنا، الذي يمكن أن يعطينا الجواب أو يقربنا منه. هذا من جهة ومن جهة أخرى، إذا كانت هذه المدن مدنهم و من تأسيسهم، فلماذا لم نعثر في البنايات المغربية القديمة عن إحدى أهم تقنيات بنائهم وهي opus africanum وتصميم مدنهم بينما عثر على تقنيات بناء وتصميم مدن حضارة أخرى وهي الحضارة المُهلّنة[25] والتي لم يسبق لأصحابها أن احتلوا ولا عمروا المغرب.و هذا دليل على أنه يمكن أن يكون لحضارة حضور في بلد دون حضور أصحابها و بالتالي و حتى لو افترضنا أنه عثر على بناء على النمط الفينقي أو القرطاجي فهذا لا يدلّ أوتوماتيكيا على وجودهم كمجموعة بشرية بالبلد. وماذا كان سيقال لو كانت هذه البنايات من تأثير قرطاجي؟ كان سيقال، حتما، هذا دليل قاطع على و جودهم بأرض المغرب و تأسيسهم لمدنه، مع أن الملاحظ هنا هو أنه يمكن نقل تقنية من بلد إلى آخر و من مجتمع إلى آخر دون استعمار و لا استيطان.

4) إذا كان المغرب القديم، كما يعتقدون، مجالا للتجارة القرطاجية، فلماذا لم يتم العثور على نقود قرطاجية بالكثافة التي يصورون بها الوجود القرطاجي في هذا البلد؟ ولماذا لم نعثر على نقائش فينيقية ولا بونية[26] على أرض المغرب بينما تم العثور

(25) Cf. à titre d'exemple J. Boube, Documents d'architecture maurétanienne au Maroc, dans BAM, VII, 1967, pp.263- 367.

(26) هذه الكتابة المسماة بونية كتابة يجب تسميتها، في الحقيقة، إفريقية، شأنها شأن الأبجدية المسماة الإغريقية. فكلاهما مشتق من الفينقية وكلاهما تطور على أرض غير الأرض الفينقية. فلماذا تمّ إبراز الموروث الإغريقي في حين تمّ طمس الإفريقي؟

على نقائش ما يسمى نيوبونية[27] وليبووية[28]؟ ولماذا لم نعثر على نقائش ومعابد وتماثيل للآلهة الرسمية تانيت والتي تعد نقائشها بالآلاف في قرطاجة ومحيطها؟ وهل تخلص منها هؤلاء القرطاجيون قبل مجيئهم؟

5) وإذا كان هؤلاء الفينقيون والقرطاجيون موجودين بالكثافة والقوة كما يدعي ذلك بعض الباحثين، فلماذا لم تكن طريقة الدفن الفينقي والقرطاجي منتشرة في كل ربوع مغرب ذلك الوقت؟ هناك حفنة قبور حول طنجة يقول بعضهم بأن أصحابها دفنوا على الطريقة الفينقية أو القرطاجية ومن هنا استنتجوا وبكل بساطة أننا أمام فينيقيين أو قرطاجيين أقحاح. لهؤلاء نقول، إن كانت هذه الطريقة في الدفن فينقية أو قرطاجية فعلا، فهل هذا دليل على فينيقية أو قرطاجية المدفون؟ هل جميع المغاربة اليوم الذين يدفنون على الطريقة الإسلامية عرب، حتى يكون من دفن على الطريقة الفينقية فينقيا وعلى الطريقة القرطاجية قرطاجيا؟ ألا يمكن أن نكون أمام أمازيغيين أوْصوا وهمْ أحياء أو اختار أهلهم دفنهم على الطريقة الفينقية أو القرطاجية؟ وهل كل من دفن مع قرط أو خزف يقال من صنع فينقي أو قرطاجي أو مشابه لذلك هو (أو هي) بالضرورة فينقي أو قرطاجي؟ ألا يمكن أن نكون أمام أمازيغيين حملت نساؤهم حليا أجنبيا وشربت أسرهم في أواني مستوردة ؟ وكذلك الشأن فيما يتعلق بالأسماء، هل جميع من يحمل من المغاربة اليوم اسم محمد أو إبراهيم أو عبد الله أو فاطمة أو أمينة أو خديجة عرب أصلاء ليكون بوستار Bostar وهو الاسم الوحيد،حسب علمنا، قرطاجيا[29]؟ ألم يسمّ الملوك الأمازيغيون الأقحاح أبناءهم بأسماء قرطاجية منها "مستنبعل" و"أدر بعل"؟. إذا كان عدد الفينقيين والقرطاجيين الموجودين بشمال إفريقيا عامة وبمملكة المغرب القديم خاصة هائلا، وهذا هو الانطباع الذي يخرج به قارئ هذا النوع من الأبحاث،

(27) يجب أن ينطبق على هذه الكتابة المسماة نيوبونية أو "بونية ـ جديدة" و المشتقة من الكتابة الإفريقية المسماة بونية ما انطبق على الكتابة الرومية. فهذه الأخيرة ما هي في الواقع إلا كتابة نيو- إغريقية أو إغريقية جديدة عمّدها (baptiser) الأوروبون لاتينية. في حين نجدهم يؤكدون على بوُننة كتابة مشتقة من كتابة إفريقية ظهرت، من بين ما ظهرت عليه، على أرض مملكة المغرب القديم وبعد انهيار قرطاجة.

(28) هذه الكتابة الأمازيغية بامتياز،كتابة يجب تسميتها، في الواقع، تيفيناغ و ذلك للتشابه التام الحاصل بين هندسة حروفها و حروف تيفيناغ الحالية.

(29) Cf. ILM 116 ; IAM2, 448.

فلماذا لم يتركوا أثرا للغتهم في لغة الأصلاء؟ وإذا كانوا مسيطرين على الحياة السياسية المحلية، فلماذا لم نجد في كل المدن، وليس في وليلي وحدها، حسب علمنا، أثرا للسوفية Sufitat ؛ و لو أن لا شيء يؤكد أن هذه المؤسسة، التي تبناها القرطاجيون، فينيقية الأصل. و لما لا تكون المؤسسة عبرية[30] أو أمازيغية اقتبسها القرطاجيون الأفارقة. ألا تذكّر الكلمة بأسفو (المشعل) و جمعها إسوفا و إسوفاتن ودلالتها النور؟ ألم يحمل الأمازيغي ابن تومرت هذا المصطلح كاسم؟ وحتى إذا افترضنا أنها قرطاجية من أصل فينقي فهذا لا يعني حتميا أننا أمام سيطرة القرطاجيين على الحياة المحلية؛ لأننا : أولا لم نعثر بعد على أثر وجود هذه المؤسسة بالمدن الأخرى لمملكة المغرب القديم، وثانيا حتى لو عثرنا عليه ألا يمكن أن تكون المؤسسة مستوردة دون استيراد الفينقيين والقرطاجيين؟ ألم يستورد المغرب مؤسسة الباشا دون وجود للأتراك به.

6) إذا كان هؤلاء الفينقيون والقرطاجيون هم من سيطر على تجارة المغرب القديم، فلماذا لم نجد ذلك النوع من الخزف اليوناني الذي يقال عنه بأن قرطاجة كانت تتاجر فيه وتوزعه على مناطق المتوسط الغربي بمملكة المغرب القديم بنفس الكمية التي يوجد بها في قرطاجة والمناطق التي كانت تتردد عليها فعلا؟ ثم لماذا لم يتمّ العثور على الخزف الفينقي ولا القرطاجي الحقيقيين على أرض مملكة المغرب القديم ؛ وكان ما عثر عليه خزف محلي يقال بأنه يشبه وبدرجة أحسن الخزف القرطاجي[31]؟ وهذا لوكي (Luquet) يقارن بين الخزفين معتمدا على خزف باناصا الذي يرجع تاريخ صنعه إلى القرنين السادس و الخامس قبل الميلاد فيقول:

«Les poteries récoltées à Banasa sont de prime abord mieux travaillées [que celles de Carthage]. Le dégraissant employé est souvent du quartz finement broyé, intimement lié à la pâte, dont le degré de finesse est remarquable pour certaines pièces. La cuisson a été bien menée, la cassure est nette, sans fissure, entièrement rose ou quelquefois rubéfiée."[32]

(30) ثم العثور على نقائش عبرية بوليلي و أسماء بعض الزعماء الأوربيين المستقبلين للمولى إدريس توحي بعبرانية أصلهم أو على الأقل دينهم قبل إعلان إسلامهم.

(31) وهذا يبين عبقرية الصانع المغربي منذ ذلك الوقت. ومما يؤكد ذلك ما ورد في المصادر اللاتنية واليونانية حول صناعة طاوولات خشب العرعار وصباغة الأرجوان من طرف المغاربة القدماء.

(32) A. Luquet, la céramique préromaine de Banasa, dans *BAM*, V, 1964, p. 123.

ولنفرض أننا أمام خزف يشبه فعلا خزف قرطاجة، فهل ظل القرطاجيون فينيقيين أقحاحا وصناعتهم فينقية وهم على أرض الأمازيغ لمدة قرون؟ أم أننا أصبحنا أمام مجتمع مختلط[33]؟ بل و أكثر من ذلك، فجفاف المنبع البشري الفينقي نحو قرطاجة من جهة وإحاطة سكانها الوافدين بالأضعاف المضاعفة من الأمازيغ، بموجب الحتمية الجغرافية، من جهة، يجعلنا نفكر، وبكل بداهة بل وبعلمية، بأن الجينات الفينقية للقرطاجي تسير نحو التلاشي[34] في حين تسير الأمازيغية منها نحو التقوية كلما دخل في تكوين شجرته رجل أو امرأة[35] من أرض تامزْغا التي يعيش بها ويتمتع بخيراتها. فقرطاجة مدينة إفريقية بكل ما في الكلمة من معنى والقرطاجي ليس سوى نتيجة انصهار بيولوجي بل وذوبان لحفنة من الفينقيين في أعداد هائلة من الأمازيغيين[36]. ذلك أن قوم هؤلاء الوافدين، الذي لم يكن يعد بالملايين وإنما بالآلاف، قد انتشر من رغب في الهجرة منه في جزر المتوسط مثل مالطا وكريت وصقلية وسردينيا وجزر البليار وشواطئ إسبانيا ورشّ بعض النقاط من شواطئ أفريقيا (أي تونس الحالية). والعائلات التي اختارت موقع قرطاجة لاستقرارها، قد امتزجت وانصهرت في العدد الهائل للعنصر الأمازيغي حتى صارت المصادر تسمي أفرادها أفارقة وليبوويين. وعلاقات المصاهرة التي كانت تربط هذه العائلات بالأمازيغيين والتي ذكرتها عدة مصادر تؤكد ذلك. وبالتالي فحضارة هذه المدينة حضارة إفريقية في واقع الأمر، وقول عكس ذلك مثل قول إن حضارة فاس وسلا والرباط وتطوان، أي المدن التي احتضنت الجالية الأندلسية، حضارة غير مغربية. وينتج عن كل هذا أن كل مظهر من مظاهر التشابه بين حضارة مدينة قرطاجة وحضارة الجهات الإفريقية الأخرى هو بالطبع، إن لم يوجد مثيل له على أرض أجنبية، لا يمكنه أن يكون إلا إفريقيا. و عليه، فلا غرابة إن وجدنا تشابها

---

(33) Cf. A. Ferjaoui, Recherche sur les relations entre l'orient phénicien et Carthage, Carthage, 1992, passim.

(34) بهذه الكلمة نعني L'évanescence الفرنسية.

(35) جرت العادة في جميع المجتمعات الأبيسية (Patriarcale) أن لا يعتدّ بجينات الأم و عليه يتم التصرف في قضية الإرث الهوياتي وكأن رحم المرأة قِدْر وجد فقط لتوفير الظروف لنمو النطفة وأن المرأة ليست إلا حاملا (Porteuse) لابن أبيه؛ و هذا بطبيعة الحال مخالف للقواعد العلمية بل ولقواعد الطبيعة نفسها.

(36) ذلك شأن كل الأقوام التي وفدت على هذه الأرض المعطاء. فكون الجميع دخل في الجلباب والبرْنسْ وأكل الكسْكسْ دليل قاطع على ما قلناه. ولو كان عدد الوافدين أكبر لرأيت كل المغاربة يدخلون عباءة وروُوسهم مغطاة بكوفية مثبتة بعقال.

بين الصناعة القرطاجية والكيرتية[37] والباناسية والتيواسية[38] و الوليلية وغيرها. ولا غرابة إن وجدنا كلمة عند القرطاجيين والأمازيغ في نفس الوقت. فالقرطاجيون، حسب المتخصصين، تكلموا لغة مزيجا من الفينقية والأمازيغية[39] أي نوعا من الكريول(créole)[40]. ولا غرابة، بل ولا مفاجأة في هذا. فلغة القوم مرآة لتركيبة مجتمعه. و عليه فعندما تقول المصادر اليونانية أو اللاتينية[41] إن تلك كلمة بونية، مثال ذلك كلمة أكادير[42]، فلا يحق أن تنسب أوتوماتيكيا للغة الفينقية بل يجب أن يوضع في الحسبان أن جل هؤلاء المؤلفين، إن لم نقل كلهم، جاهلون للغات الفينقية والبونية والأمازيغية وبالتالي لا يمكنهم التمييز بين مفردات كل منها. وما يجب أن يحضر بالبال هو أن البونية ليست فينقية "نقية" وأن الكلمة بها قد تكون فينقية كما قد تكون أمازيغية. وبالتالي يجب الوقوف عند أي مفردة قيل إنها بونية لتعميق الدراسة والتحرّي في شأنها. ولكي نعتبر المفردة فينقية يجب، في نظرنا، أن

---

(37) كيرتي وكيرتا هو النطق السليم للنّسختين اليوناني و اللاتيني للكلمة و ليس "سيرتا" كما هو شائع والمأخوذ في الواقع عن النطق الفرنسي المحرف للاتنية. أما الاسم الحقيقي لهذه المدينة الأمازيغية الكبرى فهو مكون من الصوامت التالية TNKR.

(38) يظهر أن الرومبين كانوا يعوضون الواو الأمازيغي بحرف «P» فميكوْسا كتبوا اسمه Mikipsa وليوْتيس (مدينة لواتة) كتبوها Leptis واسم مؤلف أول رواية توفرت فيها شروط الرواية في تاريخ البشرية "أوُولَي" (من ك ـ أيت ـ أولي Aït uli = G. كما يقول الروائي نفسه) كتبوها Apule (ius) وبالتالي فاسم ipasaT قد يكون في الأصل تيواسا أي أنه مركب من "تين أو تي" أي التي تنتسب إلى و"أسا" أي الحوض والكل يعني مدينة الحوض. أما للذين يرون في حرف«P» نسخا لحرف فاء أمازيغية و بالتالي Apuleus هو نسخ لأفولاي وipasaT في الأصل تفزا. فنقول إن هذا مُجانب للصواب، وذلك لسبب بسيط هو أن اللاتنية تملك حرف الفاء وبالتالي فهي ليستَ في حاجة إلى البحث عن حرف لتعويض الفاء الأمازيغي . وللتأكد أنظر اللائحة الطويلة للكلمات البادئة بالفاء (ص 645-699)، ناهيك عن التي تضم هذا الحرف بداخلها أو تنتهي به، في المعجم اللاتيني ـ الفرنسي لصاحبهfiotF Gaf.

(39) Cf. A. Ferjaoui, *Recherches sur les relations entre l'orient phénicien et Carthage*, Carthage, 1992, p. 185-325.

(40) وهذا واقع اللغة الوطنية المغربية المسماة "الدارجة" والتي هي عبارة عن مزيج رائع وهادئ بين اللغتين الأمازيغية والعربية.

(41) Cf. Pline, *Histoire naturelle*, IV, 120 ; Festus Avienus, Ora maritima, v. 268-269. et Id., Orbis terrae, v. 615-616.

(42) تجدر الإشارة إلى أن نصوص هذيْن المؤلفيْن الواردة أسماؤهما أعلاه يذكران لفظ "أكادير" لا على أساس أنه مصطلح فينيقي وإنما على أساس أنه كلمة بونية والفرق في نظرنا واضح. والمعاصرون هم من قفز على كلمة بونية المكتوبة في النصوص وأحلّ محلها، في تحليلاتهم، كلمة الفينقية، أنظر في هذا الشأن وعلى سبيل المثال :

St Gsell, *Histoire ancienne de l'Afrique du nord*, T.I, p. 319 et note 2.

تكون، أولا و قبل كل شيء، شائعة الاستعمال في فينقيا وأن تنتشر في كل أماكن المتوسط[43] التي تردد عليها الفينقيون. أما إذا وجدت بقرطاجة وببلاد الأمازيغ، فيتوجب حينها التفكير جديا في أمازيغيتها[44].

7) إذا كان القرطاجيون هم الذين تحكموا في اقتصاد مملكة المغرب القديم ويسيرونه وسيروا معه البلاد والعباد، فلماذا لم يؤثروا في نظامه المالي؟ و لماذا نجد شكْل النقود و الرموز المنقوشة عليها و إيكونوغرافياتها و وزنها و سمكها و نسبة خلط المعادن بها و معيرتها كلها مختلفة كل الاختلاف عن النقود القرطاجية؟

8) إذا كانت ليكسوس الشمال و بالتالي القسم الشمالي للمغرب الحالي هي مقصد الفينقيين ومقصد مرافقي حانون، فلماذا تم العثور على أقدم خزف، يقال بأنهم مروجوه، بالجنوب و بالضبط بجزيرة قبالة الصويرة و لم يتم العثور على مثيله في القدم بالشمال.بما في ذلك موقع ليكسوس؟ و إذا كان القسم الشمالي من مملكة المغرب القديم هو سوق التبادل مع الفينقيين والقرطاجيين، فكيف يمكن تفسير ما ورد في نص الرحلة المنسوبة لسولاكس والذي يقول إن التبادل كان يجري بين الفينقيين الذين يرسون سفنهم بجزيرة كيرني[45] أي كاناريا[46] والإثيوبيين القاطنين باليابسة المقابلة لهذه الجزيرة :

---

(43) يمكن تفسير وجود "كادير" الإسبانية بحكم قرب موقعها من بلاد الأمازيغ والذين نعرف أنهم كانوا يترددون على شبه الجزيرة هذه منذ عصور ما قبل التاريخ.

(44) هناك من ذهب به الأمر ، بُغية جعل سالا من تأسيس فينيقي -قرطاجي، إلى اعتبار إسلّي لفظا فينيقيا رغم كونه لم يظهر إلا في نصوص تتعلق بأرض المغرب. فإذا كانت الكلمة كذلك فلماذا لم يتم نشرها في كل المناطق التي داستها أرجل الفينقيين في العصر القديم؟ ولماذا لا نجد أثرا لها اليوم في كريت و قبرص ومالطا وصقلية وساردينيا والبليارو إسبانيا ، ولبنان، موطن الفينقيين، في حين تغمر السهول والجبال والهضاب التي يقطنها الأمازيغيون والتي لم تر يوما أثر وجود الفينقيين بها. وهل أصحاب هذا الطرح يعنون به أن الأمازيغ، الذين ليس لديهم مفردة أخرى غير إسلّي المقابلة لكلمة caillou الفرنسية و"الحجرة" العربية، لم تكن لديهم مفردة لنعت الحجر حتى جاء الفينقيون؛ مع العلم أن لفظ "أزرو" يعني الصخرة البارزة (le rocher) و"إمسْلي" الصخرة المدفونة؟

(45) النطق الفرنسي اللاحن Cerné سيرني للكلمة اليونانية Kerné أبعد العديد من الباحثين عن التفكير في وضع علاقة بين Kerné وCneri و Canari، لا سيما وأن الفرق بين الكلمتين لا يتعدى قلب حرفين. وقلب الحروف هذا، من طرف المؤلفين لأسماء غريبة عن لغتهم، ظاهرة شائعة.وأكبر دليل على ما نقوله هو التحريف الذي أصاب اسم القائد اليوناني ألكْسنْدر الذي، ورغم كل شهرته، أصبح في الكتابات العربية الإسكندر ومدينته ألكْسانْدْرا صارت الإسكندرية.

(46) كانت جزر كاناريا أو على الأقل إحداها معمّرة منذ القديم. ولما قام بزيارتها الملك يوبا الثاني وجد بها آثارا للبنايات «des vestiges d'édifices»، أنظر (Pline, HN, VI, 203).

Les commerçants sont des Phéniciens quand ils arrivaient à Kerné, ils amarrent leurs vaisseaux ronds et dressent les tentes dans l'île. Ils déchargent leur cargaison et la transportent à terre dans de petites embarcations. Il y a là des Ethiopiens, avec qui ils font des échanges. Ils échangent leurs marchandises contre des peaux de cerfs, de lions de léopards, contre des peux ou des défenses d'éléphants, contre des peaux d'animaux domestiques [...]Les commerçants phéniciens leur apportent de l'onguent, de la pierre d'Egypte... des poteries attiques, des conges. On vend ces poteries à la fête des conges. Ces Ethiopiens mangent de la viande et boivent du lait, ils font beaucoup de vin de leurs vignes que les Phéniciens exportent. Ils ont aussi une grande ville où vont les vaisseaux des marchands Phéniciens. Certains prétendent que ces Ethiopiens s'étendent de là jusqu'en Egypte sans interruption, que cette mer est continue et que la Libye est une péninsule»[47]

وللعلم، فبالإضافة إلى حانون الذي يُمَوضِعُ هؤلاء الإثيوبيين جنوب الليكسيتيين[48] وبلينيوس الذي يسميهم بالدرعيين[49]، أي سكان منطقة وادي درعة، نجد جميع المؤلفين القدامى، وبدون استثناء، يموقعونهم[50]، هم وجيرانهم من الفاروسيين[51] (أوالفيرورسيين) والنيكريتيين[52] بالصحراء الكبرى وتخومها الشمالية والغربيين منهم بالمنطقة الواقعة قبالة جزر كاناريا، فجنوبها. هذا في الوقت الذي يوطّنون فيه الليبُوويين (الأمازيغ) بصفة عامة شمال هذه الشعوب والموريين أي الغربيين من الليبويين في الشمال الغربي للمنطقة.

9) إن التأويل الذي يموْقع من خلاله الباحثون الليكسيتيين Lixitai بمنطقة ليكسوس، شمال المغرب الحالي، هو في الواقع تأويل لا يصمد للحتمية الجغرافية. ففي الفقرة السابعة من نص الرحلة ورد أن هناك سلاسل جبلية كبرى تقع جنوب

(47) Pseudo Scylax, 112.

(48) أنظر نص الرحلة ، الفقرة السابعة.

(49) Pline, *Histoire Naturelle*, V, 10 .

(50) Cf. entre autres Hérodote VII, 69 Scylax, 112 ; Strabon, II, 3,4 ; III, 4,3 ; XVII, 3,5 ; XVII, 3, 7 et 8 , XVII, 3, 23 ; Pline, V, 10, 43 et 77; Méla, III, 96 ; Salluste, Bell. Jug, XIX, 6-7 ; Appien, Numidica V ; Pausanias I, 33, 5 ; Orose , I, 2, 91-93 ; Ammien Marcellin XXIX, 5, 37 ; Isidore de Séville, Etymol., XIV, 5.

(51) Strabon, II, 5,33 et XVII, 3, 7; Pline V, 10, 16, 43 et 46 ; VI, 195 ; Méla, I, 22 ; III, 103 et 104 ; Strabon, II, 5, 33 ; XV, 3, 3 et 7 ; XVII, 3, 3 et 7.

(52) Nigrites ou Nigrètes Cf entre autres Strabon , II, 5,33 ; XVII, 3,3 et 7. Pline (V, 30) parle du fleuve Nigris et dit et (V, 43) qu'ils doivent leur nom à ce fleuve.

الليكسيتيين وتفصل بينهم وبين الإثيوبيين ومنها ينبع "حسب الليكسيتيين" نهر ليكسوس. والسؤال هو : أين يمكن أن يمْوضع أصحاب الأطروحة أعلاه هذه الجبال ونحن في القرن الخامس قبل الميلاد فقط ولسنا بصدد الحديث عن زمن جيولوجي غابر؟ أيمْوقعونها بمنطقة الغرب، أم بالشاوية أم بهضبة الفوسفاط أم بالحوز؟

10) إذا كانت منطقة ليكسوس الواقعة في الشمال هي المعنية في الفقرتين السادسة والسابعة من نص الرحلة، فأين يمكن موْضعة "السهل الكبير"[53]، "ورأس سوليس (Soleis) الذي تكسوه الأشجار"،[54] "والبحيرة غير البعيدة عن البحر المملوءة بقصب كثيف وعال والتي ترعى فيها أعداد كبيرة من الفيلة وحيوانات متوحشة أخرى"[55]؟ وأين يمكن موقعة المراكز الست وهي :

(Thumiaterion, Caricon Teichos, Gutte, Acra, Melitta et Arambys)

والتي قام حانون بإنشائها قبل وصوله إلى منطقة الليكسيتيين؟ ولماذا لم يتم العثور، إلى حد الساعة، على إحداها ؟ وما الهدف من تأسيس ست مستوطنات بين طنجة وليكسوس لبلد كقرطاجة كان أهلها يبحثون عن الذهب والفضة والعطور والعبيد وبيض وريش النعام؟ فالمساحلة (Le cabotage) لا تقتضي بالضرورة إنشاء المدن. ويمكن لأي أحد أن يساحل بثغور آخرين شريطة أن يكون مسالما وأن يوافق المحليون على ذلك. و إذا لم يوافقوا فحتى التأسيس لن يدوم و إلا وجب وضع جيش حول كل مرفأ تمّ إنشاؤه.

11) يقول سترابون[56] إن الفاروسيين[57] والنكريتيين[58]، جيران الإثيوبيين، هم من قام بتدمير المراكز التي أنشأها حانون. والسؤال المطروح هنا للذين يُموْقعون

(53) انظر نص الرحلة ،الفقرة الثانية .

(54) أنظر نص الرحلة ، الفقرة الثالثة.

(55) الفقرة الرابعة من نفس النص. وتجدر الإشارة هنا إلى أن اسم "إيفني" يعني الضاية واسم "كلميم" (أكلميم) مثلها مثل "أكلمام" تعني البحيرة .

(56) Strabon, XVII, 3,3.

(57) قد تغطي هذه التسمية قسما من اليهود الأصوليين المنشقين المعروفين بالفاريسيين (الفاريشيين حسب النطق العبري) كانوا قد هاجروا إلى إفريقيا هروبا من الاضطهاد الذي حل بهم في إسرائيل. ولا يخفى على أحد كثافة اليهود بالجنوب (مملكة إفران مثلا) ودرجة محافظتهم على أصالة وأصولية دينهم حيث أصبحوا اليوم المرجع الأساس للديانة اليهودية.

(58) النيكريون Les Nigrites هم سكان منطقة النهر الذي يحمل اسم " ن ـ إيكر" N'iger. وهو اسم ينطق به في الأصل بالكاف «G» وليس بالجيم. وهو النهر الذي يسمّى حاليا النيجير تبعا للنطق الفرنسي اللاحن.

هذه المراكز في القسم الشمالي للمغرب هو : هل صعد الفاروسيون والنكريتيون من الصحراء واجتازوا الأطالس وعبروا سهول وهضاب المملكة لتدميرها؟. وكيف يعقل أن يترك سكان شمال المملكة أقواما من أقصى الجنوب تعبر البلاد وتخرب مدنا في منطقتهم؟ إذا كان سكان الشمال يرغبون في تدميرها فلماذا لم يقوموا بفعل ذلك بأنفسهم؟ أما إذا كانوا لا يرغبون في ذلك، فلماذا لا يقومون بحمايتها ويتركون شعوبا غريبة تقوم بذلك فوق أرضهم؟ هدم هذه المدن من طرف الفاروسيين والنيكريتيين القاطنين، كما يعلم الجميع، دوما بالصحراء، ألا يعبر في حد ذاته عن جوارهم للمنطقة التي أنشئت بها؟ ألا يمكن أن يترجم ذلك سوء تفاهم بين الطرفين ناتج عن علاقات مباشرة أدى إلى تخريبها؟

12) تخبرنا المصادر أن بوليبوس خادم مصالح روما قام برحلة على طول الشاطئ الأطلسي لبلاد المغرب ووصل من بين ما وصل إليه "ماسات" أي منطقة ماسة و"ضارات" أي منطقة درعة. فكيف يمكن تفسير هذه الرحلة الرومية، غداة انهزام قرطاجة، إلى الجنوب بدلا من الوقوف عند الشمال لو لم تكن هذه المنطقة هي إلدورادو L'Eldorado في نظر القدماء و على رغبة ملحة لروما في الحصول على ما سيطرت عليه قرطاجة من قبل؟ كل هذا يدفع إلى التفكير في موقعة مراكز حانون في القسم الجنوبي للمغرب الحالي أي في منطقة طرفاية والصحراء المغربية لاسيما و أن المصادر تُموْقع الإثيوبيين الذين كانت تتمّ معهم التجارة قبالة جزر كاناريا. ثم ألا يذكّر اسم وادي الذهب بزمن كان الذهب فيه متدفقا بالمنطقة؟

13) ورد في الفقرة الثامنة من نفس النص أن حانون، بعد إبحار لمدة ثلاثة أيام فقط جنوب منطقة الليكسيتيين، اكتشف جزيرة سماها كيرني، تبعد عن أعمدة هرقل بعد قرطاجة عن نفس الأعمدة (أي 1500 كلم) . وهنا نتساءل : إذا كان سكان ليكسوس الواقعة في الشمال هم المعنيين في الفقرتين السادسة والسابعة كما يعتقد الباحثون، فهل مدة ثلاثة أيام من الإبحار التقليدي جنوبهم تكفي للوصول إلى نقطة تبعد عن أعمدة هرقل ب 1500 كلم ؟ وكيف يمكن تفسير ما ورد عند أريان[59] عندما قال "أما بالنسبة لليبووي (كذا) [60]حانون ، فبعد انطلاقه من قرطاجة

(59) Arrien, *Indica*, XLIII, 11-12.

(60) هذا اسم يدل على إفريقية حانون في نظر القدامى.

و تجاوزه لأعمدة هرقل، أبحر في المحيط، وليبْوا عن يساره، لمدة 35 يوما"، إن لم نفترض بأن الرحلة ابتعدت عن شمال المغرب بكثير ؟

14) ورد أيضا في الفقرة الثامنة من نص الرحلة أن حانون اصطحب معه ليكسيتيين للترجمة بينه وبين الإثيوبيين ومن هذا الكلام استنتج بعض الباحثين أن اللكسيتين يتكلمون البونية وأن لغة التواصل بين الليكسيتيين وحانون وأصحابه كانت البونية و البونية فقط فاستنتجوا من ذلك أننا أمام سكان عرفوا التأثير الفينقي أو القرطاجي من قبل مكنهم من إتقان هذه اللغة قبل مجيء حانون. وعدم ثبوت وصول الفينقيين أو القرطاجيين لمناطق في الجنوب قبل رحلة حانون، جعل هؤلاء الباحثين لا يرون في ليكسيتيي الرحلة إلا سكان ليكسوس الواقعة في الشمال للمغرب الحالي. وغاب عن ذهن هؤلاء الباحثين أن يكون حانون هو الذي قد تكلم الأمازيغية، وهو الشخص الذي ازداد وترعرع على أرض تامزغا كما ازداد آباؤه وأجداده وأجداد أجداده منذ ما يزيد عن تسعة أجيال على الأقل. أجداد جاءوا بعدد قليل وامتزجوا، بل وذابوا بيولوجيا بفضل المصاهرة في العدد الهائل للأمازيغيين، كما تؤكد كل النصوص القديمة. ولنفرض أن حانون لم يكن يتقن الامازيغية، ألا يمكن لهذا الرجل، وهو الذي استعد استعدادا باهظا لهذه الرحلة، حيث "أبحر، يقول النص، بستين سفينة، ذات خمسين جذافا، مصطحبا حوالي 30.000 رجلا وامرأة وآخذا معه المؤونة وكل ما يمكن أن يحتاج إليه"، ألا يمكنه إذن أن يفكر في مرافقة من سيتكلم هذه اللغة وهو المقبل على محاداة الشواطئ الأطلسية لتامزغا، وبالتالي يكون الكلام بالأمازيغية، وحينها يقوم اللكسيتيون بالترجمة لا من الإثيوبية إلى البونية وإنما من الإثيوبية إلى الأمازيغية وهذا يحررنا، فعلا، من الالتزام بموقعة ليكسيتيي نص الرحلة بمنطقة قريبة من التأثير الفينقي أو القرطاجي.

15) ولما كان الليكسيتيون الذين يتحدث عنهم النص[61] "رُحّلا" (nomades)، فلا يمكن إذن أن يتعلق الأمر هنا بسكان حضريين كسكان ليكسوس المدينة العريقة التي يرجع تأسيسها حسب أحدث الحفريات الأركيولوجية إلى القرن السابع قبل الميلاد على الأقل، أي قرنين قبل رحلة حانون.

(61) أنظر نص الرحلة، الفقرة السادسة.

16) تتحدث مصادر بلينيوس القديم[62] (القرن الأول بعد الميلاد) وخاصة منها ما كتبه كورنيليوس نيبوس (القرن الأول قبل الميلاد) عن مدينة تسمى ليكسوس، وأنها "مدينة قوية جدا وأكبر من قرطاجة الكبرى، يقول المصدر، وتوجد قبالة قرطاجة وعلى مسافة تكاد لا تنتهي من مدينة تنْكي" [63]

«Cette ville de Lixos a été puissante et plus grande que la grande Carthage, en outre elle est située à l'opposite de Carthage et à une distance quasi-infinie de Tingi».

ورغم تحفظ بلينيوس القديم من هذا الخبر، تحفظ راجع لاعتقاده أن المدينة المعنية هي ليكسوس القريبة منه والمعروفة لديه أي ليكسوس الواقعة في الشمال، فإنه يجب التفكير جديا في وجود ليكسوس أخرى (كإفران أخرى) بالجنوب هذه المرة، بعيدة كل البعد عن ليكسوس الشمال، ليكسوس أخرى أسسها الأمازيغ بعد رحلة حانون واشتهرت بفضل النشاط التجاري الذي تلا مروره. وقد تكون ليكسوس هي في الأصل مدينة، "ألكوست" (Alkoust)، عاصمة سوس خلال القرن الثاني عشر بعد الميلاد. وأن المدينة الوسيطية ما هي إلا امتداد للقديمة؛ شأنها شأن كل المدن القديمة التي امتد وجودها حتى العصر الوسيط بل وحتى اليوم ومنها وليلي وسالا[64] وطنجة وتيطاوين ومليلا وأزيلا وغيرها. وللتذكير فإن منطقة سوس هذه تختزن أنثروبونيميا[65] وطوبونيميا تذكّر باسم اللكسيتيين، إذ سجلت بها

---

(62) Pline , *HN*, V, 4.

(63) حسب دلائل سقناها في بعض مقالاتنا يظهر أن معنى اسم هذه المدينة هو الفيضان تينْكي *(Tingui)* بالأمازيغية. أنظر على سبيل المثال

H. Ghazi-Ben Maissa, Image ou mirage de la Tingitane à travers les sources arabes médiévales, dans , *Africa Romana*, XIV, 2000, p.2230-2237.

(64) سالا هو النطق الأصلي(أنظر النقائش والنصوص اللاتينية) و"شالا" نطق عبراني يرجع لوجود جالية عبرية هامة بها منذ أقدم العصور ولا يستبعد أن تكون إحدى عائلاتها التي أسلمت هي التي شكلت الأسرة الحاكمة للبورغواطيين . وقد يأتي أصل التسمية من "إسلاّ" و هو أحد الجمعين للكلمة الأمازيغية " إسلّي"، "إسلّيوْن" أو من لفظ "أسالا" الذي يعني السلالة و الذرية).

(65) هناك الشخصية العالمة المشهورة بالحضيكي والمسمى كذلك اللكوسي "نسبة إلى أسيف إداو لكوست، وهو الإسم القديم للوادي الذي يقطع حوض تارسواط" حسب محمد بومزكو، **طبقات الحضيكي محمد احمد الحضيكي (1189هـ/1775م)**، تحقيق وتقديم، بحث لنيل ديبلوم الدراسات العليا في التاريخ، نوقش بكلية الآداب و العلوم الانسانية،جامعة محمد الخامس الرباط1994، النسخة المرقونة ص 14 والهامش 34 ص47.

أسماء جغرافية قد تأتي من عصر غابر بفضل قوة مقاومة الطوبونيميا للزمن كما هو معروف. فبالإضافة إلى المدينة التي تمّت الإشارةُ إليها نكتفي بذكر واد "ألكوس" قرب "تافراوت" وقرية "تانكيست" (أو تالكيست) بالسفح الغربي لما يسمى اليوم بالأطلس الصغير والذي كان ينعت سفحه هذا بأدرار "أنكيس" (أو "ألكيس") والأطلس الصغير نفسه الذي كان يسمى "انكيس" (أو ألكيس). ولا يستبعد أن يكون أحد النهرين "سوس" أو نهر "ماست" خاصة، نظرا لوجود موقع باسم تانكيست على أحد ضفافه[66]، هو الذي حمل اسم "ألكوس" في عهد حانون قبل أن يحمل كل واحد منهما اسم القبيلة أو مجموعة القبائل المحيطة بهما. ومما يؤكد ما سبق، ما جاء في كتابات بوسانياس[76] الذي يُموْضع اللكيسيتيين في الجنوب عند تخوم الأطلس و يذكر استهلاكهم الكبير للعنب[68].

ولا غرابة، إذن، أن يكون حانون قد استهدف، برحلته هذه، منطقة سوس وجنوبها. أليست هي المنطقة التي بقيت حتى العصر الوسيط منطقة إنتاج الفضة والذهب والنحاس والزنك، والكحل وملح البارود، ومجْلبا لذهب الصحراء وجلودها وعبيدها وعاجها وبيض وريش نعامها ثم مركز توزيع المسك والعنبر، والشمع والصمغ والنيلة وطيب الزّباد ؟ وبالتالي فمن المحتمل جدا أن يكون الليكسيتيون الذين تعارف معهم حانون هم سكان واد ماسة أو أحد روافده.

17) نعلم أن المغرب كان مملكة يحكمها ملوك بكل ما في الكلمة من معنى[69]. وكل الدلائل تشير إلى أن هذا البلد الكبير و"شعبه العظيم والغني" (كذا) كما شهد

---

(66) وهو الموقع الذي بني به سد يوسف بن تاشفين.

(67) Pausanias, I, 33.

(68) هذه العادة الغذائية سنجدها عند المصامدة الذين يقول عنهم صاحب الاستبصار" و جبل درن أخصب البلاد و أكثرها أنهارا وأشجارا وأعنابا، وفيه أمم لا تحصى من المصامدة وأكثر عيشهم إنما هو من العنب والزبيب والرُّب، وهم لا يستغنون عن شربه لشدة برد الجبل وثلجه"، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص. 211.

(69) من الملاحظ أن الهستوغرافيا الفرنسية، ولخدمة أغراض توسعية على حساب المغرب، قد اكتفت بالإشارة إلى وجود مملكة مغربية دون التركيز عليها كنظام سياسي وكمجال جغرافي محاولة التصغير من قيمتها وحجمها. وفي الوقت نفسه،عملت على إبراز أهمية المملكة النوميدية رافعة من شأن ماسينسا المتعامل مع روما وجاعلة منه أكبر ملوك المنطقة على الإطلاق. ولقد زاد في ترويج هذه الأطروحة، وأطروحات مماثلة، بعض المثقفين المغاربيين غير المطلعين على المصادر والمنبهرين بنتائج دراسات الغربيين بصفة عامة والفرنسيين بصفة خاصة. ولما جاءت الكتابات العربية، لأغراض أخرى، روجت، بكل ما في وسعها،=

بذلك سترابون[70]، قد شكل ،ومنذ أقدم العصور، دولة عريقة ذات كيان، شاسعة الأطراف اختارت لنفسها نظاما ملكيا وراثيا قويا وصل إلى درجة تقديس الملك. والسؤال الذي نطرحه هنا هو: كيف يمكن لملك أن يسمح لأجانب باقتطاع أراضي من مملكته ثم يصولون ويجولون بها حسب ما يتبين من الأبحاث المنشورة حتى الساعة؟ ألم يكن ممكنا لهؤلاء الملوك أن يتخذوا العبرة مما حصل لإخوانهم و أبناء جلدتهم بشرق إفريقيا الصغرى؟ ألم يمكن لهم أن يحذروا من هذا القوم الذي نزل ضيفا وبعدها صار سيدا متسلّطا؟ ألم يحوّل هؤلاء التجار الوافدون، وبحد السيف، مجال وجودهم من قطعة أرضية مكْرية متواضعة المساحة (بورسا Bursa) إلى مِلْكية شاسعة الأطراف مغتصبين أراضي المحليين؟ ألا تترجم ريبة[71] الملك المغربي أبوقس[72] الأول، و نحن في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، تجاه الرحالة الأجانب، تخوفا موروثا منذ القدم؟ وكيف يمكن تفسير موقف الملك باكا[73] قبله بقرن و هو يساند مسينيسا عدو قرطاجة لو كان البلد يعج بالقرطاجيين، وكانت الحياة السياسية والاقتصادية تحت سيطرتهم كما يوحي لنا بذلك الباحثون من خلال تعاليقهم؟ من المستبعد جدا أن لا تصل أخبار تلك الحروب المتتالية التي كانت تشنها قرطاجة ضد جيرانها الأمازيغ إلى آذان الملوك والمسؤولين عن المملكة و بالتالي يصعب تصورهم يكررون، في محيطهم الجغرافي المباشر وقرب عواصمهم ومراكز حكمهم، تجربة تفتك بهم. و بالتالي فإذا كان هناك وجود بل وسماح[74] بالوجود لفينيقيين أو قرطاجيين كتجار[75] بالمملكة فسيقع ذلك في منطقة

= الأطروحة القائلة بأن المغرب، كدولة، لم يظهر إلا في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الملاديين وأن بلاد المغرب لم تشهد قبل ذلك إلا نظام القبائل والعشائر وجعل مروجو هذه الأطروحة من تاريخ بلادهم تاريخا مقعدا (Clu-de-jatte) . وما هذا إلا جهل بتاريخ بلادنا المجيد وبنظامه الملكي العريق.

(70) Strabon, XVII, 3, 2.

(71) Strabon, II, 3, 3.

(72) الحروف المنقوشة على نقود الملك هي الصوامت "ب"، "ق"، "س"، وإذا احتفظنا بالضمة والواقعة وما بعد الباء في جميع حالات نسخه لليونانية أو اللاتينة كل هذا يعطينا "بوقس". وإذا أضفنا علامة المذكر في الأمازيغية "أ" ، فإن الاسم يصبح "أبوقس".

(73) Cf Tite Live, XXIX, 30, 1-4..

(74) إن الإشارة إلى إنشاء مدن ليبو- فينقية في النص وليس فينقية فقط يفرض فرضا قاطعا أن المنطقة كانت آهلة بالسكان قبل نزول الوافدين وأن هناك مشروعا لإنشاء مراكز مختلطة وهذا شيء لا يمكن أن يتأتى إلا بموافقة المحليين وليس رغما عنهم.

(75) قد يكون من بين من يقوم بتنشيط هذه التجارة يهود وأمازيغيون. فالكل يعرف على الصعيد الوطني بل والدولي الحس التجاري الذي يتميز به رجال منطقة سوس. ولا يمكن لهذه الخاصية أن تكون وليدة الأمس.

بعيدة عن المركز وبشكل لا يهدد وجود رمز الحكم. فوجود فينقيين وقرطاجيين في المنطقة الجنوبية للمملكة[76] لا يشكل، في نظرنا، خطرا على وجود المملكة نفسها. فقلة عدد هؤلاء التجار وخاصة بُعد قواعد الدعم البشري والعسكري الفينقي أو القرطاجي عنهم يجعل وجودهم خاليا من الخطر ونفعهم أكثر من ضررهم.

ولهذا إذن، ونظرا لكل الدلائل التي قدمناها واعتبارا لكل التساؤلات التي أثرناها في هذا المقال، يبدو لنا أن التنقيب عن آثار الوجود الفينقي ـ القرطاجي، إن كان هناك وجود[77] لهم فعلا، يجب أن يتمّ جنوب مملكة المغرب القديم وليس شمالها؛ لأن البحث عنه في شمالها قد لا يزيد، في نظرنا، عن الجري وراء سراب.

(76) توجد بوادر تشير إلى امتداد سلطة الملوك إلى هذه المنطقة ومنها أن الملك أبوقس كان يجيش الإثيوبيين، وأن بوكود قد ذهب لإخماد ثورة هناك وأخيرا أن الملك يوبا قد زار جزر كاناريا ووقف على أطلال بنايات بها.

(77) هناك من يشك في واقع الرحلة نفسها، أنظر :

R. Mauny, Le périple d'Hannon, un faux célèbre concernant les navigations les navigations antiques, dans *Archeologia*, n° 37,1970, p. 76-80; G. Germain, Qu'est ce que le périple d'Hannon, document, amplification littéraire ou faux intégral, dans *Hespéris*, XLIV, 1957, p. 205-248.

"ووصلنا على بركة الله إلى إيجيليز"

حول تحديد موقع إيكيليز هرغة، حصن ا لمهدي بن تومرت

جان بيير فان ستيفل
جامعة السربون – باريس

عبد الله فلي
جامعة شعيب الدكالي – الجديدة

مقدمة

"ووصلنا على بركة الله إلى إيجيليز"[1] بهذه العبارة استهل الكاتب أبو عقيل بن عطية الرسالة الرسمية التي حررها بمراكش في الثامن من شوال سنة 552هـ (13 نونبر 1157) يصف فيها وصول الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى إيكيليز هرغة، مسقط رأس ابن تومرت ومهد الثورة الموحدية، وذلك في رمضان من نفس السنة (أكتوبر 1157)[2]. وتدل هذه الزيارة على المكانة الرمزية التي كانت تحظى بها هذه القرية من بلاد السوس لدى الخليفة الموحدي ورفيق درب الإمام ابن تومرت. وكانت إيكيليز في هذه الفترة اسما قويا لاستحظار اللحظات الأولى لدعوة مؤسس الحركة

(1) إن كثرة الأشكال التي وردت عليها هذه الكلمة في المصادر الوسيطية، جعل اختيارنا في هذا المقال يقع على إيكيليز المستوحاة من الطريقة التي تنطق بها الكلمة محليا. وسنحتفظ بشكل الكلمة كما هي إذا كان حديثنا مرتبطا بمصدر بعينه.

(2) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، طبعة ليفي بروفنصال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، 10، الرباط، 1941، الرسالة 17، ص ص. 81–93 (86).

الموحدية بجبال بلده قبل أن يشد الرحال إلى تينمل بالأطلس الكبير[3]. إذ سرعان ما حلت هذه الوجهة الجديدة محل إيكيليز بل وهمشت هذه الأخيرة نهائيا بسبب ارتباط الإمبراطورية الناشئة بالمدارات المتوسطية والأندلسية. وهكذا اختفى هذا الموقع شيئا فشيئا في المصادر التاريخية إلى أن طواه النسيان نهائيا[4]. وإذا أغرت تينمل، عن جدارة واستحقاق، مؤرخي الفترة الوسيطية وما بعدها، فإن إيكيليز هرغة بالمقابل لم يثر لدى الباحثين إلا اهتماما نسبيا. ولهذا نحيي محاولة الطالب الأمريكي ألين فرومهرتز Allen Fromherz، لتوطين موقعه مؤخرا وقد تم نشر نتائج دراسته بالعدد 26 من مجلة القنطرة Al Qantara بمدريد[5].

لقد ارتكزت فرضيته على تحليل سطحي للمصادر التاريخية وعلى تخمينات أثرية غير دقيقة، مما أفضى إلى نتائج مغلوطة أرجعت البحث في هذا الموضوع عشرات السنين إلى الوراء. ولهذه الأسباب أحببنا أن نضع مقابل هذه الفرضية، العناصر الأولى من بحث لازال جاريا، وهو نتاج قراءة متأنية للمصادر المكتوبة وتحريات ميدانية[6]. وسنحاول في هذا المقال بيان عدم صحة ما ذهب إليه الطالب الأمريكي وذلك وفق ثلاثة عناصر أساسية :

---

(3) عن المهدي بن تومرت نحيل إلى ترجمة مختصرة في الطبعة الثانية من Encyclopédie de l'Islam, El (2) "Ibn Tumart" *(Hopkins, J.F.P), EI(2)*, III, pp. 983-984.

ويمكن الرجوع كذلك إلى R.Bourouiba, *Ibn Tumart*, Alger, 1982 : وكذلك **عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، حياته آراؤه و ثورته الفكرية و الاجتماعية و أثره بالمغرب**، بيروت، 1983. وهذان المرجعان يخصصان مكانة مهمة للمعطيات المصدرية رغم إحجامهما في أغلب الأحيان عن المقاربة النقدية. ونجد كذلك معطيات دقيقة عن أهم عناصر سيرة ابن تومرت و حياته بايكيليز في:
Norris, N.T, *The Berbers in Arabic literature*, Harlow-Beyrouth, 1982. بالنسبة لمرحلة شبابه وص ص 169 –174 بالنسبة لما بعد عودته من رحلته إلى الشرق. عن تينمل، أنظر:
"Tinmal", (Ferhat, H), *EI* (2) X, pp. 368-369.

(4) سنتطرق إلى الجوانب التاريخية لاختفاء هذا الموقع في المصادر منذ الفترة الموحدية وما بعدها في مقال قيد الإعداد:
A paraître, "Oublier Igîlîz".

(5) Fromherz, A.J, "The Almohad Mecca, Locating Igli and the Cave of Ibn Tumart", *Al Qantara*, XXVI/1, 2005, pp.175-190.

(6) لقد دفعنا مقال Fromherz إلى تعجيل نشر هذه المعطيات التي تبقى مؤقتة و قابلة للتجديد.
وقد بدأ اهتمامنا بهذه المنطقة منذ مدة طويلة، تجسدت علميا على أرض الواقع بمشاركة J.P Van Staëvel في مشروع بحث حول "أسوار تارودانت" تحت إشراف الاستاذ A.Bazzana، وفي مشروع "ميلاد المدينة الإسلامية بالمغرب" تحت إشراف الأستاذين P.Cressier والعربي الرباطي.

– أولا: أن لا علاقة بين إيكْلي كموقع بسهل سوس وبين إيكْيليز هرغة اللذين يعتبرهما فرومهرتز موقعا واحدا.

– ثانيا: أن مسقط رأس ابن تومرت ومهد الحركة الموحدية يقع بالأطلس الصغير الأوسط وليس بسهل سوس.

– ثالثا: أن إيكْيليز هرغة موقع مركب من الناحية العمرانية. ويتكون من حصن منيع على رأس الجبل –وليس السهل- تحصن به ابن تومرت وأنصاره إبان المواجهات الأولى ضد المرابطين. وهذا ما أملى علينا تخصيص وصف أثري مقتضب لبنايته ومكوناته المعمارية[7].

I - إيكْلي و إيكْيليز هرغة، موقعان مختلفان في المصادر المكتوبة :

1 – من إيكْيليز إلى إيكْلي: أسباب الخلط بين اسمين مختلفين :

ينطلق طرحنا من التأكيد على البون الشاسع بين موقعي إيكْلي[8] وإيكْيليز هرغة واللذين أراد فرومهرتز جعلهما متماثلين. ولعل أهم مؤاخذة يمكن أن نسجلها على الباحث، هي السهولة التي سلّم بها بتطابق اسمي إيكْلي وإيكْيليز، غاضا الطرف عن معنيهما وعن الأشكال المختلفة التي ورد بها الاسم الثاني في المصادر التاريخية

وقد بدأنا عملنا سويا على الفترة الموحدية بسوس سنة 2003 بمناسبة زيارتين ميدانيتين لوادي سوس والأطلس الصغير الشرقي. وهذه الأبحاث تدخل في إطار إعداد برنامج للتعاون الثقافي بين المغرب وفرنسا نتمنى أن يرى النور قريبا. ونود أن نشكر بالمناسبة الأستاذة جودية حصار بنسليمان والأستاذ عبد العزيز توري والأستاذ عمر أكراز من المعهد الوطني لعلوم الآثار بالرباط والصديق الأستاذ عزالدين كرا، مدير مركز أبحاث ودراسات التراث المغربي البرتغالي، الأستاذ أحمد بوزيد بتارودانت وجميع السلطات المحلية بدائرة أولاد برحيل وجماعة تيغمرت، على تفهمهم وتعاونهم وثقتهم. كما نشكر الأستاذ عمر أفا عن تفضله بقراءة هذا العمل في نسخته الفرنسية والعربية ونشكره على ثقته الغالية وصدره الرحب وتشجيعاته.

(7) وقد قدمنا وصفا أركيولوجيا أوليا للموقع بمناسبة تكريم الأستاذة جودية حصار بنسليمان بالمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث يومي 8 و9 دجنبر 2005. وستنشر المداخلة ضمن أعمال هذه الندوة الدولية تحت عنوان:

"Avant Tinmal : notes historiques et archéologiques à propos d'gîlîz-des Harga, berceau du mouvement almohade"

(8) اعتمدنا في هذا العمل الشكل الذي ورد فيه اسم مدينة إيكلي أو (إيجلي) في المصادر الوسيطية بألف مكسورة وممدودة عوض الصيغة الحالية التي انتفى فيها المد.

الوسيطية[9]. وإذا استثنينا إشارة شاذة يشير فيها ابن القطان إلى أن مولد ابن تومرت كان "بموضع نومكران"[10] فكل المصادر الأخرى تؤكد أن مسقط رأسه يحمل إحدى الأسماء التالية : إيكْيليز، إيكيلين أوإيكلي. وبدون أن يطرح مشكل هذه الأسماء، اعتمد فرومهرتز الاسم الأخير مرتكزا على نص مصحف للمراكشي. ونعتقد أننا لا يمكن أن نغض الطرف بسهولة عن وجود أشكال أخرى جاءنا فيها رسم الموقع، خاصة أن القراءة الشاملة للنصوص المتوفرة مكنتنا من فهم معنى وأسباب تعدد الصور التي نسخ بها الاسم الأصلي : إيكْيليز.

لا غرو أن المسوغ المباشر لتعدد الأشكال التي ورد عليها اسم هذا الموقع هو النسيان الذي طاله مبكرا، مما أفضى إلى وقوع الناسخين في أخطاء عندما أغفلوا الشكل الأمازيغي الأصلي وتبنوا شكلا معربا ومحرفا[11]. إن النقطة الأساس التي تنطلق منها مقاربتنا هي الأخذ بعين الاعتبار للاسم الأصلي للموقع برمته : فقد لاحظنا أن اسم بلد ابن تومرت يضاف في أغلب المصادر إلى اسم قبيلة هرغة[12]. فالبيذق يستعمل "إيكْيليز متاع هرغة"[13]، وهي صيغة نجدها عند ابن عذاري في البيان "إيجيليز لهرغة"[14]. وهذان الإسمان المركبان هما صياغتان عربيتان مختلفتان

---

(9) Fromherz, "Almohad Meccaì", pp. 176-177.
ولعل اعتماد الكاتب على عدد محدود من المصادر هو الذي حتم عليه الوقوع في هذه الهنات. فقد اكتفى في مقاله بالرجوع إلى:
- Lévi-Provençal, *Les documents inédits d'histoire almohade...*
المجموعة الأولى للرسائل الموحدية و أخيرا كتاب **المعجب** لعبد الواحد المراكشي.

(10) ابن القطان، **نظم الجمان...**، تحقيق محمود علي مكي، بيروت دار الغرب الاسلامي، 1990، ص.90.
-Huici Miranda, *Historia política del imperio almohade*, 2 vol., Granada, 2000, (1ère édition, 1956-57). I. p. 23. عن محاولة توطين هذا الموقع انظر مقالنا قيد الإعداد "Oublier Igîlîz" .

(11) حول هذه التفاصيل المهمة جدا في نظرنا نحيل إلى مقالنا السابق الذكر.

(12) للتذكير فقط نشير إلى أن "هرغة" هو الشكل المعرب لاسم قبيلة "أرغن" والتي لم نحدد معناها أنظر مقال: "صدقي أزايكو"، "أرغن"، **نماذج من أسماء الأعلام الجغرافية والبشرية المغربية**، الرباط، 2004، ص ص.72-74.
"Hargha" (Monés, H.), *EI (2)*, III. pp. 212-213.

(13) Lévi-Provençal, *Documents inédits...*, Paris, 1928, pp.72, 128-129, trad, 116, 217, 219.
ونشير إلى أن طبعة بنمنصور (الرباط 1971)، أشارت إلى الموقع تحت إسم إيكلي متاع هرغة)ص 32 . وص. 90 وتحت إسم إيكيلي هرغة (ص. 91).

(14) ابن عذاري، البيان المغرب، 4, بيروت، 1983، ص.68.
Huici Miranda, Ibn Idarî : *al Bayân al-Mugrib. Nuevos fragmentos almoravides y almohades*, Valencia, 1963, p. 158.

للاسم الأمازيغي الأصلي وهو"إيكْيليز نورغن". و قد ورد كذلك اسم الموقع مختصرا في"إيكْيليز" سواء في الإشارات التي وردت في كتاب الأنساب[15] أو عند ابن القطان[16] أو في الرسالة الرسمية الموحدية لسنة 552هـ 1157 /م، التي خصصت للزيارة الروحية التي قام بها الخليفة عبد المؤمن إلى مهد حركة التوحيد[17]، و أخيرا في الوصف الذي أفرده البيذق لزيارة الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف لإيكيليز سنة 565هـ 1170 /م[18].

إن التحول الذي نلاحظه من إيكْيليز إلى إيكْيلين نتج في نظرنا عن إدغام الناسخين لزاي إيكْيليز في نون النسبة إلى هرغة إما لتشابه الحرفين أو لغموض الغرض من النون لديهم. وهكذا نجد إيكيلين عند ابن خلدون في **كتاب العبر** "إيكْيلين من بلاد هرغة"[19]، وعند الزركشي في **تاريخ الدولتين**[20]. إلا أن الصورة التي أوردها ياقوت لاسم الموقع مختصرا ينم عن جهل تام به و عن معناه[21]. وهكذا عمد إلى حذف الزاي في "إيكْيليز" أو النون في "إيكْيلين".

هذه الفرضية هي التي تفسر الصورة الفريدة التي احتفظ بها المراكشي "إيكْلي ن– ورغن أو إيكْيلي ن– ورغن"[22]. ويتميز هذا الشكل بقربه من الصيغة الأمازيغية

---

(15) Lévi-Provençal, *Documents inédits*... pp. 30, 39, 40, trad. pp. 45, 59, 60-61.

(16) الإشارات التي تضمنها نظم الجمان تطرح في مجملها عدة مشاكل. فقد صحف الاسم و عوض بالجبلين (ص ص.23 – 124، 137) أو جبل الجبلين (ص ص 78، 133) أو الجبلين من هرغة (ص ص 30، 136). إلا أننا نجد الصورة الصحيحة ترد ثلاث مرات (ص ص. 131–132، 153). وهذا يؤكد الشكل الأصلي للاسم المختصر (إيكيليز).

(17) مجموع رسائل موحدية، مصدر سابق، ص.86 .

(18) Lévi-Provençal, *Documents*..., p. 128, trad. p. 217.

(19) ابن خلدون، كتاب العبر، 7 أجزاء، بيروت، 1992، ص.268 .

Traduction, De Slane, *Histoire des berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, 4 vol., Paris, 1927, II, p. 168 (Aiguilin, dans le pays des Hergha).

(20) الزركشي ، **تاريخ الدولتين ، الموحدية والحفصية**، طبعة اليعقوبي، تونس، 1998، ص.13 .

Traduction, Fagnan, *Chronique des Almohades et des Hafcides*, Constantine, 1895, p. 5.

(21) يشير ياقوت إلى إيجلين وايجلن وإيجلي، **معجم البلدان**، طبعة الجندي، 7 أجزاء، بيروت، I، 1990، ص.342 .

(22) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، طبعة القاهرة، 1963، ص.240 .

Traduction, Huici Miranda, *Kitab al Mu'gib fi taljis ajbâr al-Magrib*, Tétouan, 1955, p. 136.

الأصلية[23] وفي نفس الآن، ببتره لاسم الموقع. وقد زاد فرومهرتز بدوره بتر إشارة عبد الواحد المراكشي عندما اكتفى بإيراد كلمة "إيكْلي" بمفردها[24].

2 – إيكَيلي، قاعدة بلاد سوس الأقصى، لمحة تاريخية :

الظاهر أن فرومهرتز يجهل تاريخ مدينة إيكْلي التي اتخذها منطلق الدعوة الموحدية[25]. لن نستغرق هنا في عرض تفاصيل تاريخ هذه المدينة رغم كونها في حاجة إلى دراسة معمقة، وسنكتفي بالوقوف عند خطوطه العريضة تأكيدا منا فقط على عدم تداخلها مع إيكْيليز هرغة. وفي هذا الصدد نؤكد اختلافنا التام مع الباحث حول ربط هذا الموقع المعروف في المصادر التاريخية، والذي حافظ على نفس الاسم منذ العصر الوسيط إلى اليوم[26]، بموقع إيكْيليز مسقط رأس المهدي بن تومرت ومنطلق الحركة الموحدية.

تقع إيكْلي الآن في دائرة أولاد برحيل على بعد 20 كلم تقريبا شرق[27] تارودانت على الضفة اليمنى لوادي سوس في عالية ملتقى هذا الوادي مع وادي تلكجونت.

(23) لقد احتفظ المؤلف بنون النسبة وتم الربط بين الكلمتين باستبدال ألف "أرغن" واوا كما هو معروف في اللغة الأمازيغية.

(24) إلا أن فرومهرتز ليس الوحيد الذي اعتمد كلية على عبد الواحد المراكشي. فرشيد بورية يأخذ بدوره برواية (إيكلي ورغن) دون تمحيصها رغم معرفته الجيدة بالمصادر. Bourouiba, *Ibn Tumart*, p. 11 . 12. *Id, Abd Al Mumin, Flambeau des Almohades, Alger*, 1982, p. 12.

ونفس الاتجاه أتخذه عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت...**، عندما فضل إيكلي ص ص (103، 123) رغم أنه يرجع أن الاسم الصحيح هو إكَيليز هرغة (ص ص.30–31). والظاهر أن الباحثين لم يعيروا اهتماما للاسم المركب "إيكيليز" متاع هرغة "أو "إيجيليز لهرغة" الكفيل بإثارة انتباهنا قبل التسليم بتماثل مسقط رأس المهدي بن تومرت ومدينة إيكلي. ونشير أن Lévi-Provençal هو الوحيد الذي صحح إشارة المراكشي "إيكلي" (ز) ن وارغن"، ص.45 . و للمزيد من المعلومات نحيل على مادة "إيكلي" (م. ناعمي)، معلمة المغرب، II، ص ص. 628–629، الذي خصص أغلب فقراته لمسألة التداخل بين الإسمين: ومادة "إيكيليز" (صدقي إزايكو)، **معلمة المغرب**، ص ص.640–641 .

(25) عن إيكَيلي في العصر الوسيط نحيل إلى:

- Dj. Jacques-Meunié, *Le Maroc saharien des origines à 1670*, 2 vol., Paris, 1982, 1, pp. 56-57, 190-191, 227, 229, 239, 246, 254-255.

أنظر كذلك مقال مصطفى ناعمي السابق الذكر، رغم أنه لم يخصص لتاريخ المدينة في العصر الوسيط إلا حيزا ضيقا.

(26) بقي معنى هذه الكلمة مجهولا. ونود أن نشكر الباحث الاسباني الذي ذكر لنا وجود موقع يحمل نفس الاسم بإقليم الرشيدية (بين ارفود وتينجداد). ويؤكد على أنه موجود كذلك في صيغة إكني. وهكذا نلاحظ أن الاسم منتشر أكثر مما يمكن تصوره انطلاقا من المصادر المكتوبة.

(27) وليس بغرب تارودانت (to West of Tarudant) كما ذهب إلى ذلك فرومهرتز، **المرجع السابق**، ص.183 .

لا نعرف أصول هذه المدينة إلا أن ج. جاك مونيي Dj. Jacques Meunié تفترض أن تكون استمرارا لبنية عمرانية ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام[28]. و من المرجح أن تكون ايكَلي هي "مدينة السوس" التي أشارت إليها المصادر الجغرافية العربية الأولى[29]، واعتبروها أهم مركز في المنطقة. وقد لعبت دورا سياسيا مهما خلال القرن التاسع الميلادي عندما استقر بها عبد الله بن إدريس بن إدريس الذي ألحق المنطقة والأطلس الصغير برمته بإمارة الأدارسة، وإن كانت المصادر لا تسعفنا في فهم كيفية حكمهم لها في ظل الصراع الشيعي السني الذي عرفته هذه البلاد[30].

لقد خص أبو عبيد البكري في النصف الثاني من القرن 11م و صفا دقيقا للمدينة ومحيطها الذي عرف ازدهارا اقتصاديا وخاصة في الميدان الفلاحي. فهي "مدينة كبيرة سهلية" و"قاعدة بلد السوس"[31]. ومنذ هذه الفترة بدأت بوادر تراجع المدينة لصالح مراكز جديدة ظهرت بالمنطقة وخاصة تارودانت[32]. و لم تذكر مدينة إيكلي في المصادر التاريخية إلا عرضا في النصف الأول من القرن 12[33]. و لعل موقعها الجغرافي السهلي قد جردها من القيام بأي دور في الصراع المرابطي الموحدي. فقد دخلها عبد المؤمن بن علي لأول مرة سنة 529هـ/ 1135 – 1134م[34]. وبفقدانها

---

(28) D. Jacques-Meunié, I, p. 190-191.

(29) ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، ليدن، 1967، ص ص. 91–92.
Kramers et Wiet, *Configuration de la terre*, Paris, 1964, p.91.

(30) Jacques-Meunié, I, p. 208. V. Lagardère, *Les Almoravides jusqu'au règne de Yûsuf b.Tashfin*, Paris, 1989, pp. 34-41.

وقد ذكر البكري قبر عبد الله بن إدريس بن إدريس، البكري، **كتاب المسالك والممالك**، طبعة دوسلان، 1965، باريس، ص ص 161-162، الترجمة الفرنسية : *Description de l'Afrique septentrionale*, pp 305-308.

(31) البكري، **مصدر سابق**، ص ص. 161–162، الترجمة، ص ص. 305–306.

(32) عن علاقة تارودانت بإيكلي انظر أعمال قيد الطبع ل : A. Bazzana et Y. Montmessin من جهة و J-P. Van Staëvel et A. Fili من جهة أخرى.

(33) هذا بالرغم من كون الرواية الشفوية تؤكد، كما ذهب إلى ذلك فرومهرتز، وزيارتنا إلى عين المكان، أن المسجد الحالي كان من بناء المهدي بن تومرت. إلا أن الزخرفة الداخلية لهذا المسجد لا تنتمي إلى الزخرفة الموحدية كما هي معروفة، فهي زخرفة ترجع، بدون شك، إلى الفترة العلوية.

(34) **رسائل موحدية**، مجموعة جديدة، تحقيق و دراسة أحمد عزاوي، القنيطرة، 1995، الرسالة 3، ص 50-51.
ابن القطان، **نظم الجمان**، ص.237. و قد نعت الموقع بالمدينة. ; Jacques-Meunié, I, pp. 254-255. Provençal, *Documents...*, pp. 98-88, trad. pp. 141-142.

لدورها العسكري والاقتصادي، تعرضت مدينة إيكْلي للنسيان لدرجة أن الإدريسي لم يذكرها في نزهته في منتصف القرن 12.[35]

بعد هذه النبذة التاريخية، نفاجأ بتوطين "نهائي" لإيكْيليز هرغة بهذه المدينة. وقد جهل فرومهرتز أن العلامة المختار السوسي سبق له أن طرح هذا الطرح في كتابه **خلال جزولة** عندما وضع بدوره ثقته في رواية المراكشي وشكك في الرسالة الرسمية لسنة 552هـ/1157م، وفي رحلة الوافد لعبد الله بن إبراهيم الزرهوني، ليخلص فرومهرتز إلى ما خلص إليه المختار السوسي قبل نصف قرن من بعده[36].

3 – إيكْيليز هرغة، مسقط رأس المهدي بن تومرت

يتضح إذن أن لا علاقة بين مدينة إيكْلي بسهل سوس وبين إيكْيليز هرغة بالأطلس الصغير الأوسط. وقد حلى المراكشي هذا الموقع ب "الضيعة"[37] وسماه ابن القطان "القرية"[38]، تلك التي شهدت الحلقات الأولى من حياة ابن تومرت كطالب نبيه أولا، ثم، بعد عودته من المشرق، كفقيه مصلح وكمهدي لثورة الموحدين. ومن الصعب تكوين صورة دقيقة عن الأحداث التي وقعت بهذه المنطقة خلال هذه الفترة المبكرة لاسيما مع ندرة المعطيات المصدرية وتضارب كرونولوجيا المواجهات الأولى التي عرفتها بين الثوار والمرابطين[39]. ولا تثنينا هذه المثبطات من

(35) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، طبعة Dozy et de Gœje ، ليدن، 1968، ص ص 61–62، ترجمة، 71-72. سنجد إشارات لاحقة عند صاحب كتاب الاستبصار وعند الحميري في الروض المعطار ولكنها إشارات تعيد ما ورد في المصادر السابقة. مجهول، **كتاب الاستبصار**، طبعة سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، 1958، ص ص.212–213. الحميري، **الروض المعطار**، طبعة إحسان عباس، بيروت، 1975، ص.330.

(36) المختار السوسي، **خلال جزولة**، تطوان، بدون تاريخ، ص ص. 163–168.

(37) المراكشي، **مصدر سابق**، ص.240 .

(38) ابن القطان، **مصدر سابق**، ص. 90 .Huici Miranda, I, p. 23.

(39) حول إعادة النظر في بعض عناصر سيرة ابن تومرت نحيل على أعمال م. فيرو (M. Fierro) وخاصة :
- M. Fierro, "La religión", in Viguera (dir.), *El retroceso teritorial de al-Andalus. Almoravides y Almohades, siglos XI-XIII*, Historia de Espana de R. Menéndez Pidal, Vol. III/2, Madrid, 1997, pp. 435-546 (443-448).
Id, "Le mahdi Ibn Tumart et al-Andalus", Mahdisme et millénarisme en Islam, *REMM*, 91-94, 2000, pp. 107-124 (109-116).

من بين الأفكار التي طرحتها الباحثة الاسبانية، أن العقيدة الموحدية لم تكن من وضع مؤسسها ابن تومرت و إنما هو تصور فكري يتطور وفق حاجيات الخلافة الموحدية وخاصة فيما يرتبط بمشروعيتها. وترى أن فكرة المهدوية لم تفرض نفسها إلا عندما أصبحت عاملا يؤمن لها مشروعية سلطتها وخاصة في عيون =

محاولة تقديم حصيلة ما تزودنا به حول موضوعنا[40].فقد أطلعنا البيذق في مذكراته عن استقرار ابن تومرت ببلده، "فنزل داره" بإيكيليز هرغة سنة 514هـ[41] الموافق ل 2 أبريل 1120 – مارس 1121م[42]. وذهب ابن خلدون إلى أنه باشر بناء رابطة للعبادة والتدريس "وبنى رابطة للعبادة"[43]. وعرف الموقع عقب ذلك بـ "رباط هرغة"[44] الذي يعتبر الغار أهم مكوناته. وقد تحدثت عنه المصادر وعن اختلاء ابن تومرت فيه

= الاندلسيين. وينتج عن هذا أن الكتابات الخاصة بحياة ابن تومرت أعيدت كتابتها لاحقا وخاصة فيما يرتبط منها بدوره في تحديد العقيدة الموحدية. وإذ لا نخفي أهمية هذه المقاربات الجديدة، فنحن نرمي في بحثنا إلى التأكيد على أن إعادة كتابة المصادر المرتبطة بحياة ابن تومرت وبعقيدته، لا تنفي وجود رصيد ثقافي و اجتماعي يمكن للمؤرخ والأثري المشتغل على منطقة سوس أن يستغله في دراسته لتاريخ المنطقة في بداية العصر الموحدي. فهدفنا هو قراءة هذه النصوص المختلفة التي من المؤكد أنها تطرح إشكاليات عدة لإعادة تركيب المشاهد الأولى لتفتق الثورة الموحدية. ونؤمن بالمقابل على أن النصوص التي بحوزتنا حول إيكيليز، ليست عارية من طابع إيديولوجي. فالطريقة التي ستقاربه بها الإسطوغرافيا الموحدية فيما بعد، دليل على أنه جزء من منظومة هدفها خدمة العقيدة والدولة. ونحيل هنا إلى عملنا قيد الإعداد" "Igîlîz Oublier"

في نفس التوجه الذي انخرطت فيه م. فييرو : نحيل إلى المبحث المخصص للثورة الموحدية في كتاب:

M.García-Arenal, *"Messianism and Puritical Reform : Mahdism of the Muslim West"*.

ونشكر الباحثة الاسبانية على تفضلها بتزويدنا بهذا المبحث قبل نشره المرتقب في 2006.

(40) عن المصادر المفقودة أنظر عز الدين موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي**...، بيروت، 1991، ص ص.12–14. عن المصادر المتوفرة ص.ص. 15–26.

E.Fricaud, *Ibn Idâri Al Murrâkusi, historien marocain du Magrib et d'al-Andalus. Bilan d'un siècle et demi de recherches sur Al Bayân Al Mugrib...*, 3 vol. Lille, 1994.

ومن بين الفراغات المصدرية المهمة التي نتأسف لها، نشير بصفة خاصة إلى ضياع الجزء المخصص لحياة ابن تومرت وبداية دعوته من كتاب البيان، مرجع سابق، II، ص ص. 398–400 .

(41) Lévi-Provençal, *Documents...*, p. 72, trad. p. 116.

بالنسبة لابن القطان توجد دار ابن تومرت بموضع نومكران، ص.90 . ويطرح هذا الاسم عدة مشاكل رغم أن انفراد ابن القطان بذكره يوحي للباحثين على محدودية أهميته.

ذهب هويسي ميراندا إلى أن ابن تومرت قد وصل إلى إيكيليز هرغة في بداية عام 515هـ الموافق لنهاية مارس 1121م.

(42) *Huici Miranda, Historia ...*, I, p. 61..
Huici Miranda, *Historia ...*, I, p. 24.

(43) ابن خلدون، **العبر**، VI، ص. 268، الترجمة، II، ص ص. 168–169. الزركشي، **مصدر سابق**، ص. 14، ترجمة ص.5 .

(44) ونجد هذا المصطلح في **كتاب الأنساب** (مرتين) وعند البيذق، طبعة ليفي بروفنصال، ص ص. 39، 131-132، ترجمة،59، 222-223. وفي كتاب "**أعز ما يطلب**"، طبعة عبد الغني أبو العزم، ص.33 .

تأسيا بالرسول ﷺ ووفق عادة قديمة[45]. إلا أننا لا نعرف العلاقة المجالية التي تجمع بين الرابطة و الغار من جهة، وبينه وبين قرية إيكْيليز هرغة من جهة أخرى[46]. وإذا ما رجعنا إلى نص البيذق، وجدناه يشير إلى أن الإمام أمر أصحابه، وهو جالس أمام الغار، ببناء مربط (أساراك)، لربط الخيل التي سيخلفها أعداؤه وراءهم تنبؤاً منه بهزيمتهم[47].

وإذا أجمعت أغلب المصادر على أن بيعة ابن تومرت تمت أمام هذا الغار أو بالقرب منه، باستثناء البيذق الذي أضطرب رأيه بين ايكْيليز والأطلس الكبير[48]، فإنها بالمقابل تختلف في زمنها، وإن كان الغالب هو شهر رمضان سنة 515هـ[49]. بعد هذه المرحلة الأولى سيصطبغ ذكر الغار بطابع ديني واضح، حيث أصبح ينعت ب "الغار المقدس"، وشدت إليه رحال الخليفتين الموحدين الأولين. وشهد، بمناسبة زيارة عبد المؤمن بن علي إليه في خريف 552هـ/1157م، أشغال ترميم تمثلت في نصب باب لحمايته كما "نظر في إقبائه وتغطية أرجائه وتسوية أرضه وسمائه"[50].

وإذا ما قارنا جميع المصادر بشأن إقامة ابن تومرت ببلده بالأطلس الصغير، نستنتج أنها لم تتجاوز ثلاث سنوات، هاجر بعدها إلى تينمل، أي من 515هـ، (22 مارس 1121 - 11 مارس 1122) إلى نهاية عام 518هـ (19 فبراير 1124 - 6 فبراير 1125)[51].

---

(45) H Basset, *Le culte des grottes* au Maroc, Alger, 1920.

(46) Lévi-Provençal, *Documents*, p. 40, trad. pp. 60-61 et 72-73, trad. 116-117

عن الغار وموقعه، نظم الجمان، ص. Huici Miranda, I, pp. 61, 64, 68, 124.
Lévi-Provençal, "Un recueil de lettres officielles almohades, étude diplomatique et historique", *Hespéris*, 28,1941, pp. 1-80 (42).

أما هوبكنز، "Ibn Tumar" فيذهب إلى استحالة التحقق من وجود الغار الذي يلجأ إليه ابن تومرت للعبادة.

(47) Lévi-Provençal, *documents*, pp. 72-73, trad., pp. 116-117.

(48) Lévi-Provençal, *Documents*, pp. 73, 131, trad. 117-118, 222.

(49) Huici Miranda, I, p. 63 ; Bourouiba, *Ibn Tumart*, p. 55.

(50) Lévi-Provençal, *"Recueil..."*, p. 42. Huici Miranda, p. 68.

وحسب هذا النص فقد عرف المسجد بدوره أشغال صيانة. ونشير إلى أن أبا يعقوب يوسف قد زار إيكْيليز وغار المهدي (وزار الغار الذي دخله الإمام) Lévi-provençal, *Document*, p. 128, tard., p. 217. سنة 565 هـ/ 1170–1169 / م، عقب إخماده لثورة بني ووزكيت بالأطلس الكبير الشرقي.

(51) ابن القطان، ص ص. 123، 130 ; Lévi-provençal, *Document*... pp. 131-132 , trad. 222-223

4 – هجرة ابن تومرت إلى إيكيليز ودور الحصن في بداية الحركة الموحدية :

اعتمادا على نظم الجمان، تمت هذه الهجرة بعيد عودة ابن تومرت إلى أهله وذويه سنة 515هـ/1121م "ثم هاجر الإمام رضي الله عنه وحل بجبل إيجيليز"[52]. ونستغرب أن هذا الحدث لم يثر انتباه الباحثين الذين تعاطوا لموضوع حياة مؤسس عقيدة التوحيد، خاصة وأن الطريقة التي يسرده بها ابن القطان تعكس إرادة ابن تومرت الجامحة محاكاة الرسول ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة. و هذا المعطى يتعارض مع ما ذهب إليه الباحثون عن الفترة الموحدية الذين يعتبرون أن المهدي بن تومرت لم يقم إلا بهجرة واحدة، وهي التي قادته من مسقط رأسه إلى تينمل[53]. و لم تحفظ لنا المصادر إلا شذرات عن صعود ابن تومرت إلى الجبل المشرف على مقر سكناه[54] . فابن القطان يشير إلى "ارتقاء" الإمام إلى جبل إيكيليز[55]، وتحدث ابن عذاري عن "الصعود"[56]. وقد أشار صاحب **البيان المغرب** في مكان آخر إلى أن محمد بن تومرت عندما تسمى بالمهدي سنة 518هـ/1124م[57]، تجمعت حوله قبائل الجبال و"رحل معهم إلى جبل إيجيليز لهرغة"[58]. وإذا كانت هاتان الروايتان تجعلان قرار الصعود إلى الجبل، في يد ابن تومرت نفسه، فإن رواية ابن خلدون بالمقابل تذهب إلى أن المبادرة كانت من سكان قبيلته عندما حاول بعض الهرغيين اغتياله بإيعاز من عامل المرابطين بالسوس، "فنقلوا الإمام إلى معقل امتناعهم"[59]. وعقب فشل هذه المحاولة، غير المرابطون استراتيجيتهم بمواجهة الثورة الموحدية مواجهة مباشرة.

---

(52) ابن القطان، ص.78 .

(53) إذا كان هوبكنز وغيره من الباحثين يعتبرون أن الانتقال من تينمل هو المقصود ب "الهجرة" فإن ابن القطان بالمقابل يشير إلى "هجرة" أولى نحو إيكيليز سنة 121/515م. وهذا يفسر كون المصادر تعتبر سكان هرغة من "الأنصار" وليسوا من "المهاجرين" في تراتبية الطبقات الموحدية. حول تسمية الأنصار أنظر. Provençal, *Documents...*, p. 37, trad., p. 55.

(54) سنعود فيما بعد إلى الطبيعة المزدوجة للموقع، فاعتمادا على المصادر يمكن أن نستشف أن هناك قرية في المنبسط تحمل اسم "ايكيليز" وموقع محصن للاحتماء "جبل إيكيليز" في المرتفع.

(55) ابن القطان، ص.133 .

(56) ابن عذاري، **البيان المغرب**، IV، ص68 ، ترجمة ص.158 .

(57) هنا يتجلى الاضطراب في السنوات الواردة في المصادر حول مرحلة مكوث ابن تومرت بمسقط رأسه. وهذه السنة تختلف عما أشرنا إليه سابقا.

(58) ابن عذاري، **نفسه**، نفس الصفحة.

(59) ابن خلدون، IV، ص269، الترجمة، II، ص169، الزركشي، **مصدر سابق**، ص.14 .

وكادت هذه الاستراتيجية أن تؤدي إلى إقبار الدعوة الفتية في مهدها، حيث حاصر المرابطون وحلفاؤهم بالسوس جبل إيكْيليز مرتين.

ليس من السهل إعادة ترتيب الأحداث المرتبطة بهذه المرحلة المبكرة من حياة ابن تومرت وحركته نظرا لقلة المعلومات وتضاربها[60]. لذلك فضلنا أن نرتكز هنا على رواية ابن القطان لتسلسل سرده للأحداث مقارنة مع البيذق، فبالرغم من كون صاحب نظم الجمان متأخرا فإن مصدره يظهر تميزه واتساع إطلاعه[61].

ومهما يكن من أمر، فقد أصدر أمير المسلمين علي بن يوسف قرار مواجهة ابن تومرت بعد أن قضى بنفسه على ثورة قرطبة وتلقى جيشه بالسوس لأولى هزائمه بمرتفعات الأطلس الصغير سنة 516هـ/1122م. ومنذ هذه السنة اقتحم الجيش المرابطي بقيادة إبراهيم بن تعيشت هذه المرتفعات في اتجاه مجال انتشار قبيلة هرغة وعلى وجه الخصوص منطقة تحصن ابن تومرت وأنصاره[62]. والملاحظ أن المرابطين واجهوا صعوبات جمة في هذه المعركة لكونهم لم يعتادوا على القتال في المرتفعات الجبلية، فضلا عن مواجهتهم لأعداد هائلة من سكان قبيلة هرغة المستميتين في المقاومة "وقد حصن أهلها قلعة يقال لها إيجيليز، ومنعوها أضبط منع". وقد انتهى حصار الحصن بنزال خارجه انهزم عقبه المرابطون مخلفين وراءهم خيلهم وأسلحتهم و أمتعتهم[63].

---

(60) أشار هويتي ميراندا إلى المواجهة الثانية فقط (Huici-Miranda, I, pp.65-66). أما بورويبة فيشير إلى مواجهتين لكن يؤرخهما بسنة 515 هـ/1121م اعتمادا على ابن القطان. (Bourouiba, *Ibn Tumart*, p. 59). أما حسين مؤنس فيشير إلى حصارين على التوالي سنة 516هـ/1122 و517هـ/ 1123. "Hargha", 'Monès, *El* (2), p.213

(61) Huici Miranda, I, p. 65.

في كتابه حول الجهاد المرابطي بالأندلس، اكتفى V.Lagardère في معرض حديثه عن علي بن يوسف بإعادة ما كتبه Lagardère, *Djihâd...*, pp. 93-97. Huici Miranda.

أما Dj. Jacques-Meunié فهي بدورها لم تكن دقيقة حول هذه المسألة. وحول المشاكل التي يطرحها استعمال مذكرات البيذق أنظر:

Lévi-Provençal, *Documents...*, p. 119, n. 1.

(62) ابن القطان، ص ص.130–131. حول هذا الحصار الذي لم يترك صدى في المصادر الإخبارية نظرا لأهمية المواجهة الحاسمة التي عرفتها السنة الموالية، أنظر. Bourouiba,pp. 60–61.

(63) ابن القطان، ص ص 130–131، 60–61. Bourouiba,pp.

صاحب **الحلل الموشية البيضاء**، 1979، ص.110 . حسب ابن القطان فإن علي بن يوسف أمر مباشرة بعد هذه الهزيمة، قاطع الطريق التائب، الفلاكي ببناء سلسلة من الحصون والقلاع لمنع نزول الموحدين من الجبال. وكما أشرنا إلى ذلك ف Huici-Miranda لم يشر إلى هذا الحدث، فهو يعتبر أن حملة 517هـ/1123م هي التي قادها إبراهيم تعيشت، بالرغم من أن ابن القطان لم يذكر ذلك، .Huici-Miranda, p. 68.

وقد خصص المرابطون والثوار الموحدون، على السواء، خريف وشتاء 516هـ/ 23–1122م، لاستجماع قوتهم والتأهب لمواجهة ثانية سيكون إيكْيليز مسرحا لها في الربيع الموالي. وهكذا ففي الوقت الذي يستجمع فيه المرابطون جيشهم بالسوس، "أخذ الإمام المهدي رضي الله عنه في التأهب أيضا، وحفر جبوب الماء"[64] وفي نفس الوقت وجه رسله إلى قبائل السوس والأطلس الكبير وخاصة هنتاتة[65]. وبمجرد ما سمحت الظروف المناخية بذلك، اقتحم المرابطون بجيشهم مجال هرغة وحاصروا للمرة الثانية معقل ابن تومرت. إلا أن وصول وفود الأطلس الكبير وإمداداتهم، كان حاسما في تحقيق الموحدين لانتصارهم الثاني بعد أن كادت الكفة أن تميل لأعدائهم[66].

وقد أشار ابن القطان في معرض حديثه عن هذه المواجهة الثانية إلى مسجد القلعة التي يتحصن بها المهدي بن تومرت الذي "شرع في بناء مسجد إيجيليز، فأخذ حجرا ليضعه في موضعه، فسمع الصياح والهدير" إعلانا بوصول قبيلة هنتاتة التي رجحت كفته على المرابطين[67].

وكان لهذا الانتصار الذي سماه ابن القطان بـ "وقيعة هنتاتة"[68]، صدى كبيرا بالمنطقة[69] دفعت العديد من قبائل الأطلس الكبير إلى الانخراط في الصراع بجانب الموحدين. ولعل هذه الوضعية هي التي تفسر الأسباب التي حدت بابن تومرت إلى التوجه إلى الأطلس الكبير وبالضبط إلى تينمل للقيام بهجرته الثانية، وذلك نهاية عام 518هـ/ 25–1124–م[70].

---

(64) ابن القطان، ص. 135 ; Huici-Miranda, I, p. 69 بالنسبة لهذا الأخير موضع نومكران، أي المكان الذي يوجد به منزل ابن تومرت، هو موضع لا يشرب سكانه إلا من مياه الأمطار، ص.90 .

(65) Huici Miranda, I, pp. 66-68.

(66) Ibid, pp. 68-69.

(67) ابن القطان، ص.69 ; Huici Miranda, I, p. Bourouiba, pp. 60-61

(68) وأضاف Huici Miranda في هامش 1 ص. 70 من كتابه أن البيذق (ص. 131، ترجمة 222) يشير أن باكو ابن أمير المسلمين نفسه هو الذي يقود الجيوش المنهزمة بسوس أمام الموحدين، ولا شك أن هذا خلط وقع فيه المستعرب الإسباني.

(69) عند نهاية هذه المعركة تحدث ابن القطان عن "هزيمة الملثمين بايجيليز من هرغة"، ص. 136. وقد لمح ابن خلدون إلى هذا الحدث في العبر، VI، ص269 .، ترجمة، II، ص.171 .

(70)حول هجرة ابن تومرت إلى تينمل أنظر:

- Huici Miranda, I, p. 71 ; Bourouiba, *Ibid*, pp. 62-64 ; Hopkins, *"Ibn Tumart"*, *EI*(2), p. 984.

وسنعود بإسهاب إلى أسباب هذه الهجرة في مقالنا ."Oublier Igîlîz"

5 – إيكْيليز هرغة بعد استقرار ابن تومرت بتينمل :

بعد مغادرة ابن تومرت بمعية مناصريه الهرغيين، لم يعد إيكْيليز يثير إلا اهتماما نسبيا لدى الإخباريين[71]. وإذا كانت إشاراتهم متناثرة، فهي رغم ذلك تلقي الضوء على الدور الذي لعبه هذا الحصن والمراكز المجاورة له في وقت ازداد فيه لهب الاقتتال ضد المرابطين سواء أيام المهدي أو خلفه عبد المؤمن. وهكذا يمكن أن نستشف من إشارة غير مباشرة وردت في كتاب الأنساب أن إيكْيليز بقي مقر استقرار جزء من أسرة ابن تومرت بعد رحيله إلى تينمل بدليل وفاة والده هنالك[72]. والملاحظ أن القلعة حافظت كذلك على دور عسكري مهم خلال مرحلة فتح السوس من قبل الموحدين. ففي غزوة سنة 535هـ (17 غشت 1140 – غشت 1141م) التي قادت عبد المؤمن إلى فتح أهم معقل محصن بالمنطقة وهو تينويوين[73] بعد هزم الابرتير بإمسكروطن (أمسكرود الحالية)، سيقت غنائم صالح بن صارة إلى إيكْيليز عوض تينمل. وهي نفس الوجهة التي اتخذها القائد المرابطي الفلكي الأندلسي لإعلان استسلامه وانضمامه للسلطة الجديدة[74].

وقد كان لماضي ايكْيليز كمسقط رأس المهدي ومكان بيعته وهجرته الأوليين ومهد الثورة الموحدية، دور فعال في تحويل هذا الموقع إلى مزار تشد إليه رحال الخلفاء الموحدين بعد دخول مراكش وتحول الدعوة التومرتية إلى إمبراطورية

(71) إذا استثنينا ذلك الدور المرحلي الذي لعبه الموقع كمزار للخليفتين الموحدين الأولين، فإن تاريخه لم يثر اهتمام المؤرخين اللاحقين.

(72) Lévi-Provençal, *Documents inédits* ..., p. 30, trad. p. 45 et n. 3.
ومما لا مراء فيه أن أخوي المهدي قد رافقاه إلى الأطلس الكبير رغم أنهم لم يقطعوا كل صلاتهم مع بلدهم الأصلي.

(73) قمنا بمحاولة تحديد مكان هذا الموقع الهام في تاريخ سوس والذي تختلف طريقة كتابته من مصدر إلى آخر انظر دراستنا.
"Retour aux sources, retour au Sous : quelques notes historiques et géographiques à propos de l'expédition d'Abû Dabbûs", A paraître dans la publication des *journées d'hommage à Pierre Guichard* (Université Lumière, Lyon 2, Lyon 22-23 Octobre 2004).

(74) Lévi-Provençal, *Documents* inédits, p. 129, trad. 219.
وفي طبعة بنمنصور ص.91 . و في رواية أخرى أوردها البيذق حول فتح سوس، لم يتحدث عن إرسال غنائم صالح بن صارة إلى تينمل عوض ايكيليز، طبعة ليفي بروفنصال، ص ص 88-87 ن ترجمة ص ص 142-141 طبعة بنمنصور، ص.48 .

شاسعة. وقد لامسنا هذا الدور، على الأقل، في مناسبتين اثنتين الأولى تتمثل في الزيارة الرسمية التي قام بها رفيق ابن تومرت وخليفته، عبد المؤمن، إلى إيكْيليز في خريف 552هـ (أكتوبر–نونبر 1157م)[75]. أما الثانية فهي الزيارة التي قام بها أبو يعقوب يوسف سنة 565هـ (25 شتنبر 1169-13 شتنبر 1170م)[76].

II - معطيات لتحديد موقع ايكْيليز هرغة :

1 – المعطيات الطبوغرافية: موقع مرتفع و محصن :

بينا أن الدلائل التي قدمها أ. فرومهرتز[77] لتوطين إيكْيليز هرغة بمدينة إيكْلي بسوس، غير عميقة ولا تتطابق مع الشروط الجغرافية والظروف التاريخية التي فرضت اختيار الموقع كأول مركز لحركة الموحدين. وإذا حاولنا تجاوز المعطيات الكرونولوجية و الأحداث التي عاشها إبن تومرت وهو بين أهله وذويه، لا شك أن من المفيد الآن الوقوف عند بعض المؤشرات الطبوغرافية التي سقناها من المصادر المكتوبة. وإذا كانت هذه الأخيرة تطرح بعض المشاكل المنهجية، فإنها بالمقابل تزودنا بمعطيات أولية لتأكيد موقع إيكيليز بالأطلس الصغير الأوسط.

أ– إيكَيليز هرغة موقع مرتفع :

يعتبر الرجوع إلى معنى الكلمة الأصلية "إيكْيليز"، العنصر الأساس في هذه البرهنة. فمن المعلوم أن هذا اللفظ المتداول كثيرا في اللغة الأمازيغية الشلحية، يدل على "مرتفع" أو "جبل منعزل" كالجبل القائم وحيدا في سهل مراكش أمام المدينة

---

(75) Lévi-Provençal, *Documents inédits...*, p. 60, n.2 ; Id., "Recueil", p. 42.
مجموع رسائل موحدية، ص ص.81–93 (86–87). سنحلل بإسهاب هذا الحدث الرئيسي في فهم تطور سلطة الخلافة الموحدية في مقالنا "Oublier Igîlîz".

(76) Lévi-Provençal, *Documents inédits*, p. 128, trad. p. 217 ; Dj. Jacques-Meunié, I, pp. 263 et 279.
في كلتا الحالتين زيارة إيكيليز تتبعها زيارة إلى تينمل.

(77) أنظر بعض العبارات المتفائلة للكاتب:
"All of this evidence, historical, physical, oral and circumistancial would make proving that the Igli of today was not the almohad Igli very difficult indeed", "Almohad Mecca...", p. 189.
انظر كذلك ص. 177 وخاصة 178-179 و182-183 التي يعتبر فيها الباحث أن معطيات الرسالة الموحدية لسنة 552هـ/1157م تدعم بشكل كبير الفرضية التي يطرحها المقال.

الوسيطية[78]. فاسم الموقع "إيكْيليز هرغة" مؤشر أساسي لأنه لا يمكن أن يتعلق الأمر بموقع سهلي مثل إيكْلي، وهذا المعطى التضاريسي تؤكده المصادر المكتوبة عندما تحدثت عن "ارتقاء" و"صعود" المهدي إلى جبل إيكْيلي وهذه الأوصاف لا يمكن أن تحتمل أكثر من معنى[79]، وهي تحيلنا على مرتفع، بل على جبل[80]. ويخرق هذا الإجماع إشارتين ناشزتين : الأولى اعتبرت إيكْيلي "قرية" ووردت في **نظم الجمان**، والثانية اعتبرته "ضيعة" ووردت في **المعجب**[81]. لا نريد غض الطرف عنهما أو تكرار ما ذهب إليه هويتي ميراندا[82]، عن احتمال وجود هذه القرية على الجبل نفسه. إن قراءتنا تنطلق من الخصوصيات المحلية التي تجعل من إيكْيليز موقعا مزدوجا، مكونا من قرية تقع في المنبسط وقلعة محصنة في المرتفع، تلعب دور الملجأ إذا اقتضت الضرورة ذلك. وهذا ما يمكن أن نفهمه من النصوص الإخبارية التي أعادت أكثر من مرة مصطلح "جبل إيكْيليز" أو "صعود" أو "ارتقاء" ابن تومرت إليه. أي صعوده من قريته التي تقع في السافلة إلى قلعة هرغة[83].

ب- إيكْيليز ملجأ الساكنة المحلية :

نستخلص من قصة "ارتقاء" ابن تومرت إلى جبل إيكْيليز، دور الملجأ الذي لعبه هذا الحصن بالنسبة لسكان هرغة. فابن عذاري يسوق لنا صعود الإمام إليه رفقة

(78) حول معنى 'إيكْيليز' مراكش أنظر : G. Deverdun, *Marrakech des origines à 1912, 2 vol.*, Rabat, 1959, I, p. 4 الذي يحيل على أعمال Laoust.
علي صدقي إزاكو "إيكْيليز"، **معلمة المغرب**، II، ص ص.640 –641. **نفسه، نماذج من أسماء الاعلام الجغرافية والبشرية المغربية** الرباط، المعهد الملكي للثقافة الامازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات، 1، ص ص.25–31.
و لم يأخذ Fromherz بعين الاعتبار معنى لفظ إيكْيليز في مقاله.

(79) حسين مؤنس. يشير إلى وجود جبل لكنه لم يناقش المسألة بإسهاب "Hargha", *El (2)*, III, p. 212.

(80) حسب هويتي ميراندا لم يعرف بعد موقع إيكْيليز هرغة الذي يحتمل، مثل إيكْيليز مراكش أن يكون عبارة عن جبل منعزل في شمال الأطلس الصغير المطل على وادي سوس على الأراضي التي تحتلها قبيلة أرغن المطابقة لهرغة بالعربية" Huici, *Historia*, I, p. 68 أنظر محاولة المؤرخ الاسباني تحديد موقع إيكْيليز

(81) المراكشي، **المعجب**، ص.240 . لا ندري ما هو المفهوم الذي يعطيه المؤلف لهذا اللفظ خاصة في مجال الأطلس الصغير، اللهم إلا إذا تعلق الأمر بخطأ أو معطى تقريبي استعمله، كما هي عادته ؟ ونلاحظ أن أيا من المصادر لم تتحدث عن إيكْيليز كمركز إداري أو مدينة او قاعدة عسكرية تنطلق منها الحملات العسكرية.

(82) يتحدث هويتي ميراندا عن قرية أو مدشر (*aldea*) فوق الهضبة. Huici, Historia, I, p. 68.

(83) إن إطلاق اسم واحد على القرية و الجبل الذي يشرف عليها ظاهرة منتشرة كثيرا بالمغرب. و أحسن مثال على ذلك تينمل الذي يطلق على القرية و على الجبل. أنظر : *"Tinmal", El (2)*, p. 368.

القبائل المناصرة له سنة 516هـ/ 1122م "رحل معهم إلى جبل إيجيليز لهرغة، فلما صار في منعة الجبل و حماية عشيرته خاطب القبائل..."[84]. وقد أشرنا قبلا إلى رواية ابن خلدون التي اعتبرت أن قبيلته هي التي نقلت الإمام إلى "معقل امتناعهم" بعد أن داخل عامل المرابطين بسوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بعض هرغة في قتله[85]. وإذا كانت رواية ابن خلدون تؤكد الطابع التضاريسي الذي توقفنا عنده آنفا، فإنها تمكننا من تجاوز الطابع الفردي لعملية الصعود إلى الجبل، لتمدنا بمفتاح أساسي عن بنية عمرانية تمكن قبيلة هرغة من اللجوء إلى هذا المكان المرتفع و المحصن طبيعيا للاحتماء من أخطار محدقة[86].

ت- إيكيليز موقع محصن :

هل كان الموقع محصنا قبل أن يقع عليه اختيار إمام الحركة الموحدية الناشئة ؟ إن النصوص متضاربة بهذا الشأن، إلا أن هذا التضارب يزول نسبيا فيما يرتبط بالدور الدفاعي للموقع. فهو ينعت بـ "الحصن"[87] وبـ "القلعة الحصينة"[88] وبـ "معقل"[89]. وإذا ما اعتمدنا على رواية ابن القطان فإن تحصين إيكيليز تم قبل أن يهاجمه إبراهيم بن تعيشت لأول مرة سنة 516هـ/ 1122م، "وقد حصن أهلها قلعة يقال لها ايجيليز، ومنعوها أضبط منع"[90]. إلا أننا لا نعلم ما إذا كان هذا التحصين مرتبطا بارتقاب هجوم مرابطي على المنطقة، أم أن البناء قديم وأعيد دعمه[91]. ومهما يكن من أمر،

---

(84) ابن عذاري، **البيان**، IV، ص68 .، ترجمة، 158.

(85) ابن خلدون، **العبر**،VI، ص ص 269 .، ترجمة،II، 169 ؛ الزركشي، **تاريخ الدولتين**، ص.14، ترجمة، 15.

(86) يدخل لجوء سكان الأطلس الصغير الأوسط إلى المواقع المحصنة والمرتفعة منذ بداية الصراع المسلح مع الجيش المرابطي المتحكم في السهول في إطار تكتيك حربي عام يجعل الاستقرار في المرتفعات في هذه الظروف هدفا استراتيجيا. أنظر:

Lévi-Provençal, *Documents inédits*, p. 74-75, Trad. 121-122 ; Bourouiba, *Ibn Tumart*, p. 60-62.

ونشير إلى أن عبد المؤمن بن علي نهج الاستراتيجية نفسها سنوات 1130-1140 في حربه ضد المرابطين والقبائل المترددة في الاعتراف بالحركة الموحدية.

(87) ابن القطان، **مصدر سابق**، ص.131.

(88) ياقوت، **معجم البلدان**،I، ص.342.

(89) ابن خلدون، VI، ص. 269 ؛ الزركشي، **مصدر سابق**، ص.14 .

(90) ابن القطان، **مصدر سابق**، ص.131 .

(91) هل يمكن ربط هذا بالإشارات المتأخرة التي وردت عند ابن خلدون و ابن أبي زرع فيما يخص فتح المرابطين لمعاقل السوس سنة 448هـ/ 57 – 1056م ؟ **العبر**، VI، ص. 217، ترجمة، VI، ص. 217، ترجمة،II، ص ص؛ 71 . ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، الرباط، 1973، ص.129 .

فإن المنظومة الدفاعية لم تكن مقنعة في نظر اللاجئين الجدد، لأن ابن تومرت ما لبث أن أطلق، حسب ابن عذاري، حملة لتحصين الموقع استعدادا لهجوم مرابطي جديد: "ولما صعد الإمام بالجبل أمر بتحصين موضعه لأنه ما كان له إلا طريقا واحدا وذلك الطريق لا يمشي فيه إلا راكب من كثرة توعره"[92]. وفي معرض حديثها عن الحصار الثاني لم تتحدث المصادر عن الأسوار واكتفت بالإشارة إلى وعورة التضاريس خاصة من الجهة الشرقية للحصن التي اجتمعت فيها الجيوش المرابطية وإلى "خندق كبير" بدون شك هو وادي إينشو[93]. وهذان العنصران الطبيعيان هما المكونان الأساسيان للطابع الدفاعي لهذا الموقع[94].

2 – المعطيات الجغرافية: إيكيليز هرغة موضع بالأطلس الصغير :

بعد تقديم الخصائص الطبوغرافية الأساسية لإيكيليز هرغة كما زودتنا بها المصادر المكتوبة، لابد من التذكير بالمحاولات السابقة لتوطين هذا الموقع، حتى لا نحجف حق أبحاث ساهمت بشكل كبير في مقاربة هذا المشكل قبل أن يطويها النسيان. فعندما هممنا بالبحث عن أصول الحركة الموحدية بالسوس، تبين لنا أن هذا الموضوع قد طرق بشكل كاف من قبل باحثين سابقين. وأمام هشاشة مقترحات فرومهرتز، لم نجد بدا من إعادة الاعتبار لأعمالهم و تلخيص مضامينها في هذا المقال.

وهكذا فبعد أن حقق البحث الأثري على الفترة الموحدية إنجازات مهمة باكتشاف تينمل من قبل إ. دوتي (E. Doutté) منذ سنة 1901[95]، كان من اللازم انتظار سنة 1924 ونشر الأعمال الأولى لـ أ.باسيه (A.Basset) وهـ.طيراس (H. Terrasse)، ليطرح مشكل توطين إيكيليز هرغة للباحثين[96]. واعتمادا على

(92) هذه الرواية نقلها المؤلف من اليسع بن عيسى الغافقي، ابن عذاري، **البيان المغرب**، IV ، ص. 68، ترجمة ص.158.

(93) من المحتمل أن يتعلق الأمر فقط هنا بمسيل عبارة عن "خندق كبير" حاول المرابطون "ردمه ببرادع الدواب ليتأتى لهم جوازه".

(94) ابن القطان، **نفس المصدر**، ص.135 .

(95) E. Doutté, *En tribu*, Paris, 1914, pp. 63-67 et 106-133

(96) H. Basset, H. Terrasse, *Sanctuaires et forteresses almohades*, Paris, 2001, p. 1-83. نشر المقال الأصلي بـ *Hespéris*، 1924، ص ص. 9–91 .

رواية ابن خلدون وعلى مقاربة اسم القبيلة واسم الموقع، خلص الباحثان الفرنسيان إلى فرضية توطين قبيلة هرغة بالأطلس الكبير وخاصة بحوض وادي رغاية ببلد إغيغاين[97]. وقد أرفقا تحليلهما بخريطة تحتوي على اسم "كليز"[98] مع نفي قاطع بإمكانية توطينه بسوس[99]. إلا أن ر.مونطاني (R. Montagne)، الذي يعد آنذاك أكبر متخصص حول الجنوب المغربي، شكك في رواية ابن خلدون فيما يرتبط بانقراض القبائل الموحدية وخاصة هرغة، وحدد مواقع انتشار هذه القبيلة. وقد اعتمد عليه ليڤي – بروفنصال (Lévi-Provençal) سنة 1928 في وثائق غير منشورة للتاريخ الموحدي (*Documents inédits d'histoire Almohade*)،لتصحيح ما ذهب إليه باسيه وطيراس، واقترح توطين قبيلة هرغة بالجنوب الشرقي من تارودانت، أي في المنطقة التي مازالت تستقر فيها مكونات بشرية تحمل اسم أرغن[100].

---

(97) *Ibid.*, pp. 11-12 (*Hespéris*, 1924, p. 19-20).

والربط اللساني بين هرغة ورغاية توجد ص. 19، هامش 2.

(98) *Ibid.*, p. 18, fig. 1.

فحسب الباحثين "وإلى الآن يوجد "إيكيليز" في البلاد و الذي نعتبره كيليز هرغة. ومن المحتمل جدا أن يتعلق الأمر بمسقط رأس المهدي بن تومرت. إلا أننا لا يمكننا التأكد منه. لأن هذا الاسم الذي يعني الجبل المنعزل، منتشر بكثرة في بلاد الشلوح". وقد حدد موقع هذا المكان في "حوض وادي أوسكرت المرتبط بواد إمنين، إحدى الرافدين العلويين لوادي رغاية" .*Ibid.*, p. 13 et note 3.

وهذا الموقع نجده تحت رسم "Gliz" عند :

E.Laoust, "Contribution à une étude de la toponymie du Haut-Atlas", *Extrait de la Revue des Etudes Islamiques* (1939-40), 1942, p. 117.

(99) "يوجد إلى الآن هرغيين بسوس، جنوب شرق تارودانت. يتعلق الأمر بدون شك بفخذ مرتبط بقبيلة ابن تومرت. ومن المستحيل أن يتعلق الأمر بقبيلته : فالمصادر التي تقدم لنا هرغة كقبيلة جبلية... واضحة جدا للخلط بينهما. مقابل ذلك، من المرجح أن نربط بها (هرغة ابن تومرت) قرية أرغن في عالية تينمل التي يؤكد سكانها أن أجدادهم ينحدرون من سوس، إلا أن يكونوا من أبناء السكان الذين أتى بهم المهدي إلى هذه المنطقة. وكما رأينا لايمكن أن يكون هذا وذاك في نفس الوقت، مهما كانت ادعاءاتهم في هذا الباب" .*Ibid.*, note 2, p. 11.

وقد فند Terrasse وBasset رواية المراكشي المتعلقة بتحديد موقع مسقط رأس المهدي بن تومرت بسوس. .Ibid., note 2, p. 13.

(100) "الهرغيون والقبائل المجاورة بالأطلس الصغير لم يغيروا أماكن سكناهم جنوب تارودانت"

R. Montagne, *Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc. Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe chleuch)*, Paris, 1930, pp. 70. Voir Lévi-Provençal, *Documents inédits*, note 2, p. 55-56.

وقد استند ليڤي بروفنصال في رده على Basset وTerrasse على معلومات زوده بها شفويا Montagne، مبدئيا قبل طبع هذا الأخير لدراسته القيمة حول البربر والمخزن. ونشير إلى أن هذا لم يمنع من استمرار ربط=

وترجع الخطوات الكبرى للبحث في هذه المسألة إلى أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي. ويمكن القول أن تحديد موقع إيكيليز هرغة قد تم بشكل تقريبي منذ 1956-1957، عندما نشر المستعرب الإسباني هويتي – ميراندا كتابه حول التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية (*Historia politica del imperio almohade*)، الذي أكد فيه أن الموقع يوجد، بدون شك، بالأطلس الصغير[101]، معتمدا على معلومات زودته بها جـ. جاك مونيي. ففي بحثها عن المخازن الجماعية (إكودار، ج. أكادير)، قامت الباحثة الفرنسية بتحريات بحوض وادي أرغن سنة 1942 [102]. واعتمادا على معطياتها، اقترح هويسي ميراندا تحديد موقع إيكيليز بحوض وادي أرغن وبالضبط بين مدشري إماكودن (بوإل كماضن) وماكنون. وقد أرفق بحثه بخريطة توضح المراحل الأخيرة لعودة ابن تومرت إلى مسقط رأسه، واضعا نقطة استفهام أمام موقع الحصن[103]. وهنا لابد من إبداء ملاحظتين عامتين : من جهة أن الباحثين لم

=موقع إيكيليز بالأطلس الكبير بعد هذا التاريخ. فحسين مؤنس يزكي ما ذهب إليه Basset وTerrasse رغم وجود مساكن هرغة الأصلية بالأطلس الصغير. "Hargha", *El(2)*, III, p. 212.

في كتاب H. Triki, J. Hassar-Benslimane et A. Touri, *Tinmel l'épopée Almohade*, Milan, 1992, p. 68، نجد موقع "Guiliz" في خريطة تبين المواقع الأولى "للملحمة" الموحدية. وفي خريطة أخرى (ص. 30) حول تحركات ابن تومرت، تم توطين "Igli des wargha" في المكان الصحيح بالأطلس الصغير.

(101) رغم التصحيف الذي تعرض له إسم الموقع في رواية المراكشي، فإن Huici يعتقد "أن لا شك في أن بلده (ابن تومرت) هو الأطلس الصغير و قبيلته هي هرغة أو أيت أرغن، التي مازالت تنتشر في نفس الأراضي التي تنتشر عليها سابقا" ويضيف أن إيكيليز يوجد "في إحدى منخفضات الأطلس الصغير التي تصل حتى سهل سوس" Huici, *Historia*, I, p. 23.

(102) وقد أدرج الباحث في مؤلفه صورتين لـ Dj. Jacques-Meunié، الأولى تحت عنوان "منظر للأطلس الصغير في منطقة هرغة" والثانية تحت عنوان "اكادير أوكونوس – إيكيل، فخذ إسندالن من هرغة"، نفسه، صفحة مقابلة لصفحة 24.

(103) Huici Miranda, *Historia*, I, carte en vis-à-vis de p. 60.

وقد أرفق الباحث بحثه بصورتين لـ Dj. jacques-Meunié الأولى تحت عنوان : "أكومضان في وادي أرغن–هرغة" والثانية : "أكادير ن– تازروت، قرب ماكنون، وبينه وبين أكومضان، يوجد، حسب الرواية الشفوية، إيكيليز هرغة".

Huici Miranda, *op. cit.*, I, en vis-à-vis de p. 68.

ويضيف "قالت لي السيدة Jacques-Meunié التي زارت منخفض أسيف ورغن أو وادي هرغة، والتي زودتني بلطف بالصور المنشورة هنا، بأن إيكيليز هرغة يوجد، حسب سكان المنطقة، في هذا الوادي بين ماكنون وأكومضان". *Ibid.*, note 3, p. 68.

ونتأسف لكون فرومهرتز لم يستفد من هذه الخريطة، واكتفى بإعطاء تعليق خاطئ عليها لإخضاع معطيات هويتي ميراندا لفرضيته الخاصة.

يخلطا في أي وقت من الأوقات بين إيكْيليز هرغة ومدينة إيكْلي بسوس. نستغرب من جهة أخرى، من كونهما لم يعودا بعد هذه الإشارات إلى تعميقها، خاصة وأن جـ. جاك مونيي كانت تتوفر على معطيات ميدانية ترجع إلى أربعينيات القرن الماضي، وقد اكتفت في أطروحتها المغرب الصحراوي *"Le Maroc saharien..."* بتحديدات جغرافية عامة لا تشفي غليل الباحث المتخصص[104].

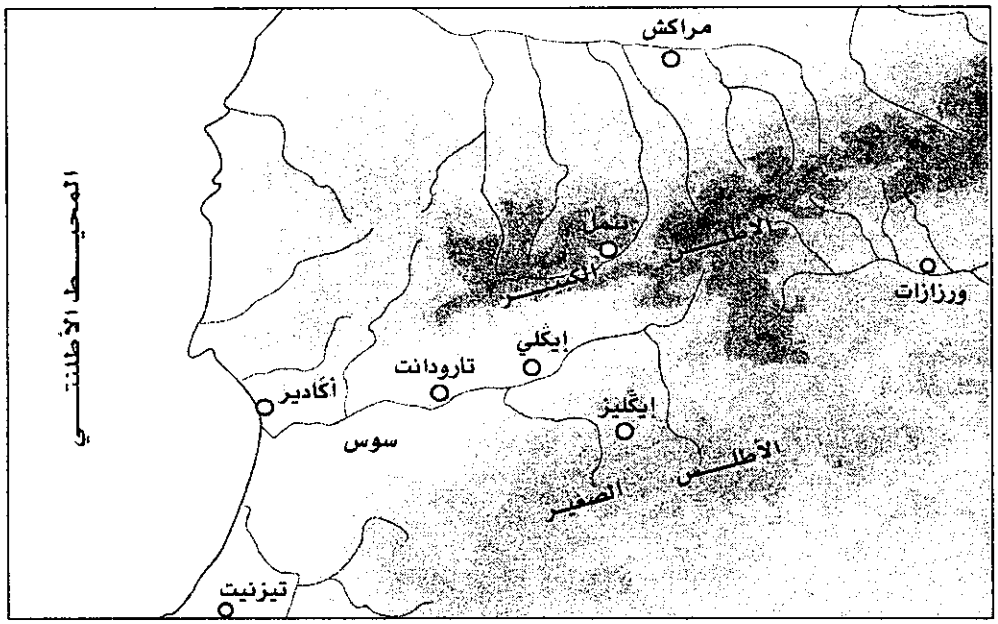

شكل 1 :خريطة تبين أهم مراكز منطقة سوس وموقعي إيكْلي وإيكْيليز

وهكذا وقعت العناصر المهمة التي طرحها هويسي ميراندا منذ نهاية الخمسينيات، في طي النسيان رغم أنها كانت كفيلة في نظرنا بحل مشكل توطين

(104) "في سنة 1121 (515) رجع (ابن تومرت) للإقامة في بلده الأصلي، بلد الارغنيين، الموجود بقدم السفح الشمالي للأطلس الصغير الأوسط..."، وتضيف في الهامش "نعرف أن أصل المهدي من إيكْيليز أرغن، القبيلة الموجودة بالسفح الشمالي للأطلس الصغير على بعد 30 كلم شرق وجنوب شرق تارودانت".
Jacques-Meunié, *Maroc saharien*, I, p. 249 et note 1.
وفي معرض تناولها لتاريخ الفترة الموحدية 1121–1269 : أشارت الباحثة : "عاد ابن تومرت للاستقرار بإيكْيليز عند أرغن، قبيلته الأصلية (بسوس بمقدمة السفح الشمالي الغربي للاطلس الصغير". *Ibid.*, I, p. 278.
انظر الخريطة التي تقترحها في I، ص. 251. والتي توطن فيها بدقة الموقع بجنوب /جنوب شرق إيكْلي وشرق/جنوب شرق تارودانت.

إيكيليز بكيفية نهائية. وكان سبب ذلك غياب عمل ميداني يؤكدها أو ينفيها. ويجب أن نضيف أخيرا إلى سلسلة هذه المكتسبات المنسية، دراسة أساسية غير منشورة للمرحوم عبد الحميد مرادي الباعمراني مخصصة "للتحقيق في مكان ولادة المهدي بن تومرت" وهي جزء من مخطوط كتابه "**لمحات من تاريخ سوس**"[105]. وقد نشر هذا الجزء بعناية الأستاذ عمر أفا كملحق لمقال خصص لتكريم الأستاذ مرادي ونشر في العدد الأول من مجلة كلية الشريعة بأكادير سنة 2000 [106]. فبعد إحصاء المصادر التي اعتمد عليها، وصف الأستاذ مرادي رحلة قام بها في مارس 1971 رفقة ثلة من أساتذة المعهد الإسلامي بتارودانت، إلى ماكنون. واعتمادا على شهادة سكان المنطقة، تأكد من موقع جبل إيكيليز ومسقط رأس ابن تومرت[107]. وهكذا نستنتج أن حصن المهدي لا يوجد بسافلة ماكنون كما ذهب إلى ذلك هويسي ميراندا اعتمادا على إشارات ج. جاك مونيي، وإنما يشرف بكتلته على هذه القرية، أي في المرتفع الذي تنعته الخريطة الطبوغرافية التي اعتمدنا عليها ب "جبل ابن تومرت"[108].

(105) أفا عمر، "العلامة سيدي عبد الحميد البعمراني وظاهرةالاهتمام بالكتابة التاريخية"، **مجلة كلية الشريعة بأكادير**، 1 ,2000، ص ص. 131-142 (131–136).

(106) الباعمراني، "تحقيق عن مكان ولادة المهدي بن تومرت"، ص ص 142–137 . وهذا النص هو جزء من كتاب غير منشور للكاتب عنونه "لمحات من تاريخ سوس" ونظرا لعدم توزيع المجلة بشكل جيد، فإننا لم نطلع على المقال إلا بعد تحريات أولية قادتنا إلى الموقع. ورغم ذلك فقد كان بالنسبة لنا النقطة التي أعادت الاعتبار لفرضية Dj. Jacques-Meunié والتي نقلها عنها Huici Miranda، كما أثبتت الاتجاه الصحيح لتحرياتنا الخاصة.

(107) الباعمراني، **مرجع سابق**، ص.140 . إن الإجماع الذي تحدث عنه الكاتب حول هذه المسألة لازال ساري المفعول إلى يومنا هذا. فجميع مخاطبينا شيبا أو شبابا يسمون الجبل بإيكيليز وغالبا ما يضيفون تعاليق حول ابن تومرت.

(108) كما أثبتنا ذلك سابقا لم يكن لنا علم بعمل ذ. الباعمراني إلا بعد حملتنا الأولى من التحريات التي قادتنا إلى ماكنون أي إلى قدم جبل إيكيليز هرغة (يوليوز 2004). وارتكزنا خلال هذه الحملة الأولى على أبحاثنا في المصادر والمعطيات الواردة عند ج. جاك مونيي وهويسي ميراندا وقد تأكدت لدينا أهمية هذه المنطقة الجغرافية عندما اكتشفنا بمحض الصدفة، هذا الاسم (جبل ابن تومرت) على الخريطة الطبوغرافية التي استعملناها (خريطة المغرب 1/50000، ورقة NH-29-XVU-2C، سوق أربعاء آيت عثمان، 1977). وهكذا تقوت لدينا حظوظ وجود إيكيليز هرغة في هذه المنطقة. وإذا كان الميدان قد زكى ما ذهبنا إليه، فإن لغزا محيرا لا زال يطاردنا ويتعلق بالاسم الرسمي لهذا الجبل خاصة وأن "جبل ابن تومرت" لا يستعمل من قبل السكان المحليين الذين يحافظون على الاسم الأصلي "إيكيليز". ومما لا شك فيه أن تسمية "جبل ابن تومرت" تعد اجتهادا شخصيا للشخص الذي أنجز الخريطة سنة 1975.

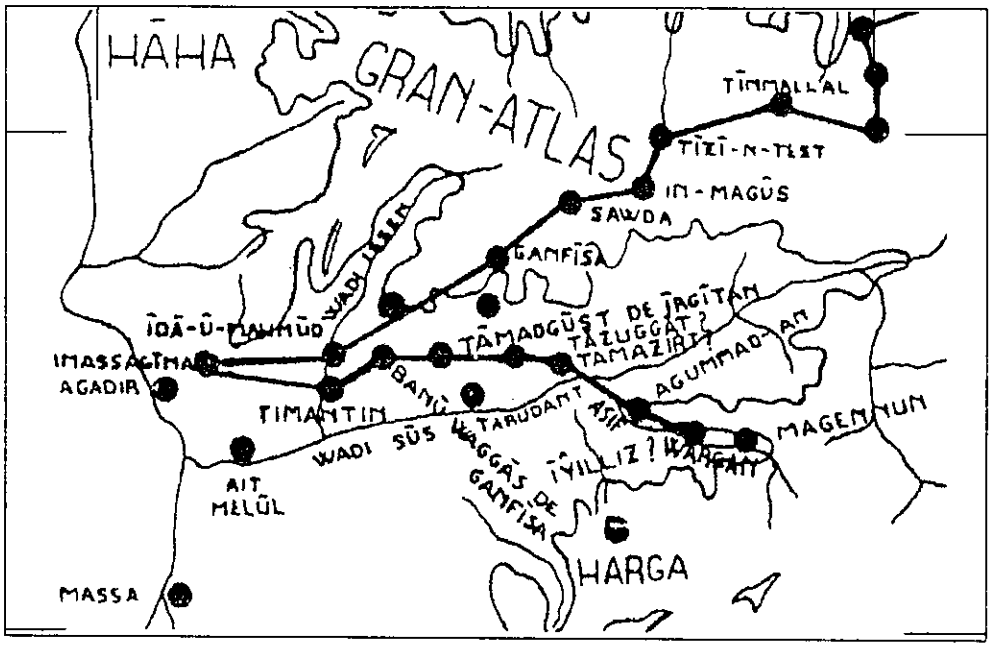

شكل 2 :خريطة Huici Miranda تبين الموقع الدي اقترحه لتوطين إيكيليز بين أكومضان وماكنون

وهكذا فرغم عدم نشر عمل الأستاذ مرادي الباعمراني، فإيكيليز هرغة تم تحديد موقعه بشكل قطعي منذ بداية السبعينات[109]. ونؤكد اعتمادا على الوصف الذي خصصه الكاتب لرحلته وكذا ما خلفته هذه الرحلة في ذاكرة بعض شيوخ ماكنون الذين تم استجوابهم خلال مقامنا بعين المكان، أنه لم يزر الموقع في حد ذاته. ونفس الشيء بالنسبة لـ ج. جاك مونيي وهويسي ميراندا[110]. وهكذا يتبين أنه إلى حدود تحرياتنا وصعودنا إلى جبل إيكيليز في غشت 2005، فإن أيا من الباحثين الذين اهتموا بهذا الموضع، لم يقم بزيارته.

(109) الأكيد أن المعلومة قد وصلت إلى الدوائر العلمية، خاصة التي اشتغلت على الجنوب المغربي عموما وسوس بصفة خاصة. ولعل الإشارات الواضحة والمفيدة لمصطفى ناعمي في مقاله حول "إيكلي" **معلمة المغرب، II**، ص ص 628–629 .، دليل على ذلك.

(110) تحدث لنا مجموعة من السكان المسنين بتيفيكيت وبسوق الأربعاء عن امرأة فرنسية أتت إلى المنطقة "في مرحلة الاستعمار" بحثا عن المخازن الجماعية"إكودار". وأكدوا لنا أنها اكتفت بالمرور بقدم الجبل دون أن تصعد إلى الموقع. من السهل أن نتصور أن السيدة المذكورة هي ج. جاك مونيي التي حافظت الذاكرة المحلية عن حدث مرورها بالمنطقة.

III - وصف عام لإيكيليز هرغة :

1 – معطيات عامة :

بما أن هذا المقال يرمي أولا إلى تفنيد فرضية أ.فرومهرتز وتحديد موقع إيكيليز هرغة تحديدا قطعيا اعتمادا على المصادر المكتوبة والخرائطية، فإن هدفنا في هذا العنصر ليس تخصيص وصف مسهب للعناصر المعمارية المكونة للحصن[111]، بل تقديم خلاصة عامة عن المعالم الأساسية الماثلة للعيان في هذا الموقع في انتظار القيام بحفريات أثرية منظمة[112].

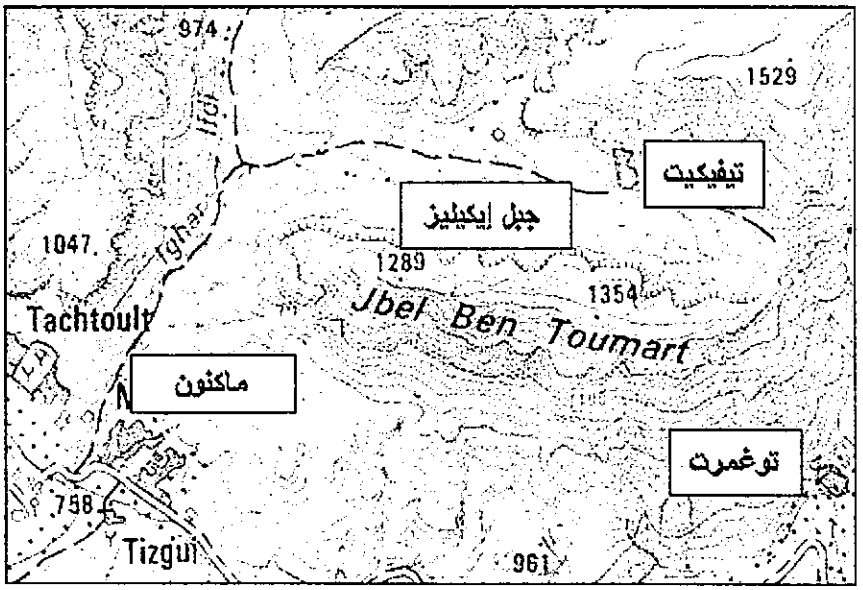

شكل 3 : خريطة منطقة ماكنون وموقع إيكيليز

(111) لوصف أكثر إسهابا، أنظر مقالنا:
"Avant Tinmal : notes historiques et archéologiques à propos d'Igîliz des Hargha, berceau du mouvement almohade"

ونذكر أن الهدف من هذه التحريات الأولية التي أنجزناها هو الحصول على المعطيات الأركيولوجية الضرورية لإعداد مشروع تعاون علمي بين المؤسسات المعنية بالمغرب و فرنسا.

(112) التحريات التي قمنا بها صيف 2005 استغرقت 10 أيام (من 10 إلى 20 غشت). وتمكنا خلالها من إنجاز تصميم عام وتقريبي للبنيات الأثرية المتواجدة بالموقع مع أخذ صورها ووصفها. و لم نقم خلال هذا العمل بجمع الخزف ولا بتفكيك البنايات، واكتفينا بدراستها بعين المكان. ونود أن نشير إلى أن أبعاد البنايات المهمة وكذلك المسافات التي تفصل بين المناطق المختلفة في الموقع، أبعاد ومسافات تقريبية، الهدف منها هو إعطاء صورة عامة عن الموقع.

يقع الموقع الذي نعتبره، بعد المرحوم الباعمراني، إيكيليز هرغة على بعد 60 إلى 70 كلم بشرق / جنوب شرق مدينة تارودانت في عالية أسيف ن–ورغن الذي حفر مجراه منذ حقب غابرة في الكتل الكلسية والشيستية بالأطلس الصغير الأوسط. ويعتبر حوض وادي أرغن ممرا ثانويا بين سوس والصحراء مقارنة مع الممر الرئيسي الذي يمر عبر إغرم.

أما من حيث المناظر الطبيعية فهي جافة على العموم مع انتشار زراعة مسقية في الأودية وأشجار الأركان المتناثرة في سفوح المرتفعات الجبلية فضلا عن بعض الأعشاب الطبية كالزعتر وإكليل الجبل و غيره. ويتمثل السكن المنظم في مجموعتين رئيسيتين : الأولى هي تجمع ماكنون – تاشتولت في الضفة اليمنى عند قدم الجبل، بمقابل سوق الأربعاء الموجود بالضفة اليسرى. أما الثانية فهي قرية أوتيغمرت الواقعة شرقا عند سفح الجبل. ونلاحظ هنا أن مناعة الموقع التي تحدثت عنها المصادر، تتأكد بشكل جلي في الميدان. فكتلة جبل إيكيليز الضخمة تنتظم من الغرب إلى الشرق. وسفوحه من ثلاث جهات (الغرب والشرق والجنوب) وعرة وشديدة الانحدار تجبر على المرور غربا عبر تيفيكيت، القرية الواقعة وسط المرتفع من جهة الشمال، من أجل الصعود إلى قمة جبل إيكيليز.

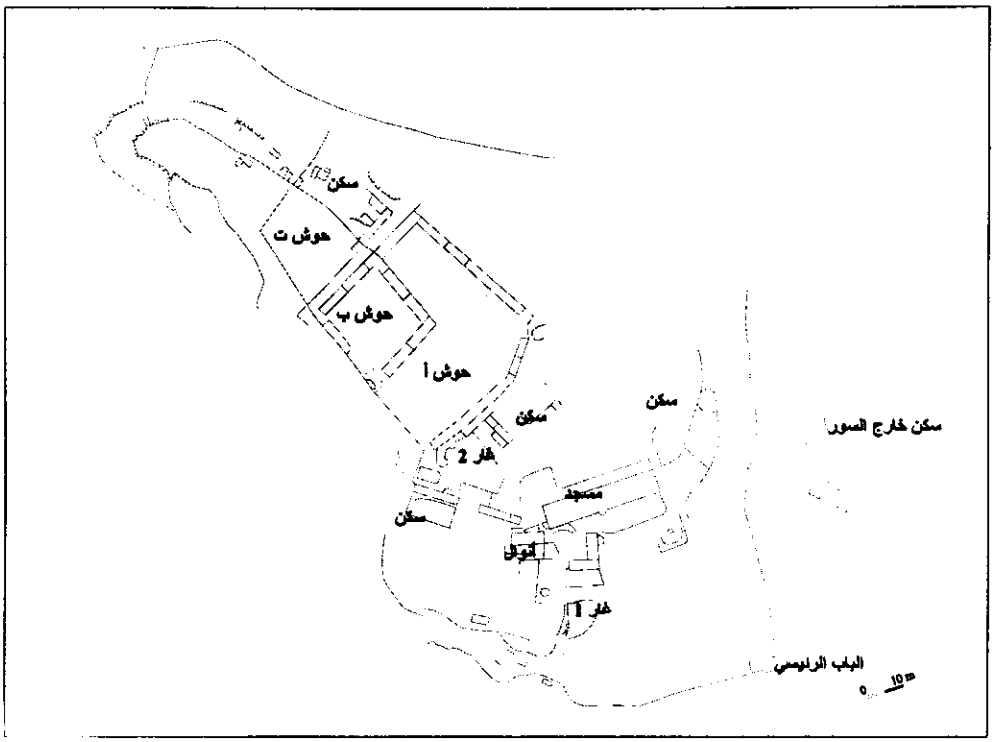

شكل 4 : إيكيليز، الجبل الأوسط (الحصن)، تصميم تقريبي للبنايات المعمارية ووظائفها

2 – المنظومة الدفاعية :

ينتظم جبل إيكيليز حول ثلاث مرتفعات أساسية، تعتبر أوسطها الأكثر ارتفاعا (1354م). وتنتشر المعالم الأثرية أساسا بالقمتين الشرقية (الجبل الشرقي) والوسطى (الجبل الأوسط أو الحصن) من الموقع. وبحكم موقعه، يتحكم الجبل الشرقي في المدخل الرئيسي لجبل إيكيليز، عبر تهيئة بعض الممرات المتقطعة. أما السور، المنتظم على شكل طابقين أو ثلاثة طوابق متوازية، فهو من الحجر الكلسي الجاف المشدود بالتراب. وهو يزيد من منعة التحصين الطبيعي للموقع.

وتتركز البنايات بكثافة غرب هذا الحاجز الصخري وسط الجبل. وقد أحاط بها سور يشرف على المنحدرات الطبيعية ويسد ثغراتها ويتبع، بهذه المنطقة كذلك، نتوءاتها و تعرجاتها. ونلاحظ غياب أي عنصر دفاعي معين، فلا وجود للأبراج مثلا إلا ما كان من بعض النتوءات عند انعطاف السور. فالظاهر أن الاستغلال الجيد للتضاريس الوعرة كاف لحماية الحصن والدفاع عنه. ونلاحظ كذلك أن الأسوار سواء بالجبل الشرقي أو بالجبل الأوسط تتميز بخصائص مشتركة تتمثل في استعمال الحجر في وضعه الطبيعي (الدبش)، أحيانا بكسره وأحيانا بركمه فقط على شكل أسِرَّة أفقية شبه منتظمة مع شده بالتراب في الأماكن الجيدة البناء. ونسجل باهتمام غياب تقنية البناء بالتراب المدكوك (الطابية).

ويوجد المدخل الرئيسي للجبل الأوسط (الحصن) بالجنوب الشرقي. وهو عبارة عن باب مزدوج الانعراج في الزاوية الجنوبية الشرقية. ولا بد أن نشير إلى جودة بنائه وتميز تصميمه، إلا أننا لا يمكن أن نجزم بأنه مسقف أو لا.

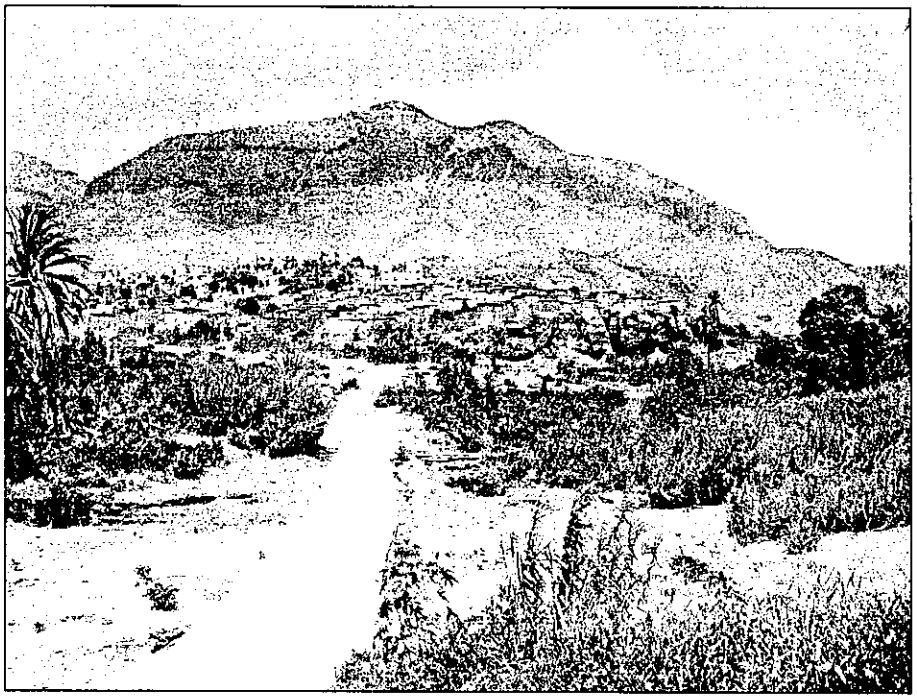

شكل 5 : جبل إيگليز من جهة الجنوب، في قدم الجبل، ماكنون

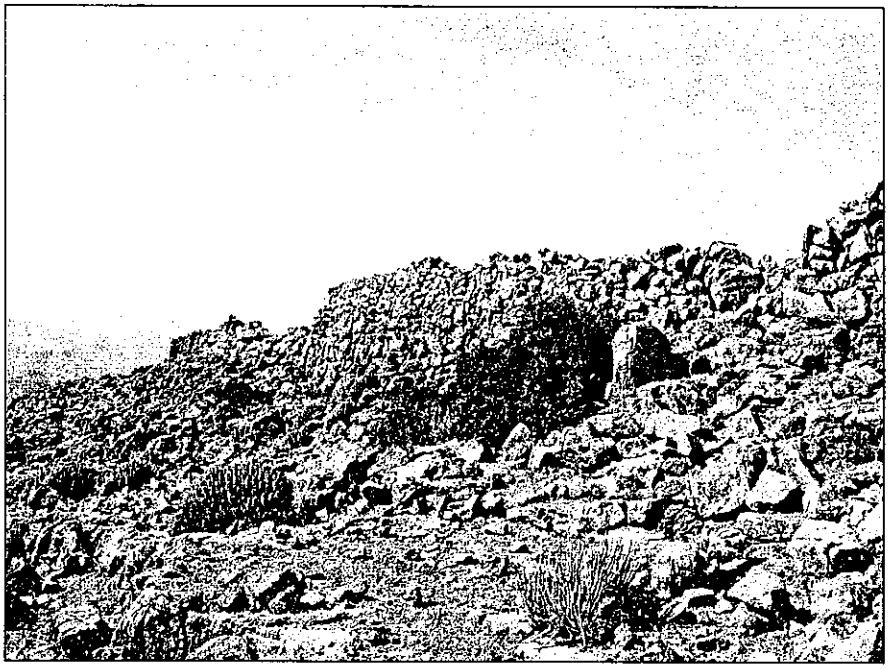

شكل 6 : ايگليز، الأسوار المحيطة بالجبل الأوسط

3 – منطقة السكن :

إذا كان الجبل الشرقي لا يخلو من آثار البنايات السكنية، فإننا نجدها بكثافة أكبر في الجبل الأوسط. وتتركز البنايات الأساسية التي ما زالت قائمة في قمته وفي المنحدر الجنوبي الشرقي والمنحدر الشمالي الشرقي[113]. وقد تمكنا من معاينة عدة مجموعات سكنية متكونة من بيت مستطيل أو أكثر منتظم على طول ممر أو حول ساحة داخلية كبيرة تتصل بالخارج عبر ممر (أغكمي)[114].

ونجد كذلك داخل الحصن غارين : الأول تصعب قراءة تصميمه نظرا لتعرض المنطقة التي يوجد بها لعملية حفر عشوائي غير بشكل كبير معالمها. أما الثاني فقد احتفظ بشكله المعماري العام. وقد لاحظنا أن الفضاءات المجاورة لهاذين الغارين قد تمت تهيئتها عن طريق تسوية حيطانها وإحاطتها بمجموعة من الجدران من أجل تنظيم الولوج إليهما. وإذ نحترس من اعتبار أحد الغارين، غار ابن تومرت المقدس وخلوته المذكورة في النصوص، فإننا نجهل لحد الآن وظيفة هاتين البنايتين الحقيقية: خلوة ؟ مكان انتجاع القطعان ؟ سجن ؟...

يلعب الماء في هذه المناطق الجافة والتي تقل فيها الآبار والعيون دورا حيويا. لذلك فالتزود من هذه المادة يمر أساسا عبر خزن مياه الأمطار. وتزداد أهمية هذه المادة الحيوية في ظروف المواجهات المتأججة بين الحركة الموحدية الناشئة والجيوش المرابطية بالسوس[115]. وقد تم خزن المياه بإيكُيليز بواسطة الجبوب. و قد عثرنا في الجبل الأوسط)الحصن(على خمسة جبوب متوسطة الحجم، أربع منها توجد داخل الحصن، وواحد بالجهة الجنوبية خارج السور مباشرة. ونجهل ما إذا كانت قد استعملت كلها في وقت واحد.

(113) ونشير إلى أننا عثرنا على بنايات أخرى في الشمال الغربي من هذه المنطقة القممية، ويحتمل أن تكون بقايا مساكن.

(114) لم نتمكن من إدخال جميع بنيات السكن داخل و خارج أسوار الحصن على التصميم التقريبي الذي أنجزناه.

(115) انظر ما أشرنا إليه سابقا حول الأعمال التي قام بها ابن تومرت نفسه خلال شتاء 516 هـ/ 1123-1122م وتحدث عنها ابن القطان، إلا أن الوضعية الحالية لأبحاثنا لا تمكننا لحد الآن من تأريخ هذه البنيات أو جزء منها بهذه الفترة.

4 – المسجد و الاحواش :

لقد مكننا عملنا الميداني من التعرف على عدة معالم داخل الحصن المسور. فالمسجد يشغل المنحدر الجنوبي الشرقي للحصن بين الباب الرئيسي وقمة الجبل التي تشغلها ثلاث أحواش كبيرة تحيط الغرف بجوانبها الداخلية.

أما المسجد فيتميز بأبعاده الكبيرة جدا (29 إلى 31 متر طولا و 6 أمتار عرضا) وهو على شكل مستطيل طويل تقسمه "دعامات ؟ جدران" إلى رواقين متوازيين لحائط القبلة. وتستند دعامات أخرى على الحائط المقابل للقبلة لتكتمل بذلك المنظومة التي تحمل سقف المسجد. وتمكن هذه المنظومة من استعمال الأخشاب القصيرة. أما اتجاه القبلة فهو إلى الجنوب الشرقي، ويتضح ذلك من خلال توجيه المحراب الذي يشغل وسط حائط القبلة مع ميل طفيف نحو الجانب الشرقي. وقد تعرض لتعديلات وترميمات مهمة لاحقة عن مرحلة بنائه الأصلية. ويتبين ذلك من خلال اختلاف طرق وتقنيات البناء. ويتم الولوج إلى المسجد عبر بابين موجودين بحائط القبلة ومفتوحين على ممر واسع غير مسقف، نجد مثله وراء المسجد من جهة الجنوب الغربي، يفضي إلى ساحة صغيرة. ولا نشك في ارتباط الفضائين بالمسجد.

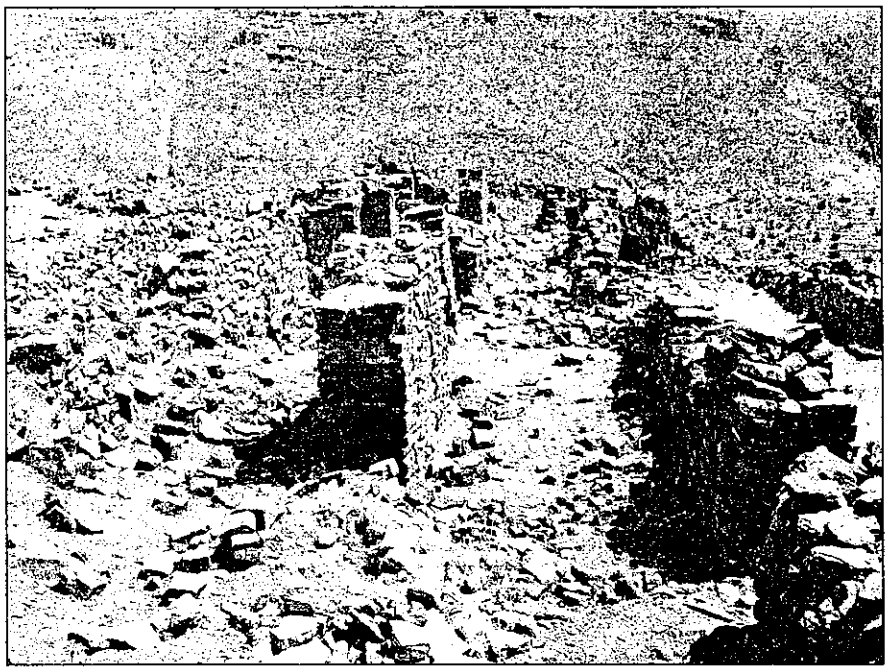

شكل 7 : إيكْيليز، الجبل الأوسط، منظر عام لقاعة صلاة المسجد انطلاقا من الجنوب الغربي

إن تحليل تقنيات ومواد بناء حيطان المسجد المبنية بالحجارة، يبين أنها أصلحت ورممت على الأقل مرتين، مما يدل على استغراق استعماله مدة طويلة. وبجوار المسجد نجد بناية من غرفتين ومطبخ (أنوال) أعيد ترميمها ولازالت تستعمل من قبل السكان خلال مواسم الزيارات.

أما بقمة الحصن فيوجد مركب معماري يتكون من ثلاث أحواش كبيرة (أ – ب – ت) متراصة جنبا إلى جنب. وتنتظم سلسلة من غرف مستطيلة حول ساحة الحوشين أ و ب. وهذا الأخير (27 م x 24م) يشغل المنطقة الوسطى من هذا المركب وهي في نفس الوقت قمة الحصن. ويتكون من ساحة داخلية خالية وغير مسقفة تنتظم حولها ثماني غرف مستطيلة (8 إلى 9 أمتار على 2 إلى 4 أمتار) تفتح أبوابها عليها. ويتمم جب متوسط الأبعاد عمارة هذا الحوش الذي يعتبر الأكثر تحصينا بالموقع لأنه محصور بين الحوشين أ و ت اللذين يراقبان مدخله. ونلاحظ كذلك أن هذا الحوش قد بني وفق تصميم دقيق ومنظم يوحي بأنه صمم بطريقة إرادية. ويؤكد هذا الطرح تجانس مواد وتقنيات البناء وتنظيم اتصاله بالحوش ت. وتبقى وظيفة هذه الأحواش غير دقيقة في انتظار الحفريات الأثرية.

5 – مشكل تأريخ البنيات الأثرية للموقع :

إن مشكل التعرف و تحديد موقع إيكيليز هرغة قد حل قطعيا في نظرنا اعتمادا على انسجام المعطيات المصدرية وكذلك ذاكرة السكان المحليين التي ما زالت تنبض بالحياة. إلا أننا لا نتوفر بعد المرحلة الأولية من التحريات الميدانية، على معطيات دقيقة و نهائية لتأريخ كل أو جزء من هذه المآثر بالفترة الموحدية الأولى. ويرجع ذلك إلى ندرة الدراسات حول الثقافة المادية بسوس في العصر الوسيط[116]. وإذا استثنينا الأحداث المرتبطة بالنصف الأول من القرن الثاني عشر، فلا تشير المصادر إلى زمن تاريخي آخر عرف فيه الموقع استيطانا مهما وعمليات بناء كبيرة ؛ خاصة وأن مصدرا متأخرا يمكننا من إلقاء الضوء على وضعية الموقع في بداية القرن 18. وهذا النص الذي نورده برمته نظرا لأهميته استقيناه من **رحلة الوافد** لعبد الله بن

(116) وقد واجهتنا نفس هذه المشاكل عند محاولتنا تحديد موقع تنونين. أنظر مقالنا السالف الذكر: "Retour aux sources, retour au Sous..."

إبراهيم الزرهوني[117] : "و قد سألت بعض من لقيته من أهل بلده (يعني ابن تومرت) من هرغة سوس على اسم بلده هناك عندهم، في أي موضع هو فيه، فقالوا لي تأصيله من عندنا من مدشر يقال له تفكت. وله حصن عندنا في أعلى جبل يقال له كليز [في نسخة تينمل: إيكْيليز]، وديار وأثر قصبة مشهور عند الناس، وأحدق على ذلك من طرف الجبل بسور من حجر لو اجتمع أهل بلدنا كلهم على صخرة من الصخر الذي بني به، ما رفعوه ولا حركوه من موضعه كصخر ثمود..."[118].

ويعتبر هذا الاستشهاد مهما جدا بالنسبة لتأريخ استغلال الموقع الذي لم تعد الحياة تدب فيه في بداية القرن 18 الميلادي، وأصبحت تيفيكيت النواة العمرانية الجديدة بالمنطقة. وتجدر الإشارة كذلك إلى أننا استجوبنا، خلال مقامنا بعين المكان، شيوخ البلدة وأكدوا لنا جميعا خلو الموقع من أي استقرار بشري طيلة مدة حياتهم و حياة آبائهم. وهذا يفسر عدم وجود بنايات حديثة بالموقع إلا ما كان من غرفتين و مطبخ وجب يستعملها السكان خلال زيارتهم له[119].

خلال الفترة القصيرة التي قضيناها في الميدان، تمكنا من بلورة بعض الأفكار العامة حول الإمكانيات المتاحة لنا لتأريخ المعالم الموجودة. فكمية الخزف التي لاحظناها في الموقع قليلة، كما هي العادة في التحريات الأولى بالمواقع المرتفعة. وبالرغم من ذلك فقد عثرنا على بعض شقوف الخزف المزجج التي لم نتمكن بعد

---

(117) عبد الله بن إبراهيم التاسافتي، **رحلة الوافد** (لحظات من تاريخ أدرار ن– درن (اطلس مراكش) و سوس في القرن 12 الهجري18/ الميلادي)، تحقيق علي صدقي أزايكو، منشورات كلية الآداب بالقنيطرة، 1992، ص ص.185–186. أنظر كذلك:"إيكيليز"، **معلمة المغرب**، II، 640-641 ؛ و كذلك:

Justinard, *La rihla du marabout de Tasaft Sidi Mohamed ben El Haj Brahim Ez-Zerhouni. Notes sur l'histoire de l'Atlas*, trad., Justinard, Paris, 1940, pp. 8-10.

ونشير عرضا أن اسم المؤلف هو عبدالله وليس محمد كما ذكر الباحث الفرنسي ؛ ونعتذر عن انسياقنا وراءه في النسخة الفرنسية لهذا المقال.

(118) وهذا يعني أنه في بداية القرن 18 لازال إسم إيكْيليز يطلق على هذا الجبل. لا شك أن ترجمة Justinard تستدعي بعض التدقيقات التي قمنا بها في النسخة الفرنسية لهذا المقال والمنشورة بمجلة *Al Qantara* بمدريد. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن النص العربي لرحلة الوافد قد بقي بدون تحقيق مدة طويلة قبل أن يتصدى له بامتياز المرحوم علي صدقي أزايكو، وأن الترجمة الفرنسية ل Justinard قد نشرت منذ 1940، فإننا نلاحظ كيف أن القدر قد لعب لأجل بقاء إيكْيليز هرغة طي النسيان لفترة ليست بالقصيرة.

(119) ترتبط هذه الزيارات بالموسم المتزامن مع المولد النبوي وبعمليات الذبح الموسمية أو وجبات الأكل الجماعية بعين المكان (المعروف). ويعتبر المطبخ النقطة الحساسة لهذه الزيارات، النسائية بالأساس.

من تأريخها نظرا لغياب المعطيات عن المنتجات الخزفية بالسوس في العصر الوسيط[120]. ولنا أن نتصور بطبيعة الحال الأهمية القصوى لدراسة خزف موقع إيكيليز بالنسبة للبحث الأثري بالجنوب المغربي، خاصة وأن المصادر تمكننا من معرفة مرحلة ذروة الاستقرار البشري فيه.

أما من حيث مواد البناء وتقنياتها، فهي لا تزودنا في الوضعية الحالية بكرونولوجيا دقيقة. إلا أنه لا بد من الإشارة إلى غياب كلي لاستعمال تقنية الطابية في الموقع رغم أنها استعملت في عدد من منازل مدشر تيفيكيت الحالية. وبالرغم من أننا لا يمكن أن نعمق هنا البحث اعتمادا على مسلمة قد تصور أن استعمال الحجر سابق على استعمال الطابية، فإننا نملك هنا، بدون شك، عنصرا من عناصر التأريخ النسبي، خاصة إذا أضفنا إليه الغياب الكلي للآجر المشوي أو المطبوخ. ويتضح من هذا الجرد المقتضب أن مادة البناء الوحيدة التي استدعت الإعداد هو الجير المستعمل لطلي جبوب الماء.

إن الامتداد المجالي المهم للآثار على طول جبل إيكيليز يعد عنصرا مهما في ربطها بالمرحلة الوسيطية. فأهمية أشغال التحصين وكبرها، لا يمكن تفسيره، في نظرنا، إلا بوجود حشود بشرية مهمة في هذا المكان وفي زمن واحد[121]، لأن الأسوار الخطية البسيطة كما رأيناها بالموقع، لا يمكن أن تكون فعالة في ظروف المواجهات التي وصفتها المصادر، إلا إذا كان الحصن يأوي عددا كبيرا من الجند للدفاع عن كل جزء من سوره. ولعل أبعاد المسجد الكبيرة لا يمكن فهمها إلا إذا ربطت بهذه المرحلة الدقيقة والمهمة من تاريخ الموقع.

(120) ونتمنى أن نعثر على بعض الخزفيات المستوردة والتي ستمكننا من وضع تأريخ نسبي للبنيات الأثرية. ولابد أن نشير أن السكان لم يشيروا إلى اكتشاف نقود معينة، ومن المرجح أنهم تفادوا الحديث عن هذه النقطة الحساسة خلال هذا اللقاء الأول.

(121) إن الاختلاف الذي اقترحناه في وظيفة الجبل الشرقي (الدفاع عن المدخل الرئيسي والسكن) ووظيفة الجبل الاوسط (الدفاع، السكن، الوظيفة الدينية خزن الماء والأقوات ؟)، يعني أننا نستبعد انتقال المركز المحصن من نقطة إلى أخرى من الجبل. ونعتقد أن الحصن الذي تتحدث عنه المصادر في القرن XIIم هو مجموع التحصينات بالجبل الشرقي والجبل الأوسط.

خاتمـــة

لم يكن تحديد موقع إيكيليز هرغة "لغزا محيرا"[122] على حد تعبير فرومهرتز، بدليل أن هذا الموضوع طرق مرة بعد مرة من قبل باحثين من ضفتي المتوسط، حاولوا قدر المستطاع وبكثير من الدقة في بعض الأحيان توطين هذا الموقع الهام في تاريخ المغرب[123]. فعكس ما ذهب إليه الباحث الأمريكي اعتمادا على معطيات تاريخية غير كافية، فإن محاولته تبعدنا عن مكان ولادة المهدي بن تومرت ومهد الحركة الموحدية. فمدينة إيكلي بسوس لا علاقة لها بموقع إيكيليز إلا ما كان من تشابه صوتي بين اللفظين أسقط بعض المؤرخين الوسيطيين في تصحيفات توقفنا عندها باقتضاب[124]. إن "اللغز المحيرس يتمثل ، في نظرنا، في الجمود الذي عرفه البحث التاريخي والأثري الذي أبقى الشكوك حول موقع هذا المكان لمدة طويلة نظرا لغياب عمل ميداني يحدد طبيعة الآثار التي يحتضنها. وتزداد حيرتنا عندما يستدعي الأمر فقط الإطلاع على المصادر والمراجع وبعض الخرائط فضلا عن استجواب الباحثين المحليين[125] وسكان المنطقة الذين مازالت ذاكرتهم تحفظ بعض ترسبات الماضي البعيد[126].

لعل الدرس الذي نستنتجه من هذا كله هو التواضع الذي يجب أن نعتبر به من جهتنا "اكتشاف" هذا الموقع المركزي في تاريخ الموحدين. فكان عملنا يتلخص في

---

(122) Fromherz, "Almohad Mecca", p. 176.

(123) هويسي ميراندا ليس قريبا، كما أشار إلى ذلك فرومهرتز، من الموقع الحقيقي لإيكيليز خاصة إذا تعلق الأمر بمدينة إيكلي. اعتمادا على معطيات زودته بها ج. جاك مونيي، اقترح هويسي ميراندا موقعا تبين الآن أنه قريب جدا من الهدف، وكان الموقع الذي اقترحه المرحوم الباعمراني في دراسته التي بقيت لمدة طويلة منذ (1971) طي الرفوف، هو الصحيح، ولعل من واجبنا اليوم أن نذكر بأعمال الذين سبقونا إلى البحث في هذه المسألة.

(124) وإن تبنينا في هذا المقال لغة نقدية مباشرة تجاه عمله، فنحن ممتنون لفرومهرتز لإعادة طرح هذا الموضوع، فعلى المستوى الفردي، ساهم مقاله بشكل كبير في قرار نشر العناصر الأولى من دراستنا لهذا الموقع.

(125) لابد أن نحيي مرة أخرى صديقنا الأستاذ سيدي أحمد بوزيد الكنساني لرحابة صدره وأناته ومساعدته القيمة خلال المرحلة الإعدادية لتحرياتنا بأسيف نورغن.

(126) يضم عملنا الميداني كذلك شقا أنتروبولوجيا يرمي إلى البحث عن "ذاكرة المهدي بن تومرت" بالمنطقة. ونود أن نشكر جزيل الشكر سكان تيفيكيت وخاصة قيدومهم سي عبد السلام، عن استقبالهم الحار وعن تقديرهم للعلم و المعرفة، فقد فسحوا لنا الطريق إلى الموقع بعد أن فتحوا لنا قلوبهم، فكان الوصول إلى قلوبهم مكافئا للوصول إلى ايكيليز.

أمرين متكاملين : الأول، هو أنه كان من اللازم إعادة تقييم أعمال الباحثين الذين سبقونا والتأكد بصفة قطعية من موضعه. وهنا لا بد أن نؤكد على أننا لامسنا انسجاما فريدا بين المعطيات المصدرية والجغرافية والأثرية. ويبقى للدراسات والأبحاث العميقة التي سنقوم بها مستقبلا أن تؤكد هذا الشعور الأولي. الأمر الثاني، هو أنه بقي القيام بزيارة الموقع و تقديم معلومات حول الآثار التي ما زالت قائمة فيه، وهو أمر لم يقم به في نظرنا أحد قبلنا : "ووصلنا على بركة الله إلى إيجيليز".

Résumé : L'article se propose d'infirmer la proposition émise par Allen Fromherz dans l'une des dernières livraisons d'al-Qantara d'identifier īgīlīz-des-Harga, lieu de naissance d'Ibn Tūmart et premier foyer de la révolution almohade, avec la localité īgīlīz dans la vallée du Sous. Conjuguant étude de la documentation écrite, rappel historiographique des rares études savantes à avoir été consacrées à ce site méconnu, et premiers éléments d'une enquête de géographie historique et d'archéologie en cours, la présente contribution voudrait montrer 1°) que la théorie de Fromherz est sous-tendue par des erreurs d'appréciation des matériaux historiques utilisés ; 2°) que le village natal d'Ibn Tūmart se situe non dans la vallée du Sous, mais dans l'Anti-Atlas central, comme l'avaient déjà bien montré en leur temps Huici Miranda et Dj. Jacques-Meunié ; 3°) que le site īgīlīz-des-Harga, dont on avance ici une localisation précise, comprend notamment un lieu fortifié de hauteur qui a servi, lors des premiers affrontements contre les Almoravides, de refuge à Ibn Tūmart aux membres de sa tribu. Une brève description archéologique des vestiges est enfin donnée de ce site jusqu'à ce jour inédit.

مقاومة الشريف محمد أمزيان لمشروع الاستغلال الاقتصادي الإسباني بالريف الشرقي[1]

رشيد يشوتي

توطئـــة :

خلال العشرية الأولى من القرن العشرين انبعثت مقاومة الريفيين لمشروع الاستغلال الاقتصادي الإسباني لمنطقة الريف تحت قيادة فذة تمثلت في شخصية الشريف سيدي محمد أمزيان التي أبانت عن قدرة عالية في التنظيم العسكري والتسيير الاستراتيجي. من أجل ذلك تحاول هذه المداخلة تحليل هذه الشخصية من حيث فهمها لميكانيزمات مشروع الاستغلال الاقتصادي، وكذا من حيث تقنياتها الاستراتيجية لإبطال هذا المشروع المهول الذي تبنته الطغمة العسكرية والطبقات الرأسمالية الحاكمة في مدريد.

إن الحركات الجهادية الناجعة التي قادها الشريف سيدي محمد أمزيان ضد القوات الإسبانية الغازية أبان منذ البداية على أنها حروب ضد مشاريع الاستغلال التي كانت إسبانيا سباقة إليها حتى بالنسبة لفرنسا كعميدة للإستعمار في منطقة شمال إفريقيا، ولا محالة فقد ساعدتها في ذلك ظروف دولية، وطنية ومحلية، تمثلت في ظهور الدعي الزرهوني (بوحمارة) بالريف، ومن بعدها الصراع حول الحكم بين الأخوين السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحفيظ، هذا إضافة إلى مقررات مؤتمر الجزيزة الخضراء...

(1) موضوع شارك به الباحث في الندوة الوطنية : المقاومة ومعارك التحرير بمنطقة الريف، والتي نظمتها المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير. وجامعة محمد الأول بوجدة، بتاريخ 19-20 يوليوز 2002، بالناضور، تخليدا لمعركة أنوال الريفية.

1 - مقاومة الشريف محمد أمزيان لثورة الروكي الزرهوني :

ترتبط مقاومة الشريف أمزيان لمشروع الاستغلال الاقتصادي ارتباطا وثيقا بثورة الزرهوني، فمنذ نجاح هذا الأخير في تأسيس سلطنته بالمغرب الشرقي في مرحلة أولى وبالريف في مرحلة لاحقة، مع ما تبع ذلك من نقل العاصمة من تازة، إلى وجدة، ثم إلى سلوان، جعل المغرب يعرف في هذه المرحلة انقساما خطيرا، إلى عاصمتين ثم إلى فئتين من الشعب، وبالتالي كل ملامح الحرب الأهلية كانت تبدو جلية[2]. هذا الهوس عبر عنه بوضوح القاضي الورياشي قائلا : "في هذه الظروف الحرجة الصعبة، وفي زمن فتنة أبي حمارة التي قتل فيها من جيش أبي حمارة والجيش الحكومي الذين هم إخوة وأبناء وطن واحد، وربهم واحد ودينهم واحد وملكهم واحد، ما يزيد عن مائة ألف من صناديد رجال المغرب وحماته الذين كان آباؤهم وأمهاتهم وأسلافهم وأبناء وطنهم أعدوهم وهيأوهم ليردوا عنهم كيد العدو الأجنبي الغاصب الذي يتربص الدوائر دائما وأبدا بهذا الوطن..."[3].

إن مجيئ الزرهوني إلى الريف منذ أواخر شهر يناير 1903، جعل ثورته تتقوى بشكل خطير، بل ويصبح هو ذاته دعيا خطيرا : "إن الريف هو الإقليم الذي وجد فيه الدعي بسرعة أنصاره الأشد تحمسا، وفيه وجد الموارد والرجال لخوض الحرب..."[4]. وبالفعل نجح الزرهوني في طرد ممثل المخزن بالريف القائد البشير بن سناح في 13 أبريل 1903. وفي استمالة الريفيين لمساعدته في احتلال مدينة وجدة. هذه الاندفاعات الحماسية جعلت الريفيين يحبطون الدعاية المضادة التي قادتها اللجان التي كلفها السلطان عبد العزيز، بل وجعلتهم لايشكون البتة في كون الزرهوني هو السلطان الشرعي.

غير أن ظروفا جديدة سيشهدها المغرب ستجعل الريفيين يمحصون جليا في شخصية الزرهوني لاتخاذ مواقف معاكسة لما سبق. تتجلى هذه الظروف في ما يلي:

(2) اعتبرن هذه الوضعية بمثابة حرب أهلية على أساس أن الصراع كان صراعا أسريا في البدء مادام تقمص دور المولى محمد في صراعه ضد أخيه المولى عبد العزيز، ثم لأن المغاربة انضموا أمام هذه الوضعية الشائكة إلى فئتين متناحرتين.

(3) القاضي العربي الويراشي : الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان. مطبعة المهدية، الطبعة الأولى، تطوان 1976. ص69.

(4) جرمان عياش : أصول حرب الريف، ترجمة محمد الأمين البزاز، عبد العزيز التمسماني خلوق. نشر SMER، مطبعة النجاح الجديدة. البيضاء 1992، ص 129.

علاقات الرزهوني مع فرنسيي الجزائر الذين سمحوا له بالتزود بالأسلحة والمعدات، رغم أن الزرهوني كان دائما يقنعهم بأن شراء هذه الأسلحة كان يستهدف محاربة العدو الأجنبي.

• احتلال مدينة وجدة، والتي هي على أبواب منطقة الريف، من طرف الجيوش الفرنسية في 29 مارس 1907، الأمر الذي ترك الزرهوني مكتوف الأيدي.

• تنازل الزرهوني في يوليوز 1907 عن مناجم ويكسان، الموجودة في قلب أراضي قلعية، لمجموعات رأسمالية إسبانية وفرنسية، وهذا ما سنعود إليه بعد قليل.

• غياب أي رد فعل أمام التدخلات الفرنسية بالريف الشرقي، والتي ستمكنهم من تأسيس وكالة المحمدية التجارية بمارشيكا سنة 1908.

هذا إضافة إلى أحداث أخرى كحادثة الدارالبيضاء[5]، وقيام المولى عبد الحفيظ ضد أخيه المولى عبد العزيز مع ما تبع ذلك من مبايعة كل المغاربة للأول، "بدا عبد الحفيظ بالنسبة للريفيين البديل البشير لسلطانهم المحلي <الزرهوني> الذي تحققوا أخيرا... من أمره القائم على التدليس والبهتان"[6].

فكيف استفاق فعلا الشريف ومن معه من هذا التدليس والبهتان الذي مارسه عليهم الزرهوني؟

إن الوضع الذي ساد في الريف خلال هذه المرحلة جعل سكان الريف ينقسمون إلى فريقين : أحدهما مناصر للمخزن ذو إمكانيات محدودة، يمثله من سكان قلعية كل من الشيخ أحمد بن عمر أوعاس المزوجي ومحمادي بن علي زريوح الفرخاني والشريف محمد أمزيان. والفريق الثاني كان موالي لبوحمارة مزود بالأسلحة ومنظم لدرجة استطاع معها الزحف على دار المخزن بفرخانة حيث كانت ترابط هناك حامية مخزنية تحت قيادة البشير بن سناح والتي تمكن بوحمارة من احتلالها يوم 13 ابريل 1903 [7]. فماذا كان موقف الفريق الأول الذي كان ضمنه الشريف امزيان من الفريق الثاني الذي يرأسه الزرهوني ؟

---

(5) ج. عياش : م. 132

(6) نفسه والصفحة.

(7) أربيب مصطفى "امزيان الشريف محمد معلمة المغرب. ج 3 ص 757.

لا تسعفنا الوثائق والدراسات التاريخية حول هذا الموضوع من استنباط أي تصور حول علاقة الشريف بالزرهوني خلال بداية هذا القرن وبخاصة حينما أصبح الزرهوني سيد الريف ابتداء من سنة 1903. ويذكر الأستاذ جرمان عياش أن الشريف قد تمرد على الزرهوني إلا أنه يعود لينفي ذلك متعللا بأن الأمر بعيد الإحتمال بدعوى أن الشريف قد يغرر بنفسه لو وقف ضد الدعي، الذي كان قد قوي سبيله وقتذاك[8]. بيد أننا نعتقد أن الشريف أمزيان يبقى مع ذلك هو أول من تفطن إلى تواطؤ الزرهوني مع الأجانب وخاصة مع فرنسا وإسبانيا، وعمل على فضحه.

من هنا نفهم كيفية انتقال الشريف من موقع الخاضع لسلطة الزرهوني الى موقع الرافض له، والخاضع لسلطة المخزن العزيزي حيث التحق بالجنود المرابطين هناك بجوار مليلية.

إن هذه العلاقة المتوترة بين الزرهوني والشريف محمد أمزيان ساهمت فيها مجموعة من الأحداث، نحصرها فيما يلي :

• تنازل الروكي للإسبان والفرنسيين على مناجم المنطقة، وهو ما سنحلله لاحقا.

• انهزم الروكي أمام قبائل بني ورياغل : إذ أن تراكم الأحداث بهذه السرعة الفائقة، كشف الزرهوني عاريا في عيون الريفيين، فسقط عنه القناع، وبات واضحا "أن التنازل عن مناجم بني بويفرور، وإدخال العنصر الأوروبي في المنطقة لم يصادف هوى في نفوس فريق الريفيين المتعصب الذي أخذ منذئذ ينظر بعين شريرة إلى الدعي (بوحمارة) ويعتبره حليفا خطيرا للمسيحيين"[9] لقد بات واضحا الآن، أن أمر الروكي لا يقوم إلا على التدليس والبهتان، من هنا نفهم سببية ردود فعله القوية والمتغطرسة على القبائل الريفية، خاصة على قبيلة بني ورياغل التي حاول ترسيخ سيادته المطلقة بها، على اعتبار أنها كانت تزخر بأغنى مناجم الحديد

(8) ج. م. س. ص 136.

(9) "Maldonado Eduardo : El Rogui. Tetouan 1949. p. 349.

والنحاس الموجودة بأراضي جبل الحمام، هذه المناجم التي من شأن التنازل للأوربيين أن يضاعف مداخيله المالية[10]. ولتحقيق هذه الغاية أنفذ الزرهوني نحوها جيشا تحت قيادة قائد مرعب "مول الوضوء" الذي ارتكب أبشع مذبحة في بني توزين على طول الطريق الموصلة إلى بني ورياغل، بيد أن هذه الأخيرة تمكنت رغم ذلك من تحقيق النصر، فكان ذلك في معركة وادي النكور في شهر رمضان 1908/1326 هذا النصر الأولي ساعد القبائل الأخرى على رفع راية العصيان في وجه الزرهوني، خاصة منها قبيلة قلعية التي تمردت عليه في أكتوبر 1908، بعد أن أبادت مرتزقته وجابى ضرائبه في سوق بني سيدال. والنتيجة، أن قام الزرهوني برد فعل قوي، إلا أن القبائل وبالنظر إلى ضعف وسائلها الحربية النارية فإنها اكتفت باحتلال المرتفعات المشرفة على سلوان مقر حكومته، لتسد عليه مدخل مليلية في الشمال، والحصيلة أن كلفت هذه الخطة الزرهوني التخلي عن سلوان، فكان ذلك نهاية لدولته في الريف[11].

2 - مقاومة الشريف محمد أمزيان للمشروع الرأسمالي الإسباني في الريف :

واضح مما سبق أن مقاومة الشريف أمزيان للزرهوني لها علاقة وطيدة بعلاقة هذا الأخير بفرنسيي الجزائر وإسبانيي مليلية. ففي ما يخص إسبانيا فقد كانت متأثرة إلى حد بعيد بالسياسة التوسعية لفرنسا، مما جعلها تقتبس منها تلك الاستراتيجيات. فكما احتلت فرنسا بلاد الشاوية والمغرب الشرقي، وطدت اسبانيا نفوذها في احتلال المغرب الشمالي بالتركيز على الاتفاقية الفرنسية الاسبانية لأكتوبر1904 وعلى الحقوق والامتيازات التي خولتها لها بنود عقد الجزيزة الخضراء. من هذه المرتكزات القانونية. قامت إسبانيا على يد حاكمها في مليلية "الجينرال خوسي مارينا José Marina" بعدة هجومات يعكس مراحلها هذا التقييد المغربي الذي أورده الأستاذ عبد العزيز التمسماني خلوق والذي جاء في نصه "فأول ذلك احتلال الجنود الصبنيولية رأس الماء الواقع في قبيلة كبدانة، احتلال لا موجب له أصلا، لبعد ذلك المحل عن الحدادة بمسافة بعيدة، ثم أعقبه احتلال مارشيكة غير حقائقي وهو

(10) Ibid. p 351.

(11) عياش. ج : م.س. ص 134.

السبب الأقوى لإيقاذ الفتن بالنواحي الريفية. ثم أعقبه مسألة مد اليد في خدمة المعادن التي بقبيلة بني بويفرور من قلعية، ثم أعقب ذلك خروج الجنود الصبنيولية وضربها على أولاد الحاج من قبيلة كبدانة بغير سبب يوجب ذلك"[12].

واضح من خلال هذا التقييد أن حركة الشريف محمد امزيان التي جاءت نقيضا للمشروع التوسعي الاسباني ساهمت فيها عدة أحداث كبرى هي :

- احتلال الريستيكا (هور أركمان).
- احتلال رأس الماء بسيدي البشير.
- الهجوم على أولاد الحاج.
- مسألة الاستيلاء على المعادن.

وحيث أن هذا الموضوع لا يركز على المسوغات السياسية التي أدت إلى قيام حركة الشريف محمد أمزيان، بل على تلك التي تهم الجانب الاقتصادي، فقد حصرنا موضوعها في الاستغلال الاقتصادي لقطاع المناجم.

• المناجم الريفية : تبتدئ قضية المعادن في الريف منذ أن تنازل الزرهوني شخصيا وبمقتضى فرمان (Ferman) [13] لرأسماليين إسبان وفرنسيين[14] عن منجمين يقعان في قلب أراضي قلعية وذلك ابتداء من 7 يوليوز 1907 [15].

إن اهتمام إسبانيا بالمناجم الريفية يجد سنده في الحقيقة في الامتيازات التي قدمها إليهم مؤتمر الجزيزة الخضراء، خاصة البند 112 منه الذي نص على أن "فرمان أوظهير شريفي سيحدد شروط التنازل واستغلال المناجم.. وخلال تحضير هذا الظهير فإن الحكومة الشريفة ستستلهم التشريعات الأجنبية المتعلقة بهذا الموضوع"[16].

---

(12) التمسماني عبد العزيز خلوق : الحركة الحفيظية والأطماع الإسبانية في شمال المغرب. مجلة دار النيابة، عدد 17، السنة الختامية، شتاء 1998، ص 49.

(13) انظر الصورة الأصلية في Maldonado Eduardo : El Rogui. Tetouan

(14) Allendesalazar : La diplomacia española y Marruecos, 1907 - 1909, p 143.

(15) Maldonad : El Rogui, p406.

(16) Rivièrer Louis : Traités. codes et lois du Maroc Tomel, accords internationaux. Ed de la société du recueil Sirey. Paris 1924, p 99.

إن افتتان الإسبان بمناجم الريف يبدأ منذ أن قدم الزرهوني بعض العينات إلى صديقه التاجر دافيد شاربيط، الذي تفحصها للتو، واستشف أنها غنية بفلزات الحديد. وقد سعى شاربيط بعد ذلك إلى الاتصال بالرأسماليين الإسبان المهتمين بالمناجم خاصة المتواجدين بمليلية، حيث تهافتت شركة A.Y. Figueroa ببعث مهندسيها لتحليل العينات. وكم كانت دهشتها قوية حين استخلصت أن النتائج تتجاوز الحقيقة، أي أن تلك العينات كانت تحتوي على أكثر من 75% من الحديد، مع العلم أن المناجم هي مكشوفة، سهلة الاستغلال، وقريبة من ميناء مليلية[17].

إن هذا التهافت الرأسمالي الذي شهده الريف الشرقي جعله يعيش "حمى منجمية" بمجيئ شركات ومؤسسات ليست من إسبانيا فحسب، بل من كل بقاع العالم، فيما بعد. وهكذا أصبح الريف حينها بمثابة إلدورادو افريقيا L'Eldorado d'Afrique [18].

لقد نجح الرأسماليون ورجال الأعمال الإسبان في خلق مصالح إسبانية في منطقة نفوذها، وهيأوا تبعا لذلك لحملة خاصة بالرأسماليين المهتمين بالمناجم في شمال إفريقيا، هذه الحملة التي نعتقد أنها دشنت مرحلة التوغل الرأسمالي في الريف والتي سمحت بتكوين الصناعة الأكثر أهمية في المنطقة. هكذا إذن اكتشفت إسبانيا، من حيث لا تدري، مصالح جديدة في المنطقة وظلت تدافع عنها بقوة السلاح : "من الواضح أن التوسع الترابي لحصن مليلية، تزامن مع الدفاع عن المصالح المنجمية والتي كانت تكتسي عند الحكومة الإسبانية أهمية قصوى"[19].

اعتبارا لهذه الوضعية فإن الرأي العام الإسباني اتخذ موقفا مؤيدا من الحملة الاقتصادية الإسبانية على الريف، خاصة وأنها كانت مدعومة من طرف القوات الأوربية ومن استثماراتها الرأسمالية. وحتى تتمكن من حماية وتأمين مصالحها، وربما من أجل أغراض استراتيجية، فإن مجموعة الشركة الإسبانية ركزت اهتماماتها الخاصة بالبحث والتنقيب على المعادن في منطقة الريف الشرقي. وفي هذا الإطار

(17) عبد الحميد الرايس المسألة العلمية بالريف والتهافت الأجنبي 1880-1912. مجلة حوليات الريف. العدد 2. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء 1999، ص 91.

(18) Gandarillas. F.S : Estudios Melillenses, notas sobre urbanismo y sociedad en Melilla Ed La bibliteca de Melilla. Mililla 1996. pp. 100 et 108.

(19) Allain. J.C : Agadir 1911. Une crise impérialiste en Europe pour la conquète du Maroc. Publication de la Sorbonne. Paris 1976. p 81.

تكونت أولى الشركات والتي هي الشركة الإسبانية لمناجم الريف Compañía Espanola de Minas del Rif، والتي تكونت بدورها من أربعة مجموعات هي على التوالي :

- مجموعة La Casa Figueroa
- مجموعة La Casa Guell
- مجموعة Clemente Fernandez
- مجموعة : Mc Pherson

أمام هذه التطورات غير المسبوقة، سارعت الشركات الفرنسية إلى الإحتجاج وتقديم العرائض لدى الزرهوني، الذي رضخ وسمح لهم تبعا لذلك بتأسيس شركة شمال إفريقيا التي اختصت في استغلال مناجم الرصاص بجبل عفرا. بموازاة مع هذه الاستغلالات بدأت الشركتان في إنشاء ومد خط السكك الحديدية للربط بين المناجم والميناء.

فكيف تطورت هتان الشركتان في الريف ؟

فيما يخص الشركة الإسبانية لمناجم الريف فقد تطورت عبر عدة مراحل، بدءا بتأسيس النقابة الإسبانية لمناجم الريف إلى الشركة المدريدية الإسبانية المغربية، إلى الشركة المنجمية ج.أ. فيكيروا، وأخيرا إلى الشركة الإسبانية لمناجم الريف التي عادت رئاستها الى الوزير الليبرالي السابق Villanueva، وهي شركة اسبانية الرأسمال والتنظيمات القانونية[20]، وقد قدر رأسمالها بحوالي 2 مليون بسيطة حسب الأستاذ جمال كنان[21] و4 مليون بسيطة سنة 1908 حسب الأستاذ موراليس ليثكانو[22] وقد خول الزرهوني هذه الشركة حق استغلال هذه المناجم لمدة 99 سنة، تقاضى مقابل ذلك مبلغ 650.000 بسيطة على مناجم ويكسان "ويشن" لوحدها[23]

(20) Allain. J. C. Agadir 1911, op. cit, p 79.

(21) Guenane Djamal : Les relations franco-allemandes et les affaires marocaines de 1901 à 1911. Ed SNED. Agler 1975. p 275.

(22) Victor Morales Lezcano : El colonialismo hispano-frances en Marruecos 1898-1927. Madrid 1976. p. 60

(23) بن عزوز حكيم محمد الشريف أمزيان، المقاومة المسلحة ضد الغزو الإسباني. مذكرات من التراث المغربي الجزء 5. ص ص. 51-52.

هذه المناجم التي كانت أكثر غنى بالحديد الخالص حسب الخبراء والذي كان يحتوي على أكثر من 25% من الهيماتيت (حجر الدم) بالمقارنة مع مثيلتها في الأحواض المنجمية ببلباو[24]، وهو ما أكدته القرينتان اللتان اعتمدناهما، أولهما التقرير الذي أعدته اللجنة الأمريكية الشمالية التي كلفت بدراسة مناجم العالم، والتي أقرت بأن مناجم حديد بني بويفرور كانت هي الأغنى بأكثر من 70% من الحديد[25] أنظر الجدول الذي يوضح التركيبة الكيميائية لمعدن الحديد الريفي.

الجدول رقم 1: التركيبة الكيمياوية لفلزات حديد بني بوريفرور

المـادة	% النسبة المائوية
Paroxide de fer	83.471
Protoxide de fer	12.150
Protoxide de Manganèse	0.186
Alumine	0.100
Magnésie	0.973
Silice	1.200
Soufre	0.096
Acide phosphorique	0.030
Arsénique	0.010
Acide carbonique	0.300
Eau combinée	1.450
Total	99.996%

Source : Alfonso del Valle et Fermandez Iruegas : op. cit., p 259

وثانيها المعـاينة المبـاشرة التي قام بها Luis Anton del Olmet خلال سنتي 1915-1916 حينما وصف مناجم بني بويفرور كالتالي : "إنها ليست مناجم، بل هي جبال كاملة من المعدن، جبال حمراء عظيمة ومليئة بالحديد، عمليات الاستخراج سهلة، ويكفي فقط ملء عربات القطار : فالأرض، ومنحدر الجبل، وقمته كلها معادن... كأنك أمام أشياء خرافية، أسطورية، ذات كميات لا متناهية"[26].

(24) Allendesalazar : op. cit. p 137.

(25) Trivinio Valdivia Francisco : Del Marruecos español. Première édition. Ed Telegrama del Rif. Sans date. p 61.

(26) Luis Anton del Olmet : Marruecos. Imprenta de Juan Pueyo Madrid 1916. p 74.

هكذا إذا نجحت الشركة الإسبانية لمناجم الريف بعد انتهاء جهاد الشريف أمزيان في تحقيق أرباح خيالية. ف San Martin Lopez الذي اختص في دراسة هذه القضية يقدر أرباح هذه الشركة ب 500 مليون بسيطة، من سنة ابتداء الاشغال سنة 1914 إلى سنة 1948، ويرجع سان مارتان لوبيث هذا الأمر إلى ارتفاع أسعار الحديد خلال هذه الفترة، كما يوضح ذلك الجدول التالي :

الجدول رقم 2 : قيمة الطن من الحديد المصدر بالعملة الإسبانية البسيطة

السنـــــوات	القيمة بالبسيطة
1914-1918	13.7
1919-1923	11.6
1939	34.7
1945	55.3
1948	73.3

Source : San Martin Lopez : Minas de hierro del Rif. op. cit p. 20

أما شركة شمال إفريقيا Compania Norte Africano فقد منحت لها رخصة استغلال مناجم الرصاص ببوعزة الموجودة ب "عفرا" وهي شركة فرنسية الرأسمال[27] إسبانية التنظيمات[28] كان يتواجد على إدارتها كل من Massenet (مهندس وخبير مالي وأحد محميي الدوق De Wargran)، وDorman والإخوان Baille، هؤلاء الأخيرين الذين تم تعويضهم بالمدراء الجدد Denis وBeaufort [29]. أما رئاستها فعادت إلى الوزير الأسبق، السياسي المحافظ ووالي بنك إسبانيا Antonio Garcia Alix [30] وقد باشرت هذه الشركة أولى أعمالها في يوليوز 1907 [31] أي مباشر بعد الإنتهاء من المفاوضات التي عقدها Massenet مع الزرهوني[32].

(27) Allendesalazar : op. cit pp 217-223.

(28) Allain. J.C : op. cit. p 79.

(29) Maldonado : op. cit. p 347.

(30) Allendesalazar : op. cit. p 137.

(31) Maldonado : op. cit, p 351.

(32) Madariaga. M.R : L'Espagne et le Rif : pénétration coloniale et résistance locales 1909 - 1926. Thèse de doctorat. Universite de Paris, Panthéon - Sorbonne 1987. T1. p 252.

هذه التنازلات لم تكن ترضي البتة القبائل القلعية المعنية بالأمر مباشرة وهي قبائل بني سيدال وبني سعيد[33]، وخلال ربيع 1908 باشر المهندسون الإسبان أعمال بناء السكة الحديدية التي كان من المفروض أن تربط مليلية بالطبقات المعدنية بويكسان مرورا عبر الناظور وازغنغان. ويقدر شارل أندري جوليان أن الشركة الفرنسية «Compania Norte de Africano» كانت تسيطر على 1045 هكتار حول «Grupo Oriental de los Montes del Hasso»[34].

هناك شركتان أخريتان أسستا فيما بعد، وهي وإن كانت لا تدخل ضمن سياق موضوعنا فهي على الأقل تعكس التهافت الكبير للشركات الرأسمالية المهتمة بمناجم الريف، يتعلق الأمر بشركتي Setolazar و Alicantina. فالشركة الأولى التي تحمل إسم مؤسسيها الثلاثة SETuan-OLAvarriaga-ZARate، وبالاقتصار على الحروف الأولى لهذه الأسماء تم استخلاص إسم شركة سيطولازار. هذه الأخيرة كانت تقتصر على استغلال المناجم الموجودة بإبركانن على حوالي 1267هكتار. وذلك منذ 1913 حسب مورالیس لیثكانو و1915 حسب ماداریاكا. كما استغلت هذه الشركة الاحتياط المعدني لمنجم المسمى نابارێتي Navarrete والذي قدرت مساحته بحوالي 2000 هكتار[35]، كما قدر رأسمالها بحوالي 10 مليون بسيطة. وكان كل إنتاجها مخصص للتصدير خاصة نحو أنجلترا، وبالضبط نحو مدينة كلاسكوو Glascow [36]. وقد نجحت هذه الشركة مثل مثيلتها الشركة الإسبانية لمناجم الريف في الحصول على عدة امتيازات اقتصادية وفي تنمية مواردها من العملة الصعبة.

أما شركة Alicanttina فقد استغلت مناجم الحديد المتركزة حول Hassao على مساحة 439 هكتار، وذلك منذ 1915 حسب ماداریاكا و1920 حسب لثكانو[37].

---

(33) Maldonado : op. cit., p 348.

(34) Julien. Charles André : Le Maroc face aux impérialismes 1415-1956. Ed Jenne Afrique. Paris 1978. p 82.

(35) Rey Pastor Alfonso : Minas de Guelaya (Rif oriental). in Revue Iberica. N° 313, du 31 janvier 1919. p 79.

(36) AGV. SHAT. Carton 3H262. Rapport confidentiel du capitaine Mege au Général commandant la subdivision de Taza. Hasi Ouenza 14 août 1919.

(37) Lezcano : op. cit. p 81.

أما فيما يخص كميات الإنتاج فيمكننا القول بأن الإنتاج لم يكن موجودا بشكل فعلي على الأقل حتى سنة 1914، أي سنتين بعد القضاء على المقاومة الشعبية الأولى التي قادها الشريف سيدي محمد أمزيان. فكما أثبتنا ذلك سابقا إذا أمكننا اعتبار سنة 1907 السنة التي أعطت انطلاقة الدراسات والأبحاث والتنقيبات عن المعادن بالريف، خاصة حول مناجم بني بويفرور، فإن سنة 1908 دشنت بداية الاستغلال الاسباني لتلك المناجم، وذلك تحت حماية الزرهوني بل وبمباركة منه. حتى إذا جاءت سنة 1909، فإن حرب مليلية التي أوقد فتيلها المجاهد محمد أمزيان قد شلت نهائيا الاستغلال والانتاج. وقد ظل الوضع على هذه الحال إلى غاية سنة 1914، حيث تمكنت إسبانيا من إعادة الاستغلال وبداية تصدير حديد الريف إلى عدة دول هذه المرة، نذكر منها أنجلترا، ألمانيا، فرنسا، وبلجيكا، خاصة وأن هذه الدول شاركت بصورة أو بأخرى في الحرب العالمية الأولى. وحيث أن الوثائق لا تضبط بشكل صريح الإحصائيات الخاصة بالإنتاج، بل تتضمن أرقاما متباعدة من حيث الكميات، نرى من اللائق إعطاء بعض هذه الإحصائيات انطلاقا من مصادر مختلفة. وإليكم الجدولان التاليان اللذان يبينان تصدير الحديد إلى عدة دول أوربية.

الجدول رقم 6 : صادرات الحديد انطلاقا من ميناء مليلية بين سنتي 1914-1921، بالأطنان حسب. Juan de España

السنة	الشركات المنجمية	الحديد	الرصاص	الـزنك
1914	Minas del Rif	6.061	-	-
1915	Minas del Rif	65.678	-	-
	Norte Africano	-	4.128	700
	Alicantina	13.602	-	-
	Setolazar	3.850	-	-
1916	Minas de Rif	125.660	-	-
	Norte Africano	-	2.313	1.910
	Alicantina	51.641	-	-
	Setolazar	22.325	-	-
1917	Minas de Rif	120.980	-	-
	Norte Africano	5.124	1.009	-
	Alicantina	28.045	-	-
	Setolazar	45.128	-	-
1818	Minas del Rif	201.719	-	-

السنة	الشركات المنجمية	الحديد	الرصاص	الـزنك
1818	Norte Africano	-	2.076	1.770
	Alicantina	5.460	-	-
	Setolazar	61.606	-	-
1919	Minas del Rif	174.018	-	-
	Norte Africano	2.850	1.149	-
	Alicantina	41.090	-	-
	Setolazar	51.349	-	-
1920	Minas del Rif	294.499	-	-
	Norte Africano	14.900	687	-
	Alicantina	13.150	-	-
	Setolazar	51.211	-	-
1921	Minas del Rif	65.863	-	-
	Norte Africano	17.700	93	-

Source : Juan de Espana La actuacion de España en Marruecos, Madrid 1926, pp 206-207. Cité par Madariaga : op. cit. Tome 1. pp 254-255

الجدول رقم 7 : صادرات الحديد بآلاف الأطنان حسب Morales Lezcano

السنـــة	Compañia Española de Minas del Rif	Alicantina	Norte Africano
1914	6.1	-	-
1915	74.1	13.6	-
1916	111.6	78.2	-
1917	125.1	72.4	5.1
1918	201.8	66.7	-
1919	173.6	91.6	2.9
1920	320.0	99.7	-
1921	101.2	-	-

Source :Victor Morales Lezcano : El Colonialismo hispano-frances en Marruecos (1998-1927) Ed Uned. 1ere ed, Madrid 1976. p. 83.

واضح إذا أن رجال الأعمال والرأسماليين الإسبان ساروا في نفس المنحى الذي سار فيه الرأسماليون الأوربيون، وهو الأمر الذي جعل الطغمة العسكرية الحاكمة تدافع عن مصالحها المنجمية التي قدرت بأنها "مصالح غير قابلة للانفصال عن المصالح الوطنية"[38] وذلك انطلاقا من مليلية التي اعتبرت الباب الذي تم من خلاله

(38) Allain op. cit. p 81. Madariaga : op. cit. p 253.

إقحام الملامح الأولى لنمط الإنتاج الرأسمالي إلى الريف. وأخيرا، وأمام غنى حديد بني بويفرور بنسبه العالية أكثر من 70%، فإن خاصيات هذا الحديد ستجعله يعرف آنئذ في الأسواق العالمية بحديد "نوع ويكسان"[39].

3 - مظاهر إبطال الشريف أمزيان لمشروع الاستغلال الاقتصادي :

شكلت مسألة المناجم المتنازل عنها من طرف الروكي الزرهوني لصالح الاسبان والفرنسيين، أهم عناصر توتر العلاقات بين الإسبان والريفيين خاصة قبائل قلعية التي أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن الأراضي والمناجم، فعملت على ايقاف أشغال استغلالها، وطردت الاسبان من المنطقة، إيمانا منها بأن الروكي بتنازله عن المناجم قد عمل على توطيد التواجد الاسباني قانونيا بالمنطقة. أو ليس هو الذي تقاضى مبلغ 650 ألف بسيطة لتفويت مناجم ويكسان للاسبان بمقتضى الظهير السالف الذكر؟ ولما أصبح استئناف الاشغال متعثرا بفعل العاصفة الريفية التي لم تهدأ ولما احتجب الروكي من المنطقة بعد أن جرفه التيار الناتج عن دور المخزن في المنطقة فإن الاسبان لم يجدوا من وسيلة إلا الدخول في مفاوضات مباشرة مع المعنيين بالأمر مباشرة أي مع المتواطنين "أصدقاء إسبانيا" والمعارضين "قبائل قلعية" بقيادة الشريف.م أمزيان وإذا كان التفاهم – كما كان متوقعا – قد بدا سهلا للغاية مع "أصدقاء إسبانيا" بفعل المصالح المشتركة بين الطرفين، فإن المفاوضات مع أمزيان باءت بالفشل بعد أن اعتذر هذا الأخير بدعوى عدم صلاحيته، "إن أمر استغلال المعادن هو من اختصاص سلطان المغرب بفاس المولى عبد الحفيظ لا من اختصاصنا، وأن المجاهدين معه لا يفرطون في شبر واحد من أرضهم ليطأها الجندي الإسباني"[40] وهذه حسبنا شهادة أخرى تثبت اعتصام الشريف بسلطة المخزن المتمثلة هذه المرة في السلطان عبد الحفيظ العاهل الجديد الذي خضع له الريف مؤخرا.

أما على المستوى الاسباني، فمنذ عملية التنازل عن المناجم بعث الجنرال خوسي مارينا ببرقية إلى حكومته مؤرخة ب 12 دجنبر 1908 يطلب فيها التعليمات الجديدة[41].

---

(39) San Martin Lopez : Minas de hierro de Rif. p 28.

(40) مناضل عبد الرحمان عبد الله الصنهاجي : مذكرات في تاريخ حركة المقاومة وجيش التحرير المغربي 1947-1986 مطبعة فضالة. المحمدية 1987، ص 32.

(41) مقتطف من برقية الحاكم العسكري لمليلية مارينا إلى وزير الدولة بتاريخ 11 يونيو 1907، وارد في Allendesalazar : op.cit., p 141

ثم بعد توقف الأشغال لبناء السكك الحديدية بعث برقية ثانية يوم 18 دجنبر تمثل فحواها في قوله "إذا لم يسارع السلطان عبد الحفيظ الى الفصل في هذه القضية (أي قضية المعادن)، فلن نستطيع أن نعمل شيئا دون استعمال القوة"[42]. ومن جهته أخبر السفير الاسباني الذي كان يتواجد يومئذ بفاس أن السلطان هو الذي كان له أن يأذن باستغلال المناجم، وذلك بمقتضى مذكرة مرفوعة الى السلطان عبد الحفيظ بتاريخ 4 يناير 1909. بل أن مدريد قررت بناء على ذلك إرهاب رؤساء القبائل وتهديدهم بل وإشعارهم "بأن سلطة ملك إسبانيا ألفونسو Alfonso XIII قائمة فعلا في الريف عوضا عن سلطة السلطان التي لا أثر لها"[43]. كما عمل الاسبان على بعث سفيرهم مرة ثانية الى فاس خلال منتصف شهر مارس[44]. ليطلب من السلطان بعث جيشه الى الريف لفلك الحصار المضروب على الاشغال، الا ان السلطان عبد الحفيظ لم يزك ذلك إلا مقابل جلاء الاسبانيين عن بوعرك وسيدي البشير، وحيث أن الجنرال مارينا كان يريد الاستفادة من اسهمه في الشركة الاسبانية فقد أبرق إلى حكومته يلح في الحصول على الإذن باستئناف العمل في المناجم وفي السكة الحديدية، وقد أجابت حكومة مدريد يوم 31 ماي بجواب واضح صريح ورد فيه ما يلي : "لقد أذن للشركة باستئناف عملها وللحاكم أن يحميها عند الحاجة"[45]. فاجتمع مارينا بأعيان الريف وأخبرهم بأنه عازم على الإذن للكمبانيتين اللتين كانتا في الريف بالعود لعملهما، فعرفوه بوخامة العاقبة، ثم خرجوا من عنده مستائين... وكتبوا للحضرة الشريفة فصدر لهم الجواب الشريف بملازمة الهدنة والسكينة..."[46] أمام هذا الموقف المحايد للمخزن من استغلال اسبانيا لمناجم قبائل قلعية، فقد استغلت الحكومة الاسبانية هذا، وبعثت بمذكرة الى نائب السلطان في يوم 11 يونيو تزعم فيها أن "القبائل وافقت على استئناف العمل، وأن ذلك سيمكن المخزن من الحصول على ما يحتاج اليه من المال وأن الأمر يتعلق باصلاح الخط

(42) بن عزوز حكيم : م.س ص.52.

(43) نفسه والصفحة.

(44) انظر الانتقادات اللاذعة الموجهة من طرف البرلمان Villanueva الوزير الليبرالي الأسبق، إلى الحكومة حول سياستها المتبعة في المغرب، وحول بعثها لسفاره إلى فاس في : °B.C.A.F N - 3 mars 1909. p 117 6 juin 1909. pp 212-222 °B.C.A.F N

(45) بن عزوز حكيم : م.س ص 53.

(46) التمسماني : مجلة دار النيابة، عدد 17، ص 51.

الحديدي فقط. وأن اسبانيا مستعدة لحماية المغاربة الذين يريدون العمل في الشركة"[47]. لذلك فإن مدريد قررت في 31 ماي 1909 أمام التهديد الفرنسي الذي يود الحلول محل الإسبان في استئناف الاستغلال المنجمي، وبموافقة أهم القبائل الممثلة " لأصدقاء إسبانيا"، التخلص نهائيا من عواقب هذه القضية، بأن أعطيت الأوامر لاستئناف الأشغال حتى لو اقتضى ذلك حمايتها بجيش إسباني. لهذا فقد حشدت مليلية ببضعة آلاف رجل تحسبا للطوارئ في حين اتخذت الترتيبات في إسبانيا لتوجيه النجدة إذا اقتضى الأمر ذلك، هكذا إذا تم استئناف العمل سواء في المناجم أو في السكة الحديدية التي كانت في طور الإنجاز، أما الجيش فقد تم استنفاره للتدخل في الميدان في أية ساعة.

أمام التحركات الديبلوماسية المكثفة للحاكم العسكري في مليلية، وجد الريفيون أنفسهم مرة أخرى وجها لوجه مع الإسبان. لذلك عمل الريفيون بقيادة الشريف محمد امزيان على القيام بتحركات ديبلوماسية محلية لاستنفار القبائل ضد استئناف الأعمال خاصة بجوار تلك القبائل الأكثر كرها للتواجد الإسباني، والتي مثلتها ديار بني شيكار وأولاد ستوت حيث لجأ إليها الشريف أمزيان معتمدا على تقنية الطواف بالأسواق حيث التجمعات البشرية الكبيرة وهو الأمر الذي أتى أكله حيث انعقد اجتماع عام في قبيلة مزوجة تقرر عقبه حمل السلاح، وخوض غمار الحرب ابتداء من 5 يوليوز 1909، لتبدأ العمليات المسلحة ابتداء من 9 يوليوز [48] وقد أثارت هذه التجمعات رعبا كبيرا في سكان مليلية، حيث لجأ مارينا لتهدئة الرأي العام هناك بأن نشر بجريدة "برقية الريف EL TELEGRAMA DEL RIF خبرا مفاده أنه في بضعة أيام سيصل إلى مليلية" لواء قناصة برسلونة Brigada de Gazadores de Barcelona وحينما كان الرأي العام يطمئن بقراءة هذا الخبر الصادر في الجريدة في 9 يوليوز، وصلت في نفس الوقت الأخبار بأن الحوادث الدموية قد بدأت مع المغاربة[49]، وهو ما سيدشن بداية حرب مليلية لسنة 1909.

(47) بن عزوز حكيم م.س. ص ص 53-54.

(48) التمسماني : مجلة دار النيابة، عدد 25. ص 57.

(49) Allendesalazar : op. cit. p 226.

هكذا إذا بدأت الحرب المغربية الاسبانية بقيادة الشريف أمزيان والتي جاءت لإبطال مشروع الاستغلال الاقتصادي للريف. وأهم المعارك التي خاضها الريفيون ضد القوات الإسبانية نذكر بإيجاز :

• معركة 9 يوليو 1909 : اعتبرت أولى المعارك في هذه الحرب التي دشنت بمهاجمة المجاهدين لفريق من سلاح الهندسة كان يقوم بمهام له بأراضي بني بويفرور، خاصة حول المركز الثاني لتحويل خط السكك الحديدية التابع لشركة Compania Española de Minas del Rif. وقد تمكن الريفيون من إلحاق أضرار بشرية بالإسبان، تمثلت في ستة أفراد الأمر الذي أثار حفيظة الإسبان الذين تدخلوا للتو بقوات كبيرة[50] قدرها روني لوكلير بحوالي 2500 جندي مع احتياضي قدر ب 8000 جندي داخل حصن مليلية[51]. فكما هو مبين فإن حرب مليلية لسنة 1909 كانت أولى معاركها تسعى إلى إبطال المشروع التوسعي وكذا إبطال مشروع الاستغلال الاقتصادي المبكر الذي اتخذ من السكك الحديدية الوسيلة الأنجع للتوغل الاقتصادي في الريف الشرقي.

ثم تبعتها معركة 18 يوليوز، و23 يوليوز، وكذا 27 من نفس الشهر، وهي المسماة بمعركة وادي الذئب التي قتل فيها الجنرال بينطوس.

أما عن نتائج هذه الحرب فقد كانت كثيرة، ولعل أبرزها :

– تضاعف قوة المظاهرات في إسبانيا ضد "الرأسماليين المنجمين" الذين تسببوا في الحرب.

– انتفاضة الرأي العام ا لاسباني خلال "الاسبوع الدامي" 25-31 يوليوز 1909، حيث قدر عدد الضحايا ب 1000 موتي 2.000 جريح[52] وهو ما كان له أثر بالغ الأهمية على مشاعر الرأي العام الإسباني الذي كان منذ الوهلة الأولى مناهضا للحرب، الأمر الذي نجم عنه موجة من الاضطرابات الخطيرة، خاصة في برشلونة، ومدريد.

– حث الأحزاب الاشتراكية والتقدمية، الرأي العام لمناهضة الحرب ومحاربة الرأسماليين الاسبان.

(50) Figueras Garcia et Herrera carlos : Accion de Espana en Marruecos. Vol 1. 1929. pp 65-66.

(51) Leclerc. Charles René : Chronique de Melilla. B.C.A.F. N° 7, Juillet 1909. p 263.

(52) Leclerc. Charles René : Chronique de Melilla. B.C.A.F. N° 8-août 1909. pp 296-297.

– أن العمال اعتبروا الإضراب العام الذي تم شنه قد نجح نجاحا باهرا، ونادوا بالمرور الى الطور الثاني الذي هو "الثورة".

– أما داخل مليلية فإن الجنيرال مارينا تلقى التنبيه بأن "قمم كوروكو" أصبحت مليئة بالمحارق التي أقامها المجاهدون ليلا، هذه المحارق التي تعني أن هجوما على وشك الحدوث[53] كما تلقى التنبيه أن خطوط السكة الحديدية قد اقتلعت ودمرت عند نقط عديدة.

واضح إذا، أن تعاقب هذه الأحداث داخل إسبانيا هو ما خلف الاضطرابات التي سميت في التاريخ الاسباني ب "الأسبوع الدامي La semana Sangrienta حيث نظمت مظاهرات شعبية طيلة النصف الأخير من شهر يوليوز، واعترضت النساء على ركوب الجيش السفن الحربية الاسبانية واحتجت الصحافة على بعث الجنود إلى المغرب[54]. ذلك أن الحكومة الإسبانية كانت تعمل على طمس الحقائق أمام الرأي الإسباني، بإيهامه أن تدخلها في شمال المغرب يتعلق بعمل تمديني، وأن العمليات العسكرية التي تخوضها هي عمليات بوليسية لا غير[55] تستهدف فرض الأمن الذي يعكره قطاع الطرق، غير أن المقاومة الشعبية البطولية والخسائر الجسيمة التي تكبدها جيش الاحتلال كشفت الحقائق جلية أمام الشعب الإسباني، وتبين له أن إسبانيا تقوم بحرب إبادية حقيقية ضد شعب يدافع عن حوزة بلاده بغية العيش الكريم، وأن هذه الحرب اصطنعها الرأسماليون الإسبان للإستغلال المبكر لخيرات الريف من جهة، كما اصطنعها القادة العسكريون لتسلق سلم الترفيه، من جهة ثانية، وأن هذه الحرب تطلبت أموالا طائلة كانت إسبانيا في أشد الحاجة إليها. ونتيجة لهذه العوامل وغيرها تعالت الأصوات داخل إسبانيا مطالبة بضرورة وضع حد للمغامرة الإسبانية في المغرب. أما على المستوى الحكومي فقد نتج عن هذه الأحداث سقوط حكومة "مورا MURA" المحافظة وتعويضها بحكومة موري MOURET اللبرالية[56].

---

(53) Ibid. p 228.

(54) بن عزوز حكيم مذكرات. م.س. ص 57.

(55) Figueras et Herrera : op. cit, p 71.

(56) Fidel Camille : La campagne du Rif au Parlement espagnol. BCAF. N° 11 Novembre 1909. p 393.

ومن النتائج الأخرى التي أفرزتها هذه الحرب نذكر معطى دبلوماسيا تجلى في توقيع المغرب وإسبانيا لاتفاقية 16 نونبر 1910، والتي مثلت ضغطاً قوياً على المغرب، ديبلوماسيا وماليا.

أما خلال الحرب المغربية الاسبانية التي قادها الشريف أمزيان خلال حرب كرت 1911-1912، وما تبعها من انتصارات فقد ترتب عنها، بعد وصول أخبارها إلى الرأي العام الإسباني، أنها زادت من تصعيد التوتر والحملة ضد الحكومة الإسبانية وضد الحرب بصفة عامة، حيث لاحت في الأفق من جديد سمات "الإضراب العام الثوري" خاصة وأن الثوار كانوا يعتبرون دائما أن الحركات العسكرية الإسبانية في المغرب هي مرتبطة أيما ارتباط بالمصالح الرأسمالية العسكرية[57]، بل وظهرت على الساحة السياسية وعلى حكومة كانا ليخاس، وصمة عار أخرى جديدة بسبب اغتيال خوبث دي كويرا Juez de Cullera في فالنسيا والدون خاكوبو لوبيث دي رويدا D. Jacobo Lopez de Rueda في بلباو[58]. الاغتيالات التي اضطرت معها حكومة كانا ليخس إلى إلغاء الضمانات الدستورية في بلباو أولا، وفي فلانسيا بعد ذلك، وأخيرا في كل إسبانيا بعد أن صدر في ذلك مرسوم ملكي مؤرخ في شتنبر 1911 [59] بل وإلى توجيه وزيرها في الحربية الجنيرال "لوكي" "General Luqué" إلى مليلية الذي وصل إليها يوم 4 أكتوبر 1911، والذي حضر بعدها مع أركان حربه عملية اجتياز وادي الكرت في 7 أكتوبر 1911، التي بسبب نتيجتها الدموية، أضحت محط انتقادات ورقابات.

إن أهم استخلاص يمكننا استنباطه من دراسة حركة الشريف محمد امزيان ضد التغلغل الاستعماري الإسباني العسكري والإقتصادي، كونها منذ بدايتها حربا دائرة بين طرفين غير متكافئين. فمن جهة، هناك اسبانيا الغازية باقتصادها المتفوق وعتادها العربي العصري وجيشها النظامي المدعوم لوجيسيتكيا من طرف كل الدول الموقعة على عقد الجزير الخضراء، ومن جهة أخرى، هناك القبائل الريفية ممثلة في جموع الفلاحين والفقراء والمحاربين المتطوعين ناقصي التسليح، والمعتمدين فقط على قواهم الذاتية.

(57) Figueras et Herrera : op. cit, p 135.

(58) Ibid

(59) Ibid

وإذا كانت هذه المعطيات تعزز سياسيا جانب الإسبانيين فتمنحهم تفوقا ماديا كبيرا لدرجة يمكن معها اعتبار حرب العصابات ضد الحرب النظامية هي ضرب من الحماقة والخيال، إلا أن سير العمليات الحربية أبان عن بعد نظر سياسي حربي وإنساني هائل وعن طاقات خارقة للمجاهدين الريفيين.

هكذا جسد أمزيان إرادة القبائل الريفية، فكان الزعيم الأول للحرب التحريرية في الريف، والبطل بدون منازع، الوطني الغيور المخلص الذي لا يلين له عود في مقارعة الاستعمال، والقائد المحنك، والمخطط العسكري بالفطرة، لشيئ واحد هو نجاحه في إحباط مشروع الاستغلال الاقتصادي للريف الشرقي لمدة تفوق ستّة سنوات.

المغاربة والبحر : نموذج أيت باعمران

الحسين جهادي
باحث – الدار البيضاء

مقدمة

علاقة المغرب والمغاربة بالبحرمن باب إضافة الشي ء إلى نفسه، لكن البحر بالنسبة للمغاربة قد يكون تارة نعمة، وذلك هو الغالب، وقد يكون نقمة لظروف خاصة، وليس نقمة في حد ذاته، فمن حيث البحر هو نعمة بالنسبة للمغاربة يمكن أن نستدل بذكر الأمثلة الآتية:

1 – بواسطة البحر اتصل المغاربة بغيرهم من الأمم إيجابا أوسلبا، فكان ذلك بداية للتاريخ البحري المغربي، فالفنيقيون كانوا يتاجرون مع المغاربة في موانئهم على أرضهم والمبادلة بالتبر والمعادن النفيسة، ومن سوس أخذ حانون القرطاجي مترجمين في رحلته البحرية نحو أفريقيا الغربية "بعدما أخذنا معنا مترجمين من الليكسيين"[1] والليكسيين هنا نسبة إلى جبل لكست المطل على قبيلة أملن بالأطلس الصغير، وليس اللكوس في الشمال كما نبهنا إلى ذلك مرارا . . .

2 – وبواسطة البحر وعلى ظهر السفن الحربية والتجارية أثبت المغاربة شجاعتهم دفاعا عن وطنهم وعن سمعتهم ولو دفعوا إلى ذلك دفعا، وتحت شعارما...!

3 – بسبب السواحل المغربية الطويلة، كان المغاربة دائما يراقبون سواحلهم،فمن برقة إلى طنجة، ومن طنجة إلى أعماق الصحراء، تتتابع رباطات الحراسة سواء قبل الإسلام وبعده، فهناك بوصيدون : poseidon. على جرف أسافي يراقب البحر

(1) رحلة حانون :مدنية المغرب العربي، ج الأول ص. 128 ذ. أحمد صفر، طبعة تونس.

ويذكر المغاربة بالقديم[2] وأول رباط لعبد الله بن ياسين كان في جزيرة في وسط الماء[3] يذكرنا بالقريب، وسلسلة قبب الصالحين على الشواطئ تذكرنا بالحاضر. كما كان منار رأس **سبارتيل** بطنجة الموجه للسفن عبر مضيق جبل طارق من أكبر دلائل اعتناء الملوك المغاربة بمصلحة سلامة السفن الدولية واستمرار التجارة والمواصلات، رغم تحفظات المغاربة أحيانا..

4 – ومن أكبر نعم الله على المغاربة ما تحتويه البحار المغربية من خيرات،منها ما اكتشف حاليا ومنها ما هو مدخر إلى يوم موعود، وخاصة بعدما امتد الرصيف القاري المغربي نحو الداخل إلى 200 ميل[4]، وقس على ذلك أهمية الثروة السمكية والأعشاب البحرية، وتصفية المياه البحرية، والرمال الذهبية،وجلب السياحة المتطورة ولنا فيه مآرب أخرى.

أما كون البحر نقمة على المغاربة، فذلك نادر وخاضع لظروف معينة لا تلبث أن تزول، وخاصة إذا كانت من فعل الطبيعة، ويمكن أن أذكر الأمثلة الآتية:

1 – تعرض المغرب والمغاربة لهجومات أجنبية عن طريق البحر في فترات كثيرة، فاحتُلت شواطئ المغرب من الشمال إلى الجنوب، فتكبد فيها المغاربة تضحيات جسيمة، لكن ليست كلها سلبية كما يظن البعض، ذلك أنها كانت سببا في تجديد المقاومة المغربية، وتوحيد المغاربة كما هي عادتهم كلما دهم وطنهم داهم،كما حدث في عهد الدولة السعدية، لأن الصعوبات تعتبر محك الرجال ومعيار حنكتهم، كما أن المغاربة عبروا البحار بجدارة، وفعلوا بغيرهم ما فُعِل بهم[5].

2 – ومن ذلك أيضا نكبة السلطان أبي الحسن المريني : "ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء .. وعصفت بهم الريح ليلتئذ وجاءهم الموج من كل مكان وألقاهم اليمُّ بالساحل، بعد أن تكسرت الأجفان، وغرق الكثير من بطانته وعامة الناس، وقذف الموج بالسلطان، فألقاه إلى الجزيرة قرب الساحل"[6] كما غرقت

(2) **مدنية المغرب العربي**، ج الأول، ص. 128 أحمد صفر.
(3) جزيرة بنهري السنيغال أو النيجير؟
(4) ذلك من عبقرية الحسن الثاني رحمه الله.
(5) التاريخ غني بفتوحات المغاربة شمالا وجنوبا وشرقا،والقوة متداولة بين الناس.
(6) ابن خلدون **العبر** ج 7 ص. 284.

ستمائة سفينة بما فيها أربعمائة عالم[7] وليت هذه النكبة انتهت عند هذا الحد، ولكن ما جاء بعد ذلك كان أخطر،إلى حد أن أطلق المغاربة على هذ الملك اسم السلطان الأكحل (الأسود) لسواد أيامه بالكارثة البحرية هذه وما ترتب عنها من حروب داخلية بين الولد والوالد؟!) وبواسطة البحر سرقت خزانات وتحف الملوك السعديين...

3 – تعد سواحل المغرب من أكبر ممرات السفن الحاملة للبترول والمواد الأخرى حاليا،وهي تتعرض من حين إلى آخر للعطب فتفسد كل شيء، ويذكر المغاربة أن مرض السل لم يعرف في المغرب القديم، إلى أن دخل البلاد بواسطة الثغور المحتلة من طرف الغزاة الأوروبيين وتلك من نقم واسطة التواصل البحري.

4 – إن الأمة المغربية مسالمة لكن وطنها محسود ،وموقعها مغرٍ، وسواحل المحيط الأطلسي لا تجري فيها الجبال بحذاء الساحل كما في المحيط الهادي، ولكنها صالحة استراتيجية وطويلة، وخلجانها ترحب بالمضطر وحراستها كاملة[8] وذلك يكلف المغاربة يقظة مستمرة، وللبيت رب يحميه.

نص تاريخي حول البحر البيض المتوسط

"كان رجل الشارع الروماني يعيش على الخبز المصنوع من القمح الذي ينمو في **شمالي أفريقيا** أو في مصر، وعلى السمك الذي صيد وجفف هناك بجوار **جبل طارق**، وكان يطبخ بزيت من **شمال أفريقيا**، في أوان من النحاس صنعت في إسبانيا، ويأكل في صحاف حرقت في أفران فرنسية، ويشرب خمرا مستوردة من إسبانيا أو فرنسا، وإذا سكب شيئا من أكله على شملته ينظفها من تراب التقصير الآتي من جزائر بحر إيجه.

وكان الروماني الثري يلبس ثيابا من ماليطوس من مصر، وأما زوجته فترتدي حريرا من الصين، وتزين نفسها بالجواهر واللآلئ من الهند، وتتبرج بأذهنة من جنوب بلاد العرب، وكان يتبّل غذاءه بالفلفل الهندي، ويسكره بالعسل الآتيني، ويقدمه في صحاف من الفضة الإسبانية، على سُفَرٍ من خشب الليمون **الإفريقي**،

(7) كتاب **الاستقصا** ..ج 3 ص. 171.

(8) رسائل المخزن إلى أيت باعمران قصد المحافظة على السفن والطائرات هناك.

ويشرب خمرا صقلية، من قنينات من الزجاج السوري، ... في منزل رخامه في آسيا الصغرى، وحجراته مليئة بالتماثيل المستوردة من اليونان....كل ذلك في القرن الثالث الميلادي"[9]. ويبرز لنا هذا النص حضور المغرب (شمال أفريقيا) وذكره أربع مرات بمنتوجاته في حوض البحر الأبيض المتوسط، وليس كبستان للرومان، "فهناك دلائل تؤكد لنا أن الأهالي قد مارسوا فعلا منذ العصر الفينيقي زراعة الفول والقمح وغرس أشجار الزيتون"[10] وما أحوج العالم اليوم إلى التعاون على هذه الخيرات، لكن بشرط أن يأخذ كل ذي حق حقه.

نموذج إقليم أيت باعمران : وحسب القاضي الطيب بيمنصورن فإن إقليم أيت باعمران يمتد على شاطئ المحيط الأطلسي من **أكلو** قرب تيزنيت إلى طرفاية وتقطع هذا الشريط وديان تنحدر من الأطلس الصغير، كثيرا ما تتخذ مصباتها مرسى طبيعيا (أفْتاس) للزوارق المحلية وحتى الأجنبية عبر التاريخ[11]. ومن هذه المراسي الطبيعية من الشمال إلى الجنوب نذكرما يأتي:

1 – مرسى **أكلو** قيل بأنه مبني بالجير؟ وفيه خرج تموين جيش السلطان مولاي الحسن سنة 1299هـ 1881/م. وفيه خرج تموين سلطة الحماية لمركز تيزنيت،رغم هيجان أمواج مرسى **أكلو** إلى حد إغراق القائد باقا هناك. وقد عرفت **أكلو** بصناعة البارود لكثرة ملح البارود فيما شخص من أثر الديار : (أمرسال)

وفي **أكلو** هذه تمت المقايضة بين هاشم التازروالتي وتاجر نصراني،يدفع الأول للثاني المنتوجات الفلاحية، مقابل أن يدفع النصراني مدافع ولوازمها للأول.

2 – مرسى طبيعي جنوب أكلو بقليل يسمى أيت وغرّابو، ويذكرون أنهم نزلوا هناك بواسطة زورق عند فرارهم من استرجاع الأندلس من طرف الإسبان .

3 – واد **كورايْزيم**، أو واد بوتْزوكّارت (بوسدرة) المنحدر من ثلاثاء الأخصاص، وهو الذي تنص عليه اتفاقية الحدود سنة 1934م. قبل أن تنسلخ قبيلة السيحل من أيت باعمران[12]، وقد كان هذا المصب مرسى للزوارق المحلية إلى أن أفسده تراكم رواسب الوادي، وبوصول سلطة الحماية ألغي استعماله نهائيا.

(9) كتاب **رواد البحار** ليونيل كاسون. ترجمة جلال مظهر ص. 302.
(10) **تمودة** جامعة عبد المالك السعدي،ص. 66 ذ. مصطفى غطيس.
(11) **رحلة حانون** لوحة رقم .38
(12) تكتب قبيلة السيحل الباعمرانية بالياء في الوثائق تمييزا لها عن مطلق الساحل..

4 – وفي هذا التاريخ جمعت زوارق منطقة الحماية الفرنسية المحلية في أفتاس ميرلْفت، بينما ألغي استعمال مصب واد سامطماط (سالكماض) الذي ينتسب إلى الأمير بودميعة من تازرْوالت، كما ألغي مرسى **تامحروشت** بتابلكوكت في نفس الوقت، ومكانه تحت فندق النصرانية حاليا. وهو الذي هندسته إسبانيا حوالي سنة 1947م، لكن لم يتم ذلك. وفي عين المكان تدرب الجيش المغربي على المدافع سنة 1975م قبل الانتقال إلى الصحراء المغربية.

5 – وعلى بعد أربع كلمترات نحو الجنوب، يوجد مصب واد **أكنْدو**، إلا أن البوشنّاويين كسّابة وفلاحون أكثر منهم بحريون، لأن أصلهم من تامانارت أصحاب النخيل والجفاف، وليسوا أصحاب الرطوبة والأمواج. وفي عين المكان ضريح الصالح سيدي الوافي الذي ينتسب إلى عهد الموحدين، ويتوجه محرابه وقبره نحو الجنوب.

6 – مرسى **الركونت** : وهذا المرسى طبيعي جدا،وهو في الحقيقة مرسى قبيلة أيت إخلف، ويمتاز بممر طبيعي بين الصخور التي تحد من طغيان الأمواج، كما أن السكان المحليين بحارة بامتياز، ولمرساهم **عرف** ينظم الحرفة كما هو الشأن في مرسى ميرلْفت، وهذان المرسيان ليسا مصبا للواد، بل هما طبيعيان.

وفي مرسى الركونت هذا ظهرت غواصة ألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى،وفيه خرج الضابط الإسباني قبل عقد اتفاقية ثلاثاء الأخصاص، بعد مقتل رفيقه بشرى بن الشيخ ماء العينين بموضع أمزدوغ (مطار إفني حاليا). وفيها خرج الضباط الألمان المراقبون خفية حملة الجنرال **دو لاموط** سنة 1917م لكنهم قتلوا في بوشارب بعد رجوع حملة دو لاموط[13].

7 – مرسى سيدي **إفني** : حيث ضريح الصالح القديم هناك عند مصب الواد النازل من تيزكي، وهو مرسى مشترك بين قبيلتين : أيت إخلف وإمْستيتْن، وفيه خرج كبّاص في 06 أبريل 1934م. وعليه تعتمد المدينة إلى أن رجعت إفني باتفاقية فاس، فأسس المرفأ الحالي.

وفي هذه المرسى وقعت حادثة غريبة ملخصها ما يأتي : أقبلت سفينة على رأس السنة الأخرى، يقصد سنة الاتفاق مع هاشم، ربما سنة 1240هـ بعد فشله من حصار

(13) جانب من تاريخ أيت باعمران مرقون من تأليف جهادي الحسين.

تيزنيت،رغم أنه حلف أن يفتحها ويحلق رأسه على عين المدينة، فقالت نساء مدينة تيزنيت متهكمات[14]:

أسيدي لهاشم أسيدي كّيس ازّار نك وكان
ئمّا تيزنيت أسيدي كدلن ت ئفرخان
أيها السيدهاشم ياسيدي حلّق رأسك
أمّا تيزنيت ياسيدي قد حماها الشبّان

وبعد اتفاقية أكلو بسنة "أقبلت سفينة على رأس السنة الأخرى حتى وصلت إلى سمت بلدة تدعى إيفني وهي من قبائل أيت باعمران.."[15] يطلب أصحابها النصارى المنتوجات الفلاحية بالشراء، لكن تطورت المعاملة إلى القتل وبالتالي استيلاء أيت باعمران على السفينة كلها وباعوا ركابها النصارى[16].

فهل أنجز النصراني ما اتفق عليه مع هاشم أم لا؟ وهل هذا النصراني الخارج في إفني هو نفسه الذي جاء ليغرر بأيت باعمران كما غرر بأيت وكلو؟ أم هو نصراني آخر؟ وهل ما فعل بهاشم من غدر فشا وبلغ أيت باعمران لذلك انتقموا له؟ أم أن ذلك من باب رد فعل أيت باعمران لما قتل حارس السفينة أحدهم؟

8 – مرسى سيدي وارزك : على بعد 18 كلم جنوب إفني، لكنه مهمل حاليا،وفيه مياه غزيرة لكن تغطيها الأمواج عند المد،وهي مياه معدنية ساخنة مثل أباينو.

9 – مرسى أساكا : وهو صالح للملاحة وفيه كان أيت باعمران يتاجرون مع التاجر الإنكليزي كورطيس أثناء المجاعة ... وإلى ذلك أشار صاحب المعسول: "فظهرت من ناحية إصبويا من بعمرانة سفينة للنصارى خرجوا من أساكا،سنة 1315هـ فنهض إليها الكيلّولي بجيوشه ..." والبقية معروفة في رسالة السلطان الحسن الأول سنة 1299هـ. والخلاصة فإن هذه السلسلة من المراسي الطبيعية تقع كلها في حوالي مائة كلم طولا، ويعد ذلك دليلا قاطعا على كثافة السكان المعتمدين على البحر في إقليم أيت باعمران، وليس ذلك من باب الحاجة فقط، ولكن حتى من باب الالتصاق بالأرض داخل البحر، ومن ذلك ما يأتي:

(14) **جانب من تاريخ أيت باعمران** مرقون من تأليف جهادي الحسين.
(15) **أخبار سيد ابراهيم الماسّي**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2004، ص. 65 ذ. عمر أفا.
(16) **أخبار سيدي إبراهيم الماسي** ص. 68 اعتنى بنشره ذ. عمر أفا.

1 – الملكية العقارية : تنص العقود العقارية في أيت باعمران على "ويمتد حق الملكية في الشاطئ إلى داخل المياه البحرية إلى عمق أربعين ذراعا ملكيا، أي مملوكا تابعا لصاحب الملك العقاري في البر"[17].

2 – كل ما يلفظه البحر في عين المكان كالخشب أو السمك فهو ملك لصاحب العقار، ما لم يسمح بإشراك الغير فيه.

3 – جميع الفواكه البحرية الملتصقة بأحجار البحر كالقواقع في عين المكان فهي كذلك تابعة للعقار،ما لم تكن من النوع المتنقل بسرعة كالسمك،فصيده مشاع بين الصيادين (**إنكمارن**) في ملك ذا وذاك، والعبرة بما سبق إذا وقع النزاع، وإلا فالمشاركة والتعاون هو السائد بين الحرفيين، بل ينبغي ألا ينفرد شخص وحده بعيدا عن المساعدين عند الضرورة.

4 – **تيگري** : **tigri** أي الجمع والالتقاط، وتكون في أيام الجزر الكبير (13 +14 +15) من الشهر.وفي تيكري هذه يقصد الناس جماعة – بعد إعلان – عن المكان الذي توجد فيه فواكه البحر، وبما أنها لا تكون إلا على الصخور التي هي ملك لشخص معين، بينما ملك الاخرين يقابله الرمل في البحر،فإن العرف يفرض مشاركة التقاط القواقع البحرية ولو كانت في ملك الغير.

5 – وللبحارة مصطلحات خاصة منها :المد الكبير: **أطّابا**، أو **أغلاّيْ** .ثم الجزر الكبير: **تاغارت**. ثم المتوسط بين المد والجزر: **إمْرْزي**.

6 – **أمتّال** : **amttal** يقصد به ظهور مادة كيماوية، نتيجة موجة حرارية حللت النباتات البحرية فصار تأثيرها في البحر كالحناء يخنق السمك فيهرب إلى الداخل وإلا مات بذلك المحلول النباتي، وفي هذه الحالة ينتظر الصيادون خروج تلك المياه التي يتبعها السمك من الخلف فيقتات مما تأثر بذلك المحلول الكيماوي؟.

7 – **إفيوْ** : **ifiw** وهي ظاهرة طبيعية يصير البحر فيها «مُضَاءً» ليلا يظهر كأنه عبارة عن شهب بسبب مادة الفسفور،فيهرب السمك إلى أعماق البحر مبتعدا عن السواحل، لأن ذلك الضوء يظهر للسمك خياله فلا يقترب من الساحل.

(17) تنص أغلب العقود العقارية على أن ملكية الأرض يتم فيها إدخال مساحة من البحر تابعة لعقار بري إلى 40 ذراعا.

وهناك ظاهرة أخرى بالنهار تسمّى **إلْقاعن** بسبب الرياح، فيصير سطح البحر كخرفان بيضاء من الغنم، وتمنع الصيد.

8 – **أفـرفد** : **afrfd** إجراء خبرة قبل البدء في الصيد حيث يمس الصياد مياه الموجة المتدفقة، فإن وجد الماء باردا جدا يعلن أن لا صيد في هذه البرودة، ويعللون ذلك بأن السمك موجود، لكن البرودة لا تسمح له بفتح الفم ليأكل؟.!

9 – **أسـنصي** : **asnsi** أو طّعمْت يجرب الصياد الماهر عدة طعمات إلى أن يجد ما يرغب السمك في أكله، فإذا قل محصوله يعمد إلى شق بطن السمكة التي قبضها لكي يتعرف على ما أكلته السمكة، فيغطي صنّارته بذلك النوع من الطعمة.

10 – أنواع الطعمة كثيرة، أهمها من مخلوقات بحرية، مثل أفزضاض : **afzdad**. **تاركنوزت** : **tarcnouzt**. **تابخويْت** : **tabkhouyt**. **أزايْـز** : **azayz**. **تومّيت** : **toummit**. **ويلّ** : **will**. **أفول** : **afoul**. **تاغرّوست** : **taghrroust** وغير ذلك...

11 – آلات الصيد : منها **تاغانيمت** : taghanimt وهي القصبة من نوع خاص، ثم الصنّارة: **توكطّ**. ثم السّبيب أو الخيط، أو السلك الأبيض، ثم أمور عند الحاجة، وقبل كل شيء يجب ألا يجلس الصياد في المكان الذي ترشه الموجة، لأن البحر غدّار حسب فكرة الصيادين. ولو كان البحر رهْـواً.

12 – أما وسائل الصيد في أعالى البحار، فمن شروط الدخول إلى البحر كما ينص عليه العرف، حالة البحر المناسبة، عدم شدة الرياح، عدم طول الأمواج المتتابعة، سلامة الزورق، وقوة الجدافين المتمرسين، الاستعانة بطيور النورس التي تنقض على السمك فوق البحر، فذلـك أضمن للصيد، ويتوفر الزورق على **تيـگـلا** : **tigla** وهي المجادف، ثم المخطاف أو أسرصو : وهي حديدة مربوطة بحبل يدلى بها في أسفل الزورق في المكان الذي فيه السمك فيشرع البحارة في الصيد، والمكلفان بالصيد هما الرايْس وهو المسؤول على توجيه الزورق وسلامة الجميع، بينما **أشيبور** : **achibour**. هو الذي عليه العمل. قال الشاعر:

ئـغ يلاّ وسلم أشيبور كـاف يكـون لحـال
ئـمّـا رايْـس أيْـتّـوزان تـيـفـرسّـيت وكـان
إذا تـوفـر السمك فـالـعـمـدة عـلى أشيبور
ومـهـمـة السائق هـي تـوجيه الزورق فـقـط

13 – إيسوگمار : issogmar أي أماكن الصيد، بل يعرف الصيادون حتى نوع السمك..بمجرد تعامله مع التقام الطعمة، ومن خلال ذلك تغير الصنارة ونوع السبيب وكيفية التعامل مع السمك، كأن تحرك له الصنارة كأنها حية تسعى فيلتقطها، بينما النوع الآخر يهرب من حركتها، ولكل حرفة مهرتها.

14 – أما الصيد في أعالي البحار فله وسائله الخاصة، ففيما يخص الوسائل الحديثة فهي معروفة ومتطورة من السفن العملاقة إلى نشر الشبكات على طول عدة كلمترات، إلى النوع الذي يستعمل مص المياه والسمك إلى داخل السفن، إلى المراقبة بالرادار، إلى محاصرة السمك رغما عنه،إلى الكمية المقبوض عليها من كل نوع إلى مكثها في أعالى البحارمثلجة. لمدة طويلة، وبالجملة فهي معامل فوق البحار، لا تبقي ولا تدر، وعاقبة الإسراف آتية لا محالة.

الصناعة البحرية التقليدية منها..:

1 – أغرّابو : aghrrabou ومعناه القارب، أما السفينة فتسمى تاناوْت : tanawt. ومن أغرّابو ما هو صغير،وله ستة أوتاد (تيكوسين) والكبير له ثمانية، وفي كل وتد مجدف مع وجود الدّمان أو «الدّمام» في خلف الزورق، أي المقود الذي يوجه الزورق. وهو بيد الرايْس في المؤخرة، بينما البحار أشيبور في المقدمة المرتفعة للزورق. وينص العرف على أجرة الرايس ثم تليها أجرة أشيبور، ثم المساواة بين الباقي.

ومن كسر وتده بقوة التجديف يعد من أقوى البحارة ويتسابق الروايْس إلى ضمه إلى زورقه، كما يستريح بدون تجديف ذلك اليوم كله.

كما ينص العرف على أن الرايْس هو المسؤول على الزورق وعلي البحارة،ولا يَسُوقُ الزورقَ حتى يجتاز امتحانا ينال بعده شهادة الاستحقاق، وتباع أوتاد الزورق بمزايدة علنية، ويسجل ذلك كله في عقد خاص، وعلى أساس ذلك تقسم كمية الحوت المصطادة.

وهناك مراقبة طوعية في البر، تراقب البحر من الشاطئ، فإذا ظهرت مفاجأة لم يلاحظها الرايس في أعالي البحار، فعلى الملاحظ في الشاطئ أن يسرع إلى إثارة الدخان كإعلام للبحارة بظهور الخطر، وعليهم أن يسرعوا إلى أفتاس : المرسى.

2 – ومما نصت عليه الأعراف عند امتحان الرايس أن يستطيع دائما قياس البعد بين مكانه على البحر، وبين الساحل، وذلك بالنظر من زورقه إلى المرتفعات في البر، إذ كلما ابتعد عن الشاطئ كلما اختفت السواحل، ويعتبر ذلك مهارة دقيقة تكتسب بالتجربة، ورغم أن البحارة لا يحملون معهم وسائل الإغاثة فإنهم غالبا مهرة في السباحة.

3– صناعة الزورق،أدركتها بنفسي في كل من ميرلفت والركونت، ولها صانع خاص،وعندما يصنع الزورق يطلى بالقطران المطبوخ، وعندما يبرد يقام له عرس يسمى **تامغرا** نـ وغرّابو: عرس القارب،حيث يحلى القارب مثل العروس بجميع أنواع الحلي، ثم يتناوب الرجال على حمله إلى البحر، والنساء حوله يزغردن ويغنين مثل العرس إلى أن يصل إلى البحر.

وهناك في أفتاس يختار الرايْس جماعة من البحارة بعد اختيار ظروف البحر، فيُعوّمون الزورق الجديد، وكل ما اصطادوه في ذلك اليوم يوزع مجانا على الحضور، وكلما كانت الكمية كثيرة كلما تفاءل الناس بذلك الزورق.

4 – من أنواع السمك **تاسارگالت : tasargalt. إيرغل : irghi. أوراغ : awragh. أولاح : awlah. تازلمزات : taslmzat. أنجاكرو: anjjacro. أسيغاغ : assighargh...:**

5 – عادة جرى بها العمل : وهي ترديد أناشيد جماعية حماسية لها إيقاع يساعد على بذل الجهد والسرعة، وعندما يخرج الزورق بسلام، يبادر الرايس بعزل عدة سمكات قائلا : هذه هدية الطلبة، أو للصالح فلان، أو لمن حضر من المساكين...

ثم يقوم الغير بإفراغ الزورق من السمك، فتعلن السمسرة إلى أن يتم البيع، فيأخذ كل من له الحق نصيبا من الدراهم، ثم يجر الزورق إلى مكان أمين من مد البحر.

6 – والحق أن عددا غير قليل من الصيادين، قد لاقوا حتفهم فرادى أو جماعات، ومن المعروف أن زورقا من دوار إدومْكايْ بأيت إخلف، ساقته الرياح إلى أن وصل إلى جزيرة كناريا،حوالي سنة 1295هـ 1878 /م .وظلوا هناك يأكلون العسل فقط لمدة أسبوع، و لم يروا هناك سوى الغابة والنحل والطيور الجميلة. ولما

رجع أولئك البحارة سالمين، وجدوا أهلهم صلوا عليهم صلاة الغائب مع إقامة المعروف[18].

وخلاصة القول : فإن سكان الشواطئ الجنوبية للمغرب يعيشون على الصيد البحري منذ زمان قديم ولهم في ذلك أعراف وتقاليد، والدليل على قدم ذلك، ما تراكم من القواقع المستهلكة على الشواطئ، ولو حللت علميا لرجعت بنا إلى قرون بعيدة خلت،ويرجع الفضل إلى استقرار السكان هناك إلى الثروة البحرية المتوفرة في فترات الجفاف والمجاعة.

(18) يذكر المسنون من سكان أيت باعمران أن ذلك وقع حوالي مجاعة 1295هـ/ 1878م المشهورة.

كيف كانت سلا تختار رياس قوارب الحوت بنهر أبي رقرق في بداية القرن 20م ؟(*)

عز المغرب معنينو
المدرسة العليا للأساتذة – الرباط

إن كانت الدراسات الأجنبية، وفي ما بعد، الدراسات المغربية المتعلقة بتاريخ أنشطة الجهاد البحري في مصب أبي رقراق، قد اهتمت بالتعريف بكبار رياس السفن القرصنية وبكيفية اختيارهم من قبل الساهرين على مؤسسة الجهاد بالعدوتين، طبقا لشجاعتهم، ومداركهم الملاحية، وكفاءاتهم التسييرية والعسكرية، واتساع مجال تحرك سفنهم(1)، فإن نفس الوادي عرف نوعا آخر من الرياس، لا تقل أهميتهم داخل المجتمع السلوي عن سابقيهم، وهم رياس قارب الصيد بنهر أبي رقراق، فقد كان دورهم ثانويا في أنشطة الوادي أيام الجهاد الحربي البحري، وبعد توقفه وانقراض سفنه نتيجة رجحان ميزان القوة العسكرية لفائدة أساطيل الغرب المتطورة، والتي ما فتئت تتحين كل فرصة للانتقام من مجاهدي العدوتين، بعد أن استعصى عليها احتلال مرسى أبي رقراق. وتراجعت أهمية رياس البحر وما كانوا يجنونه من غنائم وأرباح، وازدادت أهمية رياس الصيد بالوادي على الصعيد المحلي، خاصة بمدينة سلا التي تعرضت أكثر من الرباط إلى القصف عدة مرات، كما فعل الأسطول الفرنسي سنتي 1765م و1844م، ونظرا لإمعان السلويين في المطالبة بإحياء سنة الجهاد البحري في عهد السلطان مولاي

(*) يرجع هذا البحث إلى الأطروحة الجامعية التي قدمناها سنة 2004 لنيل الدكتورة بعنوان : «مدينة سلا ما بين نهاية القرصنة وبداية الحماية» ص. 135 وما بعدها.

(1) من أهم الباحثين الأجانب في هذا المجال Henri de castries Roger coindreau و le Père dans وغيرهم، ومن المغاربة أذكر حسن أميلي "الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال ق 17م" د.د. ع. مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط 1989.

عبد الرحمان، وغلوهم في إغلاق أبواب مدينتهم في وجه الأجانب، على عكس ضفة الرباط التي تحولت إلى مرسى تجاري مفتوح في وجه السفن الأوربية، تعرضت سلا لقنبلة فرنسية أخرى سنة 1851م، قنبلة كادت أن تدمرها بالكامل لولا ما أبداه سكانها من مقاومة ذاتية وصمود والتحام قوي[2].

احتكار ضفة الرباط لكل أنشطة مرسى الوادي التجارية، واستقرار التجار وممثلي الشركات وقناصل الدول الأوربية بها، جعلت ضفة سلا المتوحلة بالرمال والرواسب بئيسة وخاملة من كل الأنشطة، ما عدا منفعة صيد الحوت بالقوارب والمجدبة الموقوفة على أحباس المسجدين الأعظمين بالعدوتين، منفعة أضحت تشكل أكبر مورد لرجال البحرية ولأحباس المدينتين، أهمية تعود إلى الكميات الكبيرة المصطادة من سمك الشابل الذي يهاجر بشكل غريزي من المحيط الأطلسي إلى داخل مجرى نهر أبي رقراق العذبة، لتفقيس بيضه والتوالد خلال موسم يمتد من بداية فصل الشتاء إلى أواسط فصل الربيع، أي قبيل بداية موسم حصاد الحبوب، لذلك كان اصطياده يحظى بأهمية بالغة لدى سكان العدوتين والقبائل المجاورة لها، لما كان يوفره لهم من قوت غني بالبروتينات يساعدهم على طرد شبح المجاعة، علما أن حياة الشابل وتنقله وتوالده لا يتأثر بالاضطرابات السياسية والاقتصادية، ولا بالتغيرات الطبيعية والكوارث المناخية أو بالأمراض الوبائية، والفائض منه كان يصدر بواسطة الدواب إلى الجهات الداخلية من المغرب، إما كهدية لدار المخزن على العادة، أو لبيعه بمختلف الأسواق، وقد سبق للسان الدين بن الخطيب أن أكد أهميته بسلا ومدى انتشار استهلاكه خارجها قائلا : "وكفى بالشابل رزقا طريا، وسمكا بالتفضيل حريا، يبرز عدد قطر الدِّيم، ويباع ببخس القيم، ويعم في المداشر النائية والخيم"[3].

وعليه فإنه أنشطة الصيد بنهر أبي رقراق، كانت لها مردودية مادية وغذائية مهمة، كما هو مبين في رسم محاسبة ورثة الناظر الحاج بنسعيد بن الناظر محمد حركات السلوي عام 1204هـ/1789م، أن مستفاده خلال سنتين تجاوز ألفا

(2) أنظر الفصل الثالث من الباب الأول في أطروحتنا لنيل الدكتوراة في التاريخ "**مدينة سلا ما بين نهاية القرصنة وبداية الحماية، من القصف إلى الاحتلال (1851م – 1912م)**" تحت إشراف الدكتور عبد المجيد القدوري. نوقشت بكلية الآداب بالرباط في يوليوز 2004م.

(3) "**معيار الأخبار، في ذكر المعاهد والديار**" تحقيق كمال شبانة 1976م، المحمدية، ص. 155.

وخمسمائة مثقال، وأنه صرف في إصلاح قواديس الماء الجاري وأسوار وأبواب مدينة سلا وغير ذلك. انظر الجدول التالي[4]:

المداخيل العامة لنظارة سلا	1204هـ	1205هـ	المجمـــوع
مستفاد أكرية رباع المسجد الأعظم	558 مثقال	503 مثقال	1061 مثقال
كراء الأراضي الفلاحية	19 مثقال	لاشـــيء	19 مثقال
مستفاد حوت الشابل	795 مثقال	711 مثقال	1506 مثقال

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أشارت الكنانيش الحبسية للمدينة، إلى أن مداخيل المنفعة المذكورة عرفت تراجعا بسبب تزايد مصاريف استغلال منفعة الصيد، وتكاثر عدد الأشخاص المستفيدين من امتياز الحصول على سمك الشابل بالمجان، وقيام رجال البحرية وقبائل أعالي الوادي بالصيد والبيع بطريقة سرية متحدين بذلك الظهائر السلطانية المنظمة لهذه الحنطة، وقيام النظار من جهتهم بالتصرف في وفره بحسب شهواتهم[5]. رغم كل هذا ظلت منفعة الصيد بالوادي محافظة إلى حد ما على مردودية مادية لا بأس بها، وأهمية غذائية تبرز بشكل جلي في فترات الجفاف والمسغبة، إذا ما قيست بباقي المنافع الوقفية الأخرى التي تدهورت بشكل كبير نتيجة ضعف قيمة الأكرية والعملة المغربية، وكساد الرواج التجاري، وتسرب المنتوجات الأوربية الرخيصة عبر المراسي. أهمية جعلت اختيار رياس قارب الحوت بسلا يعرف تنافساً كبيراً بين أبناء الأسر السلوية، التي كان آباؤهم وأجدادهم رياساً في البحر سابقاً، وتتدخل فيه كبار العائلات المخزنية بشكل قوي من أجل أن تحسم أمر اختيار رايس قارب الحوت لفائدة أحد مرشحيها، ولمعرفة خبايا هذه الصراعات الداخلية نطرح الأسئلة التالية :

– كيف كان يتم اختيار رياس الوادي بسلا ؟ وهل كانت هذه الرياسة إلى حد ما وراثية ؟ وماهي الجهات التي كانت تلعب الدور الحاسم في تعيينه ؟

(4) وثيقة زودني بها والدي الحاج أحمد معنينو رحمه الله.

(5) جعفر بن أحمد الناصري "**سلا ورباط الفتح وأسطولهما وقرصنتهما الجهادية**" في عدة أجزاء مرقونة ب خ.ع. ص بسلا ج 1 ص. 132.

من الصعوبة بمكان تقديم أجوبة عن هذه الأسئلة، لأن كل الكنانيش الحبسية والوثائق الرسمية كالظهائر لا تتطرق إلى هذا الموضوع، وإنما تركز إما على تقنين كيفية استغلال هذه الخيرات الطبيعية بين رجال البحرية أو الحواتة والأحباس، أو تقتصر على ذكر أسماء من تم تعيينهم رياسا على المنفعة المذكورة. وقد نشر بعض هذه الظهائر الباحث لويس برينو في دراسته عن علاقة أهل العدوتين بالبحر(6)، وأورد أخرى المؤرخ جعفر بن أحمد الناصري في الجزء الأول من دراسته المخطوطة عن أسطول العدوتين القرصني(7)، دون الانتباه إلى ما تخفيه هذه الظهائر في مضامينها، كما نشر د. عبد العزيز الخمليشي دراسة مهمة ودقيقة حول المراحل التاريخية التي عرفتها منفعة صيد الشابل وغيره بوادي أبي رقراق من بداية القرن الثامن عشر إلى ما بعد الاستقلال(8)، دون أن يقدم هو الآخر أجوبة واضحة عن كيفية انتخاب هؤلاء الرياس، وللإجابة عن ذلك التجأنا إلى قراءة الكثير من الرسائل الشخصية لكبار أعيان سلا الموجودة بأرشيف الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، ومن حسن الصدف عثرنا بين أسطرها على معلومات ساعدتنا في تسليط الضوء على بعض خبايا وخفايا انتخاب هؤلاء الرياس، وما كان يشهده المجتمع السلوي من صراعات داخلية، وما انتخاب أحد رياس الوادي في بداية القرن العشرين إلا نموذجا منها.

في البداية لابد من التذكير أن منفعة الصيد بالوادي كانت تحظى بأهمية دينية كبرى، لأن مداخيلها كانت محبسة على إصلاح أمور الماء الجاري إلى المسجدين الأعظمين بالعدوتين، لذلك لم يكن يتولى الرياسة عليها إلا من ثبتت أهليته وحزمه وأمانته، وكان في الغالب يقترحه عامل سلا على السلطان ليسميه رسميا بظهير شريف، لمدة سنتين على الأقل، وبعد ذلك إما يجدد له الظهير لفترة ثانية وثالثة، وإما يتم تغييره، وفي حالة وفاته إبان موسم صيد الشابل، يحل مكانه أحد أقربائه مؤقتا ليملأ الفراغ إلى حين تعيين من يخلفه رسميا. وكان الناظر يتكفل بالرايس وبحريته، ويوفر لهم جميع الشباك ولوازم الصيد والقوت اليومي، وذلك ليعملوا لفائدة

(6) BRUNOT. «*la mer dans les traditions et industries indigènes de Rabat et Salé*» Paris 1920 PP : 221 - 237

(7) م.س. ج 1 ص 138 و139.

(8) منشورة بمجلة هيسبريس تمودا العدد 33، سنة 1995م. ص 42.

الأحباس التي تستحوذ على ثلثي المدخول، أما الثلث الباقي فيتقاسمه كل الحواتين وفقا لما هو مقنن في الظهائر السلطانية[9]. لذلك كانت للناظر صلاحية طلب تأخير رايس قارب الحوت بالوادي من السلطان إذ أثبت بالحجج تلاعبه بقواعد هذه الحنطة، أو تطاوله على الحقوق الحبسية وإن كانت مجحفة في حق رجال البحرية، أو يقترح تعيين شريك للرايس في الخدمة كعين للأحباس تراقبه ميدانيا، وكمثال على ذلك ما حصل مع الرايس محمد الحصيني السلوي، فبعدما اشتكى به ناظرا سلا أنه "... استولى على الوادي بأولاده وأصهاره، لا يضبط معه عرف ولا عادة، فيأخذ من الحوت ما شاء ومن الأجور أضعاف ما يقبضه غيره، ومن الإقامة القنب وغيره... وإذا أردنا رده إلى العرف والعادة فيما ذكر، فلا ينقاد لشره معنا ومع العدول..."[10]، اقترحا تعيين المقدم أحمد بن المحجوب السلوي شريكا للحصيني في الخدمة حتى لا يخفى عليهما من أمره شيئا، وبعد وفاة الرايس الحصيني لم يخلفه أحد من أولاده كما جرت العادة بذلك، بل كلف المحجوب برياسة قارب الحوت بالوادي إلى أن وافاه الأجل أواسط عام 1321هـ/1903م. مباشرة بعد ذلك انطلق صراع داخل سلا بين كبار تجارها وأصحاب النفوذ السياسي بها، لوقوفهم وراء تنافس مرشحين سلويين رغبا في تعويض الرايس المتوفى.

الأول هو سيدي محمد العلمي السلوي المرشح من قبل الأخوين الطيب الصبيحي الذي كان يعمل آنذاك أمينا بمرسى الجديدة، وأخيه الهاشمي تاجرا بسلا، فبمساعدتهما استطاع العلمي في البداية أن يزاول رياسة قارب الحوت بالوادي مؤقتا، ودون موافقة عامل سلا عبد الله بن سعيد لغيابه عنها، وتعزيزا لحضوره كمرشح بديل بادر إلى الزيادة في دخل رجال البحرية لكسب ثقتهم كي لا يعارضوا رياسته عليهم، كما جاء في رسالة الهاشمي إلى أخيه بالجديدة ونصها"... نشط البحرية غاية النشاط، لأنهم ظهرت لهم المزية على يده، وعاد لهم الباقي مثنى على مرتين فأزيد، وأسمعت ذلك للقاضي"[11] ويقصد الحاج علي عواد المعروف

(9) دراسة عبد العزيز الخمليشي، جوانب من الحياة التجارية بالمغرب في القرن 19م، مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط..

(10) رسالة من محمد عواد وبناصر محمد زنيبر إلى السلطان الحسن الأول. خ.ع.ص. بسلا رقم 4317 مح 3 س II، "أ" بتاريخ 16 شعبان عام 1291هـ/28 شتنبر 1874.

(11) خ.ع.ص. بسلا رقم 4923 مح 31 س. I "ب" بتاريخ 6 محرم 1322هـ/23 مارس 1904م.

بمواقفه المعارضة لتسلط عبد الله بن سعيد على أحباس المدينة. وذلك من أجل طمأنة القاضي على أمانة العلمي ليصبح نصيرا له، كما أرسل هذا الأخير حوالي ستا وثمانين شابلة إلى مطبخ دار السلطان بفاس ولغيره على العادة[12]، استعطافا لينعم عليه بظهير تعيينه رسميا.

أما المرشح الثاني فهو محمد بن بناصر الحصيني السلوي، الذي فضل الانتقال من سلا بعدما غلب على أمره، إلى طنجة للقاء العالم عبد الله بن سعيد المتواجد هناك في مهمة مخزنية بدارالنيابة، طالبا منه تزكية ترشيحه[13]، وقد بقي هناك مدة وهو ينتظر إلى أن حصل من ابن سعيد على كتاب شريف بتوليته رايسا على قارب الحوت بالوادي[14]، علما أن عددا من أفراد أسرة الحصيني كانوا يشتغلون في البحرية والطبجية بسلا، حسب ما هو مثبت في لوائح الحنطتين. وبعدما عرض الحصيني الكتاب الشريف الذي أتى به من طنجة إلى سلا، تمكن من منع خصمه العلمي من مزاولة الرياسة المؤقتة بالوادي، ولمنع الاصطدام بين الخصمين عقد خليفة عامل سلا اجتماعا بالمرشحين لإيجاد مخرج للمشكل[15]، الذي ازداد تعقيدا على إثر تساؤل ناظر أحباس سلا محمد زنيبر عن صحة الكتاب الشريف، وإخباره الهاشمي الصبيحي أنه لا يرقى إلى مستوى الظهير الشريف، وأن تاريخ كتابته قديم، يعود إلى شهر رجب من السنة الماضية، أي فترة وفاة الرايس بن محجوب، وبمعنى آخر أن الأمر لم يحسم بعد لصالح الحصيني، لذلك تشجع الأمين الطيب الصبيحي على معاودة مراسلة أصدقائه في الجهاز المخزني بفاس، وعلى رأسهم صهره الأمين الوزير عبد السلام التازي الرباطي، وأخوه الأمين عمر، ليعضدا طلب توليه مرشحه العلمي رايسا بمجاز العدوتين لدى السلطان مولاي عبد العزيز،

---

(12) نفسها.

(13) رسالة العلمي إلى الطيب الصبيحي رقم 4920 مح. 34 س. I "ب" بتاريخ 10 محرم 1322هـ/27 مارس 1904م.

(14) النص الكامل لهذا الكتاب نشره لويس برينو في مؤلفه السابق ص 231 "... خديمنا الأرضي القائد عبد الله بن سعيد السلوي وفقك الله وبعد، وصل كتابك معلما بأن أحد المكلفين باصطياد الحوت بوادي العدوتين ابن المحجوب السلاوي سار إلى عفو الله، وأنك عينت مكانه محمد بن بناصر السلوي لأهليته لذلك، وطلبت المساعدة على إقراره عليه، وصار بالبال، فقد ساعدناك على جعله مكانه، وأقرناه على ذلك فلتستعمله فيه والسلام، بتاريخ 7 رجب 1321هـ/ 29 شتنبر 1903.

(15) رسالة الهاشمي إلى الطيب الصبيحي رقم 4955 مح. 34. س. I "ب" بتاريخ 30 محرم 1322هـ/16 أبريل 1904م.

لكون العلمي كان يشتغل مع الصبيحيين في أمور التجارة، خاصة بالبوادي المحيطة بسلا لما كان يتمتع به من احترام لدى أهلها بحكم نسبه الشريف.

وبعد انتظار دام عدة أشهر دون نتيجة، كتب الطيب ثانية لغير آل التازي لتلبية طلبه، فعلم هؤلاء بذلك وكتبوا إليه من فاس يبشرونه ويعاتبونه على ما صدر منه"... فقد وقفنا في ذلك وقوف اعتناء ومحبة حتى نفذ له ذلك، وتوجهت المكاتب الشريفة مع الظهير الشريف ليتمسك به الجميع لأخيكم الهاشمي، ولا يخفاك أن الأمين الكبير رعاه الله معتز بك وبأمورك غاية، ونحن ذلك، فلا ينبغي التعلق في شيء بغيره... عن عجل والسلام"[16]. نزل الظهير العزيزي[17] كالصاعقة على الحصيني ومن يقف ورائه، غير أنه لم يستسلم، واعتبر الظهير ناقصا لأنه لا يلغي ما جاء في الكتاب الشريف السالف الذكر، وبتنسيق مع صديقه عبد الله ابن سعيد أراد التشكيك في قدرة خصمه العلمي على تسيير أمور الصيد. كما أخبر بذلك الهاشمي أخاه الطيب"... إن أولاد الرايس الحصيني المتوفى، لما صرنا نتصرف حصل لهم ضيق كبير بسبب ذلك، وبلغنا أنهم كتبوا للقائد عبد الله بن سعيد، وأمرهم أن يوجهوا نسخة من كتاب والدهم، ومنهم من أراد أن يعمل موجبا يغشم سيدي العلمي في هذه الحنطة، وهذا ليس صحيحا لأن نجابته في هذه الحنطة محققة لا تخفى على سيادتكم...[18] ، وفي آخر رسالة الهاشمي اقترح على أخيه تذكير المخزن بما صنع الحصيني الأب المتوفى من فساد أيام رياسته في الوادي. ويفهم من استعمال الهاشمي لصيغة الجمع (لما صرنا نتصرف)، أنه كان يتقاسم مع العلمي موارد منفعة الرياسة.

أما عن الكفاءة المهنية، يقول العلمي أنه اشتغل مع البحرية[19]، وأسرته أنجبت الكثير من ذوي الخبرة في أمور البحر، أشهرهم جده الرايس عبد السلام العلمي

(16) خ. ع.ص. بسلا رقم 282. مح. 3. س. I "أ" بتاريخ 26 ذي القعدة 1322هـ/2 فبراير 1905م.

(17) "... عينا للتكليف برياسة قارب الحوت العدوتين الرايس الحاج محمد العلمي السلوي مكان الرايس المتوفى، لتقدم خدمة أسلافه فيه، وعليه فتامر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعلمه بمقتضاه، صدر به أمرنا"، خ. ع.ص. بسلا رقم 76. مح I. س. II. "ب" بتاريخ 15 ذي الحجة 1322هـ/20 فبراير 1905م.

(18) رقم 4900 مح. 34س. I "ب" بتاريخ 15 ذي الحجة 1322هـ/20 فبراير 1905م.

(19) ورد اسمه ضمن لائحة البحرية الواقفين على الوظائف الجهادية بسلا، المنعم عليهم بصلة من قبل السلطان في 28 ذي الحجة 1311هـ/2 يوليوز 1894. "وثائق بني سعيد". ج 2ص 224 م.س. كما وردت أسماء أولاد الحصيني.

السلوي الذي كان من كبار رياس البحر في عهد المولى عبد الرحمان، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الرياسة كانت إلى حد ما وراثية. وأمام هذا طلب ابن سعيد من مرشحه الحصيني أن يبعث له إلى طنجة بنسخة من ظهير تعيين والده المتوفى رايسا على الوادي أيام السلطان مولاي الحسن الأول، مرفقا بموجب شرعي موقع من طرف ذوي الاختصاص بسلا، يؤكد عدم كفاءة خصمه العلمي على تسيير أمور الصيد بالوادي قصد كشفه للمخزن وعزله. ولإفشال هذه المساعي واجههم الهاشمي الصبيحي برسالة ناظري سلا ذكرناها سابقا، تطعن في مصداقية والد خصمه الرايس الحصيني المتوفى، وتشير بوضوح إلى تبذيره متاع الأحباس وتطاوله على حقوقها.

تزامن هذا النزاع مع موسم فلاحي جاف[20] أصبح فيه سمك الشابل مصدرا غذائيا أساسيا بالعدوتين وأحوازها، وأخبار انتخاب رايس على الصيادين أمرا يشغل بال سكان سلا. ويفهم من إدلاء كل واحد من المرشحين المتنافسين بظهائر أسلافه ومواجب شرعية، استمرار عدم حسم المخزن في أمر اختيار من يتولى منهما رياسة قارب الحوت بالوادي. وتفاديا لكل مفاجأة ألح الهاشمي في رسائله المتعددة[21] لأخيه الطيب على أن يجدد الكتابة للأمين الكبير عبد السلام التازي، لإفشال ما يخططه الخصوم، وأخبره أن العلمي تنازل له عن كل أجرة الرياسة التي كان يتقاضاها من أمناء مرسى العدوتين وناظري أوقاف سلا، ومبلغها خمسة وعشرون ريالا. ولفتح صفحة جديدة مع عامل سلا عبد الله ابن سعيد وبأمر من العلمي وحليفه الصبيحي، وجهت كمية من السمك إلى داره قصد تطييب خاطره واستمالته لصفهما، في وقت كانت تروج بين سكان سلا أخبار مفادها أن ابن سعيد غاضب على ما يقومان به أثناء غيابه عن المدينة وأنه لا يقبل منهما شفاعة أو هدية، ثم بعثا بكمية أخرى من الشابل إلى الأمين محمد بن المدني التازي بالرباط[22]، ليتوسط هو الآخر لدى أبناء عمه بفاس لإقرار العلمي رايسا بالوادي، كما اجتهدا

(20) رسالة الهاشمي عن أحوال سلا "... والله يا أخي يرحمنا بالمطر لأن الدنيا في غاية الكساد والزرع بسوم 17 بسيطة إلى 18... فقلت المطر وغلاء الأسعار وكثرة الفتن..." خ.ع.ص. سلا رقم 4936. مح 34. س. I. "ب" في 16 محرم عام 1323هـ/23 مارس 1905م.

(21) ح.ع.ص. بسلا رقم 4970 و4974 مح. 34 س .I. "ب" الأولى بتاريخ 18 صفر 1323هـ/24أبريل 1905م.

(22) خ.ع. ص بسلا رقم 4914. مح. 34 س. I. "ب" في 27 ذي الحجة عام 1322هـ/ 4مارس 1905م.

في كسب عطف محتسب سلا وناظري أحباسها[23] ليرسلوا ما في حوزتهم من مكاتب وظهائر إلى الأمين الكبير بفاس تبرز خدمات جد الرايس العلمي، وأخرى تطعن في والد خصمهما الحصيني.

توجت مجهودات متواصلة باستصدار ظهير عزيزي جديد يعيد إقرار العلمي رايسا على قارب الحوت للمرة الثانية[24] مع أجرة شهرية، كما طلب المخزن من القائد ابن سعيد تنفيذ ذلك رغم أنفه، والأخطر من هذا هو مطالبته وفورا بحيازة الكتاب الشريف الذي سبق أن أعطاه لصديقه الحصيني تدليسا لما كان بطنجة، وتوجيهه على يده إلى فاس.

والمثير في هذا الصراع الذي تابعه المجتمع السلوي عن كثب، هو أنه انتهى بالاطاحة بالقائد عبد الله بن سعيد من الولاية على مدينة سلا سنة 1906م، لفائدة منافسه الطيب الصبيحي، لأسباب عديدة قد يكون ما ذكر واحد منها. وبعد تنصيب الصبيحي على رأس هرم السلطة بالمدينة، عمل على خلق نوع من التراضي بين الطرفين المتصارعين على رياسة الوادي، فبعدما مكن صديقه العلمي من الحصول على ظهير يجدد رياسته على قارب الحوت للمرة الثالثة[25]، اشترط عليه أن تقتصر رياسته على موسم صيد سمك الشابل فقط، في المقابل سمح لأولاد الحصيني المحترفين لمهنة الصيد، بأن يتولى كبيرهم محمد مهمة الإشراف على اصطياد باقي أنواع الحوت الأخرى بالوادي طيلة السنة[26]، وذلك لجبر خاطرهم ورفقا بحالتهم المادية. فاستمر بذلك عامل سلا مهيمنا على خيرات وادي أبي رقراق، وبقي صديقه العلمي محتكرا رياسة المنفعة المذكورة، بعدما منحت له ولاية رابعة[27]، ومع بداية عهد الحماية، أخضعت هذه الحماية لتنظيم جديد يعتمد كراؤها عن طريق السمسرة. وفي السبعينيات من القرن العشرين توقفت إيرادات الصيد بأبي رقراق بعد أن انقرضت كل أنواع الحوت والشابل به، نتيجة تلوث مياهه وبناء سد على مقربة من مصبه.

---

(23) نفس الوثيقة.

(24) BRUNOT م.س. ص 233 بتاريخ 1 ربيع الأول 1323هـ/6 ماي 1905م.

(25) **نفس المصدر** ص 232 بتاريخ 22 شعبان 1326هـ/19 شتنبر.

(26) **نفس المصدر** ص 232 بتاريخ 22 محرم 1326هـ/3 فبراير 1908م.

(27) **نفس المصدر** لويس ابرين ص 234، بتاريخ 7 ذي الحجة عام 1330هـ/17 نونبر 1912م.

المنطلقات العقدية والفكرية في شعر المعري : المكونات والتجليات

علي الشوملي–خالد الهزايمة
جامعة إربيل – الأردن

المعــري

اسمه ونسبه : هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن أحمد التنوخي المعري اللغوي الشاعر، والمعري نسبة إلى معرة النعمان وهي بلدة صغيرة بالشام بالقرب من حماة وشيزر.

مولده : ولد المعري يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمئة للهجرة بالمعرة، وقد أصيب بالعمى بسبب الجدري الذي أصيب به وهو في الثالثة من عمره، دخل بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمئة، ثم دخلها ثانية سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم رجع إلى المعرة ولزم منزله[1].

وفــاتــه : توفي يوم الجمعة ثالث وقيل ثاني شهر ربيع الأول، وقيل : ثالث عشرة سنة تسع وأربعمئة بالمعرة، وأوصى أن يكتب على قبره :

هــــــذا جنـــــاه أبي علـــي ومـــا جنـــيـــت علـــى أحـــد.

نشأته وتربيته

ينحدر أبو العلاء من أسرة عريقة في الثقافة والمجد، عرفت شعراء وفقهاء وقضاة، وكان أكثر قضاة المعرة وفضلائها وشعرائها وأدبائها من بني سليمان بن داوود بن

(1) **وفيات الأعيان وأنباء الزمان** – ابن خلكان – تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 113-115.

المطهر، وسليمان بن المطهر هو الجد الخامس لأبي العلاء.. كان تأثير هذه الأسرة على تكوين أبي العلاء عظيما، لا يقل عما اكتسبه من رحلاته، لقد طاف بالعواصم العلمية وزار مكتباتها، وأخذ عمن كان بها من شيوخ وأعلام واطلع على تآليفهم، فأصبح لغويا بارعا وأديبا متميزا، كما أتقن معارف عصره من فقه ومنطق وفلسفة[2]. وقد غادر المعرة سنة 293 للهجرة قاصدا بلاد الشام، فزار مكتبة طرابلس التي كانت في حوزة بني عامر وانقطع إليها فترة طويلة، فانتفع بما فيها من أسفار جمة[3]. ويكاد كل ما يقول المعري من شعر ونثر في رسالة أو حوار أو كتاب أو شرح أو تعليق يشير إلى نشأته الدينية[4] ؛ ولا غرابة في ذلك أننا علمنا أنه من بيت علم وقضاء وأن معظم أهله كانوا فقهاء وعلماء فتشرب هذا منهم، وتلقى المعري عن أبيه مبادئ علوم اللسان العربي، ثم تتلمذ على بعض علماء بلدته، وكان حاد الذكاء سريع الحفظ فيحفظ كل ما يسمع من مرة واحدة.

ذهب إلى اللاذقية، وزار فيها أحد الأديرة، وأثناء إقامته درس على رهبان الدير أصول اليهودية والمسيحية وناقشهم في شتى شؤون الأديان. وفي بغداد لقي فيها الحفاوة والتقدير، وهي حينئذ مركز العلم والعلماء، درس الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية، واستطاع أن يجمع حوله الكثير من التلاميذ الذين ناصروه وتشيعوا له[5].

عـزلتـه

فقد أبوه في طفولته، فعاش يتيما في سن الرابعة عشرة، وأثناء وجوده في بغداد فقد أمه وحزن عليها حزنا بليغا، فبدأ ينظر إلى العالم نظرة سخط ومقت، وبعد ذلك انعزل عن العالم أجمع إلا من بعض تلاميذه[6].

يقول ابن فضل الله العمري في كتابه (**مالك الأبصار**) عن عزلة أبي العلاء : "نفض يديه من الدنيا وساكنها، وخفض لديه قدر محاسنها، وانقطع في بيت كان له بالمعرة

(2) **لغة أبي العلاء**. د. فاطمة الحبابي، دار المعارف، القاهرة، ص. 15.
(3) **أبو العلاء المعري، حياته وشعره**، مجموعة مقالات للمؤلفين، المكتبة الحديثة، بيروت ص. 42.
(4) **أبو العلاء المعري**، عبد اللطيف شراره، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط 1990م، ص. 22.
(5) **أبو العلاء المعري** – عبد اللطيف شرارة–ص. 22.
(6) **أبو العلاء المعري** – حياته وشعره، ص ص. 16-17.

لا يخرج منه إلا إلى المسجد، ولا ينهج طريقا إلا نهجه، وأخذ نفسه بالقناعة حتى صارت جنة، تقيه الطمع ومِنّة تقويه على مغانم الأمل الطامع"[7]، ويقول في عزلته :

أراني في الثلاثة من سجُوني ... فلا تسألْ عني الخبرَ النبيثِ
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكونِ النفسِ في الجسدِ الخبيثِ[8]

ملامح عامة في شخصيته :

قال أبو منصور الثعالبي في "**تتمة يتيمة الدهر**" : حدثني أبو حسن الدلفي المصيصي الشاعر، وهو من لقيته قديما وحديثا في مدة ثلاثين سنة، قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب، رأيت شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنى أبا العلاء وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر[9].

والناس في أبي العلاء مختلفون : فمنهم من يقول : إنه كان زنديقا وينسبون إليه أشياء كثيرة، ومنهم من يقول : إنه كان زاهدا عابدا متقللا يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والقناعة باليسير والإعراض عن الدنيا.

وقال كمال الدين أبو القاسم عمر بن أبي جرادة : قرأت بخط أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن سلمان المعري أن المستنصر صاحب مصر بذل لأبي العلاء ما في بيت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئا، وقال :

كأنما غانةٌ لي من غِنىً ... فعدّ عن مَعدنِ أسوَانِ
سرتُ برغمي عن زمانِ الصِّبَا ... يُعجلُني وَقْتِي وأكْواني
صدّ أبي الطيب لمّا غَدَا ... مُنْصَرِفا عن شِعبِ بوّان[10]

وقال أيضا :

لا أطلُبُ الأرزاق والمو ... لى يُفِيْضُ عليَّ رزقي
إن أعظ بعضَ الوقتِ ... أعلمْ أنَّ ذلك ضِعْفُ حَقّي[11]

(7) تعريف القدماء بأبي العلاء، طه حسين، ط. 3، ص. 217.
(8) اللزوميات/للمعري، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م، ص. 167.
(9) المصدر السابق ص. 3-4 وغانة بلد يكثر فيها الذهب.
(10) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص. 100.
(11) معجم الأدباء، ص. 326، وتعريف القدماء بأبي العلاء، ص. 100.

وحدث أبو زكريا قال : لما مات أبو العلاء أنشد على قبره بعد موته أربعة وثمانون شاعرا مراثي من جملتها أبيات لعلي بن الهمام من قصيدة طويلة :

إن كُنتَ لم تُرقِ الدِّماءَ زهادةً فلقد أرقْتَ اليومَ من جَفْنِي دَمَا
سيَّرْتَ ذكراً في البلاد كأنّه مِسْكٌ مسامعَها يضمِّخ أو فَمَا
وتَرى الحجيجَ إذا أرادوا ليلة ذِكراك أوجَبَ فِديةَ مَنْ أحْرَمَا[12]

كأنه يقول : ذكرك الطيب والطيب لا يحل للمحرم، فيجب عليه الفدية، وختم في أسبوع واحد عند القبر مائتا ختمة، وهذا مما لم يشارك فيه[13].

الحالة السياسية

شهد النصف الثاني من القرن الرابع بدء انهيار الدويلات الفتية التي قامت في أقطار الدولة الإسلامية، والتي كان لها من القوة في أول أمرها ما هيأ لها الاستقلال الذاتي عن التبعية الرسمية لبغداد مركز الخلافة.

وقد أدى ضعف السلطان المركزي في بغداد إلى تعجيل انهيار الدويلات القديمة في الأطراف، إذ كان أمراؤها ملزمين بالارتباط الرسمي بخليفة المسلمين، احتفاظا بالمظهر الديني لقيادة الجماهير وتدعيمها لسلطتهم المركزية، ثم إذا مات الأمير مؤسس الدولة الإقليمية وخلفته ذرية ضعاف ضاع التدبير وانهار الملك، فكل قائد يبلغ مبلغ القوة يستطيع أن يخرج على الأمير إذا اشترى تأييد الخليفة، وكل عرش يموت أميره تتطاول إليه أعناق ذوي القوة، والشعوب بمعزل عن هذا كله، وإنما حسبها أن تتفرج على الصراع الدائر[14].

والقرن الخامس هو الذي شهد ترسيخ الإمارات الإقليمية تحت معاول الفتنة، والتآمر ولطمات الدس والكيد، والعدو واقف بالمرصاد، وقلب الدولة بغداد قد وهن وتصدع فهي في عصر أبي العلاء مسرح للفتن والمغامرات وتسلط المرتزقة من جند الترك فأكثروا فيها الفساد.

وظهرت ملل كثيرة كالمثنوية والحلولية والتناسخ والزندقة، واشتد الصراع الشعوبي والمذهبي فضاعت القيم، وتفشت الطبقية وأصبح الأقوياء يأكلون

(12) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص. 68.
(13) معجم الأدباء ص ص. 303-304.
(14) مع أبي العلاء في رحلته حياته، د. عائشة عبد الرحمن، ص. 108 بتصرف.

الضعفاء، وتمزقت الوحدة بين أفراد الشعب و لم يكن هناك قيم ثابتة أو تقاليد راسخة، وإنما كان التنازع على السلطة والجاه والثراء بالقوة والاغتصاب أو بالمكر والحيلة والنفاق.

كانت الحياة السياسية في عهد المعري مملوءة بالفوضى والاضطراب وبالصراع، فتبادلت أجزاء البلاد الإسلامية أيدي الفاتحين، وتقاذفتها أهواء العتاة المسيطرين[15].

وقد رأى المغانم والممتلكات وسوسهم الأمور بدون عقل ورشاد ونشرهم الجور والطغيان والفساد، قال :

يَسُوسُوْنَ الأمورَ بغير عقلٍ فينفُذُ أمرُهم ويقالُ ساسة
فأفٌّ من الحياةِ وأفّ مني ومن زمنٍ رئاستُهُ خَسَاسَة[16]

وطالما هاجم أبو العلاء الأمراء والحكام وأصحاب الزعامات السياسية متهما إياهم بالجهل والجشع والاستبداد[17].

وأبو العلاء لم يكن منتميا إلى أي مذهب من المذاهب التي كانت تصطرع في الساحة السياسية وذلك لعدة أسباب نذكر منها :

1 – إن أبا العلاء كان يائسا كما قيل من أن يرفع هذا الجور صاحب الزنج في البصرة وزعيم القرامطة في الإحساء والأئمة القائمون من الفاطميين في القاهرة والإمام الذي ينتظره أولئك أو هؤلاء من الذين كانوا ينتظرون الأئمة المغيبين.

2 – إن هذه المذاهب السياسية لم تكن على المستوى الفكري الذي كان يأمله، فثورة الزنج لم تكن سوى مجرد تمرد على الوضع المهين الذي كان يحيط بهم من كل جانب.

أما الحركات السياسية الأخرى التي سميت من بعض الدارسين بالحركات المتعلقة بالمهدي من : قرمطية وفاطمية وإسماعيلية فلم تكن بالتي تحوز رضا أبي العلاء لما بها من خرافة المهدي العائد[18]. وقد اختار المعري أن ينفرد ويبتعد عن تلك

(15) **الفكر الديني عند أبي العلاء**، عطا بكري، مكتبة الحياة، بيروت 1980 ص. 41.
(16) **اللزوميات** ج 2. ص. 31.
(17) **قضايا العصر في أدب أبي العلاء**، عبد القادر زيدان، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986م، ص. 255.
(18) **المصدر السابق**، ص. 247.

التيارات السياسية كما رأى ذلك طه حسين فقال : "كان يكره تعرضها – المعرة – لهذه الأحداث السياسية التي تجعلها كالكرة يتقاذفها الفاطميون والأعراب والروم، وكان يعلم إن عاد إلى المعرة دون أن يحتاط لنفسه ويعتصم بالعزلة التامة والحيرة المطلقة لم يكن يأمن من أن تعبث به أحداث السياسة كما عبثت بغيره من العلماء والأدباء"[19].

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

إن الحياة الاقتصادية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحياة السياسية ؛ فالأمن والاستقرار يساعدان على تطوير الحياة الاقتصاية وزيادة الإنتاج، وبعكس ذلك فالفوضى السياسية واضطراب الأمن والحروب والفتن تؤدي إلى عرقلة الاقتصاد وزيادة الفقر وانخفاض مستوى المعيشة خاصة إذا كانت مقرونة بانتشار الظلم الاجتماعي والحيف والفساد، والفساد هو الذي كان سائدا في عصر المعري، لذا كانت الحياة الاقتصادية سيئة إلى حد كبير حيث عم الفقر وانتشرت المجاعات وكثرت الثورات والانتفاضات من جراء ذلك. ولهذا خيم البؤس على الناس واستبد اليأس[20]، فالحالة الاقتصادية والاجتماعية ما هي إلا انعكاس للحالة السياسية السائدة، وخير وصف لهذه الحالة ما عبر عنها المعري :

قد عمَّنَا الغِشُّ وأزرَى بنا في زمن أعوَز فيهِ الخُصوصْ
وكُلُّ مَنْ فوقَ الثَرى خائِنٌ حتى عدول المصرِ مثل اللصوصْ[21]

لذلك كله اختار المعري الانعزال عن الناس ونقم على المجتمع وهو يشاهد الفساد حتى استشرى، والشرور قد عمت، والمظالم الاجتماعية قد أثقلت كاهل الناس، فقال :

فأوْسِعْ بني حوَّاء هجراً فإنهم يسيرون في نهج من الغدر لاحبِ
إذا ما أشارَ العقلُ بالرُّشدِ جرهم إلى الغيِّ طبعٌ أخذُه أخذَ سَاحِبِ[22]

(19) **مع أبي العلاء في سجنه** / طه حسين، دار المعارف ص. 83.
(20) **الفكر الديني عند أبي العلاء**، عطا بكري، ص ص. 45-46.
(21) **اللزوميات**، ج 2. ص. 62.
(22) **اللزوميات**، ج 1، ص. 101.

وقال أيضا موصيا بهجر الناس لأنه جربهم فوجد الأخوان يشينون الإنسان ولا يزينونه :

فعش بنفسكَ فالأخوانُ أكثرُهُمْ إلا يشينوكَ يوماً لا يزينوكا[23]

الحالة الاجتماعية والعقلية

القرنان الرابع والخامس الهجريان من أرقى العصور الإسلامية إنتاجا في الحركة الفكرية وخاصة في مجال العلم والفلسفة وعلم الكلام في العقائد الدينية، وأسباب ذلك :

1 – تنافس الملوك والرؤساء بتعزيز الحركة الفكرية.

2 – تشجيع الأدباء والعلماء ومدهم بالمساعدات السخية.

3 – إنشاء المكتبات العديدة الخاصة والعامة التي جمعت نتاج قرائح نوابغ المؤلفين والمفكرين وفتحت أبوابها للدارسين والباحثين.

والصراع العقدي بين الفرق الإسلامية في القرنين الثاني والثالث الهجريين بين الخوارج والمرجئة والمعتزلة والأشعرية والشيعة والسنة وغيرها قد شجع نشوء علم الكلام ونموه بعلمي التفسير والحديث لاستنباط الأحكام الفقهية والشرعية.

وكان للحضارة الإغريقية أثر كبير في بعض أطراف العالم الإسلامي عن طريق المسيحيين، فكانت الرها مركزا كبيرا من مراكز السريان والنصارى، وحران مركزا للسريان الصابئين، وانطاكيا مركزا للثقافة اليونانية، والإسكندرية مركزا امتزجت فيه الفلسفة اليونانية بالديانة المسيحية والمانوية وغيرها.

وكانت نتيجة امتزاج الفكر اليوناني بالفكر الشرقي أن ظهرت الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، فكانت المراكز تلك مصدر إشعاع أوجد في الفكر العربي نهما للتعرف على الثقافة الأجنبية، فظهرت حاجة ملحة لترجمة الكتب من اللغات الأجنبية كالسريانية واليونانية والفارسية والهندية وغيرها.

وقد جلب المسلمون أثر غزواتهم لبلاد الروم العديد من المخطوطات فزادت الرغبة للاستزادة منها في عهد المأمون فأرسل إلى مختلف الجهات في طلب المخطوطات[24].

---

(23) **اللزوميات**، ج 2، ص. 163.

(24) **الفكر الديني عند أبي العلاء**، عطا بكري، ص ص. 50-51.

ونظم دائرة خاصة للترجمة، جمع فيها عددا من المترجمين من السريان المسيحيين، فاشتد نشاط حركة الترجمة، وكانت الكتب تترجم أولا من اليونانية إلى السريانية ثم تنقل إلى العربية، وترجمت أغلب المؤلفات الإغريقية وبالأخص كتب أرسطوطاليس وأفلاطون وجالينوس وأبقراط وغيرهم.

وترجمت الكتب المتعلقة بالطب والفلسفة والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، فأدخلوا نظريات التصوف إلى العالم الإسلامي، فأصبحت كتب أولئك الفلاسفة والعلماء في المنطق والفلسفة وما وراء الطبيعة والإلهيات والسياسة والأخلاق وغيرها في متناول أيدي المفكرين المسلمين يدرسونها ويتفهمونها في منازلهم ومساجدهم ومدارسهم.

وكان نتيجة ذلك أن انصهرت تلك الآراء المختلفة في بوثقة الفكر الإسلامي، وانبثقت منها حركة فكرية عنيفة ظهرت آثارها في القرنين الرابع والخامس الهجريين، أي في عصر شاعرنا أبي العلاء.

وبالإضافة إلى ذلك فإن ظهور الخلافات السياسية بشأن الإمامة في العالم الإسلامي قد قسم الأمة الإسلامية إلى فرق وملل وشيع مختلفة متناحرة، وكانت كل منها تحاول أن تتبنى لها مذهبا تؤسس عليه مبادئها، فتغلغل كثير من الأمم المغلوبة بينها مدخلين آراء غريبة من المانوية والمزدكية والمجوسية والبوذية والهندوسية إلى الصوفية الإسلامية. فما حل القرن الرابع حتى أثرت تلك العلوم والمبادئ الفلسفية في المسلمين حتى ظهر منهم الفلاسفة والعلماء والحكماء في كل حقل من حقول المعرفة.

وهكذا احتكت في مراكز الثقافية الإسلامية في بغداد الروحية السامية بالعقلية اليونانية، فنتج من ذلك الاحتكاك تعدد الفرق الكلامية والمنازع الفكرية واشتداد النزاع بين العقل والنقل. وقد أحدث ذلك ميلا عند المفكرين للنظر النقدي في الكون والحياة، وتسرب الشك إلى عقول بعضهم فصاروا ينكرون كل ما لا تقبله عقولهم من عقائد وتعاليم، ومن هؤلاء شاعرنا أبو العلاء. فقد نشأ في هذا الجو المضطرب الذي تتلاطم فيه أمواج الآراء المتباينة، وتيارات المذاهب المتنازعة، وأخذ يتلمس طريقة على ضوء عقله ومداركه للتوصل إلى معرفة الحقيقة، فاصطدمت في

نفسه تقاليد الدين بأحكام العقل، واضطرم في نفسه صراع بين هذه وتلك، فانتصرت عنده أخيرا نزعة الشك والإنكار[25].

فالعقل والتعليم الديني الذي عرفه في زمانه لا يتفقان، والدين الحقيقي هو المجرد عن الخرافات المتصل رأسا بتصرف الإنسان من إنصاف وضبط النفس وترفع عن الدنايا ورغبة في الخير، والحق إن شاعرنا مثالي سابق لأوانه، وقد عاش في جو مضطرب مظلم، فحاول أن يستهدي بنور العقل فقال في ذلك :

تَسَتَّرُوا بأمـــورٍ في ديـــانَتِهِـمْ وإنمـا دينُهـُم ديـــنُ الزنـــاديق
نُكَذبُ العقلَ في تصديق كاذِبِهم والعقلُ أولى بإكـرامٍ وتصـديقِ[26]

لكن العقل الذي يحرره من خرافات جيله وأضاليلهم لم يهده إلا إلى أمرين :

اللاإرادية والقنوط، فهو برغم تقواه واعتقاده بقوة حكيمة مدبرة يقر بأن العقل لا يستطيع أن يعبر الهوة التي بين الجسد والروح[27].

العقل عند المعري

اعتمد المعري العقل أساسا للمعرفة، وكان إيمانه به وبقدرته على الوصول إلى الحقائق وحل المشكلات إيمانا كبيرا، فهو في نظر المعري المرشد والهدي، وهو سبيل المعرفة، وكذلك الأداة لحل الطلاسم في هذا الكون وبيان أسراره[28]. قال في ذلك :

فكـروا في الأمور يكشف لكم بعض الـذي تجهلـونَ بالتفكير[29]

وقال :

فـكّـري أنتِ ربما هُـدِي الإنسـانُ للمشكـــلاتِ بالتفكـــــير[30]
والعقـلُ كالبحرِ ما غيضت غواربُه شيئـــا ومنـه بنـو الأيامِ تَغْتَرِفُ[31]

(25) الفكر الديني عند أبي العلاء، ص ص. 53-54.
(26) اللزوميات، ج. 2، ص. 145.
(27) أبو العلاء المعري، حياته وشعره، المكتبة الحديثة ص. 42.
(28) الجامع، ص ص. 1455-1456.
(29) اللزوميات، ج. 1، ص. 406.
(30) اللزوميات، ج. 2، ص. 406.
(31) المصدر السابق، ج. 2، ص. 106.

ودعا المعري إلى نبذ كل دعوة لا تخضع للعقل ومقاييسه فقال :

فلا تقبلنَّ ما يخبرونَكَ ضلّةً إذا ما لم يؤيدْ ما أتوكَ به العقلُ[32]

وقال :

جاءَتْ أحاديثُ إن صحّت فإن لها شأناً ولكنّ فيها ضعفَ إسنادِ
فشاورِ العقلَ واترك غَيْرَه هدراً فالعقلُ خيرُ مُشيرٍ ضمه النادي[33]

ويوجه المعري دعوة إلى الذين يأخذون بظواهر النصوص دون تمحيص وتدقيق، فأخذ النصوص بهذا الشكل أدى أن يكون العقل أسيرا ورقيقا خلافا لما يراد من حقيقة الدين التي تدعو إلى الاجتهاد وتحرير العقل من العبودية البشرية فقال :

وكَمْ غَرَّتْ الدُّنْيَا بَنيها وساءَني مَعِ الناس مَيْنٌ في الأحاديثِ والنَّقْلِ
سأتبعُ مَنْ يدعو إلى الخير جَاهِدا وأرحلُ عَنْهَا ما إمامي سوى العقل[34]

وقال :

تستروا بأمور في ديانتهم وإنما دينهم دين الزناديق
نُكَذِّبُ العقلَ في تصديق كاذبهم والعقلُ أولى بإكرام وتصديق[35]

ولشدة اهتمام المعري بالعقل وقضاياه، وبالمعرفة وموضوعاتها فقد صور العقل بأنه نبي فقال :

وقال :

أيُّها الغِرّان خصصتَ بعقلٍ فاسْألَنْهُ فكلُّ عَقْلٍ نَبِيّ[36]

وقال :

خُذُوا في سبيلِ العقل تهدوا بهديه ولا يَرْجُونَ غيرَ المهيمنِ راجِ[37]

(32) اللزوميات ج. 2، ص. 181.
(33) اللزوميات، ج. 1، ص. 254.
(34) المعري في فكره وسخريته، عدنان العلي، عمان، ط 1، ص. 113 اللزوميات ج. 2، ص. 224.
(35) اللزوميات ج. 2، ص. 145.
(36) المصدر السابق 449/2.
(37) المصدر السابق 1790/1.

التقية الفكرية عند المعري

يقول صاحب النقد الاجتماعي : "ويرجع سبب تناقض أفكار المعري أحيانا إلى أخذه بالتقية الفكرية وهو لا يفصح عن أفكاره بالقدر الكافي حتى لا يقع تحت طائلة الحكام الذين يوجه إليهم سهامه، ولذلك يلجأ أحيانا إلى التراجع والظهور بمظهر الخاضع المستكين لكي يمهد لنفسه أرضا يبذر فيها بذور ثورته ونقده[38]".

فالمعري لا يحب أن يصرح بآرائه لأنه يرى في ذلك ضررا له وللناس، ولذلك يلجأ إلى التقية الفكرية، وقد يلجأ إلى التلميح في التعبير عن أفكاره أحيانا أو يلجأ إلى ذكر الحقائق مجردة من غير تعليق أو تعليل منه، ويذكر معها أمرا ينفر الناس منها ؛ فإذا وازن الناس بين ما قبلوه وبين ما رفضوه، رأوا أن الأمرين متشابهان ؛ فيدركون ما أراده المعري دون أن يصرح بذلك[39]. والمعري اتبع أسلوب التقية وقد صرح بذلك واحتاط على ألا يظهر مايدور في نفسه من الأفكار والخواطر، ورأى طه حسين ذلك فيقول : "ينبئنا أبو العلاء بتكتمه وتحفظه واحتياطه في إعلان ما يضطرب في نفسه من الخواطر وما يثور فيها من العواطف وما يعرض لها من الآراء وذلك حيث يقول :

ألم ترني حميتُ بنات صدري ... فما زوَّجتهن وقَدْ عنسنه[40]
وَلاَ أبْرزْتَهُنَّ إلى أنيس ... إذا نور الوحوشِ به أنسنه

ففي نفس أبي العلاء أسرار مكتومة قد طال كتمانه لها فما عسى أن تكون هذه الأسرار ؟[41] هذه الأسرار التي كتمها أبو العلاء هي المذاهب التي ذكرها في لزومياته فصرح بها تارة ولمح إليها تارة أخرى، وهو بهذا كله يتبع التقية.

وأخذ المعري بالتقية مذهب الشيعة، كذلك يذهب مذهب كثير من الفلاسفة القدماء الذين يرون أن هناك أمور يباح للناس جميعا العلم بها، وهناك أخرى لا يجوز العلم بها إلا للأكفاء العاملين فقط[42]. وأرى أن المعري واتباعه لأسلوب

(38) النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء، ص. 224.
(39) المصدر السابق. ص. 224.
(40) اللزوميات، 2/369.
(41) مع أبي العلاء في سجنه، ص. 189.
(42) المصدر السابق – بتصرف – ص. 189.

التقية كان سببا في التشكيك بمعتقده وفي حيرة الناس بأمره، ولو كان واضحا لما اختلف الناس فيه، وصرح المعري في كثير من المواضيع باستخدامه التقية الفكرية فقال :

أوْفِ دُيـــوني وخـلّ إقْـرَاضِـــي مثلَك لا يهتـــدي لأَغـْرَاضِـــي
فاكْتُم حديثَكَ لا يشعـر به أحـــد مِنْ رَهْطِ جبريلَ أو مِنْ رَهْطِ ابليس[43]

وقال :

قـد نَـالَ خيرا في المعـاشِـر ظـاهـراً مَـنْ كَـانَ تحت لسـانِه مَخْبُـوءاً[44]

والمعري صنع الغموض حول نفسه في قصد وفي لذة أيضا، ثم يظهر هذا الغموض بشكل حاد عن طريق السخرية بأشياء الناس، وتعليل التقية عنده هو خوفه من مجتمعه لئلا يصدمه بما لا يستطيع قوله واحتماله، لأن الناس يتعايشون بالوازع الاجتماعي باعتقاد يحملهم على السلوك الحسن، ويمنع بعضهم من الاعتداء على بعض[45].

وقد يخالف هذا الوازع الاجتماعي الحقيقة الفلسفية، فإذا صرح بالحقيقة الفلسفية فسد هذا الوازع الاجتماعي، و لم يعد بالإمكان حمل العامة على إدراك تللك الحقيقة الفلسفية[46]. ويقول المعري :

أرائيـــكَ فَلْيَغْفِرْ لِيَ اللهُ زَلَّـــتِي بِـــذَاكَ وَديـنُ الـعـالمين ريـــاءُ[47]

وقال :

لحـــاهـــا اللهُ داراً لا تُـــــدَاري بمثْـــلِ المَيـْـنِ فِي لُجَـــجٍ وَقَمْسِ
إذا قُلْـتُ المُحـــالُ رفعـــتُ صَوْتِي وإنْ قُلْتُ اليَقِيْنَ أَطَلْتُ هَمْسِي[48]

(43) اللزوميات، 69/2.
(44) المصدر السابق، 48/1.
(45) المعري في فكره وسخريته، ص. 109.
(46) المصدر السابق – بتصرف – ص. 11.
(47) اللزوميات، 38/1.
(48) المصدر السابق، 4444/2.

الاتهامات الموجهة لأبي العلاء

اتهام أبي العلاء بالإلحاد والزندقة وماقيل في ذلك

المعري في شعره وأدبه له مواقف من الناس والحياة والحكام والمحكومين وفي الأخلاق والتربية، ومن هذا كان لعلماء الدين والعقيدة والاجتماع والسياسة مراجعات لآرائه ومدارسة لمقولاته وأخذ بها أو طرح لها.

وفي أكثر من جانب يدعو الناس إلى النظر إليه والامتحان له، فهو شاعر وأديب وحكيم وفقيه وفيلسوف وناقد راصد لكل مجريات الحياة، مصور كل ذلك في أدبه من شعره أو نثره، ولا شك أن إنسانا تجتمع له تلك الملكات، وتتسع له مذاهب الآراء هذا الاتساع الرحب ثم يمتحن من الناس في كل مذهب فيها على امتداد العصور وتعدد الأجيال لا يمكن أن يحمد حمدا مطلقا أو يذم ذما عاما، فإذا مدح في مذهب، ذم في مذهب آخر.

على أن الذي يعنينا من أبي العلاء هنا هو ما جاء على لسانه من شعر ونثر من مقولات خاصة في العقيدة، فكان ذلك موضع خلاف كبير بين العلماء من القدماء والمحدثين بين مكفر له ورامية بالإلحاد والزندقة أو ذاهب به مذهب الأولياء وأصحاب الكرامات، وقيل : هم أولائك : الذين توقفوا في أمره، وفوضوا الحكم فيه إلى الله رب العالمين[49].

يقول ياقوت الحموي : "كان متهما في دينه يرى رأي البراهمة ولا يأكل لحما، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور[50]، والناس في أبي العلاء مختلفون، فمنهم من يقول : إنه كان زنديقا، ومنهم من يقول : إنه كان زاهدا عابدا متقللا يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة والقناعة باليسير والإعراض عن الدنيا[51]. يقول صاحب كتاب: **أبو العلاء المعري زوبعة الدهور** : "وإني لأجل صدقه فهو أجل وأسمى من أن يكون ملحدا معطلا كما سماه ابن الجوزي في تلبيس إبليس أنه لم يصرح بدينه لا سرا ولا جهرا، لا تلميحا ولا تصريحا، حتى في أحرج الساعات وأرذل

(49) لرهين المحبسين : 10.

(50) **تعريف القدماء بأبي العلاء**، ص ص. 77-99.

(51) **المصدر السابق**، ص. 77.

العمر..."[52]. وابن الجوزي في كتابه يعلق في الهامش بعد أن ذكر أن إلحاد أبي العلاء ظاهر في شعره فيقول : "ومن تتبع شعر أبي العلاء وسيرة ابن الراوندي وقد ظهر في زماننا بعض من يتمذهب بمذهبه"[53]. ويؤكد أبو الوفاء علي بن عقيل أن المعري كان ملحدا فيقول : "جفت قلوب أهل الإلحاد لانتشار كلمة الحق وثبوت الشرائع بين الخلق والامتثال لأوامرها كابن الراوندي وما شاكله كأبي العلاء"[54].

اتهامه بمعارضته للقرآن والرد عليه

الذين ساء ظنهم بأبي العلاء لم يدعوا له قولا إلا أخذوا به واستخرجوا منه تهمة يتهمونه في دينه، وفي سوء معتقده حتى في إيمانه بالله، وأبعد شيء عن الحق ما نسب إليه من أنه عارض القرآن الكريم، وندع هنا أن يكون المعري مؤمنا أو كافرا، تقيا أو زنديقا، فإنه على أي حال من أحواله تلك لا يمكن أن يتصدى لمعارضته للقرآن... فالرجل أعقل من أن يكشف سوأته للناس.

والمعري من أعلم الناس باللغة العربية وبمواطن الفصاحة والبيان من أساليبها شعرا ونثرا، ومن كان هذا شأنه فلا يمكن أن تحدثه نفسه أن يدنو من هذا المقام وهو مقام القرآن المعجز للجن والإنس بفصاحته وبلاغته فضلا عن أحكامه الشرعية. والكتاب الذي استدل به الشانئون للمعري والمتهمون له به في دينه وهو كتاب **الفصول والغايات** الذي ألفه المعري في أخريات حياته[56]. كان القدماء يظنون به الظنون ويقولون فيه عن غير علم، منهم من لم يقرأه، وإنما سمع عنه، ومنهم من قرأه ولم يفهم عن المعري فيه، فرأى بعضهم أن الكتاب معارضة للقرآن، ورأى فيه لونا من ألوان الفكر، ورأى بعضهم أن الكتاب تمجيد لله وثناء عليه، فرأى فيه لونا من ألوان الدين والتقوى[57].

يقول طه حسين : "إن سبب تأليف الكتاب (الفصول والغايات) هو إرضاء الله واتقاء سخطه، فكتابه نوع من أنواع التقرب إلى الله، ولون من ألوان العبادة له

(52) **أبو العلاء** – زوبعة الدهور – ط. 2، ص. 531.
(53) **تلبيس إبليس**، ط 3، ص. 100.
(54) **الفكر الديني عند أبي العلاء**، ص. 77
(55) **الفكر الديني عند أبي العلاء**، ص. 77.
(56) **رهين المحبسين، المعري بين الإيمان والإلحاد**، ص. 116.
(57) **مع أبي العلاء في سجنه**، ص، 199.

والإمعان في تسبيحه والثناء عليه، لكن المعري يعبد الله ويتقرب إليه كما يريد هو ويختار، لا كما يريد الناس ويختارون، وفي ذلك يعبر المعري بنفسه عن أسباب تأليفه لهذا الكتاب الذي أثار الآراء المتناقضة ضده، وألصق به المعارضة للقرآن فيقول : "علم ربنا ما علم... أني ألفت الكلم أمل رضاه المسلم، وأتقي سخطه المؤلم، فهب لي ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب"[58]. فهذا دليل واضح على إيمان وتقى المعري، فهو يثني على الله وما في ذلك شك، وما أعرف–كما قال طه حسين–أن أحدا أثنى على الله كما أثنى عليه المعري. وما بقي من أجزاء هذا الكتاب ينطق بأن المعري فيه أبعد ما يكون عن هذه المعارضة، فمما جاء في هذا الكتاب قول أبي العلاء : "أقسم بخالق الخيل، والريح الهابة بليل، مابين الأشراط[59] ومطلع سهيل أن الكافر لطويل الذيل، وأن العمر لمكفوف الذيل[60]، اتق مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل تنج وما أخالك بناج"[61]. وكذلك قول المعري : أذلت العائد (حديثة النتاج من الغنم) أباها، وأصاب الوحدة ورباها، والله يكرم من اجتباها، أولاها الشرف بما حباها، أرسل الشمال وصباها (ولا يخاف عقباها). فهل هذا معارضة للقرآن ؟ وهل في التزام السجع معارضة ؟ والقرآن ليس سجعا، وإذا كان السجع في أي كلام عربي معارضة للقرآن فإن كل ما كان للعرب من أسجاع في الجاهلية معارضة للقرآن من قبل أن ينزل، وهل يكون الاستشهاد بالقرآن معارضة للقرآن؟؟

أفلم يستشهد المعري بالقرآن فيختم بقوله تعالى : ﴿ولا يخاف عقباها﴾ (الشمس 51). إن من يقرأ كتاب **الفصول والغايات** يدرك عن يقين أن أبا العلاء المعري مؤمن بوحدانية الله وبكمالاته إيمانا لا ريب فيه.

ومن هنا يجب ألا نشكك في إيمانه بالله، لأنه لا مجال لهذا الشك، وقد كتب المعري مئات الكراسات في تمجيد الله ودعوة الناس إليه[62]، لقد أتهم المعري فقيل:

---

(58) **مع أبي العلاء في سجنه**، طه حسين، ص. 199.

(59) أشراط : ثلاثة كواكب هي : القمر في أول منازله، والسرطان وكوكب صغير معهما، وسهيل نجم بهي الطلعة يخرج في أواخر الصيف.

(60) أي قصير وهو كناية عن قصر العمر.

(61) **مع أبي العلاء في سجنه، بتصرف**، ص. 199.

(62) **في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء**، د. كامل سعفان، دار المين، القاهرة، ط. 1993، 1، ص. 95.

إنه أراد أن يصنع من كتابه قرآنا آخر، أو أراد أن يقلد أسلوبه، وقد برأه كثيرون من هذه التهمة بسبب ما فيه من تمجيد الله سبحانه، بسبب ما جاء في رسالة الغفران من بيان إعجاز القرآن.

إن في كتاب **الفصول والغايات** سمات كثيرة توحي بأنه حاول وأخفق أو أنه ترسم بعض السمات القرآنية، فأحس بالعجز والقصور.. اقرأ له : "خف الله سالما خوف رد، علم في البدء ما يكون في الأبد، وما وفيت الحياة لأحد، غدر بقاء بالوالد والولد، ما أتقاك سيف يريد، ولا جرى ماء تحت زيد، إلا بقدر العلي الصمد، فألبس ثوب ذليل مستعبد، وأتبع اليد باليد، وأنزل بالروضة المئراج[63].

ولعلنا نجزم بأن المعري لم يقصد أبدأ معارضة القرآن ولا بأي شكل من الأشكال، ولعل ما قاله الدكتور طه حسين في هذا الشأن لهو المنطق الصحيح، والتفسير الأصح لقصد أبي العلاء في كتابه : **الفصول والغايات**، فيقول طه حسين : "كان أبو العلاء أذكى قلبا وأرجح عقلا وأنفذ بصيرة، وأشد تواضعا، وأحسن علما بطاقته من أن يحاول هذه المعارضة أويقصد بها، ولكنه كان كغيره من أدباء المسلمين معجبا بالقرآن، مكبرا له، مقدرا لروعته، الفنية، فليس من شك في أنه كان يتمثل أو يستحضر بعض أساليب القرآن، حيث كان يفكر في كثير من الفصول والغايات، يذهب في ذلك مذهب كثير من أدباء المسلمين لا يجد فيه ولا نجد فيه حرجا.

ولا جناحا[64]، والمعري في كتابه هذا الذي أتهم فيه يثني على الله ثناء الإنسان الحر الذي جمع بين متناقضين، فهو حر لا يمنعه شيء من أن يتحدث إلى ربه ويصارحه بما فيه وبما لم يفهم، ويجاهر بما يرضى، وبما لم يرض، فهو مؤمن بالله ومؤمن بعقله أيضا، فيقول في كتابه : "إن الله هو الملك لا يهلك ولا يهلك، والفلك بعض ما يملك، والطرق إلى طاعته تنسك فخاب من يشرك"[65]. فالرجل كان يعبد ربه بطريقته التي يراها مناسبة وبحريته الكاملة، وكل منا يناجي ربه ويدعوه بما يشاء وكيفما يشاء، فلا قانون ولا سياسة معينة تحدد نمط العبادة، فالمعري بما أعطاه الله من نعمة بلاغية اتخذ وسيلة لدعاء ربه وعبادته، ولا أرى شيئا في ذلك والله تعالى أعلم.

(63) المصدر السابق، ص، 95.
(64) المهرجان الألفي لأبي العلاء، ص. 23.
(65) النظرية الخلقية عند أبي العلاء، ص. 216.

التوحيد والإله ومرتكزات الإيمان عند المعري وأدلته على وجود الله

الدارسون لموقف المعري من الإله مواقف : فمنهم من عده مؤمنا، ومنهم من عده كافرا، ورماه بعضهم بالزندقة،وقال آخرون بإلحاده، و لم يشذ عن ذلك النقاد المعاصرون، فقال طه حسين : "إن أبا العلاء قد هداه عقله إلى أن لهذا العالم خالقا، وإلى أن هذا الخالق حكيم، لا يشك في ذلك أو على الأقل لا يظهر فيه شكا، وإنما تمتلئ به اللزوميات ولا تخلو من قصيدة من قصائدها.

وهو إذا تحدث عن هذا الخالق العظيم تحدث عنه في لهجة صادقة يظهر فيها الإخلاص واضحا جليا ولكنه عاجز عن فهم الحكمة التي يمتاز بها هذا الخالق الحكيم، وعجزه عن فهم هذه الحكمة هو الذي يضنيه ويعذبه في نفسه أشد العذاب، ونفهم من هذه الفقرة :

1 – إيمان المعري بالله.

2 – إيمانه بحكمته.

3 – عجزه عن فهم هذه الحكمة الإلهية، أو نوعية هذه العدالة[66].

وإذا جارينا القائلين بإيمان المعري بالله، استوقفنا قوله في إحدى لزومياته :

قُلْتُمُ لَنَا خَالِقٌ حَكِيمٌ قُلْنَا صَدَقْتُم كَذَا نَقُولُ
زَعَمتُمُوهُ بِلا زَمَانٍ وَلاَ مَكَانٍ أَلا فَقُولُوا
هَذا كَلامٌ لَه خَبِيءٌ مَعنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ[67]

وهذا لا يريد الكاتب إلا ليثبت مرور المعري بحالة ما، صرح بها تارة، وألمح إليها أخرى، وحيا دونه ودون التصريح والتلميح أحيانا بدليل قوله :

بَني زَمَنِي هَلْ تَعْلَمونَ سَرَائِراً علمتُ ولكني بها غيرُ بائح[68]

(66) مع أبي العلاء في سجنه، ص. 44-45.
(67) اللزوميات، 189/2.
(68) اللزوميات، 198/1.

مرتكزات الإيمان عند أبي العلاء المعري

يؤمن أبو العلاء بالله إيمانا لا يتزعزع، ولا يعتريه أي شك في وجود الله، فهو يثبت وجوده بطريق الإيمان الاعتقادي، ويثبته أيضا بطريق الدليل البرهاني والاقتناع العقلي، ويتبرأ صراحة من الملحدين وأقوالهم، ويخطيء الذين يحكمون عليه من هذه الناحية بالكفر والإلحاد ؛ وفي اللزوميات شواهد كثيرة تثبت إيمانه بالله بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر، فيقول مصرحا بإيمانه بالله :

تَعـَالى الله كـم ملك مُهـيْـبٍ تبـدَّلَ بعـدَ قِصْـرِ ضِيْق لحـدِ
أقـَرُّ بـأن لي ربـّا قَـديْـراً وَلاَ ألقـى بـدائـعُهُ بِجَحْـدِ[69]

ويقول متبرئا من الملحدين :

فلتشهدِ السـاعاتُ والأنفاسُ على أني بَـرِئْتُ من الغـويِّ الجَـاحِدِ[70]

فهو يتبرأ من الجاحدين ويشهد الأيام والأنفس على رسوخ إيمانه بالله، ويقر كذلك بجهله لأسرار الحياة وأسباب الخلق، بل يوبخ من أنكر وجود الله وجحد الائه مثل قوله :

والله حـقٌّ وابـنُ آدمَ جَـاهِـلٌ مِنْ شَـأنِهِ التَّفْـرِيْطُ والتَّكْـذِيبُ
واللـبُّ حَـاولَ أن يُهَـذِّبَ أهلَهُ فإذا البَـرِيَّةُ ما لهـا تَهـْذِيبُ[71]

وقال في أزلية الله سبحانه :

الـروح طـائـر محبس في سـجنـه حتى يمـن رداهُ بـالإطـلاق
سيمـوتُ محمـودٌ وتهـلِكُ آلكٌ ويـدومُ وَجْـهُ الوَاحِـدِ الخَـلاَّقِ[72]

ويفهم من معنى هذه الأبيات معنى قوله تعالى : ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلا والإكرام﴾ (الرحمن 78-77). ومن صفاته تعالى أنه ثابت لا ينتقل ولا يتغير، ولا يطرأ عليه شيء من قبيل الزيادة أو النقصان بل ليس هناك ما يوصف

(69) اللزوميات، 256/1.
(70) المرجع السابق، 263/1.
(71) المرجع السابق، 76/1.
(72) المرجع السابق، 148/2.

بالثبوت إلا هو[73]، ويجزم المعري بأن الله سبحانه وتعالى هو الوحيد الذي يوصف بالثبوت فيقول :

كَذَبَ امرؤٌ نَسَبَ القَبِيْحَ إلى الذي خلقَ الأنامَ وخَطّ في برْسَامِهِ[74]

ومن تلك الصفات أيضا التوحيد، وإيمان المعري في ذلك راسخ وهو ينفي عن الله الشريك، ويتشبث بعقيدة التوحيد تشبثا عظيما فقال :

والمَجْدُ لله لا خَلْقٌ يُشَارِكُهُ وآلُ حواءَ مَا طَابُوا ولا مَجَدُوا[75]

وكذلك فإنه يعرض بمن شبهوا الله بالبشر ويذهب مذهب المؤولين ويسخر من المشبهة[76] فيقول :

فتبارَكَ الله الذي هو قَادِرٌ تَعْيَا وتقصُرُ دُونَه الإنصافُ
الظلمُ أكثرُ ما يعيشُ به الفتى وأقلُ شيءٍ عِنْدَهُ الإنْصَافُ[77]

على أن ذلك لا يعني أن المعري من المعطلة، لأنه سفه المعطلة وأثبت لله صفات عديدة هي من قبيل الفعل لا من قبيل الذات، فقال في إثبات السمع والبصر :

إذا أنتَ لَم تَحضُرْ مَعَ القوم مَسْجِداً فَصَلِّ إلى أن يقضيَ الجَمعةَ الجَمْع
ولا تأْمَنَنْ أنْ يحشَر اليومَ ربَّه لهُ بَصَرٌ من قَدره ولَهُ سَمْعُ[78]

ويثبت أبو العلاء كذلك صفات الله الفعلية، ومنها الإرادة المطلقة فقال :

ما يَشَأْ رَبُّكَ يفعلْ قادرا جلَّ عَنْ كُلِّ مَقَال وٱعْتِرَاضْ[79]

وكل ما يحصل إنما يحصل بأذنه :

يجوز بحكمه مَوْتُ الثريا وأن تبْقَى السَّمَاءُ بلا نُجُومِ[80]

(73) أبو العلاء المعري ولزومياته، ص. 573-582.
(74) اللزوميات، 330/2.
(75) المصدر السابق، 2170/1.
(76) أبو العلاء المعري ولزومياته، ص. 586.
(77) اللزوميات، 111/2.
(78) المصدر السابق، 84/2.
(79) المصدر السابق، 69/2.
(80) اللزوميات، 328/2.

ومنها العلم الشامل، فالله عز وجل يعلم عدد الرمل :

لم يُحص أعدادَ رملِ الأرضِ ساكِنُهَا وكـلُ ذلك عنـدَ الله محصـورُ[81]

وهو يعلم أسرار الضمائر، وخفايا الصدور، وسواء عنده السر والجهرفقال في ذلك :

وأجْهَرُ حِيْنـاً ثم أهْمِسُ تَـارةً وَسَيّانَ عندَ الواحِدِ الجَهْرُ والهَمْسُ[82]

أدلة المعري على وجود الله

كان المعري شديد الإيمان بالله ولكن إيمانه لم يكن إيمانا وجدانيا فحسب، بل كان إيمانا عقليا أيضا، وللمعري أدلته على وجود الله وهي :

1 – دليل الحكمة والعناية، وخلاصته أن في العالم نظاما وترتيبا يدلان على وجود خالق حكيم، فالعالم والكون حادثان، وكل حادث لابد له من محدث، فيقول :

فسـادٌ وكـونٌ حـادثـان كلاهمـا شهيـدٌ بأنَّ الخلـقَ صُنْعُ حَكِيمِ[83]

2 – دليل البرهان وخلاصته أن الملحد بحشر الأجساد ملحد بالله، فإذا آمن الإنسان بالحشر لم يخسر شيئا، وإذا جحد خسر كل شيء. وصفات الله عند المعري هي نفسها الصفات التي وردت في القرآن الكريم، فهو عنده : واحد وقادر وعادل وحق، خلق العالم ورتبه ونظمه، وجميع هذه الأسماء التي أطلقها المعري على الله نجدها في القرآن الكريم ؛ إلا أن المعري يعتقد مع ذلك أن هذه الصفات لا تطلق على الله والإنسان بمعنى واحد، فقد أراد تنزيه الله عن كل ما يوصف به المخلوق، ويقول:

انفـــردَ الله بسلـطـانِـــهِ فـمـا لـهُ في كُـلِّ حـال كِـفَـاءْ
مـا خَـفِـيَـتْ قُـدْرتُهْ عنكُـــمُ وَهلْ لَهَا مِن ذي رَشَـادٍ خَفَـاءْ[84]

(81) المصدر السابق، 293/1.
(82) اللزوميات، 12/2.
(83) المصدر السابق، 315/2.
(84) اللزوميات، 53/1.

فالبيت يماثل قوله تعالى : ﴿قل هو الله أحد﴾ فأثبت له الوحدانية والقدرة بلفظ القرآن، ويقول : "فما له في كل حال كفاء" وهو قوله تعالى : ﴿لم يكن له كفؤاً أحد﴾.

موقفه إزاء الشرائع والنبوات :

طال تأمل المعري في الشرائع التي ألم بها، وطالت مقارناته بين أصحابها وبين مضامين كتبهم، فحيره من أمرها وأمرهم الشيء الكثير منذ فجر شبابه، وكانت هذه الحيرة خلال إقامته في اللاذقية أيام لفت انتباهه فيها أصوات المؤذنين تنبعث من الصوامع ورنين النواقيس يتردد في أبراج الكنائس فقال :

في اللاذقية فتنة ... ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق ... وذا بصومعة يصيح
كل يعظم دينه ... ياليت شعري ما الصحيح

وأراد المعري أن يعرف موثق العقل من الديانات على اختلافها فوجده مشلولا، وتميز أتباعها بالتقليد والإيمان بكل مقولات أنبيائهم وحوارييهم فقال :

والعقلُ يَعْجَبُ والشرائعُ كُلُّها ... خَبَرٌ يُقَلَّدُ لم يَقِسْهُ قائِسُ
مُتَمَجِّسون ومُسلمونَ وَمَعْشَرٌ ... مُتَنَصِّرُونَ وهائِدُونَ رَسائِسُ[85]

وأفضت به مرحلة الشك إلى رأي واحد انتظم الشرائع كلها، وبدت عنده الأديان نكبات إنسانية، لتفرقتها بين الناس، وكذب زعم أصحابها نشر الإخاء والمحبة والسلام فقال :

إن الشرائع ألقت بيننا إحَناً ... وأوعدَتْنَا أفانِينَ العَداوَاتِ[86]

ونتيجة لما رأى المعري في هذه الشرائع من زرع للعداوة بين أتباعها، أن يرى الكتب المقدسة التي جاءت بها أباطيل يروجها أنصار هذه الشرائع، وتساءل عن أثرها في هداية الناس والأجيال :

قد رامتْ إلى الفسادِ البَرَايَا ... واستوت في الضّلالةِ الأدْيَانُ[87]

(85) اللزوميات، 2/28.
(86) اللزوميات، 2/154.
(87) اللزوميات، 2/355.

الإيمان بالرسل

نجد المعري مؤمنا موقرا للرسل تارة، ومكذبا ورافضا لهم تارة أخرى، قال القزويني قال لي المعري : لم أهج أحدا قط، قلت له : صدقت إلا الأنبياء عليهم السلام، فتغير لونه أو قال وجهه"[88]. قال : وقرأت بخط أبي اليسر في ذكره، وكان رضي الله عنه يرمي من أهل الحسد له بالتعطيل ويعمل تلامذته وغيرهم على لسانه بالأشعار يضمنونها أقاويله الملحدة، قصدا لهلاكه وإثار لإتلاف نفسه فقال رضي الله عنه :

حَـــاوَل إهـــوائِـي قـومٌ فـما ... واجَـهَـتْـهُـم إلا بـإهـــوانِ
يحـــرشـــوني بسعـايـاتهـم ... فـغيّـــروا نيـــةَ إخـــواني
لو استطـــاعوا لوشـــوا بي إلى ... المِرّيـــخِ في الشُّـــهْبِ وَكِيْـــوَان[89]

قلت : أما الموضوع على لسانه فلعله لا يخفى على من له لب، أما الأشياء التي دونها وقال بها في (لزوم ما لا يلزم) وفي (استغفر واستغفري) فما فيه حيلة، وهو كثير فيه ما فيه من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوءات، ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذلك كله[90].

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس : "وأما المعري فأشعاره ظاهرة الإلحاد، وكان يبالغ في عداوة الأنبياء، ولم يزل متخبطا في تعثيره خائفا من القتل إلى أن مات بخسرانه"[91].

ويقول طه حسين : فليس من الحق أن أبا العلاء لم يهج أحدا إلا الأنبياء ولكن الحق أن أبا العلاء قد هجا الناس جميعا ومنهم الأنبياء[92].

وقد أتى ببعض شعره مبينا هجاء أبي العلاء للأنبياء وأكد أن هجاءه للأنبياء مؤكد وليس فيه شك[93]، فقال أبو ا لعلاء :

---

(88) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص. 268.
(89) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص. 100.
(90) المصدر السابق، ص. 270.
(91) تلبيس إبليس، ص. 100.
(92) مع أبي العلاء في سجنه، ص. 481.
(93) المرجع السابق – بتصرف – ص. 149.

فَلاَ تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ حقاً ولـــكِنْ قَـــوْلَ زُورٍ سَـــطَّـــرُوهُ
وكـــانَ النـــاسُ في عَيْـــشٍ رَغِيـــدٍ فَـجَـــاءُوا بـالْمُحَـــالِ فَكَـدَّرُوْهُ[94]

وقال كذلك في أبيات أخرى :

أفِيقـــوا أفِيقـــوا ياغـــواةُ فإنمـــا دِيَـــانَـــاتُكُمْ مَكْـــرٌ مِنَ القُـــدَمَاءِ
أرادوا بـها جَمْعَ الحُطَـامِ فأدركوا وبَـــادوا ومَـــاتَتْ سُنَّةُ اللؤمـــاءِ[95]
يـقـولـونَ إنَّ الـدهرَ قَدْ حَانَ مَوْتُـهُ ولم يَـــبْـــقَ فِـــي الأيـــام غيرُ ذَمـــاءِ
وقَـدْ كَـذَبُـوا مـا يعرفونَ انقضـاءَهُ فلا تَسْمَعوا من كاذِبِ الزُّعَماءِ[96]

يتضح في البيتين الأخيرين الهجاء الشنيع على ما جاءت به الديانات من اقتراب الساعة وإشراف هذا الدهر على آخره. وفي هذا ما قاله السلفي وذكره الذهبي في لسان الميزان فقال السلفي : "من عجيب رأي أبي العلاء تركه تناول كل مأكول لا تنبته الأرض شفقة على الحيوانات حتى نسب إلى التبرهم، وأنه يرى رأي البراهمة في إثبات الصانع وإنكار الرسل، وفي شعره ما يدل على هذا المذهب وفيه ما يدل على غيره، وكان لا يثبت على نحلته ولا يبقى على قانون واحد بل يجري مع القافية إذا حصلت كما يجيء.

قال : فأنشدني رئيس أبهر أبو المكارم الأسدي أنشدني أبو العلاء لنفسه :

أَقَـــرُّوا بـالإلـــه وأثبـتـــوهُ وَقَالـــُوا لا نَـبـي ولا كِـتَـــابُ
وَوطيءُ بَنَـــاتِنا حِـــلٌّ مُبَـــاحٌ رُوَيْدُكُمْ فقـد بَطَـل العِتَـــابُ
تَمَـــادُوا في العِتَـــابِ فلم يتوبوا ولو سَمِعـــُوا صليلَ السيف تابُوا[97]

ويقول صاحب كتاب (الجامع في أخبار أبي العلاء) : وردت في كلام أبي العلاء أبيات يصعب حملها على وجه حسن، منها قوله :

ويَنْشَـأُ نـاشِئُ الفِتْيَـــان مِنّـا عـلـى مَـا كَـــانَ عَـــوَّدَهُ أَبُـــوه
وطـفـلُ الـفـارسِـي لـــه وَلاةٌ بـأفـعـــالِ الـتـمَـجـسِ دَرَّبـــُوهُ

(94) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص. 22.
(95) اللزوميات، 1/50.
(96) اللزوميات، ط. 1 ص. 50.
(97) لسان الميزان، ص ص. 204-205.

وجـــاءتنا شـــرَائعُ كـلّ قـوْمٍ عَـلَـى آثَـــارِ شَـيْءٍ رَتَّبُـــوهُ
وغَـيَّـر بعضُهُـمْ أَقـوالَ بَعـْضٍ وأبطلت النُّهـى ما أوْجَبُـــوهُ[98]

وبعد أن سرد صاحب الكتاب عدة أبيات لأبي العلاء قال معلقا على هذه الأبيات :

وجـاءتنـا شَـــرَائـعُ كُـلّ قـَوْمٍ عَـلَـى آثَـــارِ شَـيْءٍ رَتَّبُـــوهُ

إذا أريد به أن كل قوم يرتبون شريعة لأنفسهم، فهذا باطل وافتراء. أما إذا أريد به أن أصحاب كل شريعة رتبوها على وفق ما أرادوا ثم حملوا الناس على ذلك بعد وفاة صاحبها فهذا لا شبهة فيه بالنسبة لأكثر الشرائع القديمة[99]. ومنها قوله :

فلا تَحْسَب مَقَالَ الرُّسْـلِ حَقّـاً ولـكـن قـــولُ زُورٍ سَـطَّـــرُوهُ
وَكَـانَ النّـــاسُ في عَيْشٍ رَغيـدٍ فَجـاءُوا بالمُحَـالِ فَكـَدّروه[100]

وهذان البيتان لم يردا في شيء من كتب البخاري وإنما ذكرهما ياقوت في إرشاد الأريب وإن صحت نسبتهما للمعري فلاشك بأن هذين البيتين تكفير صريح للمعري، لأن نسبة الباطل والزور إلى الرسل كفر بلا ارتياب، وهذا لا يختلف عليه اثنان[101].

ويرى طه حسين أن من أهم أسباب شقاء المعري هو عدم هدايته للإيمان بالرسل ولكنه في الوقت نفسه لم يقطع ويجزم برفضها كلها، وإنما كان المعري في حيرة من أمره، فتراه تارة يقول في نفسه لعل هذه النبوات حق وقد يكون بعض ما جاء به صحيحا إذن فويل لي. ويقول :

قـــال المنجـمُ والطبيـبُ كـلاهُمَا لا تُـحْـشَرُ الأَجْسَـادُ قلتُ إليـكُمَا
إن صَـحَّ قولُكُمَا فَلَسْتُ بخاسِرٍ أو صَـحَّ قَوْلِي فالخَسَـــارُ عَلَيْكُمَـا
طَهَّـرْتُ ثَـوْبِي للصـلاة وقَبْلَـهُ طُهْرٌ فأينَ الطهرُ مِنْ جَسَدَيْكُمَـا[102]

(98) اللزوميات، 2/321.
(99) الجامع في أخبار أبي العلاء، ص ص. 1365-1366.
(100) تعريف القدماء بأبي العلاء، ص. 22.
(101) الجامع في أخبار أبي العلاء، ص ص. 1365-1366.
(102) اللزوميات، 2/306.

ويحتار المعري أكثر فأكثر في أتباع ديانة معينة، فهل يتبع اليهودية وهو يعيب كثيرا من أقوالهم وأعمالهم، أم يتبع النصارى وهم ليسوا أفضل من اليهود، أم يتبع سيرة المسلمين فهو كذلك يعيب عليهم، وعلى الهنود والفرس وغيرهم، ومع ذلك تراه مترددا فماذا يصنع إن صح ما تتنبىء به هذه الديانة أو تلك[103].

المعري وموقفه من اليهود

يمكن تلخيص رأى المعري في اليهود بأن التوراة هو كتاب موسى، وأن اليهود حرفوها حتى امتلأت بأكاذيب الأحبار لذلك فلا يقبل أي شيء من كتب التوراة[104].

وقد نقم أبو العلاء على اليهود بشدة لكثرة تحيلهم في دينهم وتحريفهم فيه، ومما قاله :

ولا تُطِيعَنَّ قَوْماً ما ديانَتُهُمْ إلاّ احتيالٌ عَلَى أخْذِ الإتَاوَاتِ
وإنما حَمَّلَ التوراةَ قارئُهَا كَسْبُ الفَوائِدِ لا حُبُّ التّلاوَات[105]

وقال :

غدا أهلُ الشرائعِ في اختلافٍ تُقَضُّ بِهِ المضاجعُ والمُهودُ
فقد كَذَبَتْ على عيسى النّصارَى كما كَذَبَت على موسى اليَهود[106]

وهنا يهاجم أبو العلاء اليهود في انحرافهم عن الدين واستغلالهم لهذا الدين لتلبية مصالحهم ورغباتهم. قال :

ضلّت يهودُ وإنما تَوْرَاتُهَا كَذِبٌ من العلماءِ والأحبار[107]

وقال :

أجّلت سبتها أشياع موسى أسبت القطع ذاك أم السبات[108]

---

(103) الجامع، ص. 1404 بتصرف.
(104) أبو العلاء المعري ونظرة جديدة إليه، ص. 131.
(105) اللزوميات، 154/1.
(106) اللزوميات، 226/1 وقضايا العصر، ص. 163-3 – الجامع، ص. 1404 بتصرف.
(107) اللزوميات، 398/1.
(108) اللزوميات، 135/1.

وقال :

تـــرجو يهـــودُ المسيحَ يـأتي وتـأمـلُ الـدَّهـْرُ أنْ يَـهُـــودَا
وكيف تُـــرعَـــى لهمْ عُهـــودٌ من بعد ما ضَيَّعُـوا العُهـُـودَا[109]
وليس الـذي قال اليهوديُّ ثابتاً سوى أنه بالخطّ أثبت في السُّفْرِ[110]
كُـلُّ الذي تحكـــونَ عن مـولاكُمُ كَذِبٌ أتـاكـم عـن يهـــودَ يُـحَـبَّرُ
رَامَـتْ بِهِ الأحبـــارُ نَيْـلَ مَعِيشَةٍ في الدَّهـْرِ والعمـلُ القبيحُ يتَّبرُ[111]

ومما سبق يتضح أن أبا العلاء المعري لا يثق باليهود ولا بالتوراة ولا بالإنجيل ويدل على أنه عالم بمعتقداتهم وعاداتهم.

موقف المعري من النصارى

درس المعري عقيدة النصاري دراسة عميقة كاليهودية، وقيل إنه تلقى علومه هذه في اللاذقية، وذلك لرواية القفطي في **إنباه الرواة** حيث قال :

"فاجتاز باللاذقية، ونزل دير الفاروس، وكان به راهب يشدو شيئا من علوم الأوائل، فسمع منه أبو العلاء كلاما من أوائل أقوال الفلاسفة، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به[112]". فقال :

فـي الـلاذقـــيـــة فـــتـنـــة مـــابين أحـــمـــد والمســـيـــح
قـــس يـعـالـــج دلـبـــه والشيـخ من حنـق يصيـح[113]

وقد أعجب المعري دأب الرهبان في اعتزالهم عن الناس وتقشفهم، وأنكر عليهم أكل لحم الحيوان وأكل أموال الناس، وكذلك عاب عليهم شجنهم أنفسهم للتعبد لأن هذا مخالف لما كان عليه عيسى عليه السلام، فقال :

وَيُعْجِبُنـِي دَأَبُ الذين تَرَهَّبُـوا سـوى أَكْلَهُم كَدَّ النفوسِ الشحائحِ
وأطيـبُ منهم مطعمـاً في حيـاتـه سُـعـــاةُ حـلاَلٍ بين غـادٍ ورائـحِ
فـمـا حبسَ الـنـفسَ المسيـحُ تَعَبُّداً ولكنْ مَشَى في الأرضِ مِشْيَةَ سَائحِ[114]

(109) اللزوميات، 239/1.
(110) اللزوميات، ج. 1 ص. 306.
(111) أبو العلاء المعري، ص. 201 واللزوميات، 301/1.
(112) تعريف بأبي العلاء، ص. 30.
(113) الجامع، ص ص. 1410-1412.
(114) اللزوميات، 198/1.

وانتقد وهجا الرهبان غير المخلصين بأنهم كالذئاب فقال :

أوْ دَيْرَ نَصْـــرَانِيـةٍ مُتَظَـــاهِرٌ بِـنُـسْكٍ ألاَ إن الـذئـابَ أوَادي[115]
الـرَّاهِـبُ المَسْجُـونُ فَرْطَ عِبَادةٍ مِنْ حُبِّ دُنْيـاهُ الكـذوبِ مولّهِ[116]
وحَسْبُكَ من عـــارٍ يَشبُ وقـودُهُ سجودُكَ للصُّلبانِ في كلِ شَارِقِ[117]

وقد سخر من عقيدة الصلب عند النصارى، وناقشه في حوار منطقي ينم عن عقل ودراية بتفاصيل هذا الدين، واستنكر اعتقاد النصارى بأن عيسى ابن الله، فقال في ذلك :

عـجَـبـاً لـلـمسيـح بينَ أُنَـاسٍ وإلى الله والـدٍ نَـسـبُـوهُ
أسلمتْهُ إلى اليـهـودِ النَّصَارَى وأقَـرُّوا بـأنـهـمْ صَـلَـبُـوه
يشفقُ الحازمُ اللبيبُ على الطفلِ إذا مـا لـَدَاتُـهُ ضـَرَبُـوهُ
وإذا كـان ما يقولونَ في عيسى صحيحـا فأين كـان أبوه ؟
كـيف خَـلّى وليـده للأعـادي أم يـظـنـونَ أنّـهـم غَـلـبُـوهُ[118]

ويقول ساخرا في الربوبية النصرانية :

وقـد شَـهِـدَ النَّصَارى أنَّ عيسى تَوَخَّتـه اليـهـود ليصلبـوه
وقـد أبـهُـوا وقد جعلـوه ربّاً لئـلا يـنـقصُـوهُ ويـجـدبـوه
أديـلَ الشـرُّ منـكـم فـاحـذروه ومـاتَ الخيرُ منكُـمْ فاندبـوه[119]

ورفع نقده الى ذرى الجبال فتناول الصوامع ورهبانها لأنه لم يجد من يزهد يقينا وبغير رياء فقال :

لـعـمـركَ مـا في عـالمِ الأرضِ زَاهِـدٌ يَقِيْناً ولا الرُّهبانُ أَهلُ الصَّوامعِ[120]

(115) اللزوميات، ج. 1، 249/2.
(116) اللزوميات، 427/2.
(117) اللزوميات، 143/2.
(118) اللزوميات، 427/2.
(119) المعري في فكره وسخريته، ص. 123 : واللزوميات، 424/2.
(120) اللزوميات، 97/2.

نقد المعري للصوفية

عندما نشأت حلقات الذكر أصبح التسبيح تلاوة معهودة، وطرازا مكتوبة، حتى تفاقم أمرها، وبعدت بأهلها عن نهج الدين وسلكت بهم طريق التصوف، وتطرف بها قوم حتى أصبحت فنونا من التسول والعبث واعتقادات غريبة وتهويلات، تفرق فيها الناس إلى جماعات وفرق[121]. وقد كانت المعرة وما والاها من بلاد الشام تعرف هذه الأفكار في زمن المعري ؛ وقد نقد هذه الفرقة بشدة وسفهها وفي هذا رد صريح على من زعم أن المعري متصوف[122]. ونقدهم المعري وسخر منهم حتى بلغت سخريته باسمهم فقال :

صوفيّةٌ ما رضوا للصُّوفِ نسبتهم حتى ادَّعُوا أنهم من طاعةٍ صوفوا[123]

ووصفهم بأنهم نفر يلبسون التصوف نفاقا وخداعا، ويقومون في أذكارهم فيدورون كالسكارى ويرقصون في الذكر، وكان وصفه بأسلوب تهكمي ساخر، فيصف سحابة تجود على الصوفيين كما تجود السحابة الثرة على الأرض المجدبة والسحابة في هذا جاهلة فقال :

رُوَيْدَكِ يا سَحَابَةُ لا تَجُودِي على السبخاتِ من جهلٍ هميتِ
طلبتِ ديانةً بينَ البَرَايا لَقَدْ أشوَتْ سِهَامُكِ إذ رَمَيْتِ
تَزَيُّوا بالتَّصَوّفِ عَنْ خِدَاعٍ فَهَلْ زُرْتِ الرِّجالَ أو اعتميتِ
وقامُوا في تَوَاجُدِهِم فَدَاروا كأنهُمُ ثِمَالٌ من كُمَيْتِ
وما رَقَصوا حَذاراً من إلهٍ وَلاَ يبغونَ إلا ما حميتِ[124]

وقف المعري منهم موقفا معاديا لتكلفهم الزهد والورع وهم بعيدون عنه، ولحركاتهم الغريبة من مجون ورقص وإطلاقهم شعورهم كالنساء يعقصونها مثلهن، ثم ينصرفون عن العبادة بحجة الوجد وسقوط التكاليف عنهم فيقول المعري في ذلك :

صوفيةٌ شَهِدَتْ للعقلِ نسبَتُهم بأنهُمْ ضأنٌ صوفٍ نطحها يقُصُ[125]
لا تُرْقِصَنَّ مُهَيراتٍ مُكَرَّمَةٍ فللمهارى قديما يُعرَفُ

(121) المعري في فكره وسخريته، ص. 242 بتصرف.
(122) أبو العلاء ناقد المجتمع، ص. 79.
(123) اللزوميات، 108/2.
(124) أبو العلاء المعري ناقد المجتمع، ص ص. 88-89.
(125) اللزوميات، 62/2.

تواجدَ القومُ من نُسْكٍ بزعمهم الله يشهدُ مازادُوا كما نَقَصُوا
لا نَالَ خيراً فتًى أمْسَت أنامِلُهُ مداري السَّرْحِ مَوْصُولاً بها العُقُصُ[126]

ويقول أبو العلاء للصوفية : نحن قطنية وأنتم صوفية وحسبي القطن لباسا وهو كلام تهكم وهزل فيقول :

نحنُ قطنيةٌ وصوفيةٌ أنتُمُ فَقَطني من التَّجَمُّلِ قطني
تَقْطعونَ البلادَ بَطْناً وظَهْراً إنما سَعْيُكُمْ لفرجٍ وبطنِ[127]

وفي بيته الأخير كان بالغ السخر شديد التهكم، لاذعا فيهما إذ جعلهم دون مستوى البشر، فالبهائم لا تطلب غير الجنس والطعام[128]. وأخيرا يقول عبد الكريم الخطيب عن أبي العلاء المعري :

"ينزع منزع الصوفية، وإن لم يكن صوفيا، فيأتي بالشطحات والملغزات التي هي أشبه بجع الكهان في أغرابها وتعمية مسالكها"[129]:

كَيْفَ خَلَّى وليدَه للأعادِي أم يَظنُّونَ أنهم غَلَبُوه[130]

ويقول ساخرا في الربوبية النصرانية :

وقَدْ شَهِدَ النَّصَارى أنَّ عيْسَى توخَّتْه اليهودُ لِيَصْلِبُوهُ
وقد أبهَوا وقد جعلُوه ربّاً لئلا يَنْقُصُوهُ وَيجْدِبُوهُ
أديلَ الشرُّ منكم فاحذروه ومَاتَ الخيرُ منكم فاندبوه[131]

"ورفع نقده إلى ذرى الجبال، فتناول الصوامع ورهبانها لأنه لم يجد من يزهد وبغير رياء :

لَعَمْرُكَ ما في عَالَمِ الأرض زَاهِدٌ يَقيناً ولا الرهبانُ أهلُ الصوامعِ[132]

(126) النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري، ص. 138 واللزوميات، 62/2.
(127) أبو العلاء ناقد المجتمع، زكي المحاسني، ص. 80 واللزوميات، 402/2.
(128) المعري في فكره وسخريته، ص. 244.
(129) أبو العلاء بين الإيمان والإلحاد، عبد الكريم الخطيب، ص. 22.
(130) المعري في فكره وسخريته، عدنان العلي، واللزوميات، 427/2.
(131) اللزوميات، 427/2.
(132) اللزوميات، 97/2.

المعري والشيعة

الشيعة طائفة مسلمة ومنهم الكيسانية والأمامية والإسماعيلية وهم الباطنية، ولهم ألقاب كثيرة ؛ ففي العراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وبخراسان يسمون بالتعليمية والملحدة، وهم يقولون نحن إسماعيلية[133].

والمعري عرف كل ما أثاره المسلمون من خصومة وقضايا عقلية، أو سياسية أو اقتصادية، وقد تأثر المعري من غير شك في هذه المذاهب المختلفة تأثرا عقليا، فدرسها وحاول فيها و لم يأخذ منها إلا ما وافق آراءه وعقله. فإذا قلنا إن أبا العلاء المعري تأثر بالشيعة والقرامطة فشعر أن الأرض ملئت جورا بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية فهذا صحيح، أما إذا قلنا إن أبا العلاء تأثر بهذه الفرق فانتظر إماما سيأتي، أواستجاب لإمام قائم فهذا غير صحيح ؛ فهو ليس إسماعيليا، ولا قرمطيا، ولا شيعيا، فهو يؤمن أن الأرض امتلأت جورا لكنه كان يائسا من أن يرفع هذا الجور زعيم القرامطة أو الأئمة الفاطميون في القاهرة، أو الإمام الذي ينتظرونه[134]. والمعري ليس مزدكيا ونسبته إلى المزدكية فيه شيء من الغرابة، لأن مزدك كان يستحل المحارم والمنكرات، ويسوي بين الناس في المال والنساء، والمعري يتشدد في منع هذا ويتبرأ من مذهبهم فيقول :

بـرئتُ إلى الخَلاّقِ مـن أهـلِ مـذهبٍ يَـرَون مـن الحقّ الإبـاحـةِ لـلأهـل[135]

وينكر المعري أن يكون قبر الإمام بالكوفة فيقول :

وَمَا صَـحّ للمـرء المحَصّـلِ أنّـهُ بكـُوفَـانَ قبرٌ لـلإمـامِ يـُزارَ[136]

والكوفان يعني الكوفة، ولا يرى التعصب لأبي بكر أو لعمر رضي الله عنهما فيقول :

ضمنتَ فـؤادِي للمعـاشرِ كلّهـمْ وَأمْسَكْتُ لَمّا عظّموا الغارَ أو خمّا[137]

(133) الجامع في أخبار أبي العلاء، محمد الجندي، ص. 1435.
(134) مع أبي العلاء في سجنه، طه حسين، ص. 187 بتصرف.
(135) النظرية الخلقية، سناء خضر، ص. 219 واللزوميات، 225/2.
(136) اللزوميات، 286/1.
(137) اللزوميات، 296/2.

فالشيعة تحتج لتفضيل علي على أبي بكر بيوم خم والسنة يحتجون لتفضيل أبي بكرعلى علي بيوم الغار. والمعري ضمن قلبه للفريقين، وأمسك عن القول لما تعارض الفريقين، وهو لا يتعصب لفريق دون الآخر، ولكنه غير راض عن هذه التفرقة فقال :

لَعَمْرُكَ مَا أسَرُّ بيوم فطر ولا أضْحَى ولا بغدير خمّ
وكم أبدي تشيعَهُ غَوِيٌّ لأجلِ تنسّب ببلادِ قُم[138]

والحقيقة أن المعري هاجم الباطنية ومنهم النصيرية في قولهم بالتناسخ، وأنكر على الحاكمية عبادتهم للحاكم بأمر الله، وأنكر على القرامطة إباحتهم للمنكرات، وفي هذا رد على القول بأن المعري ينتمي إلى الشيعة وفرقتها النصيرية[139].

وينكر المعري فكرة المهدي المنتظر لأنه يرى أن الإمام الحقيقي هو العقل، وهذا ينفي عنه الإسماعيلية، ويقول في ذلك :

كَذَبَّ الظَّنُ لا إمام سوى العقلُ مُشِيْراً في صُبْحِه والمساءِ[140]

ويقول المعري في رسالة الغفران ذاكرا أخبارهم وعقائدهم : "والإمامية تقربوا بالتعفير فعده بعض المتدينة ذنبا ليس بغفير، ويحضر المجالس أناس طاغون كأنهم للرشد باغون، وأولئك علم الله أصحاب البدع والمكر، ومن ذلك بزنج في دكر"[141].

والإمامية هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه، قال المعري : "أما الذين يدعون في علي عليه السلام ما يدّعون فتك ضلالة قديمة، وديمة من الغواية تتصل بها ديمة وقد روي أنه حرق عبد الله بن سبأ لما جاهر بذلك النبأ"[142]. وقال أيضا في الكيسيانية: "واعتقاد الكيسيانية في محمد بن الحنفية عجيب، لا يصدق بمثله نجيب وعلي له سابقة محاسن كثيرة رائعة وكذلك جعفر بن محمد شرفه بالثمد[143].

---

(138) اللزوميات، 325/2.
(139) النظرية الخلقية، سناء خضر، ص. 219.
(140) اللزوميات، 51/1.
(141) رسالة الغفران، لأبي العلاء المعري، ص. 222.
(142) الجامع، محمد الجندي، ص. 1437.
(143) المصدر السابق، ص. 255.

والكيسيانية هم أصحاب كيسان مولى علي رضي الله عنه، ويعتقدون فيه الإحاطة بالعلوم كلها[144].

موقف المعري من الإسلام ونبيه محمد ﷺ والرد عليه

وبعد عرضنا لآراء المعري وانتقاداته اللاذعة تارة والساخرة تارة أخرى للفرق الإسلامية رأينا أن نختم بعرض رأيه بالإسلام ونبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

يقول المعري : "إن الأديان ومنها الإسلام ستزول من الوجود وستصبح أثرا بعد عين وسيأتي قوم يسألون ماهو الحج كما يتساءل قوم الآن عن الأقوام الغابرة المنقرضة كطسم وجديس"[145]. فيقول :

سَيَسْأَلُ ناسٌ مَا قُرَيْشٌ ومَكَّةٌ كما قَالَ ناسٌ مَا جَدِيْسٌ وَمَا طَسَم[146]

إلا أن بعضهم رأى عكس هذا الرأي وأثبت من كلام المعري نفسه تعظيمه وتفضيله للإسلام على غيره، ومن هذه الآراء :

1 – كان المعري يعظم القرآن ويذكر جواز النسخ عليه ويصفه وصفا بديعا لا يصدر إلا عن قلب مؤمن، كما أنه لم ينكر شيئا من الأحكام الشرعية، أما فيما يتعلق بالصلاة كركن أساسي في الإسلام فنجده كان مواظبا عليها في أوقاتها. وفي شعره كثير من ذلك فيقول :

خُذُوا سَيْرِي فَهُنَّ لَكُم صَلاَحُ وَصَلُّوا في حياتِكُمُ وَزَكُّوا[147]

ومن مدحه للإسلام وتفضيله على الأديان قوله :

وَمَتَى ذَكَرْتُ مُحَمَّداً وكتابَهُ جَاءَتْ يَهُودُ بجحدِها وَكِتَابِهَا[148]

وقال :

ولست أقولُ أن الشهبَ يوما لبعثِ مُحَمَّدٍ جُعِلَت رُجُوما[149]

---

(144) المصدر السابق، ص. 1437.
(145) الفكر الديني عند أبي العلاء، عطا بكري، ص. 147.
(146) اللزوميات، 267/2.
(147) المصدر السابق، ج. 2، ص. 155.
(148) اللزوميات، 118/1.
(149) المصدر السابق، ج.2، ص. 305.

ودعـاكُـمْ إلى خَيْـرِ الأُمُـورِ مُـحَمَّـدا ولـيست العَـوالي في القَنَـا كالسَّـوافِلِ
فَـصَـلَّـى عـلـيـهِ اللهُ مـاذَرَّ شـــارِقٌ ومـافتّ مِسْكاً ذكرُهُ في المَحَـافِلِ[150]

يتضح لنا مما تقدم أن المعري لم يكن إلا مادحا ومفضلا ومسلما وخاضعا للإسلام.

ونستبعد أن يقول المعري إن الإسلام سيزول لأن ما ذكره فيما ذكر من الأبيات السابقة يثبت أنه مقدس للإسلام، وأنه الأصلح، فيمكن أن يكون قد قصد معنا آخر قد خفي علينا، وأن يكون ما نسب إليه من قول ضد الإسلام تلفيق وافتراء، والله تعالى أعلم.

(150) المصدر السابق، ج. 2، ص. 227.

المصادر والمراجع :

1 – بكري عطا، **الفكر الديني عند أبي العلاء**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

2 – الجندي محمد سليم، **الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره**، حققه عبد الهادي هاشم، دمشق 1964م.

3 – ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، مؤسسة الكتب الثقافية، ط. 3، 1994م.

4 – الحبابي فاطمة، **لغة أبي العلاء المعري**، دار المعارف، القاهرة.

5 – أبو العلاء المعري، **اللزوميات**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 22، 1986م.

6 – حسين، طه، **تعريف القدماء بأبي العلاء**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. 3، 1986م.

7 – حسين طه، **مع أبي العلاء المعري في سجنه**، دار المعارف، القاهرة.

8 – حمادي محمد الحبيب، **المعري وجوانب من اللزوميات**، الدارالتونسية للنشر، ط. 3.

9 – الحموي ياقوت، **معجم الأدباء**، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1. ج. 1.

10 – خضر سناء، **النظرية الخلقية عند المعري بين الفلسفة والدين**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية.

11 – الخطيب عبد الكريم، **رهين المحبسين، بين الإيمان والإلحاد**، دار الفكر العربي.

12 –خلكان أحمد بن محمد أبي بكر، **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**، حققه د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

13 – زيدان عبد القادر، **قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.

14 – سعفان كامل، **في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء**، دار الأمين، القاهرة، ط. 1، 1993م.

15 – سلامة يسري محمد، **النقد الاجتماعي في أثار أبي العلاء**، دار المعرفة، الإسكندية.

16 – شرارة، عبد اللطيف، **أبو العلاء المعري**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط. 1، لبنان.

17 – شرف الدين خليل، **أبو العلاء المعري مبصر بين عميان**، دار ومكتبة الهلال.

18 – عبادة السعيد، **أبو العلاء الناقد الأدبي**، دار المعارف، ط. 1، 1987م.

19 – العبد عبد الحكيم، **أبو العلاء ونظرة جديدة إليه**، دار المطبوعات الجديدة بالإسكندرية، 1993م.

20 – عبد الرحمن عائشة، **مع أبي العلاء في رحلة حياته**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط. 1، 1982م.

21 – عبود مارون، **أبو العلاء المعري زوبعة الدهور**، دار مارون عبود، ط. 3، 1970م.

22 – عبد العلي عدنان، **المعري في فكره وسخريته**، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط. 1، الأردن، عمان.

23 – العسقلاني شهاب الدين، **لسان الميزان**، دار الفكر.

24 – ابن كثير الحافظ عماد الدين، **البداية والنهاية**، مطبعة السعادة، ط. 1.

25 – المحاسني زكي، **أبو العلاء ناقد المجتمع**، دار المعارف بحمص،ط. 3، 1989م.

26 – المعري أبو العلاء، **رسالة الغفران**، شرح وتحقيق د. معلي شاق، ط. 3، مكتبة خاصة.

27 – الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، **الندوة العالمية للشباب الإسلامي**، الرياض، ط. 2، 1989م.

28 – اليازجي كمال، **أبو العلاء المعري ولزومياته**، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988م.

مناخ الأندلس في العصر الأموي وخصائصه من خلال النصوص

محمد حقي
كلية الآداب – بني ملال

مقدمة :

رغم ما يقال عن المصادر المغربية الأندلسية الوسيطية من كونها جافة وخالية من المعلومات غير السياسية، فإن توفر الرؤية الواضحة لدى الباحث وانفتاحه على مختلف أنواع المصادر وتوظيف محتوياتها بشكل دقيق وجيد، يجعله يكتشف معطيات جديدة تهم مواضيع اجتماعية واقتصادية وحتى طبيعية. وقد كان موضوع المناخ في الأندلس من هذه النوعية من المواضيع ؛ فالحكم سابق الذكر يجعل الخوض فيه مستحيلا، لكن تتبع بعض التفاصيل الدقيقة التي ترد في المصادر متناثرة وخارج مراقبة الكتاب وبفعل ميلهم نحو الغريب أحيانا، سمح بإيراد بعض الأخبار على قلتها. وقد اعتمدنا في دراسته على الأخبار المباشرة التي يوردها المؤرخون إضافة إلى مصدر بكر، ونقصد به ظاهرة الاستسقاء والصحو اللذين تقام لهما صلاة كلما عم الجفاف أو طالت فترة التغيم والأمطار. وبناء على المعطيات المتوفرة سنعمل على رسم صورة لمناخ الأندلس في ظل الحكم الأموي (138هـ/756م – 422هـ/1031م).

1 - ملامح مناخية من خلال "صلاة الاستسقاء"

الاستسقاء من فعل استسقى الذي يعني طلب السقي، وصلاة الاستسقاء هي صلاة يقيمها المسلمون طلبا للغيث عند انقطاعه[1]. وتشبه هذه الصلاة صلاة العيدين وقتا وصلاة دون التكبير إلا الواجب، وتتكون من ركعتين جهريتين

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ج 14،ص. 393.

تعقبهما خطبتان بينهما جلوس، ويستقبل الإمام الناس في الخطبة الأولى والقبلة في الثانية، ويقلب ثوبه ويقلده الناس[2]. وقد أثارت هذه السنة خلافات كثيرة بين العامة والفقهاء حول كيفية قلب الثوب، حيث اختلفوا بين الأمام والخلف والظاهر والباطن والأعلى والأسفل[3]. ولم نتمكن من الحصول على خطب كاملة لمعرفة طبيعة المواضيع التي تتناولها، لكن المقتطفات المتوفرة تبين أنها تركز على تذكير الناس بذنوبهم لحد التقريع والتوبيخ وحثهم على التقوى والورع والاستغفار من الذنوب وترك البخل وإفشاء الصدقات[4].

تتم الصلاة عادة في المصلى والمساجد أو فيهما معا[5]. وقد تم تنظيم هذه العبادة في الأندلس عبر مراحل. حيث بدأت بسيطة ولم تحترم حتى بعض السنن مثل سنة تحويل الأردية التي لم يشرع في ممارستها إلا في الثلث الأخير من القرن 2هـ/8م على يد الفقيه المالكي زياد بن عبد الرحمن شبطون (ت 194هـ/810م)[6]. وخلال القرن 4هـ/10م، نظمت بشكل دقيق ومركزي، فالخليفة هو الذي يرسل رسائل إلى العمال في الأقاليم يأمرهم بإقامة الصلاة ويحدد وقتها وكيفية ذلك. وقد احتفظ ابن حيان برسالة الناصر سنة 317هـ/928م التي حددت الصلاة كما يلي : "وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء في المسجد الجامع يوم الجمعة والجمعة الثانية التي تليها إن أبطأت السقيا، والبروز يوم الإثنين بعدهما بجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاهم، أو يأتي الله قبل ذلك بغيثه (...) فمر الخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك ويأخذ به من قبله من المسلمين"[7]. ويوضح النص أن الصلاة تتضمن الدعاء بطلب الغيث لجمعتين متتاليتين أثناء الخطبة، فإن لم ينزل يخرج الناس في الإثنين الموالي إلى الصلاة وذلك في العاصمة قرطبة وكل المدن و القرى في الأقاليم. وقد تتكرر الصلاة مرات عديدة ؛ ففي سنة 330هـ/940م استسقى الناس سبع مرات[8] وفي سنة

(2) ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، كانو، ص. 52.

(3) عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة، المحمدية، 1968، ج. 3، ص117. ومذاهب الحكام، ص.305. والخشني، قضاة قرطبة، مكتبة المثنى، بغداد، 1953، ص. 46.

(4) النباهي، المرقبة العليا، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948، ص. 70–71. والمقري، أزهار الرياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ج. 2، ص. 279–280.

(5) ابن حيان، المقتبس، المعهد العربي الإسباني للثقافة، مدريد، 1979، ج. 5، ص352. وابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 199.

(6) ترتيب المدارك، ج. 3، ص117. وقضاة قرطبة، ص. 46.

(7) ابن حيان، المصدر السابق، ج. 5، ص. 251-252.

(8) نفسه، ص. 476-478.

379-380هـ/989-990م عشر مرات[9]، حتى ينزل الغيث أو ييأس منه وهذه حالة نادرة ما دامت الصلاة تتوج بغيث قليل أو كثير في معظم الحالات.

يؤم الناس في الصلاة صاحب الصلاة في معظم الحالات، ونظرا لكون قاضي الجماعة في قرطبة عادة ما يتحمل هذه المهمة، فإن من يؤمون الصلاة في العاصمة كانوا هم قضاة الجماعة. وقد يخرج الخلفاء عن القاعدة فيسندونها إلى فقهاء آخرين كما حصل سنة 302هـ/914م[10].

يستعد الأئمة لهذه الصلاة بطرق مختلفة تنم عن الورع والتقوى. فعندما طلب الناصر من منذر بن سعيد الاستسقاء عام 350هـ/960م صام أياما تنفلا وتقربا إلى الله[11]، أما محمد بن يبقى بن زرب سنة 379هـ فتصدق بصدقات كثيرة عن نفسه وعن خليفته[12]. ولم يكن هذا ليحصل لولا الأهمية التي يعلقها الناس على من سيكون وسيطهم بينهم وبين ربهم، فالاعتقاد السائد هو أن نزول الغيث متعلق بتقوى وورع الإمام الذي صار بدوره يخاف على مكانته ولا يتنفس الصعداء إلا بعد نزوله. فمثلا لما صلى أحمد بن محمد بن زياد بالناس، سنة 274هـ/887م، وسقوا تيمنوا به وأثنوا عليه[13]، أما محمد بن يبقى بن زرب (379هـ) فقد ذمته العامة لعدم نزول الغيث ونسبوا ذلك إلى ضعف ورعه بركونه إلى المنصور العامري وقبول ماله الحرام وهاجموه وكادوا يقتلونه لولا التجاؤه إلى مقبرة محصنة وحماية صاحب الشرطة له [14].

تتم الصلاة عادة في الشهور ما بين دجنبر وماي وهي ذات أهمية خاصة بالنسبة للناس كما سنبين فيما بعد، وقد يتحين بعض الأئمة وقت نشوء السحاب وقرب نزول الغيث لإقامتها تجنبا للفضيحة. وقد خلد الشاعر ابن الطراوة (ق5هـ/11م) ذلك فأنشد أبياتا يسخر من قوم خرجوا للاستسقاء والنهار مغيم والرذاذ ينزل فلما برزوا للمصلى عاد الصحو[15].

(9) النباهي، المصدر السابق، ص. 78-79. وابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، مكتب نشر الثقافة الأندلسية، القاهرة، 1954، ج. 2، ص. 97.

(10) ابن حيان، المصدر السابق، 102–103.

(11) النباهي، المصدر السابق، ص. 70–71.

(12) نفسه، ص. 78-79.

(13) ترتيب المدارك، ج5، ص. 190.

(14) النباهي، المصدر السابق، ص. 79.

(15) ابن عسكر، أعلام مالقة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص. 344 وابن الأبار، تحفة القادم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص. 19 . =

كانت للمتصوفة أدوار وطرق خاصة بهم. فقد كان التشفع بالصالحين أثناء الصلاة أمرا مألوفا عند المسلمين منذ عهد عمر بن الخطاب حين استشفع بالعباس عم الرسول أثناء الصلاة عام الرمادة[16]، وكان الأندلسيون فعلا يمارسونه. فأحدهم يتوسل بالزاهد أيوب البلوطي في عهد عبد الرحمن الثاني[17]، وآخر بأبي العجنس الزاهد[18]، وآخر بأبي نصر الزاهد[19]، وآخر بآل البيت[20]. وتوسل الناس أيضا بقبور الأولياء كما كان يفعل بقبر يحي بن يحي الليثي[21]. لكن لما تهيكلت حركة التصوف حاولوا تجاوز الشكل التقليدي للاستسقاء بالاقتصار على بعض الأدعية أو التضرع والبكاء أو النظر إلى السماء بعيون دامعة[22]، فهم يكتفون بالمعنى اللغوي للصلاة.

بعد دراسة الجانب الثقافي- الديني للاستسقاء سنعمل على كشف وجهه الطبيعي- المناخي. للأسف فمصادرنا ورغم كثرة أخبارها عن هذه العبادة إلا أنها لم تحدد التواريخ بشكل دقيق أو حتى تقريبي إلا في خمس عشرة حالة تمتد ما بين 206 و400هـ سنعمل على تفريغها في جدول وتحليلها.

=كتب ابن الطراوة في ذلك فقال :

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت بحرية يبدو لها رشح
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم وبدا لأعينهم بها نضح
كشف الغطاء إجابة لهم فكأنما خرجوا ليستصحوا

(16) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 64.
(17) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر، ج1، ص147-146. وابن الأبار، التكملة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1955، ج1، ص. 198.
(18) ابن الفرضي والمصدر السابق، ج1، ص. 352.
(19) ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص. 750.
(20) بيوتات فاس، ص. 64.
(21) المقري، نفح الطيب،، دار صادر، بيروت، ج2، ص. 9.
(22) ابن الخطيب، الإحاطة، تحقيق شقور، ص40-39. والتادلي، التشوف، كلية الآداب، الرباط، 1984، ص217-281. و254-255.

1 – المعطيات المناخية في الأندلس من خلال صلاة الاستسقاء

السنة	الشهر	المكان	الإمام	الاستجابة	المصدر
قبل 206هـ/821م		قرطبة	حامد بن يحي ق.ج.	غيث	التكملة 1
207هـ/822م		قرطبة	أبو نجيح مسرور بن محمد ق.ج.	غيث	المغرب لابن سعيد1
206-238هـ/ 232هـ/852م			سعيد بن سليمان القاضي	غيث	ابن سعيد 1 – النباهي
238-261هـ/ 260هـ/886م			ع. بن محمد بن مرتنيل ص.ص.	غيث	ترتيب المدارك 4
274هـ/887م	يناير–فبراير		أحمد بن محمد بن زياد ق.ج.	غيث	ترتيب المدارك 5 – ابن سعيد 1 – ابن عذاري 2
275هـ/279م	مرات	قرطبة	أحمد بن ع. الله بن خالد ص.ص.		ابن الفرضي 1
302هـ/914م	ماي	الأندلس	محمد بن عمر بن لبابة–أحمد بن أحمد بن زياد	غيث قليل	ابن حيان 5 ابن عذاري 2
314هـ/925م	مارس	الأندلس	أحمد بن بقي بن مخلد ص.ص.	غيث	ابن حيان 5
317هـ/926م	مارس	الأندلس	ص . ص.	لم يحدث شيء	ابن حيان 5 – ابن عذاري 2
330هـ/940م	يناير–فبراير	الأندلس	محمد بن عبد الله بن عيسى ق.ج.ص.ص.	غيث	ابن حيان 5
342هـ/952م		الأندلس		غيث	ابن أبي زرع
350هـ/960م		الأندلس	منذر بن سعيد البلوطي ق.ج.ص	غيث	أزهار الرياض 2 – نفح 2 – النباهي
362هـ/972م	ابريل	الأندلس	محمد بن إسحاق ق.ج. – محمد بن يوسف ق. قبرة	غيث	ابن حيان 6
379-381هـ/ 988-990م		الأندلس	محمد بن يبقى بن زرب ق.ج.	فشل	ابن الفرضي 2 النباهي
400هـ/1009م			ملوك البجاني	غيث	الصلة 1 الإحاطة / شقور 88

يبين الجدول أن الأندلس تتعرض لضربات جفاف كل ثمانية عشر سنة، وإذا أخذنا معطيات القرن الرابع الأكثر تكاملا تصبح المدة حوالي اثنتا عشرة سنة فقط، وهي المدة التي تمنحها الدراسات المناخية المعاصرة للمناخ المتوسطي (ضربات دورية كل 8 أو 10 أو 12 سنة).

يوضح الجدول أيضا وقت الجفاف داخل السنة الواحدة، فشهور يناير و فبراير ومارس وأبريل وماي هي أوقات الجفاف في الأندلس، وهي توافق الفترة الشتوية التي تحتاج فيها الزراعات الشتوية وخاصة الحبوب للمياه. وبناء على ذلك فاختيار وقت الصلاة مرتبط بالسنة الفلاحية إذ يدفع تخوف المجتمع الذي يعتمد على فلاحة معاشية في معيشته من انعدام القوت وانتشار المجاعة إلى المطالبة بها، فيستجيب أولوا الأمر بالدعوة إلى ذلك. وتؤكد المصادر هذا الارتباط بوضوح، فالوزان يقول عن المغرب المشابه للأندلس : "إذا لم ينزل مطر كذلك في أكتوبر فإنه لا يرجى أن يكون حصاد في تلك السنة. وإذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت القمح منعدمة في البوادي"[23]. كما أن انتشار المعرفة بالأنواء الممطرة تجعل الناس يترقبون وقتها لنزول الغيث أو يستسقون. ويحدد ابن البناء المراكشي تلك الأنواء الممطرة بقوله : "إذا نزل المطر في نوء الجبهة [13-19 فبراير] والذراع [4-8 يناير] والثريا [12-16 نونبر] والسماك [6-11 أبريل] تم خير العام و خصبه"[24]. وكما يلاحظ فهذه الأنواء توافق فترة الشتاء وأيضا وقت الجفاف كما تبينه أحداث الاستسقاء. وبذلك تتحدد مواعيد هذه العبادة بناء على حاجة الفلاح إلى المطر ومعرفة دقيقة بالأنواء الممطرة، وهذا ما يجعل الجفاف إما في بداية الموسم الفلاحي أو وسطه (274 و330هـ) أو آخره (302 و314 و317 و362هـ). وقد كان في الأندلس موظف حكومي يسمى "صاحب الحرث" يعلن عن وقت الحرث ويحث الفلاحين على الزراعة[25].

يظهر أيضا أن كل السنين باستثناء ثلاث (302 و317 و379-380هـ) عرفت نزول المطر بعد الصلاة، وهذا يعني أن السنة من الناحية المناخية ليست جافة، ومع ذلك تصنفها المصادر في خانة سنوات المحل، فمثلا ينقل ابن أبي زرع أن الناس استسقوا واستصحوا بعد مطر وابل وسيول عظيمة في سنة 342هـ/952م[26]. و يمكن تفسير ذلك أولا بالنفس المناقبي الذي يطبع أخبار الاستسقاء، وثانيا بنزول الغيث بعد فوات أوان الحرث كما حصل سنة 330هـ إذ تأخر حتى شهر فبراير[27]، أو يبس

(23) الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1، ص. 81.
(24)ابن البناء المراكشي، رسالة في الأنواء، مكتبة لاروز، باريس، 1948، ص. 2.
(25) ابن عبدون، كتاب الحسبة، Journal Asiatique أبريل- يونيو 1934، ص. 195.
(26) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 100.
(27) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 478.

الزرع كما كان الشأن سنة 302هـ إذ تأخر إلى ماي فـ "تمسك به بعض الزرع وذهب الأكثر باستيلاء اليبس عليه، فصرحت السنة عن ذاتها و اعتدى القحط شاملا الأندلس كلها"[28].

لقد سمحت أحداث الاستسقاء بتسليط الضوء على مشكل الجفاف الدوري الذي تعاني منه الأندلس على رأس كل إثني عشر سنة تقريبا، كما وضحت أن مفهوم الجفاف لا يعني انعدام المطر بل فقط عدم نزوله بشكل منتظم ومتوافق مع السنة الفلاحية، ووضحت أيضا أن النظام المطري في الأندلس نظام شتوي وأن التساقطات غير منتظمة بين السنين وحتى داخل السنة الواحدة. وكل هذه الخصائص توافق المناخ المتوسطي الحالي لشبه الجزيرة الإيبيرية.

إلى جانب هذه الصلاة توجد صلاة أخرى لها علاقة بالمناخ وهي صلاة الصحو التي تقام من أجل طلب توقف الأمطار وزوال الغيوم لكثرتها وطول مدتها[29]. ويمكن أن تساعدنا على معرفة السنوات المطيرة، لكن و للأسف لا توفر المصادر معلومات حولها و لم نحصل إلا على إشارة واحدة تخص سنة 342هـ/952م، ويقول فيها ابن أبي زرع : "و استسقى الناس في هذه السنة واستصحوا، وجاءت السيول العظيمة بجميع الغرب"[30].

2 - خصائص مناخية من مصادر أخرى

تم تفريغ المعلومات المتوفرة في الجدول 2، ويمكن أن نلاحظ مدى وفرة المعلومات مقارنة مع الجدول الأول وتكاملها ولكن أيضا تشابه في المعطيات باستثناء بعض الاختلافات البسيطة.

(28) نفسه، ص. 103.
(29) ابن منظور، المصدر السابق، ج14، ص. 452 .
(30) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص. 100.

2 – خصائص مناخ الأندلس الأموية

السنة	الشهر	الحدث	المكان	الآثار	المصدر
138هـ/756م	كل السنة	مطر وابل	الأندلس		ذكر بسبب فتح الأندلس
147هـ/765م		جفاف	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس وفضلها
148هـ/766م		فيضان	قرطبة	تخريب وقتل	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
161هـ/777م	حتى أبريل	جفاف	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس وفضلها
161هـ/777م	أبريل	فيضان	قرطبة	تحطيم القنطرة	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
162هـ/778م	3 أيام	فيضان	قرطبة	تحطيم القنطرة	ابن عذاري ج2
177هـ/793م	السنة	مطر وابل	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس وفضها
182هـ/798م		فيضان	قرطبة	تخريب	ابن عذاري ج2
189هـ/805م		جفاف	الأندلس	مجاعة–موت	ذكر بلاد الأندلس وفضها
197-199هـ/813م		جفاف	الأندلس	مجاعة–موت	ذكر بلاد الأندلس وفضلها–ابن عذاري2 المقري 1
207 هـ/822م		جفاف	الأندلس	مجاعة	ابن عذاري ج2- ابن حيان 2
222هـ/837م		فيضان	الأندلس		الخشني/أخبار
232هـ/847م		جفاف	الأندلس	مجاعة–جراد	ابن حيان 2–ابن عذاري 2 – ابن الأثير 7 – ابن أبي زرع.
235هـ/850 م	يناير	فيضان	الأندلس	تخريب وقتل الأندلس	ابن حيان 2–ابن عذاري 2 –ذكر بلاد الأندلس
236هـ/850م		جفاف	كورة تدمير		ابن حيان 2
244هـ/858م	السنة	جفاف	الأندلس	عدم الحرث	ابن عذاري 2
260هـ/874م	السنة	جفاف	الأندلس	جوع وباء – لصوصية	ابن حيان 3- ابن عذاري 2 ابن أبي زرع ابن القوطية قضاة قرطبة
283-4هـ/896م	الصيف	أمطار قوية رياح قوية	الأندلس		ابن حيان 3
285هـ/898م		جفاف	الأندلس	مجاعة	ابن حيان 3 ابن عذاري 2 ابن أبي زرع
288هـ/901م		فيضان	قرطبة	تحطيم القنطرة	ابن عذاري 2
290هـ/903م			قرطبة	تحطيم القنطرة	ابن عذاري 2
296-7 هـ/910م		جفاف	الأندلس	مجاعة – موت	ابن حيان 3 الخشني /أخبار
302هـ/914م	كل سنة	جفاف	الأندلس	غلاء	ابن حيان 5 مدونة تاريخية
303هـ/912م	كل سنة	جفاف	الأندلس	جوع موت غلاء صدقة–لصوصية	ابن حيان 5 ابن عذاري 2 مدونة تاريخية
307هـ/919م		جفاف ريح قوية	الأندلس	موت – جوع	ذكر بلاد الأندلس وفضلها

السنة	الشهر	الحدث	المكان	الآثار	المصدر
314هـ/926م		جفاف	الأندلس		مدونة تاريخية
317هـ/928م		جفاف	الأندلس	غلاء	مدونة تاريخية ابن حيان 5
324هـ/936م	كل السنة	جفاف	قرطبة	رخاء – استيراد	ابن حيان 5
331هـ/942م		فيضان	قرطبة	تخريب القنطرة	ابن عذاري 2
332هـ/943م		مطر وابل	الأندلس قرطبة	موت الحيوان – كسر أشجار – هدم بيوت	ابن عذاري 2
333هـ/943م		ريح – برد	قرطبة		ابن عذاري 2
334هـ/944م		فيضان	قرطبة		ابن عذاري 2
338هـ/948م		برد وثلوج	الأندلس	دمار – موت	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
350هـ/960م		جفاف	الأندلس	مجاعة	ذكر بلاد الأندلس و فضلها
351هـ/961م		فيضان	قرطبة	مجاعة	ابن عذاري 2
353هـ/963م		جفاف	قرطبة		ابن عذاري 2
375هـ/985م		مطر وابل	الأندلس	وباء	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
379-381هـ/		جفاف	الأندلس	مجاعة – جراد	ابن أبي زرع – أعمال الأعلام 2 – ذكر بلاد الأندلس وفضلها
382هـ/992م	3 أشهر	فيضان ريح قوية	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس و فضلها
385هـ/994م		ريح قوية	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس و فضلها
399هـ/1008م	شهران	مطر فيضان متوالي	قرطبة	دمار – موت	ابن عذاري 2
401هـ/1010م	3أيام	فيضان	قرطبة	دمار – موت	ابن عذاري 2

يبدأ تعليقنا على الجدول بالحديث عن ضربات الجفاف التي تتعرض لها الأندلس قاطبة أو قرطبة ونواحيها وحدها، وهي حالات نادرة جدا. ورغم تأكيدنا على عدم اكتمال الصورة وغياب بعض المعطيات، فإننا سنعتمدها للاقتراب من الحقيقة. فأقصى مدة تفصل بين فترتي جفاف تصل إلى ست وعشرين سنة وأدناها إلى ثلاث سنوات بمعدل يصل إلى اثني عشرة سنة تقريبا، وهذا يعني أن الجفاف يتكرر كلما مرت هذه المدة وهو ما اتضح لنا أعلاه من خلال أحداث الاستسقاء.

ترتبط بالجفاف الفيضانات المتكررة، بحيث نجد أن كل جفاف تعقبه فيضانات في نفس السنة أو التي بعدها، حتى إنه أصبح بالإمكان أن نحدد أحدهما بوجود الآخر فقط. والجدول يؤكد أن الفيضان يحدث كل خمسة عشر سنة وهو معدل قريب من مثيله بالنسبة للجفاف، وربما كان لغياب بعض المعلومات دور في هذا الاختلاف.

يتبين من الجدول أن الأندلس عرفت فترات باردة ومطيرة امتدت على مدى سنوات وهي : (161 –189هـ) و(331– 353 هـ) و(382–401هـ) ، وتميزت بأمطار طوفانية دائمة وفيضانات وثلوج ورياح باردة، وقد يكون هذا الوضع مرتبطا بسيادة الرياح القطبية واستقرار الجبهة القطبية جنوب أوربا. وفترات جافة شملت (189 –220هـ) و (236 –283هـ) و(290 –331هـ) ترتبط بسيادة الكتل المدارية الحارة. ودون أن نؤمن بحتمية تأثير الظروف الطبيعية في التطور السياسي نقول أن النوع الأول وافق فترات استقرار في الأندلس بينما وافق الثاني فترات اضطرابات وقلاقل.

يوفر الجدول أيضا معلومات حول بعض السنوات المطيرة على امتداد كل شهورها بما فيها الصيفية مثل سنين : 177 و283 و284، وسنين رياح دائمة وقوية مثل 283 و284 و332 و 307 و 382 و385 هـ.

في الأخير نستنتج أن مناخ الأندلس غير مستقر ومتقلب بين السنين، بحيث يعرف فترات جفاف وفيضان دورية كل اثني عشرة سنة تقريبا. كما يعرف فترات مطيرة ومعتدلة وأخرى جافة وحارة .

3 - خصائص مناخ الأندلس

تسمح النتائج السابقة بأن نستنتج ما يلي :

– النظام المطري في الأندلس شتوي حيث تنزل الأمطار في نهاية الخريف والشتاء وبداية الربيع.

– عدم توازن التساقطات السنوية، إذ قد تنزل باستمرار أو بداية الموسم أو وسطه أو آخره مما يؤثر على السنة الفلاحية سلبا.

– عدم توازن التساقطات بين السنين.

– تعرض الأندلس لضربات جفاف دورية تتكرر كل اثنتي عشرة سنة. تنتهي كل فترة جفاف بأمطار طوفانية وفيضانات قوية تترك آثارا وخيمة على الحياة.

– تتداول الأندلس فترات رطبة ومطيرة وأخرى جافة وحارة تدوم فترات غير منتظمة وغير مستقرة.

إن كل الخصائص التي عرضناها واستنتجناها إضافة إلى موقع الأندلس الجغرافي تؤكد أننا أمام مناخ متوسطي لا يختلف كثيرا عما هو سائد حاليا، وبذلك تكون مصادرنا رغم فقرها قد قربتنا من بعض خصائص هذا المناخ.

4 – آثار المناخ على الأندلس

إن خاصية التقلب والحدة وعدم الاستقرار التي تميز مناخ الأندلس (المناخ المتوسطي) تجعل آثاره على الحياة الطبيعية والبشرية شديدة وقوية. وسنعمل على تحديد بعضها حسب الظاهر.

إن ضربات الجفاف المتكررة تعد من أكثر الظواهر تأثيرا على البلاد، فبمجرد ما يظهر أثره بعجز الفلاحين عن الحرث أو ضياع المحصول بالعطش تبدأ الحبوب بالندرة في الأسواق إلى أن تختفي تماما، فترتفع الأسعار بشكل قوي، ويكفي لإظهار خطورة ذلك أن نذكر ما وصلت إليه سنة 303هـ/915م فقد "بلغ قفيز القمح بكيل قرطبة ثلاثة دنانير درهم دخل أربعين"، أما في الثغر الأعلى (سرقسطة) فوصل "قفيز القمح اثني عشر درهما فضة"[31]. وتتكرر هذه الحالة في كل أزمة باستثناء سنة 324هـ التي لم تعرف ارتفاعا بفضل استيراد الحبوب من العدوة المغربية[32]. وعادة ما يقترن بالجفاف انتشار الجراد الذي يلحس الأرض ويحرم الناس حتى من الأعشاب الطبيعية[33]. ويتبع ارتفاع السعر انتشار المجاعة والوباء في أوساط الفقراء فيكثر الموتى لحد العجز عن دفنهم[34]. ويتدخل السلطان وأهل البر

(31) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص 109 و124 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.167-168.
(32) ابن حيان، المرجع السابق، ج5، ص. 384.
(33) نفسه، ج2، ص143. و225 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص89. وابن أبي زرع، المصدر السابق، ص. 115.
(34) المقتبس، ج5، ص124. والبيان المغرب، ج2، ص73. و89 و مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 558، ص. 182.

والإحسان للتخفيف من المشكل بإفشاء الصدقات. ففي جفاف 197هـ "تصرف الحكم [الربضي] بأموال جليلة في الضعفاء والمساكين وعابر السبيل"[35] و"أكثر فيها مواساة أهل الحاجات"[36]، وفي عام 303هـ "كثرت صدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة وعلى المتعففين عن المسألة وصدقات أهل الحسبة من رجاله المؤتسين به"[37]، وفي عام 350هـ أمر الحكم المستنصر بتوزيع اثني عشر ألف خبزة يوميا[38]، وفي عام 353هـ "تكفل الحكم بضعفائها ومساكينها بما يقيم أرماقهم، وأجرى نفقاته عليهم بكل ربض من أرباض قرطبة وبالزهراء"[39]، وفي عام 379-380هـ كان المنصور العامري يفرق كل يوم اثنين و عشرين ألف خبزة على الضعفاء كما أسقط الأعشار وتكفل بدفن الموتى[40]. ورغم انتشار المساعدات فلا تكفي وكثيرا ما تقتصر على قرطبة، لذلك تشتد الحاجة في الأقاليم وتنتشر اللصوصية كما حصل سنة 303هـ حيث كان الجياع "لا يفترون عن العدوان على من مر بهم من رفاق المسلمين وطالبي المعيشة وجالبي الميرة"[41]، و تواجه هذه العمليات بشدة بالقتل والصلب والتعذيب[42]. وتختار فئة أخرى مغادرة الأقاليم الجافة إلى الخصبة أو إلى المغرب. ففي عام 297هـ/909م "عبر كثير منهم البحر إلى أرض العدوة"[43]. و يؤثر الجفاف أيضا على مشاريع الدولة ويتعطل الكثير منها، وأولها توقف الجباية إما بالتنازل عنها أو العجز عن جمعها[44]، وثانيها الجهاد الذي يتوقف لعدم قدرة الناس على تجهيز أنفسهم[45]. ويكفي لإظهار خطورته بالنسبة للدولة أن نعيد الملاحظة التي سبق لنا الحديث عنها وهي توافق فترات الجفاف مع فترات الاضطراب في الأندلس خلال هذه الفترة.

(35) ذكر بلاد الأندلس، ص. 155.
(36) نفح الطيب، ج1، ص . 319.
(37) المقتبس، ج5، ص. 109-110.
(38) ذكر بلاد الأندلس، ص. 201.
(39) البيان المغرب، ج2، ص. 236.
(40) ذكر بلاد الأندلس، ص. 212-213.
(41) المقتبس، ج5، ص. 110.
(42) قضاة قرطبة، ص. 151.
(43) المقتبس، المكتبة الشرقية، باريس، 1937، ج3، ص. 143.
(44) ذكر بلاد الأندلس، ص. 212-213. وقضاة قرطبة، ص151. وابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 106-107.
(45) المقتبس، ج5، ص. 110.

لا تقل آثار الفيضان خطورة على البلاد، فأول النتائج تظهر بتدمير البنيات التحتية وخاصة القناطر على الأنهار الكبرى وعلى رأسها النهر الكبير عند قرطبة وإشبيلية وهو ما يتكرر في كل الفيضانات كما يظهر الجدول. ويدمر أيضا كل ما يجده في طريقه، ففي سنة 148هـ/765م "كان سيل عظيم في قرطبة حمل الدور والناس والدواب"[46]، وفي عام 182هـ/798م "ذهب بربض القنطرة [قرطبة] و لم يبق فيه دارا إلا هدمها، حاشى غرفة عون العطار، وبلغ السيل شقندة"[47]، وفي عام 235هـ/849م دمر الوادي الكبير في كورة إشبيلية ست عشرة قرية وذهب ببعض سكانها وأمتعتهم وبهائمهم وحطم وادي شنيل القنطرة عند استجة وذهب بالأرحاء وحمل وادي تاجه ثمان عشرة قرية وصار عرضه ثلاثين ميلا[48]، وفي عام 401هـ/1010م هدم النهر من أرباض قرطبة نحو ألفي دار وما لا يحصى من المساجد والقناطر وأكثر السور كما مات فيه نحو خمسة آلاف شخص[49]. وعلينا أن نتصور حجم الخسائر في ظل ضعف البنايات وندرة وسائل الإنقاذ. ويضاف إلى هذه الخسائر تجريف التربة واقتلاع الأشجار والأحياء التي تموت أو تفقد شروط عيشها.

وتخلف باقي الظواهر خسائر كبيرة، ففي سنة 332 هـ "هبت ريح عاصف ردفتها أخرى، فاقتلع كثيرا من شجر الزيتون والتين و غيرها من الأشجار والنخيل، وأطار كثيرا من قرميد السقف "ورافقها مطر وابل وبرد غليظ" فقتل كثيرا من الوحش والطير والمواشي، وأتلف ما أصاب من الزرع وأساء التأثير"[50]، ونزل برد غليظ بلغ وزنه رطلا قتل الطير والوحوش البهائم وكسر الأشجار وقتل بعض الناس عام 338 هـ[51].

هكذا يلاحظ أن مناخ الأندلس يخلف خسائر كثيرة على البيئة الطبيعية والبشرية بالجفاف والفيضانات والأمطار الطوفانية والبرد الغليظ والرياح الهوجاء الباردة والحارة.

---

(46) ذكر بلاد الأندلس، ص. 134.
(47) البيان المغرب، ج2، ص. 70.
(48) المقتبس، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1971، ج2، ص146. و البيان المغرب، ج2، ص. 89.
(49) البيان المغرب، ج3، ص. 105.
(50) البيان المغرب، ج2، ص. 211.
(51) ذكر بلاد الأندلس، ص. 195.

4 - خـاتمـة

إن المعطيات التي توفرت ورغم عدم اكتمالها قد قربتنا من خصائص مناخ الأندلس في عهد الأمويين، وأهم خاصية ميزته هو طابعه الانتقالي بين المناخين المعتدل والحار مما يطبعه بالتقلب وعدم الاستقرار والحدة والتطرف التي تعكسها الخسائر الكبيرة التي يخلفها.

دراسات وعروض بليوغرافية

قضايا المياه في المدينة الأوربية خلال العصر الوسيط
من خلال آخر أبحاث : J.P. LEGUAY [1]

محمد حناوي
كلية الآداب – الرباط

احتل الحديث عن قضايا المناخ والماء والفيضان والجفاف والتلوث، الصدارة في الأوساط المهتمة، الرسمية وغير الرسمية، نظراً لما حدث من تقلبات طبيعية وتحولات هامة، كانت في أغلبها سلبية بالنسبة للإنسان. أدى ذلك إلى التفكير في كيفية فهم ومعالجة العديد من القضايا السالفة الذكر باعتبارها مركزية وملحة. ويكفي القول إن بعض الأوساط ذهبت إلى حد القول بأن مستقبل البشرية في العشرية القادمة يكمن في امتلاك المياه وليس البترول أو الغاز الطبيعي. ولاشك أن المياه ستقل خلال القرن الواحد والعشرين وذلك لأسباب متعددة[2].

حاول الباحثون، كل في مجال اهتمامه، فهم القضايا الأساسية المرتبطة بالمياه وحياة الإنسان منذ أقدم العصور، وفي هذا الإطار خصص الباحث لوكي (LEGUAY) المهتم بالمجالات الحضرية الأوربية خلال العصر الوسيط بحثاً معمقاً للماء وتاريخ تنظيمه في المدينة الأوربية منذ انهيار الحضارة الرومانية القديمة إلى فجر العصر الحديث[3].

تجدر الإشارة إلى أن عنوان الكتاب يوحي بأن المؤلف تناول بالدراسة والتحليل كل مراحل العصر الوسيط، لكنه نبه، في المقدمة، إلى أن اهتمامه انصب في المقام

---

(1) **LEGUAY (J.P)** ; L'eau dans la ville au Moyen Age. Presses Universitaires de RENNES, 2002. يقع الكتاب في 493 صفحة من الحجم الكبير.

(2) **نفسه**، ص ص. 111، 119.

(3) تعتبر المياه خلال العصور القديمة وفترة العصر الوسيط من المكونات الأساسية الأولى في إعداد المجال في المدن، قبل أن ينضاف إليها الغاز والكهرباء، وهما، بلاشك، المادتان المشهورتان في العصور الحديثة.

الأول على مدن فرنسا والأقاليم التابعة لها. ومن الطبيعي أن تستثنى مدناً وبلداناً تبدو أكثر تقدماً من فرنسا العصر الوسيط في مجال التحكم في المياه وتنظيمها، كما هو الشأن في إيطاليا وإنجلترا وألمانيا وإسبانيا[4]، التي استغلت فيها المياه بشكل أكثر تنظيماً وعقلانية منذ وقت مبكر.

لدراسة طرق تنظيم المياه في المدينة الأوربية اعتمد المؤلف منهجية قائمة على محاور أساسية منها العودة إلى العصر الروماني لمحاولة فهم أسس توطين وتنظيم المياه في المجال الحضري. وحاول تحديد الإمكانيات والحاجيات وكذلك الاستعمالات المرتبطة بمجموعة من التجهيزات الضرورية. لكن في الوقت ذاته اقتصرت الدراسة، في أغلب الأحيان، على مراكز نموذجية معروفة ابتداء من العصر الروماني الأسفل مروراً بعهد الميروڤنجيين والكارلنجيين، نظراً لما وفرته بعض دور الأرشيفات والوثائق الإدارية "والسنيورية" من معلومات مختلفة حولها.

وابتداءًا من القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (XIII-XIIم)، اتضحت الصورة أكثر حول العديد من القضايا التي تهم الطبيعة والماء بفضل ما قدمته الوثائق والمصادر الموسومة بالسردية على اختلافها[5] من معلومات مفيدة للغاية تهم مثلاً طبيعة العلاقات التي نسجت في المجال الطبيعي بين مكونات اجتماعية مختلفة، أو كيفية إنجاز بعض الأشغال من قبل فئات متخصصة كالبنائين أو الذين يسهرون على إعداد القنوات لصرف المياه أو تجهيز العيون، فضلا عما له علاقة مباشرة بالنظافة وما ينتج عن استعمالات المياه.

---

(4) في إطار الحديث عن تقديم إسبانيا في ميدان التحكم في المياه وطرق تنظيمها ذكر المؤلف عبارة «إسبانيا المسيحية والإسلامية» (ص8) كأن المسيحيين هم السباقون في ذلك، في حين أن المنطق يبين عكس ذلك. يكفي العودة إلى متون المصادر الأندلسية خاصة كتب الفلاحة، وبعض المصادر المسيحية نفسها للتأكد من سبق الأندلس في الأعمال الزراعية منذ وقت مبكر. انظر التفصيل في :
حناوي (محمد)، «الأدوات الفلاحية الأندلسية من خلال المصادر : كتب الفلاحة نموجاً»، مجلة الاجتهاد، عددة 34-35 مزدوج، بيروت، 1997، ص. 101-117.

(5) هناك وثائق كثيرة متباينة كالملكية والأميرية والكنسية، أو تلك التي لها طبيعة قانونية تشمل أو تحدد الحقوق والواجبات أو الالتزامات المختلفة لكل الأطراف أو الفعاليات التي تتدخل في استغلال المجال. انظر بعضها في:
DUBY (G) ; Guerriers et paysans : VII-XIIè siècle, premier essor de l'économie européenne. Paris, Gallimard, 1973.
BOUTRUCHE (R) ; Seigneurie et féodalité. Paris, Aubier, 1970-1971, 2 vol.
Les sociétés Méridionales autour de l'An Mil. Répertoire des sources et Documents commentés, Paris, C.N.R.S, 1992.

يطرح المؤلف أسئلة هامة من قبيل : هل قلّت المياه وضعفت جودتها في آخر العصر الوسيط ؟ وهل ازداد التلوث خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد (XV-XIVم) بفعل الحروب والمجاعات وسلوك بعض الأشخاص في الوقت الذي ظهرت فيه بعض الصناعات الأولى الملوثة والمُوَسِّخة ؟

لاشك أن عدة مشاريع مثل إعداد ومد القنوات والاستعمال المنزلي والجماعي للمياه النقية وطرق الصرف الصحي وغيرها، كانت تتطلب مهارات وتقنيات عالية ناهيك عما تحتاجه من الأموال والتكاليف.

حاول المؤلف الإجابة عن التساؤلات السابقة اعتماداً على نصوص مصدرية ذات صلة بالموضوع كالوثائق "السنيورية" والكنسية ذات المضامين الاقتصادية. فقد ركز على النصوص التي اهتمت بالجلسات المتعلقة بالمصاريف المخصصة لاستغلال مياه بعض العيون، أو حفر الآبار أو إعداد وبناء وإصلاح القنوات المصنوعة من الأخشاب أو من الطين المجفف أو من بعض المعادن. ناهيك عن أسماء العمال الذين أنجزوا تلك المشاريع بالمياومة أو بالجملة. ولاشك أن الكثير من النصوص والعقود والاتفاقيات قد كشف عن معلومات مفيدة أيضاً في فهم طبيعة المجال الطبيعي أو الطبوغرافي الذي أنجزت عليه تلك المشاريع. وارتباطاً بذلك لم يفت الباحث أن يشير إلى أن مثل هذه القضايا تحتاج كذلك إلى معلومات ميدانية. فلاشك أن دراسة المياه وطرق توزيعها واستعمالاتها المختلفة تستفيد من نتائج البحث الأركيولوجي الذي أنجز في المدن نفسها، بل في بعض الأحياء والحدائق والمساحات المجاورة. كما يمكن الاستعانة بما تقدمه الملاحظات ذات الصبغة التاريخية أو السسيولوجية المعاصرة.

ومن المعلوم أن لدراسة المياه علاقة مباشرة بقضايا مختلفة تهم الحياة اليومية للإنسان كالاقتصاد والصيد والتجارة النهرية والبحرية وإنتاج الطاقة عبر أدوات محددة كالأرحى والمناشير المائية، إضافة إلى التحولات التي تحدث في الصناعات اليدوية التي تستهلك المياه مثل الصباغة والدباغة والوراقات وغيرها.

قسم الباحث دراسته إلى أربعة أقسام تضم أربعة عشر فصلاً إضافة إلى المقدمة والببليوغرافيا[6] وبعض الملاحق والخرائط والرسوم البيانية التوضيحية.

في القسم الأول المعنون ب : **وزن الماضي : من القديم إلى القرن الثالث عشر** يطرح المؤلف أسئلة وقضايا تهم أصل المدينة وموقعها ومؤسساتها وعقلية ساكنتها، ثم علاقاتها بالمياه من حيث تنظيمها وتوزيعها والاستفادة منها في مجالات مختلفة. إن علاقة الماء بالمدينة وطيدة للغاية حتى أن مؤرخ الطبيعة الشهير بلين القديم[7] (Pline l'Ancien) سبق وأن لاحظ أن «المياه تصنع المدينة». لذلك بدأ الباحث الفصل الأول الذي سماه «**التقاء النهر بالمدينة**» بتبيان موقع المدن والأنهار مذكراً أن مياه الأنهار الجارية عادة ما تلتقي بالمدن. فالمدينة منذ العالم الروماني القديم لم تختر تطورها خارج نطاق نهر أو مساحة مائية معينة. فكل الدلائل تشير إلى أن أغلب المدن الرومانية التي عرفت في إقليم غاليا القديمة – وهي حوالي (120 إلى 130 مدينة) تقع بقرب العيون أو الأنهار أو فروعها[8]. كما تلعب عوامل أخرى دوراً هاماً في تطور المدينة كالقرب من الطرق التجارية أو العسكرية أو توافر الأراضي الزراعية الخصبة أي الاستفادة من التقاء أو تقاطع شبكة مائية غنية. أو عكس ذلك وقوع المدينة في مرتفع دفاعي هام من الناحية العسكرية لكنه قليل المياه[9].

(6) اعتمد المؤلف أبحاثاً متنوعة ودقيقة للغاية وجديدة تثير إشكاليات الماء في تاريخ المجتمعات الوسيطية. يجب التذكير في هذا الصدد أن هذه الأبحاث جاءت نتيجة تراكم معرفي علمي هام تحقق في المدرسة التاريخية الأوربية في السنين الأخيرة. انظر على سبيل المثال لا الحصر :

BAUCHET (O) ; Les Moulins de la Marne, Arquéologie des fleuves et des rivières. Paris; 2000.

REYNARD (D) ; Histoire d'eau. Bisses et irrigation en valois au XIV^e siècle, Lausanne, 2002.

(7) أورده المؤلف ص. 97. تجدر الإشارة إلى أن "بلين القديم"، الذي عاش خلال القرن الأول للميلاد (ت 79م)، من أهم مؤرخي الطبيعة، اكتسب خبرة كبيرة في مجال البحار التي قاد فيها الأساطيل.

(8) **نفسه**، ص. 16.

(9) **نفسه**، الصفحات : 16-17-18-19.

يبدو أن هذه المعطيات الطبيعية التي تتحكم في المدن لا تقتصر على أوربا وحدها. إن المصادر العربية على اختلافها وتنوعها تشير بدقة إلى ما ينبغي توفره في اختيار مواقع المدن. فصاحب روض القرطاس مثلا اعتمد على الحكماء القدامى ليقول : «أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان إذ به صلاح حالها». ابن أبي زرع (الفاسي)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص. 33.

وظفت كل هذه المعطيات في العديد من الأبحاث المعاصرة : انظر مثلاً :

Torres-Balbás (L) ; Ciudades Hispano musulmanas, Madrid, 1985.

حناوي (محمد)، النظام العسكري الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف. أطروحة الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – المحمدية، 2000، الجزء الأول : مواقع المدن، ص. 253 وما بعدها. =

هكذا يتبين أن المجالات الحضرية لابد لها من الاستفادة من الشبكات المائية المتوفرة على اختلافها كالمحيطات والبحار والأنهار والعيون والبحيرات وغيرها. وأحياناً تكون التجارة النهرية مفيدة جداً للمدينة وتجارها أكثر من غيرها، خاصة إبان الحروب. لقد حدث ذلك بالفعل أيام الغزوات "البربرية" والثورات الفلاحية والحروب الأهلية التي عرفتها بعض الأقاليم الأوربية قبيل القرن الخامس الميلادي[10]. لقد تأكد من خلال النصوص المصدرية وبعض الأبحاث الطبونيميّة والأركيولوجية أن التقاء النهر بطريق تجاري هام، كما هو الحال في مدن مثل ليون ونانت وأورليان، ساهم إلى حد كبير في نموها[11]. أكثر من ذلك ساعدت تلك الوضعية على تطور نشاط تجاري إقليمي وربما عالمي.

تحولات بداية العصر الوسيط الأعلى

يمكن القول إن الحروب والصراعات المختلفة التي عرفتها أوربا خلال الهجمات الجرمانية منذ القرن الثالث الميلادي قد غيرت أوضاع ووظائف المدينة ؛ بحيث أعطيت الأسبقية للجانب العسكري والدفاعي والديني كذلك على حساب الوظيفة الإدارية والاقتصادية التي سادت من قبل[12]. لقد اتخذت المدن أشكالاً معمارية أخرى ذات طبيعة عسكرية ودفاعية. واتجه الاهتمام نحو نوع من التحصين والحماية. ولاشك أن العصر الوسيط الأعلى وما تلاه من الأزمنة قد شهد تعميم مؤسسات دفاعية مزودة أحياناً بأبراج ذات أشكال نصف دائرية أو مربعة ساهمت في حماية المراكز الأساسية. وقد شكلت تلك المؤسسات الدفاعية جزءاً هاماً من المنظر المعماري العسكري الذي ساد في أوربا لفترة غير قصيرة[13] وأدى

Mazzoli-Guintard (Ch.) ; Les villes d'al-Andalus. L'Espagne et le Portugal à l'époque musulmane, VII-XVè siècle. Presses Universitaires de RENNES, 1996. =

حددت الباحثة أنواعاً من المدن منها : المدينة المرتفعة، مدينة الهضبة، مدينة السهل، المدينة القنطرة إلخ. نفسه. ص. 50 وما بعدها.

(10) LEGUAY ; pp. 22-23.

(11) **نفسه**، ص. 23.

(12) **نفسه**، ص. 26.

(13) كل الأبحاث المنوغرافية وغيرها تؤكد انتشار ظاهرة التحصين في أوربا منذ فترة الوسيط الأعلى وبعده. انظر مثلاً :

Duby (G.) ; Guerriers et paysans... op. cit.
Bloch (M.) ; La société féodale. Paris, AL. Michel, 1968.
Poly (J.P.) ; **BOURNAZEL (E)** ; la mutation féodale X-XIIè siècles, Paris, P.U.F, 1980.
LEGUAY... op. cit, p. 28.

إلى حماية المدينة من خطر الحملات العسكرية المتكررة عليها. ورغم ذلك ظل الخطر يتهدد المدن خاصة من السواحل والأنهار ؛ وذلك ما حدث بالفعل مع حملات قبائل السّكسون أو الهيرول خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد، أو حملات النورمان من بحار الشمال والمسلمين من شمال إفريقيا والأندلس وصقلية في القرن التاسع الميلادي[14].

ولا غرو فقد أثرت الصراعات العسكرية المتعددة على المدن التي اتجهت نحو الانغلاق والاستعداد الدائم للدفاع[15] ؛ حتى أن بعضها نعت بالمدينة الحصن كما يتضح من مصطلحات مثل : (Oppida - oppidum - Castrum - Castra) إلخ. والتي تضفي الصبغة العسكرية للمدينة كما بيَّن المؤلف بنوع من التفصيل[16].

لكن رغم الصراعات والحروب والحصار والمجاعة والنهب المتكرر تمكنت بعض المدن من الحفاظ على بعض ثرواتها ومؤسساتها، وذلك بفضل مجهودات العديد من رجال الدين خاصة الأساقفة ومساعديهم. وقد اتضح من خلال إشارات مصدرية متعددة ومن نتائج بعض الأبحاث الميدانية أن العامل الديني لعب دوراً لا يستهان به في بقاء بل وتطور بعض المدن[17].

---

(14) كتب الكثير من الناحية العسكرية حول القبائل التي اجتاحت أوربا خلال العصر الوسيط الأعلى. انظر مثلاً :

Musset (L.) ; Les invasions : Les vagues germaniques, Paris, P.U.F., 1965.

Musset (L.) ; Les invasions : Le second assaut contre l'Europe chrétienne (VII-XI Siècles), Paris, P.U.F., 1965.

(15) بينت العديد من الأبحاث الدور العسكري الذي لعبته المدن، بفعل مواقعها، في فترات تاريخية محددة. وقد عبر الباحث J. Heers بوضوح عن هذا المعنى حين قال بأن المدينة كانت في حالة دائمة من المواجهة والاستنفار وهي مستعدة على الدوام للدفاع، انظر :

HEERS (J.) ; La ville au Moyen Age en occident : paysages, pouvoirs et conflits, Paris, 1990, p. 327 et sv.

حناوي (محمد)، النظام العسكري... مرجع سابق، ج 1، ص. 253 وما بعدها.

(16) **LEGUAY**... op. cit., p. 29.

ذكر المؤلف نماذج : Narbonne-Amiens - Auxerre - GAP - Nantes - Soissons، وأضاف تفاصيل تهم سكان هذه المدن وأعدادهم، وذهب إلى حد قوله إن بعض سكان هذه الحواضر كان يستهلك حوالي 200 إلى 300 لتر من الماء الصالح للشرب في اليوم وذلك في ظل الحالات العادية أو الجيدة.

وللمقارنة مع عصرنا أورد أرقاماً مفيدة منها أن حاجيات الفرد الواحد في الأكل والنظافة والأشغال المنزلية تصل ثلاثين متراً مكعباً (30م3) من الماء سنوياً. ولاشك أن بعض الدول تجاوزت بكثير هذا الرقم ليصل الاستهلاك 180 متراً مكعباً للفرد الواحد في الولايات المتحدة الأمريكية. في حين أن المعدل في بعض الدول الافريقية لا يتعدى الحد البيولوجي الأدنى أي ما يعادل 2 إلى 3م3 ص. 212.

(17) انظر التفصيل في صفحات : 30، 31، 32، 33.

وتجدر الإشارة إلى أن المدن التي ظهرت وازدهرت خلال حقبة الوسيط الأعلى يقع جلها –حسب المولف – في أقاليم الشمال من أوربا والتي شهدت أو استفادت من تطورات اقتصادية هامة بفعل عوامل متعددة[18].

التطور الحضري مابين القرن العاشر والثالث عشر الميلاديين

يعتقد الباحث LEGUAY أن أوربا دخلت في حقبة من الاستقرار والبناء والنمو بعد فترات من النهب والدمار الذي عرفته لما اكتسحتها الشعوب السكندنافية والإسلامية والهنغارية. ولاشك أن المدن القديمة والمحدثة قد استفادت من ذلك النمو والاستقرار. وفي الفترة الواقعة مابين 900م و950م ظهرت مجموعة من المدن الفيودالية الجديدة أو برزت تلك التي تعود جذورها إلى مؤسسة قروية أو مجمع قروي. ويصعب – حسب المؤلف – تحديد وضبط أصول تلك المدن لأسباب مرتبطة بغياب المعلومات المصدرية الدقيقة أو الشاهد المادي الأركيولوجي[19]. يمكن القول إن جل المدن تكون من النواة الدفاعية القائمة في مكان معين أو مؤسسة دينية، وبعضها يعود، بلا شك، إلى مبادرة بعض الأمراء أو الأرستقراطيين المشهورين[20]. وقد ازدادت ساكنة تلك المدن بفعل الهجرات القروية. ورغم غياب الإحصائيات الدقيقة فإن دراسة ساكنة بعض الأشخاص حسب أماكن استقرارهم أو حرفهم، وظهور أزقة جديدة وأحياء مسكونة وإقامة أبنية ذات طابع جماعي أدى إلى معرفة طرق تطور بعض المدن كما هو الأمر في Metz وChartres[21].

يبدو أن المجال قد تقلص داخل المدينة رغم أن بعض المساحات المغلقة ظلت غير مبنية في مدن فرنسا عكس ما حدث في المدن الإيطالية المأهولة مثل البندقية وجينوة وفلورنسا[22].

---

(18) **نفسه**، ص ص. 35-36. أورد المؤلف تفاصيل حول أسباب توسع المدن الشمالية مثل غنى ظهيرها وتوافر المساحات الزراعية الكبرى الفردية والجماعية أو العائلية إلى جانب التجارة الرائجة ولو نسبياً بفعل الصناعات اليدوية والنسيجية، ونشاط التجار الذين يتعاطون للمبادلات في الأسواق المحلية. ناهيك عن وجود النقد الكارلنجي أو الذي ضرب بعده، إضافة إلى التسهيلات المختلفة التي قدمتها المراكز النهرية والبحرية في ذلك، دون إغفال دور التجارة البعيدة المدى، نسبياً، كتجارة العبيد والتوابل والأثواب الجيدة التي تستفيد منها الملكية والطبقات العليا.

(19) ص. 37.

(20) **نفسه**، ص ص. 37-38.

(21) **نفسه**، ص. 38.

(22) **نفسه**، ص. 38.

وهكذا يلاحظ أن المساحة المبنية ازدادت بشكل مواز لزيادة السكان. ولاشك أن ذلك أدى إلى ارتفاع في أثمنة العقار حسب المصادر الضرائبية. ويلاحظ كذلك، من خلال عملية إعادة بناء أشكال وتصاميم بعض المدن، أن تطور بعضها كان، بالدرجة الأولى، على ضفاف الأنهار أو على الطريق الرئيسية مثل مدينة تولوز على نهر الكَارون. كما أن عملية تطور المدينة تنعكس في أشغال توسيع مجالاتها الدفاعية بالأحجار وحفر الخنادق رغبة في ضم الأحياء الجديدة وتأمين الأمن للتجار الذين يرتادون تلك المجالات. لقد كان الهدف – يقول المؤلف، خلق أماكن دفاعية في المدن كما حدث في باريس وريمس وتولوز[23]. وفي الوقت ذاته انتشرت ظاهرة بناء بعض المراكز الكنسية في الطراز القوطي إلى جانب مؤسسات أخرى لها طابع عمومي أو ديني كمؤسسات الفقراء أو مؤسسات الفرانسيسكان أو الدومينكان أوغيرها. وإلى جانب ذلك زاول الأرستقراطيون وممثلوهم أو الكمونات أشغالاً حضرية. فقد تَمَّ بناء شبكات تصريف المياه ووضع الأحجار الصلبة في الأزقة لتأمين النظافة العمومية[24] وغيرها من الأشغال التي زادت من أهمية المدينة. كما عملت جهات متعددة على إقامة أدوات أو آلات تشتغل بقوة المياه، كالطاحونات أو الأرحى المائية التي كانت أعدادها محدودة خلال العصر الكارلنجي وازدادت انتشاراً داخل الأسوار وخارجها ما بين القرنين العاشر والثاني عشر للميلاد[25].

لقد استغلها الأرستقراطيون، إلى جانب أدوات أخرى، في إطار ما يعرف "بحقوق الإلزام"[26] التي كانت تضمن امتيازاتهم المتعدد. وإلى جانب الأرحى

(23) **نفسه**، ص. 41.

(24) **نفسه**، ص. 43.

(25) **نفسه**، ص. 43.

(26) أكدت كل الأبحاث والدراسات، خاصة المنوغرافية منها، التي أنجزت منذ السبعينيات من القرن العشرين، بما لا يدع مجالاً للجدال، كيف وظف الأرستقراطيون عبر أوربا كلها، كل الإمكانيات المتوفرة من الأرض والأدوات المختلفة كالأرحى والأفران وغيرها لصالحهم. لقد كان الهدف هو الحصول على امتيازات متعددة على حساب العالم القروي أو على حساب الطبقات الدنيا. انظر مثلاً :

Duby (G.) ; Les Trois ordres ou l'imaginaire du féodalisme, Paris, Gallimard, 1978.

Duby (G.) ; Guerriers et paysans... op. cit.

BONNASSIE (P) ; La Catalogne du milieux du Xè à la fin du XIè siècle : Croissance et mutations d'une société, L'Université de Toulouse-Le Mirail, 1975, 1976, 2 vol.

Bois (G.) ; La Mutation de l'an mil : Lournand, village mâconnais de l'Antiquité au Féodalisme, Paris, Fayard, 1989.

ازدهرت ورشات متعددة، تشتغل بمياه الأنهار والقنوات، من أهمها ورشات الدباغة والزجاج والأنسجة وغيرها[27]. إنها صناعات أدى إشعاعها إلى ظهور نواة التنظيم الحرفي في العديد من المدن الأوربية. ولاشك أن المياه والمواد الأولية وحسن تدبير اليد العاملة عوامل زادت من نمو المدينة وشهرتها. وقد سبقت الإشارة إلى فائدة التجارة النهرية في العديد من الأقاليم الفرنسية والأوربية ولكنها كانت تحت المراقبة المباشرة "لسنيوريات المياه"[28] على حد تعبير المؤلف.

التجمعات البشرية الصغرى والجديدة (Bourgs) خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين (XI-XII م).

لقد بدأت هذه التجمعات في الظهور والانتشار خلال الحقبة الفيودالية أي حوالي القرن العاشر للميلاد لتعم من سنوات 1060م إلى 1100م خاصة في الأقاليم والمناطق التي أحدثت بفعل ظاهرة الاجتثاث[29]. إنها مراكز كانت، حسب الباحث، نواة دفاعية أو دينية هدفها جلب واستقرار مجموعات من السكان أي اليد العاملة قصد الاستفادة من خدماتها. وقد تنشأ المدينة عبر حماية مادية أو دينية أو هما معاً. ويمكن أن يوفر الحصن تلك الحماية خاصة إذا وجد في مكان تتقاطع فيه الطرق التجارية أو النهرية والبحرية ممّا يساعد على الاستقرار[30].

إن الحديث عن جلب السكان قصد الاستفادة من خدماتهم يعني أن نمو العديد من تلك المراكز كان مرتبطاً بإرادة السلطات العمومية أو الدينية التي كانت تقرر إمكانية حرية أو تأهيل بعضها في المجال الإداري أو العسكري، ولكن في إطار "السنيورية"[31].

وهكذا يمكنها أن تستقبل أتباع الأرستقراطيين الذين لا يملكون الأرض أو الذين ينوبون عنهم في ميادين مختلفة. كما أنها قد تستقبل التجار أو الحرفيين الذين

---

(27) LEGUAY..., op. cit., p. 43.

(28) **نفسه**، ص. 44.

(29) **نفسه**، ص. 44.

(30) ص. 45. انظر نماذج من هذه المدن في العديد من الأقاليم الفرنسية في : ص ص. 45-46.

(31) ص. 46. تحدث المؤلف عن "السنيورية" كمصطلح له دلالات مختلفة حسب طبيعة تلك "السنيوية". فهو يقصد هنا تلك التي لها طابع عسكري وحمائي (Châtellenie) أو طابع إداري أو قضائي (Prévôté).

يشتغلون في مؤسسات أو ورشات مرتبطة بالمياه. وقد تتشكل فيها هيئات مختلفة تكون نواة مستقبلية لبورجوازية تجارية.

وفي مقابل هذه المراكز التي تطورت عبر وقت طويل وببطء، ظهرت مدن أخرى، وبعضها بشكل مفاجئ. لقد خطط للعديد منها كالتي تأسست بطرق محددة كتدخل الملك أو الأمير أو الأسقف أو مجموعة من الأرستقراطيين المتشاركين عبر وثيقة التأسيس والتعمير التي تحدد شروط ومسؤوليات المستفيدين[32]. إنها ظاهرة تعكس تمدناً مخططاً له ومظهراً من مظاهر التطور الديموغرافي.

النهر وطبوغرافية المدينة

تعتبر المياه بالنسبة لسكان المدينة بمثابة الأرض بالنسبة للفلاح في البادية[33] ولاشك أن العديد من المراكز والمدن التي احتفظت بالتقاليد القديمة، ارتبطت حياتها بمجموعة من المميزات كالحصن لحراستها والنهر وضفافه للاستفادة منه وبقنطرة أو مرسى في سافلة النهر. إنها مدن يسهل الدفاع عنها في حالة الحروب نظراً لمواقعها. لكن في الوقت نفسه يلعب موقعها دوراً سلبياً في توفير أو إيجاد المياه الكافية لأن الارتفاع والبنية الصخرية يحدان من ذلك، عكس ما يحدث في المدن السهلية التي تخترقها المياه والطرق مع العلم أنها قد تتعرض بدورها لمشاكل متعددة كالفيضانات التي تحول دون البناء والاستقرار في بعض الأماكن.

هيدرومرفلوجيا حضرية تطورية

تعتبر الأنهار وروافدها والقناطر حدوداً طبيعية "**للسنيوريات**"، وتؤدي أيضاً إلى تقسيم المنظر الحضري. ولا غرو فإن الأرستقراطيين الذين يتحكمون في المياه والأدوات المرتبطة بها يراقبونها على الدوام. فهم يشرفون على تنظيف المرافق التي تستغل المياه. ويمكن القول إن سياسة السيطرة على مجالات غابوية أو مائية وإعدادها يعد مظهراً أساسياً من مظاهر إعداد وتوسيع المجالات الحضرية[34]. وقد ترتب عن عمليات تنظيم المجال إحداث سكن قار أو مستقر، وهو ما حدث بالفعل

(32) **نفسه**، ص. 47.
(33) **نفسه**، ص. 48.
(34) **نفسه**، ص 57.

في الفترة مابين القرن العاشر والثالث عشر للميلاد، حسب المؤلف، وصاحبه إعداد ومد القنوات وحفر الخنادق التي تسهل عملية تصريف المياه. لكن، كما سلف الذكر، قد تكون المدينة بجانب مساحات سهلية كبرى أو إدارية شاسعة تتعرض للفيضان باستمرار، مما يعيق توسيعها كما حدث في مساحات وحقول بوليو (Poliou) التي كانت تعيق التوسع الحضري في عدة اتجاهات، أو المساحات المحيطة بمدينة ليل والتي كان يصعب اختراقها لفترات طويلة[35]. لقد ظلت تلك المساحات تخيف الإنسان لفترات، لأنها تعرضه لمخاطر كبيرة كالتلف أو الغرق أو الأمراض. ولا غرابة أن تنسج بصددها أساطير متعددة تؤدي إلى إقامة حفلات دينية أو طقوس اجتماعية مختلفة بل غريبة تختلط فيها الاعتقادات القديمة والخوف من الأمراض والمجاعات وغيرها. وقد يؤدي ذلك إلى إحداث مؤسسات دينية وإقامة أعياد ومناسبات يتم تخليدها، كما يتم التمسك بعادات قديمة ما يزال بعضها متوارثاً إلى اليوم[36].

لكن – في الوقت نفسه – كانت المساحات المذكورة تشكل مجالاً شاسعاً يستفيد منه الإنسان في القوت اليومي والصيد والرعي. بل قد يتدخل في تغيير بعض المجاري المائية وتجفيف أجزاء من الأرض أو إقامة مناطق دفاعية إلى غير ذلك. وقد تنشأ بعض الأحياء والأزقة في مدن بعينها وذلك تبعاً لمواقعها من الأنهار والمياه. ولا غرابة أن تقام المساكن والأحياء في اتجاه انسياب أو جريان المياه. وعادة ما تنتهي فيما يعرف بظهير من الحقول والاستغلاليات القروية[37].

وهكذا فإن مجهودات كثيرة قد بذلت منذ وقت مبكر من أجل تهيئة الأودية وإقامة مجموعة من الأنشطة والمشاريع كمد القنوات وحفر الخنادق[38] وتحويل مجاري المياه أو بناء الخزانات أو السدود البسيطة. إنها مشاريع أثرت في المجال

(35) انظر التفاصيل في ص ص. 58 و59.

(36) ص. 60. يتم الحيدث أحياناً عن معجزات مختلفة حدثت في تلك الأماكن ويحييها السكان من حين لآخر. وقد يتدخل بعض رجال الدين لاستعمال نفوذهم الديني كاتخاذ الصليب لمحاولة إبعاد الشر الذي قد يجسده المجوس في بعض الحيوانات المفترسة وغيرها. نعتقد أن إحياء العادات القديمة وإقامة طقوس مختلفة لا يقتصر على أوربا. بل نجده في الحضارات الإنسانية كلها ونموذج حضارة إفريقيا غني عن البيان.

(37) ص ص. 67-85.

(38) تقام الخنادق من أجل الدفاع عن المدينة في حالة حصارها أو الهجوم عليها وقد بلغ عرض بعضها 1,50م إلى ستة أمتار وعمقها من مترين إلى ثلاثة أمتار. ص. 70.

الطبيعي والمنظر الحضري في الكثير من الأقاليم واستفاد منها الإنسان بشكل مباشر. لكن رغم فوائدها الكبرى سببت في نزاعات دائمة مرتبطة بتحديد الملكيات العقارية وطرق استغلالها[39].

النظم المائية الحضرية وشبه الحضرية القديمة

لم يكتف سكان المدن بالاستقرار حول الأنهار والبحيرات التي استغلوها منذ وقت مبكر، وإنما عملوا على البحث عن الماء وجلبه بطرق مختلفة. فمنذ العصر الروماني، الذي عرف استهلاكاً مرتفعاً للمياه في ميادين تخص الإنسان والحيوان والنظافة والأنشطة الصناعية، ظهرت تقنيات مرتبطة بتهيئة الأنظمة المائية كالآبار والصهاريج والعيون، والقنوات والقواديس وغيرها. ولاشك أن التطور الحضري الذي شهده العصر الوسيط، قد رافقه بناء أنظمة مائية جديدة فردية وجماعية. لقد اضطر سكان المدن إلى مواجهة تحديات أو حاجيات جديدة عائلية وصناعية ؛ مما أدى إلى البحث عن مصادر جديدة والزيادة في عدد الآبار والعيون وإقامة بنية تحتية مائية مهمة داخل الأسوار. لكن، رغم ذلك، ظلت الإمكانيات محدودة إلى حدود القرن الرابع عشر الميلادي[40] على الأقل. وقد عبر أحد الأساقفة عن هذا المعنى حين قال بصدد المدينة التي كان يقطنها «لانجد الماء الصالح للشرب، أحياناً إلا بمشقة كبرى»[41].

العيون والآبار

تجدر الإشارة إلى أن جل العيون والآبار التي وردت في مصادر ووثائق العصر الوسيط ليست إلا أدوات مستغلة منذ العصر القديم وقد اتضح ذلك من خلال الأبحاث الميدانية الطبونيمية والأركيولوجية أو المصادر الأدبية أو من خلال النقائش[42].

---

(39) انظر فوائد الإصلاحات الكبرى المختلفة والتي أحدثت حول بعض المدن والمشاكل التي تسببت فيها كذلك في الصفحات : 67، 68، 69، 70، 71، 72، 73، 74، 92.

(40)ص. 95.

(41) نفسه، ص. 95. قولة الأسقف S'Pierre Damien (1007-1072م) أسقف مدينة Ostie.

(42) ص. 96. يورد المؤلف أمثلة كثيرة عن المدن التي عرفت فيها العيون والآبار منذ ما قبل التاريخ أحياناً مثل: Amiens، Auxerre وغيرهما.

عرفت العيون العمومية والخزانات أو الصهاريج التي لاترشح (تنضح) لأنها تستخدم في الاحتفاظ بمياه الأمطار، كما عرفت الآبار العمومية أو الخاصة والتي كانت تشكل إحدى مظاهر الحضارة الرمانية.

لقد استغلت الوسائل السالفة الذكر بشكل مكثف خلال العصر الوسيط حتى نضبت المياه الجوفية في بعض المناطق والمدن الشيء الذي دفع إلى حفر آبار أكثر عمقاً، بل والبحث عن طرق أخرى لتوفير وتخزين المياه بشكل منتظم. إن تخزين مياه الأمطار أو العيون والأنهار أدَّى، بلا شك، إلى تحسين طرق العناية بها والحفاظ عليها لمدد طويلة[43]. واتجهت العناية أيضاً إلى القواديس والقنوات التي اشتهرت منذ الفترة الرومانية في العديد من المدن. وهكذا برع عمال البناء والمختصين في بنائها بواسطة مواد تراعي مقاييس محددة في الصلابة وعدم الرشح إلى جانب مراعاة طبيعة الطبوغرافيا[44] إلخ. إضافة إلى ذلك عرف ما يسمى "**بحصن المياه**"[45] الذي لعب دوراً أساسياً في توزيع الماء. كما اكتشفت صهاريج جماعية ذات مخزون متوسط في مجموعة من المدن مثل أميان وليون وغيرهما[46].

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الدور الغنية كانت تتوصل بالمياه عبر قنوات من الخشب أو من الأحجار المنجورة ومن الرصاص كذلك ويصل حجم عرضها أحياناً إلى 8 سم[47]. ويبدو أن البحث التاريخي لم يكشف بما فيه الكفاية عن وجود السدود المسماة (Lacus) والتي لعبت دوراً هاماً في تخزين كميات مهمة من المياه قصد تحويلها للري بالدرجة الأولى. ولاشك أن تلك السدود عرفت في إيطاليا وإسبانيا (طليطلة وماردة)، وفي إفريقيا الشمالية أكثر مما عرفت في غاليا[48].

---

(43) **نفسه**، ص ص. 97-98. لقد قيل إن المدن الرومانية كانت تخضع العالم القروي بشكل واضح كما يبدو من خلال عمليات احتكار مياه العيون وجلبها، إلى جانب مصادرة الأرض والتحكم في التموين الغذائي الذي يأتي من الأرياف من قبل "البورجوازية". انظر التفصيل في : ص. 98 وما بعدها.

(44) **نفسه**، ص. 101. انظر المواد التي تدخل في صناعة وإعداد القواديس في بعض المدن، ص. 101.

(45) **نفسه** ، ص. 102. إنه الحصن المسمى (Château d'eau) ويعرف كذلك تحت إسم (Castellum divisorium).

(46) **نفسه**، ص ص. 102-103. اعترف المؤلف أن هذه الصهاريج أقل من التي عثر عليها قديماً في إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقيا وبيزنطة والتي يصل مخزونها إلى 30.000 متر مكعب.

(47) **نفسه**، ص. 104.

(48) نفسه، ص. 104.

انطلاقا مما سبق يمكن التساؤل عن وضعية المياه عموماً في آخر العصر القديم وبداية الوسيط.

يمكن القول إن الباحثين المختصين في آخر الأمبراطورية وبداية العصر الوسيط قد انقسموا حول كيفية النظر إلى الماء في تلك الفترة. لقد ذهب بعض المتشائمين إلى القول بانعدام الأمن وسوء الأوضاع المالية وضعف السلطات العمومية وتدهور المدينة والمياه ابتداء من القرن الثالث للميلاد. والسبب الأول في ذلك هو الحروب والغزوات "البربرية". لقد لحق الخراب معظم المدن ومعها جل المنجزات السالفة الذكر والتي ميزت الحضارة الرومانية كما يتبين من قراءة متأنية للأبحاث المنوغرافية التي أنجزت حول المدينة في تلك الحقبة[49] ومن الدراسات الميدانية أو الأثرية التي كشفت بما فيه الكفاية عن هجرة بعض الأحياء والدور المعروفة وترك ما أنجز بها من أشغال مرتبطة بالمياه كالآبار والقنوات والقواديس. وأكثر من ذلك ربما تحولت بعض الأنشطة الاقتصادية إلى العالم القروي[50]. وإلى جانب الحروب والصراعات العسكرية تحدثت المصادر عن غياب سياسة حضرية واضحة ومحكمة بسبب قلة أو انعدام الإمكانيات المادية والبشرية، كالنقص الذي حصل في معدن الرصاص أو قلة التقنيين المهرة المتخصصين. ناهيك عما يمكن قوله في محدودية التقنية القديمة المرتبطة بالماء والتي كانت تجهل إلى حد ما، طبيعة الأرض (الطبوغرافيا) وما يلزمها من أدوات تراعي العوامل الطبيعية كالزلزال والفيضان وغير ذلك[51].

لكن، في المقابل، احتفظت المصادر بإشارات مفيدة تكشف عن استمرار مجموعة من المنشآت القديمة في بعض المدن خلال عصر الفرنجة مما يعكس تمدن الحضارة الرومانية. ومن أمثلة ذلك استمرار ما اكتشف من قنوات أو قواديس في بعض المدن كباريس[52] مثلاً أو ما احتفظ به بعض الزعماء الكارلنجيين من قواديس الرصاص والحجارة.

---

(49) **نفسه**، ص. 105.

(50) **نفسه**، ص. 105. لقد كتب الكثير من الأبحاث النظرية والجزئية والمنوغرافية حول المدينة في آخر العصر القديم وبداية الوسيط. وطرحت أسئلة هامة من قبيل كيف انتهت المدينة القديمة، وماهي طبيعة العلاقات التي نسجت حول الأرض وفي العالم الريفي.

(51) **نفسه**، ص ص. 105-106.

(52) **نفسه**، ص. 106.

إذا كانت الوثائق والنصوص الإخبارية تبين كيف كان الأقوياء أي الأرستقراطيون يستعملون المياه في ميادين متعددة، خاصة في البلاطات والقصور والأديرة، فإن الإشارات قليلة عن طرق استغلال المياه الصالحة للشرب من قبل ساكنة المدن[53].

يمكن القول إن التوسع الحضري وما لزمه من أنشطة مختلفة في المدن إلى جانب التطور التجاري أديا إلى ازدياد الحاجيات من المياه سواء العائلية منها أو الصناعية. وتذهب بعض الإحصائيات إلى تأكيد أن عائلة تتكون من خمسة إلى ستة أفراد تتراوح حاجياتها الدنيا من المياه ما بين ثلاثين إلى أربعين لتراً تستغل في المتطلبات اليومية من أشغال ونظافة وغذاء[54].

كيف توزع تلك المياه ؟

تكشف النصوص المصدرية عن طبيعة التقنية المستعملة في المدن كالقنوات المصنوعة من الخشب أو من الطين والتي يتم جلبها من الأنهار إلى مختلف المرافق المعمارية. كما تكشف عن تقنيات تستغل في الورشات الصناعية وترتبط بالعيون والآبار. إلى جانب القنوات التي تصل بعض القصور أو الكنائس أو الأديرة أو المستشفيات[55].

ماهي طبيعة المواد المستعملة في تلك التقنيات ؟

لا تقدم المصادر إلا معلومات شحيحة عن المادة التي تدخل في صناعة تلك التقنية، كأنابيب الرصاص المتماسكة بواسطة معدن الفضة، وكذا الطين المجفف. وإذا كنا نجهل تكاليفها، فإن النصوص تشير إلى أن الأسقف أو الجماعة الحضرية يتخذان المبادرة في إنجازها[56]. ومن الصعوبة إحصاء الإنجازات والترميمات وتحديد الاستهلاك في ذلك.

---

(53) **نفسه**، ص ص. 107-108.

(54) **نفسه**، ص. 108. تحدث المؤلف عن الاستهلاك اليومي للماء في بعض ا المدن دون غيرها و لم يبخل في المقارنات مع غيرها من المدن أو مع الفترة المعاصرة. انظر : ص. 212، أو عنوان تحولات بداية العصر الوسيط في بداية هذا المقال.

(55) **نفسه**، ص ص. 180-109.

(56) **نفسه**، ص. 109.

ومن المؤكد أن استهلاك المياه قد تضاعف خاصة في مدن شمال فرنسا التي ازداد عدد سكانها ثلاث مرات في ظرف قرن واحد. أما بعض المدن التي تقع في مناطق شبه جافة أو معزولة فقد عانت من نقص واضح في المياه الصالحة للشرب في المقام الأول. وقد بيّن المؤلف أن أغلب الآبار والعيون المشهورة منذ العصر القديم لم تعد كافية[57]. وأكثر من ذلك فإن كل المياه الجارية ليست بالضرورة صالحة للشرب. فعادة ما تكون عكس ذلك لأنها تختلط عند الجريان بمواد مختلفة كأكسيد الحديد أو مركبات نباتية أو غيرها من مواد أكثرخطورة تلازم المياه المستخدمة في الأنشطة الصناعية كالدباغة أو الطحين أو غير ذلك مما يؤدي إلى تغيير لونها وطعمها.

هل يمكن الحديث عن التلوث خلال العصر الوسيط من خلال المياه المستعملة ؟

يلاحظ أن كلمة "**تلوث**" قد عرفت منذ القرن الثاني عشر للميلاد[58]. لكنها دلت على معان مختلفة حسب فهم الإنسان آنذاك والذي لم يكن بإمكانه أن يحلل ويفهم أسبابها ونتائجها المختلفة. لكنه أدرك بنوع من العمق أهمية المياه بدليل أنه ميز بدقة متناهية ما بين أنواعها وخصوصياتها. فمياه الأمطار (مياه السماء) أهم وأحسن، ومياه العيون التي تجري على الرمال أهم وأحسن من مياه الأنهار[59]. وهكذا.

يجب التنبيه إلى ضرورة التحلي بالحيطة والحذر حين تناول موضوع التلوث لأن الكلمات والمفاهيم في الماضي لا تحمل المعاني والدلالات التي تتصف بها في الوقت الراهن. ولذلك لا يجب المقارنة بين الماضي والحاضر بخصوص هذا الموضوع.

التلوث الجرثومي البشري والحيواني

ابتداء من القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ضمت المدينة، إلى جانب الإنسان، الحيوانات الأليفة. وكان لذلك التعايش نتائج سلبية منها صعوبة تصريف أو نفاذ الفضلات المختلفة والتي كان معظمها يتراكم في الأزقة وعلى الأبواب والأسوار[60]. وقد ازدادت الظاهرة تعقيداً خاصة في بعض المدن ذات الكثافة

(57) **نفسه**، ص ص. 111-112.

(58) **نفسه**، ص. 119.

(59) **نفسه**، ص. 119.

(60) **نفسه**، ص 123. لتكوين فكرة عن الموضوع أورد المؤلف بعض الأرقام كالآتي : ينتج الإنسان البالغ في المعدل اليومي حوالي : 150 ج من المواد و1 أو 1,5 لتر من البول.

السكانية العالية قبل أزمات القرن الرابع عشر المتمثلة في المجاعات والطاعون الأسود إضافة إلى آثار حرب المائة عام[61].

إلى جانب ذلك يمكن الحديث كذلك عن التلوث الكميائي والميكانيكي الذي كانت تفرزه الأنشطة الاقتصادية والتجارية في بعض المدن. وعلى رأس تلك الأنشطة تذكر الصناعات التحويلية كالصباغة والدباغة والنسيج وصناعة الحديد والنحاس والرصاص وغيرها[62].

ودون الخوض فيما خلفته العصور القديمة في بعض المدن من آثار للأوساخ والتلوث الطبيعي، كما بينت ذلك العديد من الأبحاث الأثرية المعاصرة[63]، يمكن القول إن العصر الوسيط المركزي شهد تطبيق بعض القوانين والقرارات ضد الإساءة للطبيعة. إنها قوانين وقرارات صادرة، في أغلبها، من الأمراء أو الأرستقراطيين أو سلطات الجماعات الحضرية كما حدث في باريس مثلاً[64].

لقد كان الهدف هو الحفاظ على نظافة بعض الأمكنة كالأزقة وبعض المؤسسات العمومية وغيرها. وأكثر من ذلك طبقت بعض الحلول الوقائية المرتبطة بالهدوء والنظافة في بعض المدن، من أبرزها إبعاد بعض الحرف التي تكثر الضجيج وتسبب الأوساخ أو تستعمل المواد غير اللائقة كالفحم وغيره إلى غير ذلك[65].

منجزات آخر العصر الوسيط

شهدت البنيات الاقتصادية والاجتماعية تحولات عميقة تزامنت مع حرب المائة عام ضد إنجلترا والتي امتدت من سنة 1337 إلى عام 1453م. إنها حدث عكس أزمات العنف والهدم والنهب حتى قيل إنها أزمة مجتمع برمته[66]. أو مظهر عكس ما سمته بعض الأبحاث «بخريف العصر الوسيط أم ربيع العصور الجديدة[67]؟»

---

(61) **نفسه** ص. 123. للتعمق في موضوع الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في أوربا في آخر العصر الوسيط يمكن العودة إلى :

Bois (G.) ; La grande dépression médiévate : XIV-XVè siècle, Paris, P.U.F., 2000.

(62) **نفسه**، ص. 125.

(63) **نفسه**، ص ص. 131-132.

(64) **نفسه**، ص. 137.

(65) **نفسه**، ص ص. 137-138.

(66) **نفسه**، ص. 145.

(67) **نفسه**، ص. 145. انظر كتاب بهذا العنوان :

قرنان من التجديد التقني المرتبط بالحرب مع استعمال المدفع والبارود وغيره[68].

انقلبت الأوضاع حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي حين عادت الأنشطة الاقتصادية والصناعية اليدوية والتجارية من جديد، إلى جانب التطور التقني الذي لوحظ في مجال صناعة المعادن والطباعة. كل ذلك رافقه تطور ديموغرافي هام، ممّا يعني زيادة مستهلكي ومستعملي المياه. لكن في المقابل ظلت إمكانية تزويد المدن بالمياه الصالحة للشرب وتصريف أو إبعاد المستعملة عنها، محدودة إن لم نقل معضلة رافقت تاريخ المدن عموماً.

فترة الصعوبات وحدودها

تجلت الصعوبات الأساسية خلال القرنين الأخيرين من العصر الوسيط في النقص أو الانهيار الديموغرافي الذي أصاب أوربا وفرنسا كما يتضح من مصادر مختلفة مثل لوائح الضرائب أو وثائق الإرث وغيرها. ولا غرو، فأسباب ذلك الانهيار الديموغرافي أصبحت معروفة من خلال نتائج العديد من الأبحاث والدراسات المختصة[69]. لكن في الوقت ذاته، لا يمكن تعميم النقص أو الإنهيار الذي أصاب ساكنة أوربا والقول بسيادته في كل الجهات والأقاليم. فلاشك أن العديد من المدن قد احتفظ بمجموعات بشرية لا يستهان بها، بل ذهبت بعض الإشارات المصدرية إلى تأكيد فكرة استقبال بعض المدن لساكنة جديدة، أي لمستهلكين جدد للمياه، كما حدث في مدن أفنيون وبواتيي وبورج[70]. لقد طورت هذه المراكز وغيرها مجموعة من الصناعات التي لم تختف جراء الأزمات السالفة الذكر ؛ بل نشطت واستهلكت الكثير من المياه. وأكثر من ذلك راكمت الأوساخ والتلوث المائي والصناعي[71] الذي ازداد بفعل حاجيات الحرب وما سببته من قتل ونهب ودمار. ويجب التذكير أن الحروب والصراعات العسكرية تؤدي إلى تقوقع المدن بواسطة التحصينات والأسوار على امتداد مئات من الأمتار مما يسهل عملية حجز

(68) نفسه، ص. 145.

(69) انظر التفاصيل في الصفحات : 148، 150، 151. وفي :

Bois (G.) ; La grande dépression... op. cit.

(70) نفسه، ص ص. 152-153.

(71) نفسه، ص ص. 155، 156، 157، 158، 159.

الماء وقطعه عن المدينة. ولاغرابة أن تتخذ السلطات المختصة إجراءات مختلفة، أحياناً صارمة، من أجل حماية المياه والحفاظ على النظافة[72].

نظم مائية جديدة في آخر العصر الوسيط

لاشك أن البحث الأثري أو الأركيولوجي قد رسم بعض اللوحات التي تعكس إلى حد ما طبيعة الحياة اليومية في العديد من الأقاليم. وقد أفاد في تتبع مراحل تطور بعض التقنيات المرتبطة بالمياه في عالم المدينة الأوربية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.

لقد كشفت بعض الصور والرسوم ازدياد الحاجة إلى ضخ المياه واستغلال أكثر لوسائل جلبها والحفاظ عليها مثل الصهاريج والقنوات والقواديس[73]. مع العلم أن الآبار العمومية[74] والعيون إلى جانب الأنهار ظلت المصدر الرئيسي لسكان الحواضر.

إن الحصول على المياه وضمان جريانها في بعض الجهات كان يتم عبر إقامة قنوات أو قواديس من الخشب أو المعدن أو من الطين المجفف. وقد كشفت بعض الإشارات المصدرية عن أن أقدم قناة للماء وضعت داخل الأسوار (intramuros) كان عام 1273 م في"Provins" [75].

وقد اتجهت المصادر إلى إيراد معلومات مفصلة حول العمال المتخصصين في مد مياه العيون إلى أماكن ومؤسسات في المدن وكيفية عملهم بل وأسماء وأجور العديد منهم[76]. وحين ينتهي العمل من مد قناة تقود المياه من عين أو نهر إلى مؤسسة من المؤسسات في المدينة، فإن هذه الأخيرة في شخص الكمونة تعمل على

(72) **نفسه**، ص. 166. فصل المؤلف في العديد من تلك الإجراءات والقوانين بالأمثلة انظر ص ص. 167، 168، 169، 170.

(73) **نفسه**، ص ص. 175، 176. تحدث المؤلف عن ظاهرة بيع الماء خاصة في بعض الأحياء غير المجهزة داخل المدن عن طريق الحمالين رجالاً ونساء.

(74) **نفسه**، ص. 179. أورد المؤلف صورة تمثل نموذجاً من الآبار وموقعها في مكان محدد بالنسبة للمدينة، وتحدث عن أشكال مختلفة، ص. 202.

(75) **نفسه**، ص. 187. يعتبر تاريخ 1273م مهما باعتباره يقدم إمكانية للبحث المقارن في أقاليم ومناطق متعددة أخرى ليست بالضرورة في فرنسا أو أوربا.

(76) **نفسه**، ص ص. 187، 188، 189، 190. انظر أساليب جلب المياه إلى بعض المدن في : ص ص. 191، 192، 193، 194، 195، 196.

حماية القناة والماء وذلك عبر المراقبة وإصدار القوانين التي تنظم طرق وكيفية التوزيع والاستفادة منه. وقد حاول بعض الأثريين إعادة رسم صورة بعض الأحياء اعتماداً على الوثائق والبحث الميداني في الآن ذاته. وقد تبيّن بالفعل أن بعض المدن مثل Chartres اخترقتها شبكة تحت أرضية من القنوات والقواديس المصنوعة من الرصاص بدليل اكتشاف أجزاء منها[77].

الاستعمالات المنزلية والصحية للماء

أورد المؤلف معلومات دقيقة وجزئية إلى حد كبير حول الاستعمالات اليومية للمياه. وتحدث بتفصيل عن الحمامات والمياه المعدنية الساخنة التي تستخدم في الأغراض الاستشفائية أو رياضات صحية مختلفة[78]. ولم يفته أن يتحدث عن جزئيات تهم المواد الغذائية والمشروبات التي تحتاج المياه الجيدة كالطعام والخبز والجعة[79]، ناهيك عن النظافة بواسطة الحمامات المتنوعة العائلية منها أو العموميّة[80]. وأكثر من ذلك كان بعض الزعماء كالأمبراطور الكارلنجي شارلمان مثلاً يتخذ الحمام مكاناً لالتقاء مستشاريه والحديث معهم في مواضيع تهم الأمبراطورية[81] أو غيرها. وإلى ذلك تضاف تلك المواعيد والنقاشات التي لا تنتهي حول مراكز الاستحمام[82]. ولم يغفل الباحث الإشارة إلى أن الآبار والعيون لم تكن تلعب دوراً اقتصادياً فحسب، وإنما تعدت ذلك إلى الدور الإنساني أو الاجتماعي. إن العيون مثلاً تعد بامتياز أمكنة للقاءات مختلفة كما توضح المصادر الأدبية والروائية أو الرسوم الحائطية والنحت[83].

---

(77) **نفسه**، ص. 200.

(78) **نفسه**، ص ص. 119، 220، 221، 222.

(79) **نفسه**، ص ص. 224، 225، 226.

(80) **نفسه**، ص ص. 227، 232.

(81) **نفسه**، ص. 234.

(82) **نفسه**، ص ص. 235، 236. أورد المؤلف تفاصيل حول طرق الاستحمام بالمياه الساخنة أو الباردة أو بالبخار والطين كذلك. وبيّن مثلاً أن بعض الصور والرسوم أو المنقوشات على الأخشاب أو غيرها عكست الطرق التي كانت بعض المجموعات من النساء والرجال، مختلطين أحياناً بل عراة، تتبعها في الاستحمام في المياه المعدنية الساخنة.

(83) **نفسه**، ص ص. 208، 209.

وإلى جانب ما سبق استخدمت المياه في غسل البيوت والدور والأدوات والألبسة المختلفة[84]. وهكذا أصبح الماء ملازماً للحياة العائلية اليومية ومرافقاً لها في كل المناسبات، وإن صعب الحصول عليه بسهولة من قبل ذوي الإمكانيات المحدودة.

إذا كانت هذه بعض الإيجابيات الناجمة عن استخدام المياه في ميادين متعددة، فلاشك أن لاستعمالها آثاراً سلبية أيضاً. وقد سبق الحديث عن الأوساخ والتلوث ومشاكل الصرف الصحي وغيره[85].

المياه والقطاعات الاقتصادية

حلل المؤلف في الفصول السابقة دور المياه في الأغذية والشرب والنظافة، وخصص قسماً آخر من البحث لدراسة أهمية الماء في المجالات الاقتصادية خاصة ما يتعلق بالبساتين والصيد والتجارة والصناعة.

لقد تم إعداد الأراضي العائلية الخصبة، أو الجماعية في ضواحي المدن. وتحققت الاستفادة من المياه في صيد الأسماك ورواجها. كما نشطت الملاحة في الأنهار مما زاد في مداخيل الأراضي "السنيورية" وكذلك مداخيل المدن القريبة. ناهيك عن نشاط حركة الموانئ خاصة تلك المزودة ببنيات ساعدت على ذلك. ومن جهة أخرى مكنت القوة المائية من استخدام الأرحى باعتبارها أدوات تنتج كما تستهلك الطاقة.

إن التجديد في الميدان التقني والتطور الصناعي في بعض القطاعات أديا إلى نقاشات بين الباحثين المعاصرين حول طبيعة العمل والتقنية التي شهدها العصر الوسيط.

يشير المؤلف إلى أنه لا يمكن النظر إلى مدينة العصر الوسيط بنظرة إنسان القرن العشرين أو الواحد والعشرين وهو محق في ذلك. فالمدينة الأوربية خلال حقبة الوسيط كانت مرتبطة إلى حد كبير بمحيطها القروي. ولا غرابة أن تحتفظ بالكثير

(84) **نفسه**، ص ص. 241، 242، 243، 244، 245.
(85) **نفسه**، ص ص. 248، 249، 250، 251.

من مظاهر العالم الريفي، كما تشهد على ذلك الحقول والبساتين ومساحات الكروم التي نجدها داخل الأسوار كما تؤكد المعلومات المصدرية. ولذلك تزداد الحاجة أكثر إلى المياه التي توظف في الري والنظافة والصناعة ومؤسسات مختلفة. ولاشك أن الاستعمال المكثف للمياه دفع إلى ضرورة التدخل من أجل تقنين ذلك الاستعمال. وهذا ما حدث في مدن عديدة كإيكس/بروفانس التي لم تتوان سلطاتها في إيقاف استخدام الأرحى المائية من يوم السبت إلى يوم الإثنين صباحاً، وذلك حتى يتمكن أصحاب البساتين من استغلال المياه الجارية والصيادين من الصيد على ضفاف الأنهار(86). أما حين تقل ا لمياه بشكل طبيعي، بفعل الجفاف مثلاً، فإن الرغبة تكون شديدة في الأمطار التي تحيي الأزهار والحقول والعقول. ولا غرابة أن تقام الصلوات والأدعية المختلفة من أجل الاستسقاء.

وبصدد الحقول والسقي داخل المدن أورد المؤلف ملاحظات تفصيلية ودقيقة تهم حجم ومساحات الأراضي داخل أسوار بعض المدن وكذا مواقعها موضحاً أن البساتين تقع خلف الأحياء السكنية وتمتد إلى جنبات الأسوار المطلة على النهر عادة(87). ويلاحظ أنه كل ما تم الابتعاد من الأحياء المغلقة والمأهولة إلا وازداد عدد الحقول والبساتين وذلك على امتداد منظر طبيعي متنوع وشبه قروي(88).

الملاحة النهرية والمدينة

كانت دراسة الملاحة النهرية تقتصر على المحاور النهرية الكبرى وتعداد المواد التجارية التي تعبر الموانئ أو المراكز الرئيسية، ومعرفة مؤسسات جمعيات التجار وكذا الامتيازات التي يحظون بها. أما الآن فأصبحت تشد أكثر المؤرخين والأثريين إلى جانب المتحاف المحلية أو الإقليمية(89). وأصبح الاهتمام ينصب أيضاً على وسائل النقل والأشخاص المختصين في ذلك وطبيعة الموانئ والمواد المنقولة.

(86) **نفسه**، ص ص. 281، 282. لاشك أن تدخل سلطة المدينة في طرق توزيع الماء يؤدي إلى قلة النزاعات حوله. وللمقارنة التي لاتخلو من فائدة نشير إلى أن المصادر العربية المغربية والأندلسية خاصة كتب النوازل والفتاوى والحسبة تقدم مادة مفصلة في هذا الموضوع وما تزال في حاجة إلى البحث والدراسة.

(87) **نفسه**، ص. 284.

(88) قدم المؤلف ملاحظات عديدة تخص دور البساتين في الحياة العائلية وطبيعة الإنتاج وأنواعه في بعضها كالعنب والزهور والأشجار المثمرة والخضروغيرها. انظر : ص ص. 284، 285، 286، 287، 288.

(89) **نفسه**، ص. 295.

إن وجود النهر بجوار المدينة يساعد كثيراً في الرواج التجاري ومداخلها الضرائبية إلى جانب رفع عدد المشتغلين من سكانها. وتستفيد المدينة أكثر حين تتقاطع الطرق النهرية والبرية بجوارها مما يضاعف من عملية انتقال الأشخاص والبضائع. ولا غرو، فقد سبق وأن تحدث مؤرخ الجغرافيا المشهور سترابون، منذ مطلع القرن الأول للميلاد، عن أنهار غاليا ودورها في الحياة الاقتصادية خلال عهد الأمبراطورية الأخيرة. وتكفي الإشارة، في هذا المعنى، إلى أنهار مثل السين ولوار، والرون، والراين، والكَارون وروافدها[90]. ومن المؤكد، يقول المؤلف أن هذه الأنهار وغيرها كانت في الماضي أكثر اتساعاً وإفادة في تألق المدن وازدهارها[91]. ولذلك، حاول الزعماء تشجيع الملاحة النهرية وحمايتها كما حدث في نهر السين الذي ساهم في رواج تجاري كبير ما بين مدينتي باريس وروان. لقد كان طريقاً ناجعاً للسفن المحملة بخمور إقليم بوركَونيا وكذا الحبوب إلى جانب الملح القادم من جهة المحيط الأطلسي عبر مدينة روان. ناهيك عن الأخشاب الواردة من جهة مرفان[92] (Morvan).

أما نهر لوار فيقع في قلب منطقة تتقاطع فيها الشبكة المائية النهرية والطرق البرية ويصل بين جهات غنية في عدة أقاليم[93]. ولا يقل نهر الكَارون أهمية فقد زاد في تألق عدة مدن مثل بوردو ولبورن وإقليم لاجيروند باعتباره من أهم أسواق الخمور التي تصل أنجلترا وفلاندر[94].

ماهي طبيعة وسائل النقل النهرية ؟

يصعب، في الواقع، تحديد أحجام السفن المستخدمة في الملاحة النهرية لأسباب متعددة، منها قلة المعلومات المصدرية وضعف نتائج البحث الأركيولوجي البحري

---

(90) **نفسه**. ص ص. 297، 298، 299. تحدث المؤلف عن نهر لوار الذي يبلغ طوله 1020 كلم وحوضه 115.000كلم² وصبيب متوسطه حوالي 400م³ في الثانية. أما نهر الكَارون الشريان المهم في حوض الأكتان فكثير الروافد مثل تارن، لوت، دوردونيا، ويصب في جهة بوردو (لاجيروند) بصبيب غير منتظم يصل إلى 700م³ في الثانية.

(91) انظر التفصيل في الصفحات : 297، 298، 299، 300، 301.

(92) **نفسه**، ص. 304.

(93) **نفسه**، ص. 305.

(94) **نفسه**، ص. 308. وصل المحمول من الخمور في إحدى الفترات حوالي 85.000 هكل.

والنهري، مما يصعب معه تكوين صورة أو فكرة واضحة عن الأحجام المتخذة خلال العصر الوسيط. أشار المؤلف إلى معلومات تفيد أن سفينة من القرن الثاني عشر الميلادي بلغ طولها 12 متراً عثر عليها في إقليم «شارنت مارتيم». كانت متعددة الوظائف، ومخصصة لنقل المسافرين والبضائع المرتبطة بالصيد[95]. كما وجدت سفن أخرى وصل طولها إلى 40 متراً وعرضها ستة أمتار[96]. ويبدو أن السفن النهرية أقل حجماً من البحرية[97]. وللمقارنة ذكر المؤلف أن العربات البرية ذات العجلات الأربع، ويجرها من ثلاثة إلى سبعة خيول، تحمل طنين أو ثلاثة أطنان في كل مرحلة طرقية يومية تبلغ حوالي 15 كلم[98].

لاشك أن نشاط الملاحة النهرية كانت تعترضه صعوبات مختلفة في أوقات محددة كما هو الحال في أوقات الصراعات والحروب حول أقاليم بعينها كما حدث إبان حرب المائة عامة ضد أنجلترا بحيث كانت الموانئ والطرق النّهرية مستهدفة. كما أن الظروف الطبيعية كالفيضان أو الجفاف تؤدي إلى انقطاع المواصلات والملاحة.

من يملك السفن ويعمل على استغلالها ؟

لابد من الإشارة إلى أن رجالاً أقوياء اشتغلوا في ظروف صعبة في المراكز النهرية والموانئ كما يتضح من الإشارات المصدرية المتعددة. تحدث المؤلف عن رجال زاولوا أعمالاً شاقة وبرواتب هزيلة للغاية. فحول نهر الرون مثلاً، وجدت مجموعات من العمال تكونت من 200 إلى 250 فرداً، كانوا يعملون كمياومين في أشغال الجر وملء السفن، وفي جهات أخرى تمَّ استبدال هذه السلعة الآدمية بأخرى بهائمية لا تحتج. لذلك استخدمت الحيوانات مثل الخيول والبقر والبغال[99].

---

(95) **نفسه**، ص. 316.

(96) **نفسه**، ص. 316.

(97) للمقارنة نقول إن المصادر العربية خاصة الأندلسية منها تزخر بفيض من الإشارات والمعلومات التي تدقق في مواد صناعة السفن وطرق صناعتها وأحجامها وحمولاتها إلخ. انظر التفصيل في :
حناوي (محمد)، النظام العسكري الأندلسي...، م. س، ج 2، باب الأسطول.

(98) **نفسه**، ص.318. يلاحظ أن العربات البرية خاصة الصغيرة الحجم منها والخفيفة، قد تكون مكلفة لأنها تدفع ضرائب ومصاريف في نقط العبور الأساسية.

(99) **نفسه**، ص 318، قال المؤلف في هذا الصدد إن حمولة خفيفة نسبياً تمر في نهر السين في اتجاه باريس تحتاج إلى ثمانية خيول. وإذا تعدت تلك الحمولة 150 طناً من الملح والخمور فتحتاج إلى 15 خيلاً.

لاشك أن أغلب السفن التي تعبر المياه النهرية تعود ملكيتها، حسب الحمولة والمناطق، إلى أشخاص أوعائلات أو عدة أشخاص متشاركين بالحصص. وقد يكون هؤلاء من المحترفين الذين لا يخضعون لالتزامات محددة، بل يمتثلون لقانون الحرفة في المدينة. وقد يكونون تجاراً أغنياء يوظفون أموالهم في قطاعات متعددة كالخمور والحبوب وغيرها[100].

إن حركة السفن في الأنهار ورواج المبادلات التجارية يؤدي إلى نشاط واستخلاص الضرائب كما يتضح من الإشارات المصدرية المختلفة. ويلاحظ، أن الأداء عبر الأنهار مختلف عن الضرائب المؤداة في ميادين أخرى. فالضرائب التي كانت تؤدي منذ القرن الحادي عشر الميلادي مثلاً، لها ارتباط بنوع البضائع الرائجة والتي قد تضم المواد التجارية المختلفة والبهائم ووسائل النقل المتجهة نحو أبواب المدن. أما الأداء في مراكز المرور في المجالات المائية فله ارتباط بمدى نشاط وتطور حركة التجارة في هذا الميدان. إضافة إلى أن الأداء الضريبي يعكس بشكل ما طبيعة السلطة "السنيورية" القائمة إلى جانب الملك[101].

ولتكوين فكرة عن الأداءات في أهم المراكز النّهرية تشير المصادر إلى وجود حوالي أربعين مركزاً للأداء الضرائبي على طول نهر الكَارون مابين مدينتي تولوز وبوردو[102].

دور الماء في الاقتصاد ماقبل الصناعي

اهتمت العديد من الأبحاث بالاقتصاد وعلاقته بالتقنيات خلال العصر الوسيط. وقد خصص بعضها للأرحى المائية التي وصفت "**بمحركات الأنهار**" أو بالمعامل. ويلاحظ أنها استغلت في العالم القروي كما هو الشأن في المدن ؛ وظلت نشطة إلى آخر العصر الوسيط على الأقل، حتى قيل إن بعضها كان يعيق أحياناً الملاحة النهرية ولذلك كانت أماكن إقامتها تختار بعناية.

---

(100) **نفسه**، ص. 337 انظر التفصيل في ص ص. 388، 339، 340، 341.

(101) **نفسه**، ص. 343.

(102) **نفسه**، ص. 343. انظر التفصيل في :

HIGOUNET (C.) ; «Géographie des péages de Garonne et de ses affluents au Moyen Age», Journal des Savants, 1978, pp. 105-130.

تجدر الإشارة إلى أن أرحى الحبوب كانت سائدة منذ أواخر العصر القديم وبداية الوسيط الأعلى في أقاليم بعينها مثل ناربون وقطلونيا وآرل وغيرها. وانتشرت حتى قيل إن أعدادها بلغت عشرين ألفاً في فرنسا خلال القرن الثاني عشر الميلادي وتمثل من الطاقة ما يوازي 600.000 عامل [103]. لقد انتشرت في أماكن متعددة في الأنهار كجوار القناطر وغيرها. ولا شك أن إقامتها كانت تقتضي إعداد لوازمها ولو أدى الأمر أحياناً إلى التصرف في مجرى النهر والمياه ناهيك عما قد يلحق الماء جراء اشتغالها من أوساخ أو تلوث إلخ.

لاحظ المؤلف أن إقامة الأرحى كانت مكلفة لأنها قد لا تعطي النتائج المنتظرة مما يؤدي إلى ضياع الطاقة أو قلة الطحين خاصة في أوقات الجفاف أو الجليد[104].

إلى جانب أرحى الحبوب وجدت أخرى صناعية أكثر تعقيداً كأرحى الزيوت. كما تم استعمال الطاقة المحركة منذ القرن الثالث عشر للميلاد في صناعة الأقمشة أو النسيج[105]. ناهيك عن اللجوء إلى طاقة أخرى أو تقنيات مرتبطة بالورق أو السلاح الذي ازدهر خلال حرب المائة عام كما سلف الذكر. وفي الوقت نفسه انتشرت صناعات مختلفة تستهلك المياه. كما استقرت الحرف بجوار الأنهار كالدباغة[106] والحدادة. ورغم ارتباط هذه الأخيرة بالنار فإن الحداد (ميكانيكي العصر الوسيط) يستخدم المياه لأغراض كثيرة[107].

الماء : الأفراح والأتراح

خصص الباحث LEGUAY القسم الأخير من الدراسة لتحليل علاقة المياه بالأفراح وبالأخطار. وحاول إبراز الدور المزدوج الذي يلعبه الماء في حياة

(103) **نفسه**، ص. 351. انظر بعض أعداد الأرحى حسب الأقاليم، ص. 353. ربما من المفيد الإشارة إلى أن ظاهرة كثرة الأرحى وأنشطتها على طول الأنهار ورد كذلك في المصادر المغربية والأندلسية انظر ذلك في:
حناوي (محمد)،"الأرحى المائية بالمغرب والأندلس من خلال كتب الجغرافيا والنوازل والحسبة"، ندوة : الماء بتانسيفت : تاريخ وتقنيات، سلسلة ندوات، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش، 2002، الصفحات : 95-112.

(104) **نفسه**، ص. 353.

(105) **نفسه**، ص. 356.

(106) **نفسه**، ص ص. 358، 359.

(107) **نفسه**، ص. 360.

الإنسان. فإذا اعتبرت المياه مصدراً للأفراح والمتعة، فهي محل تقديس من قبل شعوب وديانات مختلفة كما هو الشأن في التعميد "baptême" إلخ ؛ خاصة (الأنهار) كانت وما تزال مرتبطة بالأخطار والفواجع التي تحل بالإنسان في مناسبات عديدة. إن الفيضان والجفاف والمجاعة ظواهر احتلت مكانة هامة في أدب ووثائق الحكي القديمة.

وقد حاول المحدثون والمؤرخون فهم أسباب تلك الظواهر التي أذهلتهم وبهرتهم في الآن ذاته.

لاشك أن الكثير من الحفلات والتجمعات كانت تقام بجوار الأنهار أو إلى جانب المياه الجارية. كما أن العديد من الدور والكنائس والقصور أقيمت مطلة على الماء، ولو من بعض جنباتها أونوافذها أو شرفاتها[108]. وقد تسابقت العديد من المحلات التجارية نحو الاستقرار بجوار المياه، ناهيك عن بعض المؤسسات العمومية كالمستشفيات[109] وغيرها.

وفي الجانب الروحي اعتبرت المياه أحد الأركان الأربعة الأساسية التي تشكل الكون، إلى جانب الأرض والهواء والنار. لذلك وصفت بالقداسة. وقد كان المتخيل الجماعي يربط باستمرار ما بين الأنهار والغيوم والتقاليد المجوسية في الحياة والخصوبة والسحر، إلى أن أكدت المسيحية قيمتها الرمزية المرتبطة بالحياة والموت والولادة والتجدد والتطهير. لكن، في الوقت ذاته، ارتبطت المياه بالغضب الإلهي وبالدمار والخراب والطوفان[110].

إن تقديس المياه وخاصة ماء العيون له علاقة بآلهة المجوس والسلت. وقد أحيى الرومان ثم الجرمان هذا التقديس، وتمثلته المسيحية من جديد باعتبارها قوة حامية. الأسقف والراهب يُذهبان الأمراض عن طريق استخدام الماء أو بعض النباتات أوبقايا آثار القديسين[111].

---

(108) **نفسه**، ص. 370.

(109) **نفسه**، ص ص. 372-373.

(110) **نفسه**، ص. 377. أوضح المؤلف أن كل الصور الموروثة من القديم اتخذت من مياه الأنهار أو الآبار والعيون إطاراً لها أو زخرفاً من العهد القديم أو الجديد.

(111) **نفسه**، ص. 380.

لقد اعتبر التعميد تقليداً يحمل معه الحياة والأماني والخلاص. إنه يطهر من الخطأ ويمحو الخطايا والذنوب. ولاغرابة إذا تحدثت الكتابات القديمة عن الجوانب المقدسة لمياه التعميد التي تحضر قبل الولادة استعداداً للحظة التعميد[112].

الأخطار التي تسببها المياه

أوضح كتاب العصر الوسيط أن المياه تسبب في الكوارث حين تغضب. فقد يحدث أن يفيض نهر في دقائق قليلة ويسلط غضبه الجامح على الطبيعة والإنسان. يكفي الإشارة إلى أن نهر لوار لا يتعدى صبيبه 60م³ في الثانية في فترة جفاف حاد. ويصل إلى 6000م³ في الفيضان[113]. ممّا يبين قوة دفع المياه وإمكانية تخريب ما يقع في طريقها من منازل وقناطر وأرحى وغيرها. ومن الأمثلة خلال العصر الوسيط ما يكفي لتبيان تكرار الكوارث ونتائجها الطبيعية والبشرية. وقد وصف المؤرخون والمحدثون أمثال كَريكَوار التوري[114] الأسقف المشهور وغير ذلك بما فيه الكفاية منذ مستهل العصر الوسيط. كما أن مصادر الفترة اللاحقة للقرن العاشر للميلاد خاصة الوثائق السردية، وكذا المصادر ذات المضمون الإقتصادي الإحصائي في بعض المدن أوردت معلومات مفيدة في ذلك. لقد بينت أهمية الفيضانات في الأنهار كظاهرة تتكرر على مدار السنة[115].

وعلى العكس من ذلك تماماً، قد تحل فترات من الجفاف مما يهدد كذلك الطبيعة والإنسان كما هو الشأن مع الفيضان.

ماهي أسباب هذه الحوادث وماهي التفسيرات المقدمة حولها ؟

كان إنسان العصر الوسيط يعتقد أن الكوارث الطبيعية تعتبر غضباً إلهياً أو عقاباً يحل بالإنسان نظراً لقصور إيمانه وميوله إلى الخطيئة. وتجدر الإشارة إلى أن هذا التفسير يعمم كذلك على كل الأحداث الكبرى المعروفة كالغزوات "البربرية"

(112) **نفسه**، ص. 382.

(113) **نفسه**، ص. 394.

(114) **نفسه**، ص. 395. أورد هذا المؤرخ الكبير تفاصيل في ا لموضوع في كتابه "**تاريخ الفرنجة**".

(115) **نفسه**، ص. 396 وما بعدها. وضع المؤلف لائحة مفصلة للأنهار الفرنسية وتواريخ فيضانها بالأيام والليالي أحياناً وذلك منذ بداية القرن الثالث عشر. انظر : ص ص. 400، 401، 402، 403، 404.

لأوربا أو المجاعات أو غيرها[116] كما يتبين من النصوص المتعلقة بما يعرف بالخوارق "Miracles" ذات المضمون التقديسي.

وفي المقابل حاولت العديد من الأبحاث المعاصرة فهم أسباب الحوادث الطبيعية اعتماداً على تفسيرات علمية مرتبطة بتقلبات المناخ. ولاشك أن البحث الرائد في هذا المجال يعود إلى المؤرخ المعروف[117] Em.LEROY-LADURIE الذي اعتمد على معلومات مناخية مرتبطة بالغطاء النباتي وأشعة الشمس واتجاه التيارات البحرية وغير ذلك من الظواهر التي تساهم في تفسير الكثير من الكوارث الطبيعية السالفة الذكر.

لقد بينت نتائج العديد من الدراسات سيادة المناخ البارد والرطب منذ الحقبة الميروفنجية إلى حدود منتصف القرن الثامن الميلادي. وبعدها أي ابتداء من العام 750م إلى حوالي 1150م تميز المناخ بسخونة نسبية. وما لبث أن تردى من جديد مابين 1150 وبداية القرن الرابع عشر للميلاد[118].

إذا كان إنسان العصر الوسيط، كما سلف القول، قد اعتقد في العلاقة مابين القوى الغيبية والمشاكل الطبيعية، فإنه حاول التقرب من تلك القوى والبحث عن العفو الإلهي بطرق متعددة. لعل أبرزها إقامة الصلوات والأدعية المختلفة وتقديم القرابين إلى الجهات التي يعتقد أنها تخفف عنه وطأة الطوفان والفيضان والجفاف وغيره[119].

إلى جانب ما سبق ذكره ظلت المياه أيضاً عنصراً أساسياً وضرورياً في الحروب والصراعات العسكرية، بل تسببها في بعض الأحيان. ولذلك، تعتبر السيطرة عليها إحدى أولويات سلطات المدينة. ويكفي القول إن التحكم أو إخضاع المدينة قد يكون بواسطة المياه. يقول المؤلف في هذا المعنى : «إن النهر يقود إلى المدينة المراد محاصرتها»[120]. وللتأكد من صحة هذه الملاحظة يمكن قراءة بعض التفاصيل الواردة

(116) **نفسه**، ص 407.

(117) **LEROY-LADURIE (E.)** ; Histoire du climat depuit l'an mil, Paris, Flammarion, 1983, 2 vol.

(118) **نفسه**، ص ص. 409، 410.

(119) انظر التفصيل في : ص ص. 417، 418، 419، 420، 421.

(120) **نفسه**، ص. 432.

في تاريخ شعوب النورمان "Vikings" «ملوك البحر» على حد قول المؤلف أو «بدو البحر» حسب العروي[121]. لقد كتب الكثير عن حصار هؤلاء للمدن الأوربية خلال العصر الكارلنجي. كما أن بعض أهم مراحل حرب المائة عام قد دارت في الأنهار وحولها وذلك من أجل إخضاع أماكن استراتيجية مرتبطة بالاتصال والمواصلات. إن مراقبة نهر من الأنهار باعتباره الرئة التي تتنفس منها المدينة أو الإقليم كله ضرورة قصوى يصعب التخلي عنها. لذلك لا تتردد المدينة في الدفاع عن محيطها والتفاوض مع الجيران من الأرستقراطيين وغيرهم قصد رسم الحدود وضبطها وتحديد واجبات وحقوق كافة الأطراف.وقد تفضي الأمور أحياناً إلى نزاعات بل وحملات من أجل عقاب من لا يحترم المتفق عليه.

ترتبط المياه كذلك بمجموعة من السلبيات والأخطار، ولذلك وصفت عادة بالماء المعلونة[122] (eau maudite) لأنها قد تسبب في الغرق والعقاب والأمراض وغيره. فإلى جانب الفيضان المتكرر الذي يضر بالإنسان والطبيعة سجلت المصادر معلومات تهم حوادث الغرق أثناء السباحة بشكل عفوي أو مقصود أوعند حوادث السفن. كما يمكن للبعض أن يدفع بخصمه إلى الغرق أو يسمم البئر الذي يشرب منها[123] كي يتخلص من شراكته في الأرحى أوغيرها. ومن الأشخاص أيضاً من يقدم على الانتحار غرقاً كعقاب شخصي يلجأ إليه بعض من كل الشرائح الاجتماعية والدينية[124]. ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تتخذ المياه الساخنة في مناسبات متعددة، للعقاب من أجل انتزاع اعترافات أثناء التحقيقات مع المشتبه في ارتكابه لأعمال معينة. وقد لجأ إلى هذه الوسيلة رجال محاكم التفتيش خلال القرن الثالث عشر الميلادي[125]. والهدف من هذا السلوك هو قهر المعارضين والدفع بهم إلى الانهزام والاستسلام للأمر الواقع.

(121) **العروي (ع)**، مجمل تاريخ المغرب، الدارالبيضاء، بيروت، 1994، ج 2، ص. 96.
حناوي (محمد)، النظام العسكري الأندلسي...، م. س، ج2، ص. 377.
(122) **نفسه**، ص. 436 وما بعدها.
(123) **نفسه**، ص. 439.
(124) **نفسه**، ص. 440.
(125) **نفسه**، ص. 442.

خـاتمـة

تجدر الملاحظة إلى أن الباحث J.P.LEGUAY، لم يضع خاتمة لكتابه الضخم والذي يضم معلومات مفصلة ومفيدة في موضوع هام يتعلق بالماء والمدينة خلال العصر الوسيط.

ورغم أن الماء والمناخ والمجال الحضري والجفاف والفيضان مواضيع احتلت الصدارة في السنين الأخيرة، فهي مواضيع همت كذلك إنسان التاريخ القديم والوسيط، وإن اختلفت القضايا والإشكاليات باختلاف الحقب والعصور.

حاول المؤلف تتبع أو رصد أدوار الماء في المجالات الحضرية منذ الفترة الرومانية المتأخرة إلى آخر العصر الوسيط في أوربا عامة وفي فرنسا بالدرجة الأولى. لقد تمكن، بفعل استغلال مادة مصدرية متوافرة ومتنوعة أن يحلل بعمق الجوانب الأساسية في موضوع الماء والمدينة. ولا شك أنه نجح إلى حد بعيد في تبيان دور المياه في حياة الإنسان المعيشية وفي ميادين متعددة كالصناعة والتجارة والملاحة دون إغفال طبيعة العلاقة بين المياه وتطور المدينة عبر جهات وأقاليم مختلفة، أي أن المؤلف استطاع أن يبني منهجية واضحة أمكن من خلالها تتبع وفهم أهمية الماء وأدواره. وفي الوقت ذاته رصد كيفية تطور المدينة. وفي هذا الإطار عالج مواضيع هامة ودقيقة تخص النظم المائية والمجالات الحضرية والمنجزات الأساسية في ذلك. فإلى جانب إبراز إيجابيات الماء بالنسبة للإنسان والطبيعة لم تغفل السلبيات كالأوساخ والتلوث وحدود التقنيات إضافة إلى ما تسببه المياه من أخطار وحوادث.

يمكن إبداء ملاحظات عامة ذات طبيعة منهجية حول هذه الدراسة، المفيدة منها أن المؤلف حين يختار عنواناً لفصل من فصول البحث محدِّداً الفترة الزمنية التي يغطيها العنوان، قد لا يتقيد بتلك الفترة بل يتجاوزها أحياناً للإتيان بمعلومات تهم حقبة سابقة أو لاحقة لها. ورغم أن هذا الإجراء مبرر من الزاوية المنهجية نظراً لطبيعة المادة المصدرية، فإنه يسبب حيرة إن لم نقل "قلقاً" منهجياً بالنسبة للقارئ. ويؤدي إلى إبداء ملاحظة أخرى تهم الفترة الزمنية التي اختارها المؤلف والتي تمتد من آخر الأمبراطورية الرومانية إلى مطلع العصر الحديث. إنها حقبة زمنية طويلة

جداً (أكثر من عشرة قرون) يصعب استيعاب مضمونها. وربما أمكن الاقتصار، فيما نرى، على نموذج محدد من المدن وفي فترة تاريخية قصيرة نسبياً وحسب ما تسمح به المادة المصدرية، خاصة وأن الأبحاث والدراسات حول المدن متوفرة إلى حد كبير.

وبصدد عنوان الدراسة نفسه، ذكر المؤلف في المقدمة أنه اقتصر على مدن فرنسا والأقاليم التابعة لها خلال العصر الوسيط، لكن العنوان يشير صراحة إلى **الماء في المدينة خلال العصر الوسيط**، أي أنه يوحي بتغطية كل أوربا وليس فرنسا وحدها.

رغم هذه الملاحظات يمكن القول إن هذا الكتاب يقدم للباحث المتخصص وغيره أيضاً مادة طيبة وفوائد مؤكدة كثيرة حول موضوعه والذي اعتمدت فيه نتائج آخر الأبحاث في المياه والمدن.

بعض مخطوطات بلاد السودان في المغرب

حسن الصادقي
معهد الدراسات الإفريقية – الرباط

تعتبر بلاد السودان أو السودان الغربي أو إفريقيا الغربية، من بين أشهر مراكز الثقافة العربية الإسلامية.

اشتهرت بعلمائها والوافدين عليها، وما خلفوه من تراث فكري ساهم في إغناء حقل الثقافة والفكر بإفريقيا،وتمثل ذلك في الكتب المخطوطة التي تزخر بها خزانات تنبكت المتعددة، واشهرها مركز أحمد بابا وخزانة ممّا حيدرة وخزانة بولعراف، وخزانات ولاتة وتيشيت وشنقيطي ونيامي...الخ.

ويجرنا الحديث عن المخطوطات إلى الحديث عن مكونات هذا التراث الذي يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أصناف:

1 ـ الصنف الأول:

تشكله مخطوطات ألفها علماء بلاد السودان أي مخطوطات محلية افريقية قلبا وقالبا.

2 ـ الصنف الثاني :

تشكله مخطوطات لغير علماء بلاد السودان، أي لعلماء من الأقطار الإسلامية الأخرى من المشرق والمغرب والأندلس. وصلت إلى تنبكت إما بالشراء أو الاستنساخ أو الإهداء أو التأليف في عين المكان.

3 ـ الصنف الثالث:

تشكله مخطوطات لعلماء ونساخ بلاد السودان لكنها غير موجودة في تنبكت، وانما في خزائن أخرى في موريتانيا، المغرب...الخ، انتقلت إما بالشراء أو الاستنساخ أو الإهداء.

وعليه فمن الضروري الحديث عن كل هاته الأصناف، وايلاء المخطوطات الموجودة خارج تنبكت العناية اللازمة، حتى لا نبخسها حقها لأنها جزء من الكل، وحتى تكتمل الصورة حول هذا التراث العالمي.

فلماذا البحث عن وفي مخطوطات تنبكت وبلاد السودان خارج مكتباتها الأم؟

للإجابة على ذلك نلاحظ :

1) أن هاته المخطوطات وجدت إما بالشراء أو الإهداء أو النسخ.

2) وهو الأهم أن بعضها ألفه علماء تنبكت وبلاد السودان في الأقطار التي وجدوا بها مثل أحمد بابا التنبكتي الذي صنف العديد من الكتب أثناء إقامته بالمغرب مثل نيل الابتهاج والحلل السندسية وفتوى التبغ...الخ وكذا أحمد بن القاضي التنبكتي صاحب شكاية الدين المحمدي وهتك الستر. وغيرهما.

3) أن بعضها لا يوجد حتى في مكتبات تنبكت وبلاد السودان.

وتوجد مخطوطات تنبكت في العديد من دور المخطوطات العالمية داخل افريقيا وخارجها، في النيجر، نيجيريا، السنغال، موريتانيا، المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا، مصر. وفي بعض الدول الأوربية مثل فرنسا، ووصلت بعض المخطوطات حتى القارة الأمريكية.

ويتم الحديث عن المخطوطات في الغالب ضمن جملة المخطوطات العامة الموجودة في هاته الدولة أو تلك، ويشار إليها عرضا ضمن مخطوطات فن من الفنون أو علم من العلوم.

لذا يجب الأخذ بعين الاعتبار بخصوصياتها، ومحاولة جمعها وإفرادها بفهرس شامل.

إما فهرس لمؤلفات شخص معين أوأسرة واحدة أو فن من الفنون مثلا مخطوطات أحمد بابا التنبكتي، مخطوطات الأسرة الكنتية. أو مخطوطات فقهاء تنبكت و بلاد السودان...الخ.

وقد حظيت مخطوطات تنبكت في مجملها، بعناية المهتمين بمختلف جنسياتهم ومشاربهم، وحظيت برعاية أصحابها، ولولا ذلك لما وصلنا هذا التراث المخطوط

الذي يعتبر بحق مفخرة الثقافة العربية الإسلامية في أقطار افريقيا جنوبي الصحراء، ورصيدا ثقافيا افريقيا يضاف إلى الرصيد الثقافي المحلي والعالمي.

بعض مظاهر الاهتمام بالتراث المخطوط في تنبكت بشكل عام:

1 ـ **الاستنساخ** : عمل أهل تنبكت خصوصا وعلماء بلاد السودان عموما على استنساخ المؤلفات الأم حرصا على وجود عدة نسخ لمؤلف واحد، لذا نجد النسخ المكررة للمصنف الواحد أحيانا موزعا على عدة مكتبات.

2 ـ **الترميم والتسفير أو التجليد** : وهو مظهر للحفاظ على المخطوط حتى لا تتلاشى ورقاته الأولى والأخيرة وجميع أوراقه ويسهل حمله والعناية به.

3 ـ **التذهيب والتزويق** : كان لاهل بلاد السودان ولع بتذهيب وزخرفة المخطوطات حتى تخرج في أبهى حلة خصوصا مصاحف القرآن الكريم والكتب الدينية بل زينوها برسوم جميلة لبيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف.

4 ـ **الفهرسة** : وهي نوعان :

ـ فهرسة المخطوط الواحد، أي وضع فهرس لمحتويات المجامع المخطوطة، أو المخطوط المكون من عدة مجلدات، مثلا فهرس العمل المأثور في نوازل التكرور.

ـ فهرسة المكتبات العامة والخاصة. وهي تدوين ما تضمه هاته الخزانات من مخطوطات متنوعة، وهي عملية قديمة صاحبت المخطوط والمكتبات حرصا على معرفة محتوياتها وما يعار منها أو يضاف إليها أو ينقص منها.

وكانت هاته الفهرسة بسيطة أحيانا لا تتعدى ما يعرف بلائحة الكتب لهاته الخزانة أو تلك، أو ما يعرف بقائمة الكتب، أو دليل الكتب، أو كشاف الكتب. وهي تقتصر على ذكر عنوان المخطوط ومؤلفه أو مصنفه، وهل اشتري أم أستنسخ.

ـ الفهرسة المفصلة لخزائن المخطوطات، وهي الفهرسة المبنية على قواعد متعارف عليها علميا، طبقا لعلوم المكتبات، وهي فهرسة جامعة مانعة تتطلب معرفة التوثيق المكتبي ومعرفة المخطوط وماهيته ومكوناته من نوع الورق ومسطرة المخطوط

ومقياسه وعدد أوراقه ونوع خطه، ومادته، مع ذكر أوله وآخره وهل هو كامل أم مبتور، وعنوانه ومؤلفه وناسخه وتاريخ نسخه وهل هو النسخة الأم أم نسخة فريدة، وهل منه عدة نسخ وهل نشر أم لا؟ وهل هو مجلد، به زخارف، صور، رسوم. وبعبارة أخرى الإحاطة بشكل المخطوط الخارجي والداخلي.

ووقع الاهتمام بالمخطوط التنبكتي في المغرب ضمن الاهتمام بتراث أقطار إفريقيا جنوبي الصحراء، بحكم الروابط الموجودة منذ القديم والتي إن قطعتها أحيانا العوامل السياسية فإن الصحراء الإفريقية لم تكن لتمنع هاته الروابط وأشكال التواصل المتعددة ومن بينها انتقال الإنسان والكتاب بين أقطار الضفتين.

ويشكل وجود الكتاب الإفريقي الدليل الملموس على الإشعاع الثقافي لهاته الأقطار، والاهتمام به دليل على الاهتمام بالتراث المخطوط بشكل عام.

وتمثل هذا الاهتمام إلى جانب الدراسة والتحقيق والنشر، في وضع أدلة ولوائح وفهارس مخطوطات الخزائن العامة والخاصة، وتأتي ضمنها مخطوطات تنبكت. ومن بين هاته الفهارس:

- فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط. نشر أ. ليفي بروفنصال. باريس 1921وله طبعة ثانية سنة 1988.

- فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط من وضع الرجراجي وعلوش، مجلدان، باريس 1954. الرباط، 1958.

- فهرس المخطوطات العربية من وضع محمد إبراهيم الكتاني وصالح التادلي المجلد 4. 1973. وقد تم إعادة طبعها وطبع فهارس جديدة. – فهارس الخزانة الحسنية بالرباط، فهرس خزانة القرويين، خزانة تطوان، الخزانة الصبيحية، مكتبة علال الفاسي...الخ.

وتتوزع هاته المخطوطات كما سبق ذكره في عدة خزائن عامة وخاصة.

1 – **المكتبات العامة** : هي المكتبات الوطنية التابعة لوزارة الثقافة وتوجد بالحواضر الكبرى، أو لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مثل مكتبات المساجد الكبرى بمدن الرباط سلا، مكناس، فاس، وزان، تازة، مراكش، تارودانت، وبعض

مكتبات الزوايا مثل تامكروت والزاوية الحمزية. وأشهر المكتبات:الخزانة العامة الوطنية، بالرباط. الخزانة الحسنية بالقصر الملكي بالرباط، خزانة القرويين بفاس، وهناك خزانة ابن يوسف بمراكش.

ولا ننسى مكتبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط فهي مكتبة جامعية تنفرد بوجود مخطوطات نادرة وهي تابعة للتعليم العالي، عكس باقي دور المخطوطات، ولها فهرس مرقون من إعداد جماعة وصدر في مجلة كلية الآداب. وتضم ذخائر ثمينة لا ينتبه إليها، وبعضها غير مفهرس، وكانت تضم صورا و تحفا فخارية وخشبية بحكم أنها كانت النواة الجامعية العصرية الأولى في المغرب باسم معهد الدراسات العليا المغربية .

ويوجد بمكتبة معهد الدراسات الإفريقية الجامعي بعض المخطوطات، وهي إما نسخا أصلية أو مصورات لمخطوطات. ونترك الحديث عنها في بحث نعده في هذا الموضوع.

2 - **المكتبات الخاصة** : مكتبات بعض الأسر المغربية التي اهتمت بالتأليف وبالمخطوطات، وزيارتها تكون خاصة مثل مكتبة بنسعيد ومكتبة المؤرخ الناصري بسلا. وبعض الأسر في تارودانت، ومراكش وفاس...الخ.

أو بعض المكتبات التي أنشأها أفراد بتمويل شخصي ووضعت رهن إشارة العموم مثل المكتبة العلمية الصبيحية بسلا، ومكتبة مؤسسة علال الفاسي بالرباط، ومكتبة الفقيه عبد الله كنون بطنجة ومكتبة الفقيه محمد داود بتطوان، وهي مثل المكتبات العامة، وتحتوي كلها على مخطوطات نفيسة، وهذا على سبيل المثال لا الحصر، لأن هناك مكتبات أخرى مثل مكتبة الفقيه محمد المنوني بالرباط ومكتبة الفقيه محمد إبراهيم الكتاني.

ويستخرج الباحث من الفهارس والأدلة واللوائح، حصيلة غنية من مخطوطات إفريقيا جنوبي الصحراء. لكن عليه كذلك القيام بالبحث الميداني عن هاته المخطوطات في الخزائن العامة و الخاصة نظرا للأسباب التالية :

- إغفال بعض الفهارس لمخطوطات تم العثور عليها مؤخرا.

ـ وجود مجاميع يشار إلى أول مخطوط منها، ويغفل أحيانا محتويات باقي المجموع.

ـ وجود مكتبات خاصة ليس لها فهارس مطبوعة و متداولة.

وعليه فالحاجة ماسة للقيام بالتحري الميداني إلى جانب الاطلاع على فهارس المخطوطات للأسباب السابقة الذكر. ويتحصل من كل هذا وذاك سفر للمخطوطات السودانية، منها هاته النماذج :

1 ـ مخطوطات عربية لناسخين سودانيين.

ولع أهل السودان بنسخ أمهات الكتب، وتلوين كتاباتها و تزويقها، و تحتفظ الخزانات المغربية بنماذج منها مثل:

ـ **الرسالة القيروانية** توجد بالخزانة العامة حرف ك 5. بخط احمد بن أبي بكر بن علي بن دنبسل.

نسخها للأمير اسكي محمد بان بن اسكي داود بن اسكي الحاج محمد.

أولها : قال الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني.

آخرها : كمل كتاب الرسالة بحمد الله و حسن عونه بتاريخ يوم الاثنين 13 شعبان عام 995هـ.على يد كاتبه أحمد بن أبي بكر....وكتبه ل..شمس المعالي.. أمير المومنين اسكي أبي عبد الله محمد بان بنى الله الإسلام والمسلمين على يده ... المسطرة 6 المقياس 14 × 19، عدد الصفحات 796 ص.

خط سوداني ملون حروفه كبيرة . الخاتمة داخل إطار بالأصفر والأحمر.

المسند الصحيح لأبي الحسين مسلم. يوجد بمكتبة الزاوية الحمزية العياشية بإقليم الرشيدية رقم459 [1].

يوجد منه الربع الأول ناسخه أحمد بن أبي بكر السابق الذكر.

وبهامش الخاتمة يوجد سماع نصه "سمع من قراءتي من أول الكتاب إلى آخر هذا الجزء في مجالس آخرها يوم الجمعة الثالث من المحرم الحرام، الفاتح للعام الأول بعد

(1) محمد المنوني .مخطوطات الزاوية الحمزية، **مجلة تطوان** ع 1963/8، ص ص. 97 –177.

الألف، صاحبه أحمد بن أبي بكر بن علي بن دنبسل لطف الله به مع جماعة أذنت له و لهم أن يروه عني بشرطه قاله وكتبه محمد بن محمود بغيع مسلما على من يقف عليه و طالبا منه الدعاء بخير الدارين والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد"

ملاحظة : على هذا المجلد ملكية سليمان بن محمد التواتي بسجلماسة و ملكية حمزة بن أبي سالم الذي اشتراه بسجلماسة.

خط سوداني واضح ملون.

ـ **الشفا للقاضي عياض** نسخة بخط أحمد – دنبسل الفلاني. نفسه.

ـ **منهج السالك إلى ألفية ابن مالك** للأشموني. النصف الثاني منه بخط محمد بن أبي بكر...دنبسل الفلاني السابق الذكر. خ س 7188.

ـ كتاب **مناسك الحج على مذهب الإمام مالك**. لابن فرحون.

أول مجموع من ص. 1 الى 174 ناسخه : جاء في آخر ورقة ما يلي "نجز على يد عبيد الله تعالى محمد بن محمد المختار بن أحمد بن اندغ محمد بن اندنضر لطف الله بالجميع وكتبه لنفسه ولمن شاء من بعده. وكان الفراغ من نسخه وقت الآذان لصلاة العصر أوائل جمادى...

ـ **كتاب إفهام الأنجال بأحكام الآجال** لمحمد بن عبد الكريم – الأشعري معتقدا المالكي مذهبا المغربي إقليما المغيلي نسبا التلمساني منشأ المصري منزلا.

ملاحظة : في الورقة الأولى "ملكه من فضل الله تعالى بالاستكتاب الفقيرعبد الكافي محمد جمال البوتجي المالكي **ببلد قاغو** بأرض **سنغى** من خط المصنف".

ـ **رسالة من صالح بن شهاب الدين البلقيني إلى أحمد بابا بمراكش** مؤرخة بـ 10 ربيع الثاني 1015هـ[2].

توجد ضمن مجموع بخط محمد بن محمد المختار...بن اندغ محمد التازختي التتكروري التنبكتي خ ع ك 470 ص 198.

حول مدح كتابات أحمد بابا التي أرسلها من مراكش إلى البلقيني بمصر (انظر نصها في الملحق).

(2) حسن الصادقي، **مخطوطات أحمد بابا التنبكتي في الخزائن المغربية**، الرباط، 1996، ص. 40.

ـ **شرح المحلي لجمع الجوامع** بخط محمد فرغا بن دب الفلاني. خ س 7522.

ـ **الخصائص والمعجزات النبوية الكبرى** للسيوطي. خزانة تمكروت في مجلدين رقم 545 و190. جاء في آخره "كان الفراغ منه قبل الظهر يوم الاثنين 15 من ذي الحجة عام 1067". خط سوداني لعبد الله بن أحمد بن محمد بن كوت الفلاني.

2 ـ مخطوطات سودانية ضمن مخطوطات مغربية :

والمقصود هو وجود نصوص مخطوطات سودانية كاملة ضمن نصوص مخطوطات مغربية.

احتفظت لنا المخطوطات المغربية بنصوص لمخطوطات سودانية مثل:

ـ **إجازة** أحد بابا التنبكتي لكل من يحيى بن عبد الله بن عبد المنعم الحاحي المؤرخة بـ 13 ذي القعدة سنة 1008هـ. نصها منشور[3].

ـ **إجازة** لأبي زيد عبد الرحمان التلمساني نزيل تردنت (1598/1007). بكتاب الشفا نصها منشور[4].

ـ **إجازة ثانية** مطولة للتلمساني.

ـ **إجازة** أحمد بابا للتمنرتي.

توجد نصوص هاته الإجازات في مخطوط **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**. خ ع د 3693.

ـ مخطوط **اللمع في الإشارة لحكم تبغ**. لأحمد بابا التنبكتي. يجد ضمن مخطوط **الاصليت لإبن ابي محلي** مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط رقم 100 (ص 270-290).

ـ مخطوط **جواب عن القوانين العرفية** (فتوى حول ألواح جزولة) لأحمد بابا التنبكتي. يوجد في **الفوائد الجمة** للتمنرتي خ ع الرباط د 3693. فتاوى علماء جزولة خ ع ق 725خ س 583.

فتوى في تحريم الدخان لمحمد بن أحمد بن عبد الرحمان التنبكتي قاضي تنبكت. احتفظ بها اللقاني في كتابه نصيحة الإخوان ضمن مخطوط الاصليت لإبن أبي محلي خ س 100. خ س 12471 أو فتوى الطالب السوداني.

(3) حسن الصادقي، نفس المرجع.
(4) حسن الصادقي، **نفس المرجع** ص ص. 41-42.

3 ـ مخطوطات لعلماء تنبكت وبلاد السودان.

يكفي الإطلاع على كتب التراجم والحوليات السودانية والمغربية لمعرفة من اهتم بالتاليف والتصنيف، ومن هاته الكتب المصادر نيل الابتهاج وكفاية المحتاج لأحمد بابا، فتح الشكور في اعيان علماء التكرور للبرتلي الولاتي، نشر المثاني للقادري، الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الاعلام للمراكشي، صفوة من انتشر للافراني، نزهة الحادي للإفراني، تاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي، تاريخ الفتاش لمحمود كعت، إسعاف الميسور لمحمد بل، فهرس الفهارس للكتاني....الخ. ومع ذلك فبعض مخطوطات تنبكت موجودة و بعضها صار في خبر كان.

مخطوطات ألفت خارج تنبكت :

ا– **مخطوطات أحمد بابا التنبكتي**: استفاد أحمد بابا من إقامته بمراكش ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ (سورة البقرة الآية 216). والتقى بشيوخ المغرب السعدي وارتوى من عيون المعرفة التي زخرت بها المكتبة السلطانية واستفاد من مجالسة العلماء ووجد في كل ذلك ما لم يجده في تنبكت فشمر على ساعد الجد واهتم بالتصنيف والتأليف وذكر ذلك في بعض مؤلفاته حيث قال في مقدمة اللآلئ السندسية "لما قدر الله تعالى لي دخول بلدة مراكش على الوجه الذي أراده في الأزل وقضاه وذلك في أواخر عام 1002 سهل لي مع ما أنا فيه من التضييق والحبس الوقوف على جملة كتب غرائب لم أكن وقفت عليها.."

وقال في ديباجة النسخة المغربية من نيل الابتهاج "فقيدت فيه بحسب المنة والإمكان وذلك حين كنت ببلدنا البعيدة عن نيل المقصد من ذلك لبعدها من العلم والأوطان فقصرت الحال مع قلة الكتب هناك وعدم مساعدة الزمان، حتى تفضل من له الفضل وأحسن من له الطول سبحانه بوصولي إلى منبع العلم في الديار الغربية....فبادرت إلى كتب ذلك الذيل" م خ س 2358. والمخطوطات هي:

ـ **أسئلة في المشكلات** ألفه في مراكش قبل 1010م خ ع ك 470. مخطوط جديد لم يشر إليه م الزبير ولا ج هنويك (36 إشكالا مع الجواب عنها أرسلها الى العالم المصري أبي النجا سالم السنهوري)[5].

(5) حسن الصادقي، من نوادر مخطوطات الخزانة المغربية، **مجلة المغرب الإفريقي** العدد 4 الرباط 2003، ص. 73.

ـ اجازات احمد بابا للحاحي والتلمساني والتمنرتي.

ـ إرشاد الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف.جمادى 1014/1.

ـ إفهام السامع بمعني قول خليل في النكاح بالمنافع أو النكث اللوامع في مسألة النكاح بالمنافع 1010.

ـ إمتاع الأسماع بما قيل في إجراء ألفاظ رواة الحديث مجرى السماع 1012.

ـ أنفس الأعلاق في فتح الاستغلاق من فهم كلام خليل في درك الصداق 1010.

ـ تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء بعد 1012.

ـ تنوير القلوب بتكفير الأعمال الصالحة للذنوب.

ـ تعليق على مواضع من ابن الحاجب، نص جديد.

ـ جواب عن القوانين العرفية.

ـ خمائل الزهر فيما ورد من كيفيات الصلاة على سيد البشر.

ـ الدر النضير في كيفية الصلاة على الشفيع البشير.

ـ دفع الضير عن كلام ابن خير.

ـ الزند الوري ـ شرح الصدر ـ فتح الرزاق ـ فتح الصمد الفرد .

ـ كفاية المحتاج ـ اللآلئ السندسية ـ اللمغ في الإشارة الى حكم تبغ.

ـ مارواه الرواة ـ نيل الإبتهاج ـ وسيلتي وشافعي.

بالإضافة إلى :

ـ تنبيه الواقف على تحقيق وخصصت نية الحالف.تنبكت.

ـ جلب النعمة ودفع النقمة بمجانبة الولاة الظلمة. تنبكت 997.

ـ غاية الإجادة في مساواة.. ـ غاية الأمل في فضل النية على العمل.

ـ فتح المحيي في مسألة حيي ـ معراج الصعود ـ منن الرب الجليل ببيان مبهمات خليل ـ النكث المستجادة.

وقد فصلنا القول في كل هاته المخطوطات قي دراسة منشورة وأدرجنا نسخا جديدة وصححنا بعض الهفوات التي وقع فيها من اهتم بإحصاء مؤلفات احمد بابا، وذكرنا أرقامها وأماكن وجودها.

وخلصنا إلى أن أهم وجل مخطوطاته توجد بالخزائن المغربية العامة والخاصة، وأن المخطوط الواحد توجد منه عدة نسخ مثل نيل الابتهاج وكفاية المحتاج وشروح مبهمات خليل، ومعراج الصعود لأسباب مذهبية ودينية واجتماعية.

لكن يهم الباحث من إدراج هاته اللائحة هو ما تقدمه مخطوطات المغرب من إفادات وإضافات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

- نصوص مكتشفة مثل أسئلة في المشكلات. وتعليق على ابن الحاجب.

- مخطوطات فرائد مثل خمائل الزهر. وجواب عن سؤال ورد من الدلاء (دفع الضير عن كلام ابن خير).

- اعتراف أحمد بابا باستفادته من خزائن الكتب المغربية.

- مشاركته في مشاكل تهم المجتمع المغربي (أعراف الجبل).

- تواصله الثقافي مع علماء المشرق مثل السنهوري والبلقيني.

- موقفه من العلماء المغاربة، إذ قال للسنهوري "وانما كتبنا لكم...لنعرض عليكم مقدار فهمنا وتأملوه هل هو الصواب أم لا؟ وترشدونا لما هم الصواب عندكم إذ قل بهذا الغرب من يتعاطى الكلام معه في أمثال هذه الأشياء لأمور لا يحسن الإفصاح بها والله تعالى المستعان". (مخطوط أسئلة في المشكلات).

- إضافة تلميذ وناسخ سوداني لأحمد بابا التنبكتي هو محمد بن محمد بن أحمد بن اندغ محمد التكروري التنبكتي أخذ عنه حين عودته إلى بلده تنبكت.

مخطوطات لأعلا م آخرين :

- **شكاية الدين المحمدي إلى رعاية الموكين به.** لأحمد بن القاضي الدوجقي التنبكتي. رجب 1224/1809. خ س 6831 [6] (كتبها إلى المولى سليمان).

(6) عرفنا بهاته الرسالة في أعمال الدورة الرابعة لجامعة مولاي علي الشريف "مؤلفات علماء افريقيا مصدرا لعهد المولى سليمان" .دجنبر 1992 ص ص. 61-62. منشورات وزارة الثقافة 1992. قدم لها ونشرها الباحث عبد الحفيظ حمان رسالة شكاية الدين المحمدي " أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين اقطار ضفتي الصحراء" تطوان 1998 ونشرها محققة ومترجمة الى الانجيزية كل من محمد المنصور وفاطمة حراق الرباط 2000.

ـ **قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر**. لصالح بن محمد بن نوح العمري الفلاني ت 1803/1218. خ ع : ك. 2821. كان من نفائس الخزانة الكتانية بفاس. وخزانة مؤسسة علال الفاسي ع 242. طبع بالهند عام 1328.

ـ **بهجة الآفاق وإيضاح اللبس والإغلاق في علم الحروف و الأوفاق**. لمحمد بن محمد الفلاني خ س 4576.

ـ **المنح الحميدة في شرح الفريدة**. لمحمد بن محمد التنبكتي. وهو شرح لألفية السيوطي في النحو. خ ع : ك 1746.

ـ **الفتوح القيومية في شرح الجرومية** لحمد بن اندغ محمد السوداني. يقول عنه القادري في نشر المثاني[7] انه شرح متداول في فاس، مما يدل على تعدد نسخه. ومنه نسخة خ ع د 309. د 2674. د. 2752. خ ص. 2/389. خزانة تمكروت 2538.

ـ **ضياء التأويل في معاني التنزيل**. لعبد الله ابن فودي الفلاني. خ ع ك. 1976. 2041 – خ س 707.

يوجد في الورقة الأولى تعليق بخط الكتاني "وهذا التفسير معتمد عند علماء السودان وشنقيط به يدرسون، أخبرني بذلك الشيخ محمد علي العلوي الشنقيطي وذكر عصرينا العلامة محمد الأمين.. في إفادة الجلاس أن والده كان يعتمده في التفسير ويرجع إليه" (هذا من الإفادات التي تستخرج من مخطوطات المغرب)[8].

ـ **كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن**، له أيضا خ س 6879.

ـ **تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان** لمجهول، خزانة م ع ف : ع 46. نشره هوداس باريس 1966.

ـ **السوداني على المختصر** (نسخ عام 980هـ) خ ع : د 1360.

ـ **نصيحة الصفا في قواعد الخلفا** لأحمد بن محمد الولاتي. كتبه للمولى إسماعيل. مكتبة م علال الفاسي ع 125.

---

(7) الجزء 1 ص. 331

(8) حسن الصادقي، مخطوطات حول فاس وإفريقيا، أعمال ندوة فاس، أكتوبر 1993، ص.17. منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1993.

ـ **تنبيه أهل الطغيان على حرية السودان** لمحمد بن ابراهيم الجارمي السوداني.

خزانة عبد الله كنون طنجة 10443. طبعت بالرباط سنة 1946.

ـ **حوليات ولاته والنعمة**. خزانة مكتبة كلية الآداب الرباط.

ـ **سيوف السعيد المعتقد في أهل الله**. للحاج عمر بن سعيد الفوتي. خ ع : د 2462. د 2135.

ـ **رماح الرحيم**.. له أيضا. خ ع د 1150.

ـ **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**. خ ع ك 2334. له 3 طبعات.

مؤلفات الأسرة الكنتية[9]

تزخر المكتبات المغربية بذخائر مخطوطات هاته الأسرة السودانية التنبكتية وسأكتفي بذكر البعض منها :

ـ **رسائل البكاي التنبكتي إلى أهل فاس و مراكش**. خ ع د 1070 مكرر م ع ف ع 147.

ـ **رسالة البكاي الى احمد أحمد لب وإخوانه الماسينيين** م ع ف 147.

ـ **رسالة البكاي إلى الشيخ عمر**. م ع ف ع 147.

ـ **رسالة إلى أبناء الحاج سعيد وأبناء الأمير احمد لب وعامة الفلان من تنبكت إلى جني**. م ع ف 147.

ـ **رسالة إلى جماعة الإسلام من الفلان** م ع ف 147.

ـ **فتح القدوس في الرد على أكنسوس** خ ع : ك 2455.

ـ **رسالة إلى آهل جني حين المخالفة مع الفلانيين** لمحمد بن المختار. ع 147.

ـ **مساجلات شعرية** بين أحمد البكاي ومحمد بل وعبد القادر. م ع ف: ع 147.

ـ **رسالة شعرية من البكاي إلى أحمد لب** حول بارث. م ع ف : ع 147.

(9) أعددنا دراسة وفهرسا لمخطوطات هاته الأسرة وهو مرقون.

وتكمن أهمية هاته المخطوطات في كونها تسلط الأضواء على العلاقات السياسية والروحية بين أقطاب الرحى في بلاد السودان. وعلى التواصل بين أقطار الضفتين.

وتوجد بمعهد الدراسات الإفريقية بالرباط مجموعة من المخطوطات بعضها مصور مثل زهور البساتين في تاريخ السوادين لموسى كمرا ومنح الرب الغفور. وبعضها أصلي مثل نوازل التكرور وفهرس النوازل لبولعراف وبغية الألف في جواب ابن يركي تلف للبكاي.. الخ.

ومجمل القول إن مخطوطات بلاد السودان تساهم في إغناء الرصيد الكمي والمعرفي للخزائن المغربية العامة والخاصة، وتوجد بنسب تختلف من خزانة إلى أخرى. ويجب البحث مرة أخرى في الخزائن الأسرية المغلقة. والمجاميع الموجودة في المكتبات العامة.

ويمكن رغم ذلك القيام بأعمال الفهرسة الموثقة للمكتبات التي لها لوائح أو أدلة لمخطوطاتها. كما يمكن القيام بفهرسة المجموعات حسب المؤلف، أو حسب المواضيع،أو فهرسة ما يوجد من مخطوطات بلاد السودان في المكتبات المغربية وهو المشروع الذي نشتغل عليه حاليا.

ويجب على دور المخطوطات أن تسهل أمر البحث ولو بتبادل نسخ المخطوطات المصورة،فقد كان أجدادنا يقومون بنسخ الكتب وإهدائها ووقفها، لذا تجدها في كل قطر. وأما نحن ورغم سهولة التصوير فإننا نعقد الأمر ماديا و معنويا ونبخل به ونحب جمعه كتراث تآكله الأرضة أكلا لمّا، أو لنزين به رفوف المكتبات. ونجود به على المؤسسات المدعومة ماديا ومعنويا.

فما أحوجنا للتفكير الجدي في التواصل، ولإيجاد ما يوصل الباحث لمعرفة مخطوطات الخزائن لأن الفهارس هي حكر على المكتبات ولا تصل إلى السوق فلماذا لا نسهل وجودها في مواقع الحاسب أو في أقراص مدمجة. ولم لا مواقع للمخطوطات المصورة و تكون بمقابل مادي في متناول الباحث.

والله ولي التوفيق وبه المستعان.

في ذمة اللّه

التحق بالرفيق الأعلى في الأشهر الأخيرة من السنة الجامعية الحالية 2005-2006 وبداية 2007 بعض زملائنا الأساتذة والموظفين بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وهم المرحومون السادة :

1 – أحمد السطاتي ـ شعبة الفلسفة

2 – عبد الرحمان حلة ـ شعبة اللغة الإنجليزية وآدابها

3 – صلاح الدين العزري ـ شعبة الدراسات الإسلامية

4 – محمد عبدلاوي ـ شعبة اللغة العربية وآدابها

5 – علال الغازي ـ كلية الآداب بالرباط وجامعة سلطنة عُمَّان

6 – مسعود نايت بن موسى ـ كلية الآداب بالرباط

ونقدم في الصفحات التالية نبذات عن حياتهم العلمية والتربوية.

تغمدهم الله بواسع رحمته، آمين.

الأستاذ أحمد السطاتي

2006 – 1935

الرحيـــل :

التحق الأستاذ أحمد السطاتي بالرفيق الأعلى بعد عمر بلغ إحدى وسبعين سنة وبعد فيض من العطاء العلمي، وقد مثل، رحمه الله، خلالها، اتجاهاً ثقافياً رائداً : كان مفكراً ومربياً ومناضلاً، دعا إلى الحفاظ على اللغة العربية مدافعاً عنها، وسعى انطلاقا من درس الفلسفة إلى البحث عن تحقيق مكاسب هذا الدرس ودوره في تحرير الذهنيات وترسيخ قيم التاريخ والحضارة والحوار.

النشأة والدراسة :

ولد الراحل بمدينة سطات سنة 1935 وانتقل إلى الرباط فحصل سنة 1952 على شهادة الدروس الإعدادية بمدارس محمد الخامس بها، وفي فترة الحماية قاده طموحه العلمي فرحل إلى سوريا، فحصل هناك على شهادة الباكلوريا سنة 1955، كما حصل على الإجازة في الفلسفة من كلية الآداب بجامعة دمشق سنة 1959، وبعد عودته إلى المغرب هيأ دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط سنة 1980.

الوظـائـــف :

بعد تخرجه من الجامعة السورية وعودته إلى المغرب، انخرط الأستاذ أحمد السطاتي في عدة وظائف، وهي كما يلي :

– عمل أولاً في وزارة الشؤون الاجتماعية.

– التحق بديوان وزارة الأوقاف مكلفا بمجلة «دعوة الحق».

– عمل مفتشاً لأساتذة الفلسفة بوزارة التعليم عدة سنوات.

- اشتغل أستاذاً محاضراً بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1995.

إسهاماته العلمية :

- في سنة 1971 ألف بالاشتراك مع الأستاذين محمد عابد الجابري ومصطفى العمري كتاب : «**دروس الفلسفة للمدارس الثانوية قسم الباكلوريا**».
- في سنة 1980 أنجز رسالته الجامعية في موضوع «**مفهوم الزمن في الفكر العربي**» برسم دبلوم الدراسات العليا في الآداب.
- ألقى دروساً غنية على طلاب الجامعة كانت تساهم في تطوير البرامج الفلسفية في الوسط الجامعي.
- ترجم للعربية عدة أعمال لفلاسفة معاصرين.

مشاركاته في الشأن الثقافي :

- أسس مجلة «**أقلام**» سنة 1964 بمشاركة الأستاذين عبد الرحمان بن عمرو ومحمد إبراهيم بوعلو.
- عمل عضواً في المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب لعدة سنوات.
- انتخب مرتين رئيساً للجمعية المغربية لقدماء طلبة سوريا بعد تأسيسها سنة 1998.
- حافظ طوال سنوات عديدة على نشر عموده الأسبوعي الشهير «**نقط على الحروف**» في جريدة الاتحاد الاشتراكي.

كان حريصاً على الحضور الأسبوعي كل أربعاء في «منتدى الصقلي» الذي يمتلئ علماً وثقافة وفي حضور زمرة من الأدباء والمفكرين، كان الراحل مشهوراً بحضوره الفكري وبنكته المتميزة حتى صرفه عنه اعتلاله الأخير.

توفي الفقيد مساء الثلاثاء 11 يوليوز 2006، وخلف من كريماته رشا وغادة ومنال. تغمده الله بواسع رحمته.

عمر أفا

الأستاذ عبد الرحمن حلة
2006 - 1948

• للأستاذ عبد الرحمن حلة – رحمه الله – قدم راسخة في امتلاك ناصِيَّة اللغة الإنجليزية، فقد مارس دراستها بجدارة في كل من المغرب وبريطانيا وأمريكا، وإلى جانب هذه الْمَلَكَة فهو متشبع بالروح الوطنية الأصيلة، مما عبّر عنه في كل مرحلة من مراحل حياته يزكّيه ما تميز به من سمو في الأخلاق وتفان في خدمة المصلحة العامة، ويباركه ما بذله من جهد في مهام التدريس ورئاسة شعبة اللغة الإنجليزية، وله تعلق بالثقافية الإسلامية مما يدل عليه قيامه بترجمة أعمال عديدة في التراث الإسلامي.

ولد الأستاذ حلة بضواحي مدينة مراكش بتاريخ 10 يوليوز 1948، قضى قسطاً من حياته الدراسية بمدينة مكناس حيث أنهى مرحلة الدراسة الثانوية بالحصول على شهادة الباكلوريا سنة 1967 في تخصص اللغات.

• التحق بكلية الآداب بالرباط شعبة اللغة الإنجليزية وأمضى فيها ثلاث سنوات وقضى السنة الرابعة بإنجلترا فعمل هناك في الوقت نفسه في تكوينين: أحدهما أستاذ اللغة الفرنسية بثانوية إنجليزية، وثانيهما الالتحاق بالمدرسة العليا للأساتذة هناك، وقد تخرج في كلا التكوينين بنجاح سنة 1971، وقد نال شهادة الإجازة في اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بالرباط في نفس السنة.

إلى جانب هذا التكوين قام برحلات دراسية وبرامج التكوين بأمريكا منها برنامج تكوين بجامعة ببلومينتون بمنحه «فولبرايت» مع طلاب خمسة وعشرين بلداً، ومنها التحاقه هناك بجامعة «أيوا» حيث حضّر دبلوم الماجستير في الآداب الأمريكي سنة 1972.

• بعد هذا التحصيل عاد إلى المغرب وعين أستاذ اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بالرباط سنة 1973 ضمن الأساتذة المغاربة الأوائل في الجامعة المغربية. وقد عمل بجد مع ثلة من زملائه في تغيير مجرى الشعبة من نموذج فرنسي إلى نموذج وطني. وفي غضون ذلك حصل على منحة ثانية لتحضير دكتوراه الدولة بجامعة «ميشكَان ـ أن هربور» بالولايات المتحدة الأمريكية ابتداء من شتنبر 1980، وقضى مدة ثلاث سنوات وهو بصدد إنهاء رسالته، إلا أنه اضطر للرجوع للعمل في الشعبة قبل إنهائها.

• وإلى جانب مهام التدريس تقلد الأستاذ عبد الرحمن حلة مهام رئاسة شعبة الدراسات الأنكَلوسكسونية بالكلية سنة 1989، وبذل غاية الجهد في تسيير شؤونها بجد فأعطى الكثير من وقته، وعين ابتداء من تاريخ 8 أكتوبر 1987 أستاذاً محاضراً رسمياً.

وقد تجدد عزمه فأعاد تسجيل أطروحته لنيل دكتوراه الدولة بتاريخ 1996/12/12 تحت عنوان: **شعر بينتر: قراءة في أعمال بينتر المسرحية** «Pinteresque Poetics : Areading of Pinter's Major Plays» بإشراف الأستاذ عبد اللطيف كريم.

• وفي جانب البحث العلمي كان الأستاذ حلة من الباحثين المغاربة المجدِّين، فإلى جانب التدريس كان يمارس أعمال الترجمة في مناسبات عديدة في المغرب وخارجه وقد ترجم أعمالاً عديدة، منها النصوص الإسلامية، مثل ترجمة «**الوجيز عن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني**» في الفقه المالكي تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، كما ترجم لنفس الوزارة أعمالاً أخرى وبالخصوص الدروس الحسنية الرمضانية لسنوات : 1987 - 1988 - 1989...

توفي الأستاذ حلة بتاريخ 26 يوليوز 2006 تغمده الله بواسع رحمته وأسكنه فسيح جناته.

عبد الحميد لطفي / ويمينة القراط.

الأستاذ صلاح الدين العزري

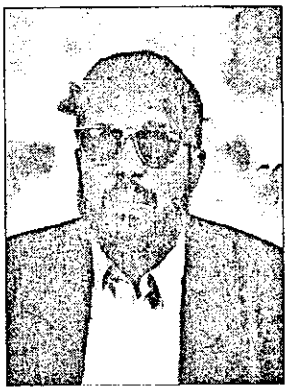

عاش الأستاذ صلاح الدين العزري رحمه الله عصامياً في حياته، وقد أكرمه الله بقوة الإرادة والصبر والعزيمة ونور البصيرة.

النشأة :

ولد بمدينة الرباط سنة 1953م بأحد الأحياء المتواضعة من أسرة متوسطة الحال.

تابع دراسته الابتدائية والثانوية بالمدارس العمومية حتى حصل على شهادة الباكالوريا.

وفي مرحلة شبابه وقعت له حادثة مؤلمة أثرت على حياته، فقد أصيب بمرض في عينيه، اضطر معه إلى إجراء عملية جراحية، غير أن قدر الله تعالى قضى أن تكون تلك العملية سبباً في فقدان بصره.

الدراسة :

عاش ـ رحمه الله ـ بعد ذلك كفيفاً، وأكرمه الله تعالى، فمنحه الإرادة القوية، فواصل دراسته الجامعية حتى حصل على الإجازة في الأدب سنة 1982 بالرباط ثم التحق بدار الحديث الحسنية وحصل على شهادة التخرج فيها، وبعد ذلك التحق بسلك الدراسات العليا في شعبة الدراسات الإسلامية بمكناس، فحصل منها على دبلوم الدراسات العليا، ببحث عنوانه «**منهج الإمام السهيلي في استثماره للسيرة النبوية**» بتاريخ 1989.

التوظيف :

التحق بتاريخ 1989/12/12 بهيئة التدريس بشعبة الدراسات الإسلامية بمدينة الجديدة، وفي أثناء ذلك سجل بحثاً لنيل شهادة

الدكتوراه من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس في موضوع : **فقه المغازي**.

درس بكلية الآداب بالجديدة زهاء ثماني سنوات ثم يسر الله له الانتقال إلى الرباط والتحق بهيئة التدريس بشعبة الدراسات الإسلامية في إطار أستاذ التعليم العالي مساعد 1997/9/16 وفي أثناء استقراره بالرباط إلى جانب قيامه بمهام التدريس كان رحمه الله يمارس نشاط الوعظ والارشاد في بعض مساجد الرباط، واستمر في هذا المنصب إلى أن وافته المنية في العشر الأواخر من رمضان 1427هـ / أكتوبر 2006.

تغمده الله بواسع برحمته.

أحمد أبو زيد

الأستاذ علال الغازي
2007 - 1944

يعتبر الأستاذ علال الغازي من الأساتذة المغاربة اللامعين، تميزت إسهاماته داخل الجامعة المغربية وفي الجامعات العربية، وكان رحمه الله معروفاً بجرأته الفائقة، وبصموده واتزانه، وحُنُوّه وتضحيَّته، وإن تخصصه واهتمامه بالدراسات الأدبية والنقدية، العربية منها والأجنبية قديماً وحديثاً، جعل من فكره «فكراً تكاملياً ناقداً» يتمتع بإشعاع علمي واسع، محلياً ووطنياً وعربياً، وقد مثل بلاده بخصال المفكر المبتَكِر.

النشأة والدراسة :

وُلد الأستاذ علال الصديق الغازي بمنطقة ظهر السوق بإقليم تاونات سنة 1944، وقد حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ اللغة العربية في المدرسة العتيقة ثم انتقل إلى المدرسة العصرية، ومارس فيها الدراسة الابتدائية والثانوية بجدِّيته المعهودة، وانتقل إلى التعليم الجامعي، فواظب بكلية الآداب بفاس حتى نال شهادة الإجازة في اللغة العربية وآدابها ثم نال شهادة الدروس المعمقة، ودبلوم الدراسات العليا، وتوج هذه الشهادات بشهادة دكتوراه الدولة في الأدب العربي، وقد استكمل بحثه العلمي في مجال التحقيق والبحث في قضايا الأدب والنقد.

التوظيف :

- التحق بالتوظيف في فاتح أكتوبر سنة 1969 وتقلد عدة مناصب تربوية وإدارية.

- مارس التعليم بالمدارس الثانوية في الفترة ما بين سنوات 1969 و1972.
- كان عضواً ثم رئيس ديوان وزير الدولة في التعليم العالي بين سنة (1972 و 1977).
- أستاذ جامعي مساعد بكلية الآداب بالرباط (1977 - 1988).
- أستاذ محاضر بكلية الآداب بالرباط، جامعة محمد الخامس (1986 - 1990).
- أستاذ التعليم العالي بنفس الكلية (1990 - 2005).
- أستاذ زائر، بكلية الآداب بتطوان (1986 - 1988).
- أستاذ زائر، بكلية الآداب، جامعة الفاتح، ليبيا (1993 - 1995).
- أستاذ متفرغ، رئيس قسم الدراسات اللغوية بكلية التربية بعبرى، سلطنة عمان (1996 - 1998).
- حاصل على المغادرة الطوعية من الجامعة المغربية 23 دجنبر 2005.
- والتحق بكلية التربية بنزوى بسلطنة عمان حتى وافاه أجله.

الأنشطة التربويّة والعلمية :

1 - **التدريس في سنوات الإجازة** في كل من كليات الآداب بالرباط وتطوان وفي جامعات ليبيا وعمان، وقد درس أغلب المواد في الآداب واللغة العربية (الأدب الحديث والقديم شعراً ونثراً والنحو والبلاغة والعروض والبيان، والأدب المقارن ونظرية الأدب والأجناس الأدبية، والنقد الأدبي).

2 - **الإشراف** على الرسائل والأطروحات الجامعية، وقد تنامى الكم الذي كان يشرف عليه فتجاوز المائة رسالة وأطروحة في أغلب الأحيان، وكانت الطريقة التي يتعامل بها مع الإشراف صارمة في طبيعة الموضوعات التي يخضعها لمشروع أدبي ونقدي هادف على مستوى الإنجاز والمناقشة سواء تعلق الأمر بالتحقيق أو بالموضوعات الأدبية التي تشمل القديم والحديث في مختلف الأجناس الأدبية، وتعدد

الطلبة المغاربة منهم ومن البلدان العربية الأخرى، (أنظر لائحة هذه الأطروحات ضمن كتاب «**دليل الأطروحات والرسائل الجامعية**»، في ستة أجزاء، ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط).

3 ـ **البحث العلمي** في مجال التحقيق وفي قضايا الأدب والنقد في مجال :

أ) العمل الشخصي: فقد حقق كتاب: «**المنزع البديع في تحسين أساليب البديع**» لأبي محمد القاسم السجلماسي، برسم دبلوم الدراسات العليا 1980, ثم كانت أطروحته لنيل دكتوراه الدولة في موضوع : «**مناهج النقد الأدبي في المغرب خلال ق 7، 8هـ**» وقد ختم به قمة نشاطه الجامعي.

ب) أنجز أبحاثاً ومقالات نشرت في مجلات كليات الآداب في الرباط وفاس وتطوان وخارج الكلية وبعض المجلات المتنوعة في البلاد العربية.

جـ) وقد بذل جهوداً كبيرة في تطوير مناهج السلك الثالث في مجالات النقد القديم والحديث ومجالات الأدب المغربي ومناهج البحث والتحقيق.

4 ـ **الأنشطة الموازية** :

أ) المشاركة في الندوات التي تعقد بكثافة في كلية الآداب بالرباط وغيرها من كليات الآداب بالمغرب وفي الجامعات المغربية الأخرى ومختلف التظاهرات العلمية خارج المغرب.

ب) المحاضرات التي يلقيها في مختلف المنابر بدعوة من الجمعيات الثقافية والعلمية والتي تتطلب غالباً تجشم عناء السفر إلى جهات داخل المغرب وخارجه والتي كانت مساهماته فيها مساهمات متميزة ونشر أغلبها في مجلات وجرائد مغربية وعربية في (المغرب وليبيا وسلطنة عمان).

جـ) مساهماته في الأندية الأدبية وخاصة نادي الجراري الذي حافظ على حضوره أسبوعياً كل جمعة، والإدلاء بمساهمته فيه بما ينتجه نثراً وشعرا، وهذا الجانب الأخير الذي لم نطلع عليه إلا بعد وفاته رحمه الله.

د) مساهماته في المقابلات الإذاعية والتلفزية في مجالات مختلفة لتقديم النهج الثقافي الجامعي في الفكر الأدبي وممارساته.

5ـ نموذج من إنتاجه العلمي المنشور :

أ) الكتب :

• **المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع** لأبي محمد القاسم السجلماسي، تحقيق وتقديم، طبع بالمغرب سنة 1980، ونال به جائزة الدولة للكتاب عن السنة المذكورة، أعيد طبعه بلبنان سنة 2005.

• **مناهج الآداب بالرباط 1998**، أعيد طبعه بلبنان سنة 2005.

• **التطور الفكري والاجتماعي في عهد الدولة العلوية**، (منشورات وزارة التعاون الوطني) احتل الرتبة الأولى في مسابقة على مستوى المغرب.

• **النقد الأدبي بالمغرب : قضاياه – أعلامه – مناهجه.** (تحت الطبع).

ب) البحوث والمقالات :

• **المغرب في مواجهة الفكر اليوناني** (ضمن أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية)، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1985.

• **منهجية التحقيق**، ضمن ندوة الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب، منشورات كلية الآداب بالرباط، سنة 1991.

• **نظرية المحلي في التراث النقدي الفلسفي** (مجلة الموقف. الرباط المغرب).

• **دور التراث النقدي العربي في تقدم العلوم** (ضمن أعمال ندوة حول تقدم العلوم، طرابلس ليبيا).

• **الأدب العماني في البحث الجامعي**، دراسة في المنهج الوصفي والتحليلي (تحت الطبع).

• **الأدب العماني من خلال أجناسه الأدبية : مقاربة في النص والمنهج** (تحت الطبع في عمّان).

(أنظر لائحة كاملة عن أعماله ضمن سيرته الذاتية في ملفه الإداري بكلية الآداب بالرباط).

وفـــاتـــــه :

بينما كان الأستاذ علال الغازي يجاهد في هذا الدرب العلمي بلغنا فجأة نبأ وفاته رحمه الله إثر حادثة سير بسلطنة عمان صبيحة يوم الثلاثاء 2 دجنبر 2006، وقد نقل جثمانه إلى المغرب ووري الثرى يوم الخميس 4 دجنبر 2006 بعد أن صلى على جنازته جم غفير من زملائه الأساتذة من كلية الآداب ومن طلبته الذين وفدوا من مختلف مدن المغرب، وأعضاء الوفد الجامعي الذي رافق جثمانه من جامعة مسقط، ومن أصدقائه ومحبيه من مختلف المصالح والمؤسسات، وألقى الأستاذ الدكتور عباس الجراري كلمة تأبينية أشاد فيها بخصال الراحل وبوفائه لبلده في الحضر والسفر.

تغمد الله الفقيد بواسع رحمته وألهم ذويه الصبر والسلوان.

عمـر أفـا

السيد محمد عبدالاوي

2007 - 1947

• ولد المرحوم الأستاذ محمد عبد الاوي بمدينة مراكش، وبعد أن استكمل دراسته الابتدائية والثانوية تابع دراسته بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس حتى نال شهادة الإجازة في اللغة العربية وآدابها بتاريخ 1971/06/30.

• عين أستاذا بالتعليم الثانوي بالمحمدية في 1971/10/1 وحصل بعد ذلك على شهادة استكمال الدروس بكلية الآداب بالرباط بتاريخ 1978/11/14، كما نجح في مباراة سلك المساعدين في 1980/6/16.

• التحق بكلية الآداب بالرباط في 1980/11/14 أستاذاً مساعداً للتعليم العالي بشعبة اللغة العربية وآدابها.

وفي نفس الآن حضر دبلوم الدراسات العليا في الكلية نفسها فحصل عليه بتاريخ 10 يونيو 1985 بدرجة حسن جداً في موضوع تحقيق كتاب : «**تجلي غرر المعاني عن مثل صور الغواني، والتحلّي بالقلائد من جوهر الفوائد**» وهو حماسة الأعلم الشَّنْتَمري، تأليف أبي الحجاج يوسف بن سليمان المتوفى سنة 446 هـ.

• وفي المدة الأخيرة إعْتَلَّت صحَّتُه، رحمه الله، وقد أثبت عدم قدرته على الاستمرار في العمل الدراسي بموجب شهادة المركز الوطني والجامعي لأمراض القلب بمستشفى ابن سيناء في 10 يناير 2005.

• حصل في السنة نفسها على المغادرة الطوعية في 21 غشت 2005.

وقد وافته المنية في شهر يناير سنة 2007 تغمده الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته آمين.

محمد المغراوي

السيد مسعود نايت بن موسى
2007 - 1943

• يعتبر السيد مسعود رحمه الله من الرجال الذين أفنوا حياتهم لخدمة العلم والعلماء والطلبة، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بصفته حَارساً للكلية منذ سنة 1963 وقام بواجبه بوفاء وهمة وتفان وإخلاص لمدة أربعين سنة.

• ازداد السيد مسعود نايت بن موسى بقبيلة تافراوت بسوس يوم 11 دجنبر 1943 عند اندلاع أحداث الحرب العالمية الثانية، وأثناء مسغبة «البون». انتقل في مقتبل العمر إلى مدينة الدار البيضاء بحثا عن العمل ولم ينل من التعليم إلا جزءاً من مستوى الابتدائي، فانخرط في التجارة مساعداً لأحد تجار البقالة، وسرعان ما انتقل إلى حي اليوسفية بمدينة الرباط مساعداً لتاجر آخر، ونظراً لنباهته وأمانته استجاره أحد الأساتذة بمعهد العلوم الاجتماعية وهو الأستاذ عباس لحلو، فجعله واحداً من أبنائه، فتعلم اللغة الفرنسية والسياقة وقدمه للتوظيف برتبة «عون مؤقت» بالمعهد بتاريخ 12 ماي 1963، وكان المعهد المذكور إلى جوار كلية الآداب، وقد انتقل إليها لاحقاً واضطلع بمهمة حارس الكلية، وتمت ترقيته إلى "عون تنفيذ" رسمياً بتاريخ 1972/1/1.

• وخلال الأربعين سنة من عمله بالكلية قدم للأساتذة والطلاب والوافدين، خدماتٍ جُلّى، فلم يكن حارساً للكلية فقط، بل كان الرجل القوي الأمين لخدمة العلم والعلماء، قل نظيره في التفاني وتحمُّل المسؤولية ليلاً ونهاراً مع اليقظة في فترات التسجيل والحرص عند إعلان نتائج الامتحانات، وتهييء ظروف مناقشة الرسائل والأطروحات الجامعية.

وكان وفيّاً لخدمة تسعة من العمداء ممن تولوا مسؤولية هذه الكلية تباعاً، بالإضافة إلى ما يقدمه من عون للطلبة على اختلاف مشاربهم.

وعلى الرغم من كونه أُحيل على التقاعد منذ سنة 2002، فقد ظل وفياً لخدمة الكلية متطوعاً إلى جانب زوجته مساعداً لها أو نائبا عنها وهي في وظيفة عون، يمارس نفس المهام بكامل الوفاء.

ولقد وافته المنية يوم الثلاثاء 6 فبراير 2007، وأكرمه الله إذ هبت الأسرة الجامعية في كلية الآداب بالرباط تعزي في وفاته، وَشُيِّعت جنازته في اليوم الموالي في موكب رهيب قاده السيد عميد الكلية الدكتور محمد بريان والسادة العمداء السابقون، ورؤساء جامعات سابقون، وجمع غفير من الأساتذة والإداريين والطلبة ومحبيه.

وبهذه المناسبة الأليمة تتقدم الأسرة الجامعية أساتذة وإداريون وطلبة بمواساتهم وتعازيهم لأسرته وأبنائه محمد وعائشة وعبد الله وبشرى سائلين الله أن يتغمد الفقيد بواسع رحمته ويسكنه فسيح جناته. إنه سميع مجيب.

عمر أفا

كلمة شكر

تشكر هيئة التحرير السادة الأساتذة الذين ساهموا في مراجعة مواد هذا العدد وهم :

1 – محمد بلبول
2 – عبد العزيز بلفايدة
3 – التباري بوعسلة
4 – محمد السيدي
5 – حسن حفيظي علوي
6 – محمد فتحة
7 – المختار الهراس